نوادر الخلفاء

المسمى

إعلام الناس

بما وقع للبرامكة مع بني العباس

تأليف

العالم الأديب محمد بن دياب الإتليدي

تحقيق

[illegible]



نوادر الخلفاء

المسمّى

إعلام الناس

بما وقع للبرامكة مع بني العبّاس

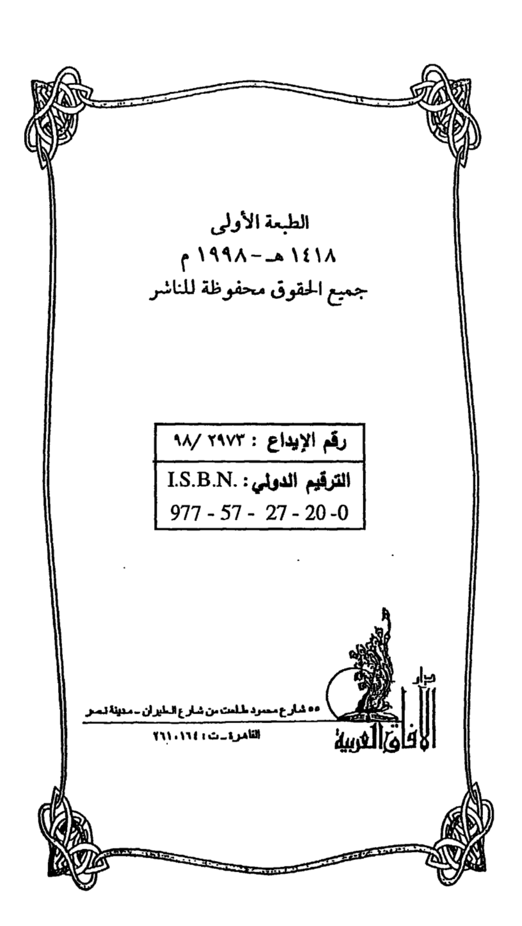
تأليف

العالم الأديب محمد بن دياب الإتليدي

تحقيق

أيمن عبد الجابر البحيري





الطبعة الأولى

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

رقم الإيداع : ٢٩٧٣ /٩٨
الترقيم الدولي : .I.S.B.N 977 - 57 - 27 - 20 -0

دار الآفاق العربية

٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران - مدينة نصر

القاهرة - ت : ٢٦١٠١٦٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمدٍ سيد المرسلين وإمام المتقين ، وعلى آله وصحبه وسلم .

أما بعد ، فإن التاريخ من المعارف التى تعشقها النفس ، وتميل إلى معرفتها ، ولاسيما أخبار القصور وما يدور بين جدرانها ، وما يحدث لأصحابها . والإنسان بطبعه شغوف لمعرفة ما حدث وكيف حدث ! . والناس بحسب إعمال العقل والفكر يتفاوتون فى فهم النقول والأخبار .

وإن إسلامنا حثنا على أن ننظر ونعى ما حدث للسابقين من الأمم الغابرة ، والقرآن الكريم به الكثير من القَصَص الشريف الذى يصرّنا بأحوال السابقين وكيف كانت عاقبتهم فقال تعالى ﴿**قل سيروا فى الأرض فانظروا** ...﴾ فطلب منا سبحانه وتعالى النظر والتبصر فى أمرهم . وأيضا سنة الرسول الكريم ﷺ فكثيرا ما يحدث بقوله صلى الله عليه وسلم : «كان فيما قبلكم....» لنأخذ منها الحكمة والعظة ونعى الدرس . لذلك دَوّن الناس فى تاريخ الأمم والدول ممن كانوا قبلهم ، وجمعوا من هنا وهناك وأودعوها فى صحفهم وسطروها فى كتبهم . وكان الرعيل الأول منهم حريصاً على تحرى الصدق فى النقل والحذر عند نقل الخبر ، وتجنب الهوى وميل النفس إلى غير الحق ، ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا ما حَدّه الأولون ووسمه السابقون ، واتبعوا زخارف الروايات ، وأتوا بالغرائب والعجائب ، وبما يرضى عنه الساسة وذوو الملك ؛ وأثبتوها وكأنها من الحقائق ، دون نظر ثاقب وبحث ناقد . فعجت كتب التاريخ بالأوهام والأغلاط ، وتناقلها الناس جيلا بعد جيل . ولكن لله سبحانه وتعالى فى خلقه أمور ، فقيد سبحانه وتعالى للتاريخ علماءً اتقوا الله فى أمر

أمتهم وعلموا أن التاريخ هو ميراث الأمم والدول يؤخذ منه لعبور الزمن . وهم على قلتهم فى أنفسهم أمم .

وتفرع العلماء فى التاريخ واختلفت مناهج التدوين ، ولكن من إمعان النظر نرى أن المدونين قد شغلهم أمر الخلفاء والملوك ومن حولهم ، وتناقلوا أخبارهم لميل النفس إلى ذلك وحباً فى معرفة أحوالهم وما يدور فى غرفهم، أو لأخذ العظة ولربما للإقتداء بهم فى أمور دنياهم .

وكتاب [**إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس**] من الكتب التى اهتمت بنقل أخبار الخلفاء وما يدور فى قصورهم ، وأحاديث سمرهم، وما يحدث بينهم وبين ندمائهم وإمائهم وعبيدهم .

فإن مؤلفه محمد بن دياب الإتليدى رحمه الله تناول مقتطفات من بعض تاريخ الخلفاء ، بحسب كل عصر ؛ فبدأ بأخبار عمر الفاروق ، ثم استرسل فى خلفاء الدولة الأموية و العباسية ، وختم كتابه ببعض المستظرفات وقصائد الشعر ومستحسنات النكت .

والشيخ الإتليدى انتقى لنا من بطون الكتب ما تطيب به النفس وتأنس، وما يجعل الخيال يجمح مع مقتطفات الكتاب ونوادره قاصدا بذلك الحكمة و الموعظة والعبرة ، وتسلية النفس وأخذها ولو لبعض الوقت بعيدا عن مكابدة الحياة ، وبالكتاب أيضا من اللطائف والأشعار الجميلة التى ترنو لها النفس وتنشرح بها ، استقاها الشيخ من كتب نهج ضربَها وسار على نفس النسق الذى سار عليه أصحابها . فمن هذه الكتب: ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ، وحياة الحيوان للدميرى وهو العمدة عنده ،وحلبة الكميت للنوجى شمس الدين ، وكتاب ثمار القلوب للثعالبى،

وسكردان السلطان لابن أبى حجلة التلمسانى . ولكن الإتليدى باينهم عندما وضع كتابه تأريخا للخلفاء وجعل تاريخهم نقطة البدء والنهاية.

والكتاب بما يحويه بين دفتيه قد يخالف عنوانه ، وذلك لأن فتنة البرامكة مع الرشيد لم تتجاوز فى الكتاب الخمسة عشرة صفحة ، ولكن ربما يرجع ذلك لعظم هذه الفتنة وما نسج حولها من حكايات وما نقل فيها من القِصص ، ولأن المؤلف قد أسرد لخلفاء الدولة العباسية وأسهب فى ذكر حكاياتهم ،وبخاصة علامتهم؛هارون الرشيد الذى وقعت معه الفتنة ولعل هذا هو السبب فى تسمية المؤلف للكتاب بهذا الاسم ، والله أعلم .

* عملنا فى هذا الكتاب

اعتمدنا فى التحقيق على نسخة خطية من دار الكتب المصرية ، رقم (٥٣٣٤) أدب . وكان عملنا الآتى :

١- ضبط النص وتفقيره حتى يسهل مراجعته مع الفهارس .
٢- عزو الآيات والأشعار وتخريج الأحاديث ما أمكن.
٣- عزو الأخبار والقصص إلى مصادرها ما أمكن .
٤- تراجم الأعلام ، الفهارس اللازمة للكتاب .

وختاما نسأل الله أن نكون قد وفقنا فى هذا العمل ؛ ولايسعنا إلا أن نشكر كل من ساعدنا وحثنا على إتمامه وبخاصة زوجتى بارك الله لها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

المحقق

ترجمة المؤلف(١)

لم نعثر على ترجمة وافية للمؤلف -رحمه الله تعالى- في كتب التراجم، وما وجدنا إلا القليل من السطور في بعضها .

فهو العالم ، الأديب ، المؤرخ ، محمد بن دياب الإتليدى . سكن إقليم المنية الخصيبية من أعمال صعيد مصر . ولم يذكر له سنة الميلاد أو الوفاة ؛ غير أنه فرغ من تأليف الكتاب سنة [١١٠٠هـ] .كذلك جاء في آخر النسخة الخطية لدار الكتب المصرية .

وقد نقل الإتليدى في كتابه هذا عن عبد الحق المتوفى سنة [١٠٥١هـ] انظر : الفقرة (٦٠) ، وأيضاً نقل في الفقرة (٢٢٨) عن العلقمي شارح الجامع الصغير للسيوطي ، والعلقمي هذا ينقل عنه العلامة العزيزي كثيراً في شرح الجامع وقد توفي العزيزي سنة [١٠٧٠هـ] ، مما يؤيد صحة التاريخ المذكور وأنه تاريخ الفراغ من التأليف لا النسخ والله أعلى وأعلم .

(١) انظر : فهرس الخديوية (١١/٥) ، إيضاح المكنون (١٠٤/١) ، تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان (٢٨٣/٣)



صفحة غلاف المخطوط



بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر
الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب المبين
على اشرف الانبيا والمرسلين وقص عليه اخبار
المتقدمين والمتاخرين واعلمه بما كان وما
يكون الى يوم الدين واشهد ان لا اله الا الله وحده
لا شريك له اذ من علينا بمعرفة احوال من تقدم من
الامم ولم يكشف عنا ستره اذا زل بنا القدم وجعلنا
امة عدولا وسطا تشهد لنا بذلك في الكتاب المعظم
المكرم فقال تعالى كنتم خير امة اخرجت للناس
تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر فظهر الفضل
وما جاد به وتكرم واشهد ان سيدنا ونبينا محمدا
صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله الذي قال ادبني
ربي فاحسن تاديبي فساد على جميع الانبيا وعلمهم
تقدم وبعد فيقول العبد الفقير الضعيف ذو
العجز والتقصير والتخليط في [illegible] محمد [illegible]
الاندلسي من اقليم المنية الحصينة [illegible]

الصفحة الأولى من المخطوطة

الاخوان الموفقين ممن لا يستغني عن [illegible]
شيا مما وقع في زمن الخلفا المتقدمين من بني امية
والخلفا العباسيين فاجبته الى ذلك مع علمي اني
لست اهلا لذلك فقد قالوا في الامثال المشهورة [illegible]
الحسب الامتثال خير من الادب وسميته اعلام
الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس وابتدات
في ذلك بما وقع لامير المومنين عمر بن الخطاب رضي الله
عنه تبركا بذكره والله اعلم فيه لما رجع عمر بن الخطا
رضي الله عنه من الشام الى المدينة انفرد عن الناس
ليتعرف اخبار رعيته فمر بعجوز في خباء لها فقصدها
فقالت ما فعل عمر قال قد اقبل من الشام سالما فقالت
لا جزاه الله عني خيرا قال ولم قالت لانه ما نالني من
من عطاياه منذ ولي امر المسلمين دينارا ولا درهما
فقال وما يدري عمر بحالك وانت في هذا الموضع
فقالت سبحان الله والله ما ظننت ان احدا يلي على الناس
ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها فبكى عمر رضي الله
عنه وقال واعمراه كل احد افقه منك حتى العجائز
يا عمر ثم قال لها يا امة الله بكم تبيعني ظلامتك من عمر
فاني ارحمه من النار فقالت لا تهزا بنا يرحمك الله
فقال عمر لست اهزا فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة
وعشرين دينارا فبينما هي كذلك اذ اقبل علي بن ابي
طالب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود فقالا
السلام عليك يا امير المومنين فوضعت العجوز يدها
على راسها وقالت واسواتاه شتمت امير المومنين
في وجهه فقال لها عمر رضي الله عنه لا باس عليك يرحمك

الصفحة الثانية من المخطوطة

وقطع رأسه وقال لأبي البنت إن ابنتك قد ورثت
زوجها وقد ملكتك بما بقي من صداقها ومن تركته
فامضوا مع السلامة فانصرفوا شاكرين وداعين له
على فعاله فانظر إلى هذا العدل العظيم والله يهدي من
يشاء إلى صراط مستقيم و... من دول بعضهم
توفي رحمه الله لتسع من الورى فصحبتهم نقضي إلى البوس
وهم أحولها أعرج ثم أحدب كذا كوسج يتلوا ثنا طامع البدن
وبال والأنف الطويل وأصفر فانها بينه للنباته وأخضر
كذا غائر الصدغين نتاج جبهة كذا أزرق العينين فالحذر الحذر
ثم قال ... سعيد من الرد ... بعدهم يا ذا الرياسة ...
مناظرة بين إبليس اللعين وبين الملائكة المقربين
بعد الأمر بالسجود والامتناع منه بمحض العناد والجحود
قال كما نقل عنه فيما ذكر أنه قال للملائكة إن الباري تعالى إلهي وإله
الخلق قادر عالم إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون إلا أن يتوجه على
مساق حكمه أسئلة فقالت الملائكة ما هي قال سبع الأول قد علم
قبل خلقي ما يصدر عني ويحصل مني فلم خلقني وما الحكمة في
خلقه إياي الثاني أنه خلقني على مقتضى مشيئته وإرادته
فلم كلفني بمعرفته وطاعته وهو أن لا ينتفع بطاعة ولا ينضر
بمعصية فإنه الغني القادر على الإطلاق الثالث أنه خلقني وكلفني
فالتزمت تكليفه وأطعته فلم أمرني بالسجود لآدم وأنا خير
منه لأني من نار السموم وهو أعلى منزلة من الطين الرابع إنه
خلقني وأمرني بالسجود فالتزمت تكاليفه فلم قضى علي
بالشقا وحكم علي بالبقا الخامس قد أمرني بالسجود لآدم
وهو مخلوق مثلي فخرج من الجنة كما خرجت فاستنكفت
أن أسجد لمن هو مثلي السادس لم ... من أزقة السما وجها

الصفحة قبل الأخيرة من المخطوطة

فعل الاولي فيه ركعات وسجدات بتشهد بها
السابعه كيف يامرني بالسجود لبشر خلقه
وانا افضل منه لانه خلقني من نار السموم
وهي انفع واشرف من الطين لكثرة نفعها
اوذلك جروفه والله اعلم فسجدن من
حكم بالشقا علي من بينا من
عبادة والله يهدينا
بنا الي صراط
مستقيم
والحمد لله
رب
العالمين
كمل الكتاب تكاملت بجهل السرور لصاحبه
وعفي الاله بفضله وبجوده عن كاتبه

الصفحة الأخيرة من المخطوط

الصفحة الأخيرة من المخطوط



مقدمة

الحمد لله الذى أنزل الكتاب المبين على أشرف الأنبياء والمرسلين ، وقص عليه أخبار المتقدمين والمتأخرين وعلمه ما كان وما يكون إلى يوم الدين ، نحمده إذ جعلنا من أمته ونشكره على عطائه ومنته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إذ من علينا بمعرفة أحوال من مضى من الأمم ولم يكشف عنا ستره إذا زلت بنا القدم وجعلنا أمة عدولا وسطا وشهد لنا بذلك فى الكتاب المعظم المكرم فقال تعالى﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر**﴾ [آل عمران : ١١٠] فظهر الفضل بما جاد وتكرم ، ونشهد أن سيدنا ونبينا محمد عبده ورسوله الذى قال: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى». فساد على جميع الأنبياء وعليهم تقدم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وبعد .

فيقول العبد الفقير الضعيف ، ذو العجز والتفريط فى أيامه ، وكثير التخليط وزيادة آثامه ، محمد ، يعرف بدياب الإتليدى من إقليم المنية الخصيبية : سألنى بعض الإخوان الموفقين ممن لا يسعنى مخالفته أن أجمع له شيئاً مما وقع فى زمن الخلفاء المتقدمين من بنى أمية والخلفاء العباسيين، فأجبته لذلك مع علمى أنى لست أهلا لذلك ، فقد قالوا : الامتثال خير من الأدب ، وسميته [**إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس**] وابتدأت فى ذلك بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبركاً به وبذكره .

الباب الأول

أخبار من عصر الراشدين

١- فصل

ذكر بعض أخبار عمر رضي الله عنه

[١] **قيل** : لما رجع عمر رضي الله عنه من الشام إلى المدينة ، انفرد عن الناس ليتعرف أخبار رعيته ، فمر بعجوز فى خباء[١] لها فقصدها فقالت: ما فعل عمر رضي الله عنه ، قال: قد أقبل من الشام سالماً فقالت: ياهذا لا جزاه الله خيراً عنى ، قال:ولما قالت: لأنه ما أنالنى من عطائه منذ ولى أمر المسلمين ديناراً ولا درهماً ، فقال: وما يدرى عمر بحالك وأنت فى هذا الموضع ؟ فقالت: سبحان الله ، والله ما ظننت أن أحداً يلى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها ، فبكى عمر رضي الله عنه ، فقال : وا عمراه كل أحد أفقه منك حتى العجائز ياعمر ، ثم قال: لها ياأمة الله بكم تبيعينى ظلامتك من عمر فإنى أرحمه من النار ، فقالت : لا تهزأ بنا يرحمك الله فقال عمر : لست أهزأ بك ولم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا فبينما هو كذلك ، إذ أقبل على بن أبى طالب رضي الله عنه وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهما فقالا: السلام عليك ياأمير المؤمنين فوضعت العجوز يدها على رأسها، وقالت : وا سوأتاه شتمت أمير المؤمنين فى وجهه ، فقال لها عمر رضي الله عنه : لا بأس عليك يرحمك الله ، ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد ، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها :"بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى الخلافة إلى يوم كذا ، بخمسة وعشرين ديناراً ؛ فما تدعى عليه عند وقوفه فى المحشر بين يدى

---

(١) خِبَاء : مايعمل من وبر أو صوف أو شعر للسكن .

الله تعالى ، فعمر برىء منه ، شهد على ذلك : علىّ وابن مسعود" . ثم دفعها إلى ولده ، وقال له: إذا أنا مت فاجعلها فى كفنى ألقى بها ربى.[1]

[٢] **وقال شرف الدين حسين بن ريان** : أغرب ما سمعته من الأخبار، وأعجب ما نقلته عن الأخيار ممن كان يحضر مجلس عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ويسمع كلامه ، قال : بينما الإمام جالس فى بعض الأيام وعنده أكابر الصحابة وأهل الرأى والإصابة ؛ وهو يقول فى القضايا ويحكم بين الرعايا ، إذ أقبل شاب نظيف الأثواب يكتنفه[2] شابان من أحسن الشبان نظيفا الثياب ، قد جذباه وسحباه وأوقفاه بين يدى أمير المؤمنين ، ولبباه[3].

فلما وقفوا بين يده نظر إليهما وإليه ، فأمرهما بالكف عنه فأدنياه منه، وقالا: ياأمير المؤمنين نحن أخوان شقيقان جديران باتباع الحق حقيقان ، كان لنا أب شيخ كبير حسن التدبير ، معظم فى قبائله ، منزه عن الرذائل ، معروف بفضائله ، ربانا صغاراً وأعزنا كباراً وأولانا نعما غزاراً كما قيل :

لنا والد لو كان للناس مثله   أب آخر أغناهمو بالمناقب

خرج اليوم إلى حديقة له يتنزه فى أشجارها ، ويقطف يانع ثمارها ، فقتله هذا الشاب وعدل عن طريق الصواب ، ونسألك القصاص بما جناه ، والحكم فيه بما أراك الله .

---

(١) انظر : حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، حرف الهمزة (١/٧٨) .

(٢) يكتنفه : يحيطوا به .

(٣) لبباه : ألزماه مكانه .

قال الـراوى : فنظـر عمـر إلـى الشـاب وقـال لـه : قـد سـمعت فمـا الجواب؟ والغلام مع ذلك ثابت الجـأش خـالٍ مـن الاسـتيحاش[1] قـد خلـع ثياب الهلع ونزع جلباب الجزع، فتبسم عن مثل الجمان[2] وتكلـم بـأفصح لسان وحياه بكلـمات حسان ، ثم قال : ياأمير المؤمنين والله لقد وعيـا مـا ادعيا ، وصدقا فيما نطقا ، وخبرا بما جرى وعبرا بما ترى، وسأنهى قصتى بين يديك والأمر فيها إليك ، اعلم ياأمير المؤمنيـن أنـى مـن العـرب العربـاء أبيت فى منازل البادية وأصبح على أسود السنين العادية فـأقبلت إلـى ظـاهر هذا البلد بالأهل والمال والولد ، فأفضت بى بعض طرائقها إلى المسير بيـن حدائقها بنياق[3]حبيبات إلىّ عزيـزات علـىّ ، بينهـن فحـل كريـم الأصـل ، كثير النسل، مليح الشكل، حسن النتاج ، يمشى بينهن كأنه ملك عليه تاج، فدنـت بعـض النـوق إلـى حديقـة قـد ظهـر مـن الحـائط شـجرها فتناولتـه بمشفرها، فطردتهـا عـن تلـك الحديقـة ، فـإذا شيخ قـد زمجـر[4] وزفـر[5] وتسور الحائط[6] وظهر وفى يدهِ اليمنى حجـر يتهـادى كـالليث إذا خطـر، فضرب الفحل بذلك الحجر فقتله ، وأصاب مقتله . فلما رأيـت الفحـل قـد سقط لجنبه انقلب توقدت فىّ جمرات الغضب ، فتناولت ذلك الحجر بعينه فضربته به ، فكان سبب حينه ولقى سوء منقلبه ، والمرء مقتول بما قتل به،

---

(١) خال من الاستيحاش : غير مكترث لأى أمر .

(٢) الجُمَان : اللؤلؤ .

(٣) نِيَاق ، جمع ناقة : الأنثى من الإبل ، سميت بذلك لارتفاع خلقها .

(٤) زَمْجَر : أكثر الصياح والصخب .

(٥) زَفَر : أخرج نفسه مع مَدِّهِ إياه .

(٦) تَسَوَّر الحائط : صعد عليه .

بعد أن صاح صيحة عظيمة وصرخ صرخة أليمة ، فأسرعت من مكانى فلم يكن بأسرع من هذين الشابين فأمسكانى وأحضرانى كما ترانى ، فقال عمر : قد اعترفت بما اقترفت، وتعذر الخلاص ، ووجب القصاص ، ولات حين مناص .

فقال الشاب : سمعاً لما حكم به الإمام ، ورضيت بما اقتضته شريعة الإسلام ، لكن لى أخ صغير كان له أب كبير خصه قبل وفاته بمال جزيل ، وذهب جليل، وأحضره بين يدى وأسلم أمره إلىّ ، وأشهد الله علىّ ، وقال: هذا لأخيك عندك فاحفظه جهدك ، فاتخذت لذلك مدمناً[1] ووضعته فيه ، ولا يعلم به إلا أنا ، فإن حكمت الآن بقتلى ذهب الذهب ، وكنت أنت السبب وطالبك الصغير بحقه يوم يقضى الله بين خلقه ، وإن أنظرتنى ثلاثة أيام ، أقمت من يتولى أمر الغلام ، وعدت وافياً بالزمام ، ولى من يضمننى على هذا الكلام . فأطرق عمر ثم نظر إلى من حضر وقال : من يقوم على ضمانه والعود إلى مكانه ؟ قال : فنظر الغلام إلى وجوه أهل المجلس الناظرين، وأشار إلى أبى ذر دون الحاضرين ، وقال : هذا يكفلنى ويضمننى. قال عمر: يا أبا ذر تضمنه على هذا الكلام ؟ قال : نعم أضمنه إلى ثلاثة أيام . فرضى الشابان بضمانة أبى ذر ، وأنظراه ذلك القدر.

فلما انقضت مدة الإمهال ، وكاد وقتها يزول أو قد زال ، حضر الشابان إلى مجلس عمر والصحابة حوله كالنجوم حول القمر، وأبو ذر قد حضر والخصم ينتظر، فقال : أين الغريم[2] يا أبا ذر كيف يرجع من فر ، لا

---

(١) مدمنا : دار قديمة .

(٢) الغريم : الخصم .

تبرح من مكاننا حتى تفى بضماننا ؟ فقال أبو ذر : وحق الملك العلام إن انقضى تمام الأيام ولم يحضر الغلام وفيت بالضمان وأسلمت نفسى وبالله المستعان . فقال عمر : والله إن تأخر الغلام لأمضين فى أبى ذر ما اقتضته شريعة الإسلام . فهمت عبرات[1] الناظرين إليه ، وعلت زفرات الحاضرين عليه ، وعظم الضجيج وتزايد النشيج[2] ، فعرض كبار الصحابة على الشابين أخذ الدية واغتنام الأثنية[3] ، فأصرا على عدم القبول ، وأبيا إلا الأخذ بثأر المقتول ، فبينما الناس يموجون تلهفاً لما مر، ويضجون تأسفاً على أبى ذر، إذ أقبل الغلام ووقف بين يدى الإمام ، وسلم عليه أتم السلام ، ووجهه يتهلل مشرقاً، ويتكلل عرقاً[4] ، وقال : قد أسلمت الصبى إلى أخواله، وعرفتهم بخفى أحواله ، وأطلعتهم على مكان ماله ، ثم اقتحمت هاجرات[5] الحر ، ووفيت وفاء الحر، فعجب الناس من صدقه ، ووفائه وإقدامه على الموت واجترائه ، فقال : من غدر لم يعف عنه من قدر ، ومن وفى رحمه الطالب وعفا ، وتحققت أن الموت إذا حضر لم ينج منه احتراس ؛ كيلا يقال: ذهب الوفاء من الناس .

فقال أبو ذر : والله ياأمير المؤمنين لقد ضمنت هذا الغلام ، ولم أعرفه من أى قوم ، ولا رأيته قبل ذلك اليوم ؛ ولكن نظر إلى دون من

---

(١) عَبَرَات : دموع .

(٢) النشيج : الصوت .

(٣) الأَثْنِيَة ، مفردها الثناء : المدح .

(٤) يتكلل عرقاً : شدة العرق .

(٥) هَاجِرَات : نصف النهار فى القيظ أو عند زوال الشمس إلى العصر .

حضر فقصدني ، وقال : هذا يضمنني ، فلم أستحسن رده وأبت المروءة أن تخيب قصده إذ ليس في إجابة القاصد من بأس ؛ كيلا يقال : ذهب الفضل من الناس ، فقال الشابان عند ذلك: ياأمير المؤمنين قد وهبنا هذا الغلام دم أبينا ، فبدل وحشته بإيناس ؛ كيلا يقال : ذهب المعروف من الناس . فاستبشر الإمام بالعفو عن الغلام ، وصدقه ووفائه ، واستغزر مروءة أبي ذر دون جلسائه ، واستحسن اعتماد الشابين في اصطناع المعروف ، وأثنى عليهما أحسن ثنائه وتمثل بهذا البيت :

من يصنع الخير لم يعدم جوائزه   لا يذهب العرف بين الله والناس

ثم عرض عليهما أن يصرف من بيت المال دية أبيهما ، فقالا : إنما عفونا ابتغاء وجه ربنا الكريم ، ومن نيته هكذا لا يتبع إحسانه منا ولا أذى.

قال الراوي : فأثبتها في ديوان الغرائب وسطرتها في عنوان العجائب، انتهى .

[٣] و[قيل](١) : أحضر الهرمزان(٢) بين يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ مأسوراً فدعاه إلى الإسلام فأبى ، فأمر بضرب عنقه ، فقال : ياأمير المؤمنين قبل أن تقتلني اسقني شربة من الماء ولا تقتلني ظمآن ، فأمر له عمر بقدح مملوء ماء. فلما صار القدح في يد الهرمزان قال : أنا آمن

---

(١) انظر : عيون الأخبار ، لابن قتيبة (٢٩٣/١) والعقد الفريد لابن عبد ربه (١٢٥/١) .

(٢) الهرمزان : من دهاقنة الأهواز ، وقد أسلم وعاش بالمدينة ، وكان من المقربين لعمر بن الخطاب . وقد اتهم بالمشاركة في قتل عمر بن الخطاب ، فقتله عبيد الله بن عمر في الليلة التي مات فيها أبوه . انظر : كتاب الخراج ليحيى بن آدم القرشي ص ٦٠ .

حتى أشربه ؟ قال : نعم لك الأمان حتى تشربه ، فألقى الهرمزان الإناء من يده فأراقه ، ثم قال : الوفاء ياأمير المؤمنين، فقال عمر رضي الله عنه : دعوه حتى أنظر في أمره . فلما رفع السيف عنه قال: أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقال عمر رضي الله عنه : لقد أسلمت خير الإسلام ، فما أخرك؟ قال : خشيت أن يقال : إنى أسلمت خوفاً من السيف ، فقال عمر: إنك لفارس حكيم استحقيت ما كنت فيه من الملك ، ثم أن عمر رضي الله عنه بعد ذلك كان يشاوره فى إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه انتهى . وسيأتى نظير ذلك فى أخذ الأمان بالحيلة .

[٤] ومما ذكر عبد الملك بن بدرون شارح قصيدة عبد المجيد ابن عبدون(١): عما وقع لجبلة بن الأيهم(٢)حين لطم الفزارى على وجهه لما داس على ردائه وقال له عمر رضي الله عنه : يقتص منك أو ما هذا معناه ، فقال لعمر : وهل أستوى أنا وهو فى ذلك ؟ فقال له : نعم الإسلام ساوى بينكما ، فقال: أجلنى إلى غد ، فلما أصبح مضى إلى قيصر ملك الروم وارتد ، ثم ندم وقال أبياتاً وهى هذه :

تنصرت الأشراف من أجل لطمة … وما كان فيها لو صبرت لها ضرر
تكنفنى منها لجاج ونخوة … فبعت بها العين الصحيحة بالعور(٣)

---

(١) انظر : تاريخ ابن خلدون (٢٨١/٢) .

(٢) جبلة بن الأيهم بن جبلة الغسانى : أخر ملوك الغساسنة فى بادية الشام . قاتل المسلمين فى دومة الجندل(١٢هـ)وأسلم بعد وقعة اليرموك(١٥هـ)وهاجر إلى المدينة ثم ارتد وخرج إلى بلاد الروم وتنصر ، ومات على كفره ،ت[٢٠هـ= ٦٤١م] .

(٣) لِجَاج : التمادى فى العناد .

فيا ليت أمى لم تلدنى وليتنى رجعت إلى الأمر الذى قاله عمر
ويا ليتنى أرعى المخاض بقفرة وكنت أسيراً فى ربيعة أو مضر
ويا ليت لى بالشام أدنى معيشة أجالس قومى ذاهب السمع والبصر

ولما تنصر جبلة بن الأيهم ولحق بهرقل صاحب القسطنطينية ، أقطعه هرقل الأموال والضياع وبقى ما شاء الله . ثم إن عمر رضي الله عنه بعث إلى قيصر رسولاً[1] يدعوه إلى الإسلام أو إلى الجزية ، فلما أراد الانصراف قال هرقل للرسول : ألقيت ابن عمك هذا الذى عندنا ، يعنى جبلة الذى أتانا راغباً فى ديننا، قال : لا ، قال : فالقه ثم إئتنى أعطك جواب كتابك .

قال الرسول : فذهب إلى دار جبلة ، فإذا عليه من القهارمة[2] والحجاب والبهجة وكثرة الجمع مثل ما على باب هرقل ، قال : فلم أزل أتلطف بالإذن حتى أذن لى ، فدخلت عليه فرأيته أصهب اللحية[3] ذا سبال[4] ، وكان عهدى به أسود اللحية والرأس فأنكرته ، فإذا هو قد دعا بسحالة الذهب[5] فذرها على لحيته حتى أصهب ، وهو قاعد على سرير من قوارير على قوائمه أربعة أسود من ذهب.

فلما عرفنى رفعنى معه على السرير ، فجعل يسألنى عن المسلمين ، فذكرت له خيراً وقلت : قد أضعفوا أضعافاً على ما تعرف ، فقال : وكيف

---

(١) الرسول الذى بعثه عمر بن الخطاب ، هو : جثامة بن مساحق الكنانى .

(٢) القهارمة : الوكلاء ، أو أمناء الداخل والخارج .

(٣) أصهب اللحية : بها حمرة .

(٤) السبال : ماعلى الشارب من الشعر .

(٥) سحالة الذهب : بُرادة الذهب .

تركت عمر بن الخطاب ؟ فقلت : بخير . قال : فرأيت الغم في وجهه لما ذكرت من سلامة عمر ، ثم انحدرت على السرير، فقال : لم تأبى الكرامة التى أكرمناك بها ؟ فقلت : إن رسول الله ﷺ نهى عن هذا ، فقال : نعم نهى صلى الله عليه وسلم ؛ ولكن نق قلبك ولا تبال على ما قعدت .

فلما سمعته يقول : صلى الله عليه وسلم ؛ طمعت فيه، فقلت له: ويحك يا جبلة ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله ! فقال : أبعد ما كان منى، قلت : نعم قد فعل رجل من فزارة أكثر مما فعلت : ارتد عن الإسلام، وضرب وجوه المسلمين بالسيف ، ثم رجع إلى الإسلام ؛ وقبل منه ، وخلفته بالمدينة مسلماً، وإنما ذكرت له أن الذى فعل هذه الفعلة من فزارة وأنه ضرب وجوه المسلمين بالسيف وارتد ورجع إلى الإسلام ؛ لأن الرجل الذى كان تنصر جبلة من أجله لما لطمه وأراد عمر أن يقتص منه كان فزارياً أيضاً، فقلت له: أمرك أخف من أمره إن رجعت إلى الإسلام ، فإنك لم تضرب وجوه المسلمين بالسيف كما فعل ، فقال : زدنى من هذا؛ إن كنت تضمن لى أن يزوجنى عمر ابنته ، ويولينى الأمر من بعده ، رجعت إلى الإسلام ؛ فضمنت له التزويج ولم أضمن له توليه الأمر .

قال : ثم أومأ إلى خادم كان على رأسه واقفاً فذهب مسرعاً ، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها طعام، فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة، وقال لى : كل فقبضت يدى، وقلت : رسول الله ﷺ نهى عن الأكل فى آنية الذهب والفضة ، قال : نعم نهى صلى الله عليه وسلم ، ولكن نق قلبك وكل فيما أحببت ، قال : فأكل فى الذهب

وأكلت أنا فى الخلنج[1] ، ثم دعا بطسوت[2] الذهب وأباريق الفضة ، فغسل يديه فى الذهب وغسلت فى الصفر[3] ، ثم أومأ إلى خادم بين يديه ، فمر مسرعاً فسمعت حساً فإذا خدم معهم كراسى مرصعة بالجوهر، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن شماله، ثم جاءت الجوارى وعليهن تيجان الذهب، فقعدن عن يمينه وعن يساره على تلك الكراسى ، ثم جاءت جارية أيضاً كأنها الشمس حسناً على رأسها تاج وعلى ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه وفى يدها جامة[4] فيها مسك فتيت ، وفى يدها الأخرى جامة فيها ماء ورد ، فأومأت تلك الجارية وصفرت بالطائر الذى على تاجها فوقع فى جامة المسك فاضطرب فيها، ثم صفرت به ثانياً فوقع فى جامة ماء الورد فاضطرب فيها ، ثم أومأت إليه فطار ، ثم نزل على صليب فى تاج على جبلة ، فلم يزل يرفرف حتى نفض ما فى ريشه عليه، فضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه ، ثم التفت إلى الجوارى اللواتى عن يمينه فقال لهن : أضحكننا فاندفعن يغنين فجعلن يخفقن عيدانهن ويقلن[5] :

لله در عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق فى الزمان الأول[6]

---

(١) الخلنج : شجر تُعمل منه القصاع ومنه قولهم : لبن النحت فى قصاع الخلنج .

(٢) الطسوت ، جمع طست : الإناء .

(٣) الصُفْر : إناء من النحاس .

(٤) الجامة : الكأس .

(٥) الأبيات لحسان بن ثابت . انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٢/٥٩) .

(٦) جلّق : موضع فى سورية جنوبى دمشق ، استوطنه الغساسنة .

إلى قوله :

أولاد جفنـة حـول قـبر أبيهـم   قبر ابن ماريـة الكريـم المفضـل
يسقون من ورد البريض عليهمو   بردى يصفق بالرحيق السلسـل[1]

قال : فضحك جبلة حتى بدت أنيابه ، ثم قال : أتدرى من يقول هذا؟ قلت: لا قال: حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ ثم أشار إلى الحوارى اللواتى عن يساره وقال : أبكيننا ، فاندفعن يغنين وتخفق عيدانهن ويقلن شعراً[2] :

لمـن الـدار أقفـرت بمعـان   بين أعلى اليرموك فالجمـان[3]

إلى قوله :

ذاك مغنى لآل جفنة فى الدهـ   ـر وحـق تعـاقب الأزمـان

قال : فبكى جبلة حتى سالت دموعه على لحيته ، ثم قال : أتدرى من يقول هذا؟ قلت : لا ، قال : حسان ؛ ثم أنشد الأبيات التى أولها تنصرت الأشراف إلى آخرها ، ثم سألنى عن حسان أحى هو ؟ قلت : نعم فأمر له بكسوة ولى أيضاً كذلك، ثم أمر لحسان بمال ونوق موقورة برا[4]، ثم قال لى : إن وجدته حياً فادفع إليه الهدية ، وأقرئه منى السلام ، وإن وجدته ميتاً، فادفعها إلى أهله ، وانحر النوق على قبره .

---

(١) البريض : ماء الورد

(٢) الأبيات لحسان بن ثابت . انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٥٩/٢،٦٠) .

(٣) مَعان : مدينة في جنوب الأردن .

(٤) نوق موقورة براً : المراد أنها مسمنة بإعلافها القمح ،مما يزيد من قيمتها .

قال : فلما أخبرت عمر ﷺ بخبره وما اشترطه على ، وما ضمنت له، قال : فهلا ضمنت له الأمر ، فإذا أفاء الله بحكمه وقضى علينا بحكمه ما كان إلا ما أراد ، ثم جهزنى عمر ثانياً إلى هرقل ، وأمرنى أن أضمن له ما اشترطت . فلما دخلت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعلمت أن الشقاء غلب عليه فى أم الكتاب ، انتهى .

[٥] [وقيل] : إنه قدم أهل الكوفة على عمر بن الخطاب ﷺ يشكون سعد بن أبى وقاص(١) ، فقال : من يعذرنى من أهل الكوفة ، إن وليتهم التقى ضعفوه ، وإن وليتهم القوى فجروه ، فقال له المغيرة بن شعبة(٢) : ياأمير المؤمنين إن التقى الضعيف له تقاه ولك ضعفه ، وإن القوى الفاجر لك قوته وعليه فجوره ، قال: صدقت أنت القوى الفاجر ، فاخرج إليهم فلم يزل عليهم أيام عمر ، وأيام عثمان رضى الله عنهما، وأيام معاوية حتى مات المغيرة ، انتهى .

---

(١) سعد بن أبى وقاص ، هو : مالك بن وهب القرشى المكى ، صحابى جليل من العشرة المبشرين بالجنة، أول من رمى بسهم فى الإسلام ، شهد بدراً والمشاهد ، وهو أحد الستة أصحاب الشورى . صاحب القادسية . ولاه عمر على الكوفة ثم عزله عنها [٢١هـ] عندما شكاه ، أهلها تُوفى بالمدينة ، ودفن بالبقيع سنة [٥٥هـ - ٦٧٤م] . انظر : تذكرة الحفاظ (٢٢/١) .

(٢) المغيرة بن شعبة بن أبى عامر بن مسعود : صحابى ، أسلم فى السنة الخامسة من الهجرة . أول من سلم عليه بالإمرة فى الإسلام ، ت[٥٠هـ] . انظر : الإصابة ترجمة رقم (٨١٨١) .

[٦] [وقيل] : دخل عمرو بن معد يكرب الزبيدى[١] على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال عمر : أخبرنى عن أجبن من لقيت ، وأحيل من لقيت، وأشجع من لقيت .

قال: نعم ياأمير المؤمنين ، خرجت مرة أريد الغارة فبينما أنا سائر، إذا بفرس مشدود ، ورمح مركوز[٢] ، وإذا رجل جالس كأعظم ما يكون من الرجال خلقاً ، وهو محتب[٣] بحمائل سيفه ، فقلت له خذ حذرك فإنى قاتلك فقال : ومن أنت ، قلت: أنا عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، فشهق شهقة فمات . فهذا ياأمير المؤمنين أجبن من رأيت .

وخرجت مرة حتى انتهيت إلى حى ، فإذا أنا بفرس مشدود ، ورمح مركوز، وإذا صاحبه فى وهدة[٤] يقضى حاجته ، فقلت : خذ حذرك فإنى قاتلك ، فقال : ومن أنت ؟ فأعلمته بى ، فقال : ياأبا ثور ما أنصفتى أنت على ظهر فرسك، وأنا على الأرض فاعطنى عهداً ، أنك لا تقتلنى حتى أركب فرسى فأعطيته عهداً ، فخرج من الموضع الذى كان فيه ، واحتبى بحمائل سيفه ، وجلس فقلت ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسى ولا

---

(١) انظر: بدائع السلك فى طبائع الملك،لابن الأزرق ص٤٣٥. عمرو بن معد يكرب بن ربيعة الزبيدى : صحابى ، فارس اليمن صاحب الغارات المذكورة . أسلم مع وفد بنى زبيد (٩هـ) وارتد بعد وفاة النبى ﷺ فى اليمن ، ثم رجع إلى الإسلام وبعثه أبو بكر إلى الشام ، فشهد اليرموك ، والقادسية ، توفى بالرى ، ت[٢١هـ-٦٤٢م] .

(٢) رمح مركوز : مثبت فى الأرض .

(٣) محتب من احْتبى احتباءً بالثوب : اشتمل به ، حمائل مفرهاِلحِمَالة : علاقة السيف .

(٤) وَهْدة : الأرض المنخفضة .

بمقاتلك ، فإن نكثت عهدك فأنت أعلم بناكث العهد، فتركته ومضيت ، فهذا ياأمير المؤمنين أحيل من رأيت .

وخرجت مرة حتى انتهيت إلى موضع كنت أقطع فيه الطريق ، فلم أر أحداً فأجريت فرسي يميناً وشمالاً ، وإذا أنا بفارس فلما دنا منى ، فإذا هو غلام حسن نبت عذاره[1]، من أجمل من رأيت من الفتيان ، وأحسنهم ، وإذا هو قد أقبل من نحو اليمامة ، فلما قرب منى سلم فرددت عليه السلام، وقلت : من الفتى ؟ قال : الحارث بن سعد فارس الشهباء، فقلت له : خذ حذرك فإني قاتلك ، فقال : الويل لك فمن أنت ؟ قلت : عمرو بن معد يكرب الزبيدى ، قال : الذليل الحقير ، والله ما يمنعنى من قتلك إلا استصغارك ، فتصاغرت نفسى ياأمير المؤمنين وعظم عندى ما استقبلنى به، فقلت له: دع هذا وخذ حذرك فإنى قاتلك ، والله لا ينصرف إلا أحدنا ، فقال : اذهب ثكلتك أمك، فأنا من أهل بيت ما أثكلنا فارس قط ، قلت : هو الذىتسمعه ، قال: اختر لنفسك فإما أن تطرد لى وإما أن أطرد لك ، فاغتنمتها منه فقلت له : أطرد لى ، فأطرد وحملت عليه فظننت أنى وضعت الرمح بين كتفيه ، فإذا هو صار حزاماً لفرسه، ثم عطف على فقنع بالقناة رأسى ، وقال : ياعمرو خذها إليك واحدة ، ولولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتك ، قال : فتصاغرت نفسى عندى وكان الموت ياأمير المؤمنين أحب إلى مما رأيت ، فقلت له : والله لا ينصرف إلا أحدنا ، فعرض علىَّ مقالته الأولى ، فقلت له : أطرد لى فأطرد فظننت أنى تمكنت منه فأتبعته حتى ظننت أني وضعت الرمح بين كتفيه ، فإذا هو صار لبباً[2] لفرسه ، ثم

(١) عِذاره : الشعر الذى بجانب الأذن .

(٢) صار لبباً : ملازماً له .

عطف علـى ، فقنع بالقنـاة رأسى ، وقـال : خذهـا إليـك يـاعمرو ثانيـة ، فتصاغرت على نفسى جداً قلت : والله لا ينصرف إلا أحدنا ، فأطرد حتـى ظننت أني وضعت الرمح بين كتفيه فوثب عن فرسه ، فإذا هو علـى الأرض فأخطأته فاستوى على فرسه واتبعنى حتى قنع بالقناة رأسى ، وقال: خذهـا إليك ياعمرو ثـالثة ، ولولا كراهتـى لقتـل مثلـك لقتلتك ، فقلـت : اقتلنـى أحب إلىّ ولا تسمع فرسان العرب بهذا فقـال : ياعمرو إنمـا العفـو عـن ثلاث ، وإذا استمكنت منك فى الرابعة قتلتك وأنشد يقول :

وكـدت أغلاظـاً مـن الأيمـان إن عـدت يـاعمرو إلـى الطعـان
لتجـدن لهـب السـنان أولا فلسـت مـن بنـى شيبـانِ

فهبته هيبة شديدة ، وقلت له : إن لى إليك حاجة ، قال : وما هـى ؟ قلت : أكون صاحبا لـك قـال : لسـت مـن أصحابى ، فكـان ذلـك أشـد على وأعظم مما صنع، فلم أزل أطلب صحبته حتـى قـال : ويحـك أتـدرى أين أريد ؟ قلت : لا والله قال : أريـد المـوت الأحمـر عيانـاً قلـت : أريـد الموت معك .

قال : امض بنا ، فسرنا يومنا أجمع حتى أتانا الليـل ، ومضـى شـطره فوردنا على حى من أحياء العرب ، فقال لى : ياعمرو فى هذا الحى الموت الأحمر ، فإما أن تمسك على فرسى فأنزل وآتى بحـاجتى ، وإمـا أن تـنزل وأمسـك فرسـك فتـأتينى بحـاجتى ، فقلـت : بـل انـزل أنـت فـأنت أخـبر بحاجتك منى، فرمى إلىّ بعنان فرسـه ورضيـت واللـه يـاأمير المؤمنيـن بـأن أكون له سائساً، ثم مضى إلى قبة فأخرج منها جارية لم تـر عينـاى أحسـن منها حسناً وجمالاً ، فحملها على ناقة ثم قال: ياعمرو فقلت : لبيك قال :

إما أن تحمينى وأقود الناقة أو أحميك وتقودها أنت ، قلت: لا بل أقودها وتحمينى أنت ، فرمى إلى بزمام الناقة ثم سرنا حتى أصبحنا .

قال: ياعمرو قلت : ما تشاء ، قال : التفت فانظر هل ترى أحداً ؟ فالتفت فرأيت رجالاً، فقلت : أغذذ السير[1]، ثم قال : ياعمرو انظر إن كانوا قليلاً فالجلد والقوة وهو الموت الأحمر ، وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء، فالتفت وقلت : هم أربعة أو خمسة ، قال : اغذذ السير ، ففعلت ووقف وسمع وقع حوافر الخيل عن قرب ، فقال : ياعمرو كن عن يمين الطريق وقف ، وحول وجه دوابنا إلى الطريق ، فعلت ووقفت عن يمين الراحلة ووقف عن يسارها ، ودنا القوم منّا وإذا هم ثلاثة نفر: شابان وشيخ كبير ، وهو أبو الجارية ، والشابان أخواها ، فسلموا فرددنا السلام فقال الشيخ : خل عن الجارية يا ابن أخى ، فقال : ما كنت لأخليها ولا لهذا أخذتها ، فقال: لأحد بنيه : اخرج إليه ، فخرج وهو يجر رمحه ، فحمل عليه الحارث وهو يقول :

من دون ما ترجوه خضب الذابل	من فارس ملثم مقاتل
ينمى إلى شيبان خير وائل	ما كان يسرى نحوها بباطل

ثم شد على ابن الشيخ بطعنة قد منها صلبه ، فسقط ميتاً ، فقال الشيخ لابنه الآخر : اخرج إليه فلا خير فى الحياة على الذل فأقبل الحارث وهو يقول :

لقد رأيت كيف كانت طعنتى	والطعن للقرم الشديد الهمة[2]

---

(١) أغذذ السير : أسرع فى السير .

(٢) القَرْم : السيد ، على التشبيه بالقرم من الإبل لعظم شأنه .

والموت خير من فراق خلتي فقتلتي اليوم ولا مذلتي

ثم شد على ابن الشيخ بطعنة سقط منها ميتاً ، فقال له الشيخ : خل عن الظعينة[1] يا ابن أخي ، فإني لست كمن رأيت ، فقال : ما كنت لأخليها ولا لهذا قصدت، فقال : الشيخ يا ابن أخي اختر لنفسك ، فإن شئت نازلتك وإن شئت طاردتك ، فاغتنمها الفتى ونزل فنزل الشيخ وهو يقول شعراً :

ما أرتجي عند فناء عمرو سأجعل التسعين مثل شعر
تخافني الشجعان طول دهري إن استباح البيض قصم الظهر

فأقبل الحارث وهو ينشد ويقول :

بعد ارتحالي ومطال سفري وقد ظفرت وشفيت صدري
فالموت خير من لباس الغدر والعار أهديه لحي بكر

ثم دنا فقال له الشيخ : يا ابن أخي إن شئت ضربتك فإن أبقيت فيك بقية فاضربني ، وإن شئت فاضربني فإن أبقيت في بقية ضربتك ، فاغتنمها الفتى وقال : أنا أبدأ فقال الشيخ : هات فرفع الحارث يده بالسيف ، فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ضرب بطنه بطعنة قدّ منها أمعاءه ووقعت ضربة الفتى على رأس الشيخ فسقطا ميتين . فأخذت يا أمير المؤمنين : أربعة أفراس ، وأربعة أسياف ؛ ثم أقبلت إلى الناقة . فقالت الجارية : ياعمرو إلى أين ولست بصاحبتك ، ولست لي بصاحب ولست كمن رأيت ، فقلت : اسكتي ، فقالت : إن كنت لي صاحباً فاعطني سيفاً

(١) الظعينة : المرأة ما دامت في الهودج .

أو رمحاً، فإن غلبتنى فأنا لك وإن غلبتك قتلتك ، فقلت : ما أنا بمعط ذلك، وقد عرفت أهلك وجراءة قومك وشجاعتهم فرمت نفسها على البعير ثم أقبلت تقول :

أبعد شيخى ثم بعد إخوتى ... يطيب عيشى بعدهم ولذتى
وأصحبن من لم يكن ذا همة ... هلا تكون قبل ذا منيتى

ثم هوت إلى الرمح وكادت تنزعه من يدى فلما رأيت ذلك منها خفت إن ظفرت بى قتلتنى فقتلتها ، فهذا ياأمير المؤمنين أشجع من رأيت .

[٧] [قيل] : أتى رجل إلى عمر ابن الخطاب رضى الله تعالى عنه يستحمله ، فقال له : خذ لك بعيراً من إبل الصدقة ؛ فتناول ذنب بعير فجذبه فاقتلعه ، فتعجب عمر ﷺ من شدته وقوته ، فقال له : هل رأيت أقوى منك من أحد ؟ قال: نعم ، خرجت بامرأة من أهلى أريد بها زوجها، فنزلت على حوض فأقبل رجل معه ذود(١) فضرب ذوده إلى الحوض فساورها(٢) يعنى المرأة فنادتنى فما انتهيت إليها حتى خالطها ، فجئت لأدفعه عنها ، فأخذ رأسى بين عضديه وجنبه ، فما استطعت التحرك حتى قضى وطره منها ، فقالت : أى فحل هذا لو كان منيحة(٣)! فأمهلته حتى امتلأ نوماً ، فقمت له بالسيف فضربت ساقه ، فانتبه فتناول رجله فرمانى بها فأخطأنى ، أى فاتنى ، وأصاب رأس بعير فقتله . فقال عمر ﷺ : ما

(١) ذَوْد : الإبل لا يتجاوز عددها الثلاثين ولا يقل عن الثلاث، ولا يكون إلا من الإناث.
(٢) ساورها : وثب عليها .
(٣) مِنْيحة : العطية ، أى وكأنه أعجبها .

فعلت بالمرأة ؟ فقال : هذا حديث الرجل ، فكرر عليه السؤال ، فلم يزده على هذا ، ففطن أنه قتلها ، انتهى .

[٨] **ويحكي** : أن عبد الله بن رواحة رضى الله تعالى عنه(١) ، كان عنده جارية جميلة وكان يحبها محبة شديدة ولم يتمكن منها ، خوفاً من زوجته ، فمضت يوماً زوجته لحاجة ثم عادت فوجدته هو والجارية معتنقين نائمين ، فقالت : أفعلتها قال : لم أكن فاعلها ، قالت : فأقرأ ، فقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قال :

علمت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة كرام ... ملائكة الإله مسوّمينا

قالت : صدقت ، وكذبت عيناى قال : فذهبت وأخبرت النبى ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ، وصار يكررها ويقول :كيف قلت ، انتهى(٢).

---

(١) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى : صحابى جليل من الأمراء ، والشعراء ، أحد النقباء ، شهد بدرا والمشاهد مع الرسول ﷺ وكان يقول : إذا لقى الرجل من أصحابة يقول : تعالى نؤمن بربنا ساعة ، وكان أحد الأمراء فى وقعة مؤتة فاستشهد فيها ، ت[٨هـ = ٦٢٩م] .

(٢) انظر : الاستيعاب ، ابن عبد البر (٨٩٨/٣) .

الباب الثانى

من أخبار بنى أمية

١- فصل

أول دولة بنى أمية معاوية بن أبى سفيان رضى الله تعالى عنهما[1]

[٩] قيل : جلس يوماً فى مجلس كان لـه بدمشـق ، وكـان الموضـع مفتح الجوانب الأربعة يدخل فيه النسيم من كل جانب ، قـال : فبينمـا هـو جالس ينظر إلى بعض الجهات ، وكان يوماً شديد الحر لا نسيم فيه ، قال: وكان وسط النهار وقد لفحت الهواجر[2]، إذ نظر إلى رجل يمشى نحوه ، وهـو يتلظـى مـن حـر الـتراب ، ويحجـل فـى مشـيته حافيـاً فتأملـه ، وقـال لجلسائه: هل خلق الله سبحانه وتعالى أشقى ممن يحتاج إلـى الحركـة فـى هـذا الوقـت وفـى مثـل هـذه السـاعة ؟ فقـال بعضهـم : لعلـه بقصــد أمـير المؤمنين، فقال : والله لئن كان قـاصدى لأجـل شـىء لأعطينـه وأسـتجلب

---

(١) صحابى من كتاب الوحى ، كان فصيحا ، حليما ، أسلم (٨هـ) ، ولاه أبو بكر جيش تحت إمرت أخيه ففتح صيداء ، وعرقة ، وبيروت . اسس الدولة الأموية فى الشـام ، ودامت لهم الخلافة إلى أن بلغ سن الشيخوخة ، فعهد بها إلى ابنـه يزيـد ، لـه (١٣٠ حديثا) . بلغت الفتوحات فى عصره إلى المحيـط الأطلنطى ، وهـو أول مـن ركـب بحر الروم وهو أول من جعل دمشق مقراً للخلافة ، وأول من اتخـذ المقـاصير ، وأول من اتخذ الحرس والحجاج فى الإسلام . وكان عمـر بـن الخطـاب يقـول فيـه : هـذا كسرى العرب، ت[٦٠هـ=٦٨٠م] .

(٢) الهَوَاجِر ، جمع هاجرة : نصف النهار فى القيظ ؛ من عند زوال الشـمس إلـى العصـر لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا .

الأجر به ، أو مظلوماً لأنصرنه . ياغلام قف بالباب فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه من الدخول عليّ فخرج فوافاه ، فقال : ما تريد ؟ قال : أمير المؤمنين ، قال : ادخل فدخل فسلم ، فقال له معاوية : ممن الرجل ؟ قال : من تميم . فما الذي جاء بك في هذا الوقت ؟ قال : جئتك مشتكيا وبك مستجيرا ، قال : ممن ؟ قال: من مروان بن الحكم[1] عاملك ، وأنشد يقول :

معاوي ياذا الجود والحلم والبذل ... وياذا الندى والعلم والرشد والنبل

أتيتك لما ضاق في الأرض مذهبي ... فيا غوث لا تقطع رجائي من العدل

وجد لي بانصاف من الجائر الذي ... بلاني بشيء كان أيسره قتلي

سباني ابن سعدى وانبرى لخصومتي ... وجار ولم يعدل وأغصبني أهلي

وهم بقتلي غير أن منيتي ... تأنت ولم أستكمل الرزق من أجلي

قال : فلما سمع معاوية كلامه والنار تتوقد من فيه ، قال له : مهلا يا أخا العرب اذكر قصتك وأبِنْ لي عن أمرك ، فقال : يا أمير المؤمنين كانت لي زوجة، وكنت لها محبا وبها كلفا[2]، وكنت بها قرير العين طيب

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميه أبو عبد الملك : من خلفاء الدولة الأموية ، وهو أول من ملك من بني الحكم بن أبي العاص وإليه ينسب بنو مروان، وهو ممن خرج إلى البصرة مع طلحة والزبير وعائشة يطالبون بدم عثمان. دعى لنفسه بالخلافة بعد وفاة يزيد فبايعه أهل الأردن [٦٤هـ] ودخل الشام فأحسن تدبيرها ، وخرج إلى مصر فولى عليها ابنه عبد الملك ثم عاد إلى دمشق ، ت[٦٥هـ - ٦٨٥م] . انظر : الإصابة لابن حجر (٨٣٢٠) ، أسد الغابة (٣٤٨/٤) ، الطبرى (٣٤/٧) .

(٢) الكلف : شدة العشق والولع .

النفس، وكانت لى جذعة من الإبل[1]، كنت أستعين بها على قوام حالى وكفاية أودى[2] ، فأصابتنا سنة أذهبت الخف والحافر ، فبقيت لا أملك شيئا ، فلما قل مابيدى ، وذهب مالى ، وفسد حالى، بقيت مهانا ثقلا على الذى يألفنى،وأبعدنى من كان يشتهى قربى وأزور من لا يرغب فى زيارتى.

فلما علم أبوها مابى من سوء الحال وشر المآل أخذها منى ، وجحدنى، وطردنى ، وأغلظ على ، فأتيت إلى عاملك : مروان بن الحكم راجيا لنصرتى ؛ فلما أحضر أباها وسأله عن حالى قال : ما أعرفه قط ، فقلت : أصلح الله الأمير إن رأى أن يحضرها ويسألها عن قول أبيها ، فعل، فبعث خلفها فلما حضرت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب ، فصار لى خصما وعلى منكرا وأظهر لى الغضب وبعث بى إلى السجن فبقيت كأنما خررت من السماء أو استهوت بى الريح فى مكان سحيق ، ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجنيها على ألف دينار وعشرة آلاف درهم ، وأنا ضامن خلاصها من هذا الأعرابى، فرغب أبوها فى البذل وأجابه إلى ذلك . فلما كان من الغد بعث لىَّ وأحضرنى ونظر إلى كالأسد الغضبان ، وقال : طلق سعاد ، فقلت : لا، فسلط على جماعة من غلمانه فأخذونى يعذبوننى بأنواع العذاب ، فلم أجد لى بدا من طلاقها ، ففعلت فأعادنى إلى السجن فمكثت فيه إلى أن انقضت عدتها فتزوجها وأطلقنى وقد أتيتك راجيا وبك مستجيرا وإليك ملتجئا وأنشد يقول :

فى القلب منى غرام ... للنار فيه استعار

---

(١) جَذَعة من الإبل : هى صغار الإبل ، وجمعها جذاع .

(٢) أودى : الكد والتعب .

والجســـــم مرمـــى بســـهم	فيــــه الطبيـــب يحــــار
وفــــى فــــؤادى جمـــر	والجمـــر فيـــه شـــرار
والعيــــن تهطــــل دمعـــا	فدمعهـــــا مــــــدرار
وليـــس إلا بـــربـــى	وبالأمـــيـر انتصـــار

قال : ثم اضطرب واصطكت لهاته وصار مغشيا عليه ، وأخذ يتلوى كالحية. قال : فلما سمع معاوية كلامه وإنشاده قال : تعدى ابن الحكم فى حدود الدين ، وظلم واجترأ على حرم المسلمين ثم قال : لقد أتيتنى يا أعرابى بحديث لم أسمع بمثله قط ، ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى مروان بن الحكم كتابا يقول فيه" إنه قد بلغنى أنك تعديت على رعيتك فى حدود الدين وينبغي لمن كان واليا أن يكف بصره عن شهواته ، ويزجر نفسه عن لذاته ، ثم كتب بعده كلاما طويلا اختصرته وأنشد يقول :

وليت أمرا عظيما لست تدركه	فاستغفر الله من فعل امرئ زانى
وقد أتانا الفتى المسكين منتحبا	يشكو إلينا ببث ثم أحزان[١]
أعطى الإلـه يمينا لا يكفرها	شىء وأبرأ من دينى وأيمانى
إن أنت خالفتنى فيما كتبت به	لأجعلنك لحما بين عقبان
طلق سعاد وعجلها مجهزة	مع الكميت ومع نصر بن ذبيان

ثم طوى الكتاب وطبعه ، واستدعى بالكميت ، ونصر بن ذبيان ، وكان يستنهضهما فى المهمات لأمانتهما ، فأخذا الكتاب وسارا حتى قدما المدينة ، فدخلا على مروان بن الحكم وسلما عليه وسلما إليه الكتاب ، وأعلماه بصورة الحال ، فصار مروان يقرأ ويبكى ثم قام إلى سعاد ،

(١) البث : الحال .

وأعلمها ولم يسعه مخالفة معاوية ، فطلقها بمحضر الكميت ونصر بن ذبيان ، وجهزهما وصحبتهما سعاد ، ثم كتب مروان كتابا يقول فيه هذه الأبيات :

لا تعجلن أمير المؤمنين فقد ... أوفى بنذرك في سر وإعلان
وما أتيت حراما حين أعجبني ... فكيف أدعى باسم الخائن الزاني
أعذر فإنك لو أبصرتها لجرت ... فيك الأماني عن تمثال إنسان
فسوف يأتيك شمس ليس يدركها ... عند الخليفة من إنس ومن جان

ثم ختم الكتاب ، ودفعه إلى الرسولين ، وسارا حتى وصلا إلى معاوية، وسلما إليه الكتاب ، فقرأه وقال : لقد أحسن في الطاعة وأطنب ذكر الجارية ، ثم أمر بإحضارها فلما رآها رأى صورة حسناء لم ير أحسن منها ولا مثلها في الحسن والجمال والقد والاعتدال ، فخاطبها فوجدها فصيحة اللسان حسنة البيان فقال : عليّ بالأعرابي فأتي به وهو في غاية من تغير الحال فقال : يا أعرابي هل لك عنها من سلوة وأعوضك عنها ثلاث جوار نهد أبكار كأنهن الأقمار مع كل جارية ألف دينار، وأقسم لك في بيت المال كل سنة ما يكفيك وما يغنيك ، قال : فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شهق شهقة ظن معاوية أنه مات بها ، فقال له معاوية : ما بالك بشر بال وسوء حال ؟ فقال الأعرابي : استجرت بعدلك من جور ابن الحكم، فبمن استجير من جورك وأنشد يقول :

لا تجعلني فداك الله من ملك ... كالمستجير من الرمضاء بالنار
أردد سعاد على حيران مكتئب ... يمسي ويصبح في هم وتذكار
أطلق وثاقي ولا تبخل علي بها ... فإن فعلت فإني غير كفار

ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتنـي الخلافة مـا أخذتهـا دون سعاد وأنشد يقول :

أبى القلب إلا حب سعدى وبغضت | علـى نســاء مـالهـن ذنـوب

فقال له معاوية : إنك مقر بـأنك طلقتهـا ومـروان مقـر بأنـه طلقهـا ، ونحن نخيرها فإن اختارت سواك تزوجناها ، وإن اختارتك حولناها إليك ، قال : افعل ، فقال : ما تقولين يا سعادى أيما أحب إليك أمير المؤمنين فـي عزه وشرفه وقصوره وسلطانه وأمواله ومـا أبصرتيه عنـده ، أو مـروان بـن الحكم فى تعسـفه وجـوره ،أو هـذا الأعرابـى فـى جوعـه وفقـره فأنشـدت تقول:

هـذا وإن كـان فـى جـوع وإضـرار | أعز عندى مـن قومـى ومـن جـارى
وصـاحـب التاج أو مـروان عاملــه | وكـل ذى درهـم عنـدى ودينــار

ثم قالت : والله يا أمير المؤمنين ما أنا بخاذلته لحادثة الزمـان ، ولا لغدرات الأيام وإن له صحبة قديمة لا تنسى ومحبة لا تبلى ، وأنا أحـق مـن يصبر معه فى الضراء كما تنعمت معه فى السراء ، فتعجب معاوية من عقلها ومودتها له وموافاتها فدفع لها عشرة آلاف درهم ، ودفـع مثلهـا للأعرابـى، وأخذها وانصرف ، انتهى .

[١٠] ومن ثمـرات الأوراق عـن الأجوبـة الهاشـمية وبلاغتهـا فـى المحـل الرفيـع[١]: فمـن أجـل ذلـك أنـه اجتمـع عنـد معاويـة عمـــرو بـــن

(١) صاحب ثمرات الأوراق ، هو : أبو بكر بن عبد الله الحمـوى الحنفـى ، يعـرف بـابن حجة . [٧٦٧هـ - ٨٣٧هـ] انظر : ثمرات الأوراق ص٥٢ .

العاص[1] رضي الله عنه، والوليد بن عقبة[2]، وعتبة بن أبى سفيان ، والمغيرة بن شعبة، فقالوا: يا أمير المؤمنين ابعث إلى الحسن بن على رضى الله عنهما[3] يحضر لدينا ، قال لهم : ولم ؟ قالوا : كى نوبخه ونعرفه أن أباه قتل عثمان، فقال لهم معاوية : إنكم لن تطيقوه ولن تنتصفوا منه ولا تقولوا له شيئا الا كذبكم ، ولا يقول لكم ببلاغته شيئا إلا صدقه الناس ،فقالوا : أرسل إليه فإنا نكفيه فأرسل له معاوية.

فلما حضر قال : يا حسن إنى لم أرسل إليك ولكن هؤلاء أرسلوا إليك فاسمع مقالتهم ، فقال الحسن رضي الله عنه : فليتكلموا ونحن نسمع ، فقام عمرو بن العاص رضى الله تعالى عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا

---

(١) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد : فارس شجاع ، صاحب رأى وذكاء ، أسلم قبل الفتح [٨هـ] أمره النبى ﷺ على سرية نحو الشام ، ثم ولاه على عمان ، وولاه عمر على فلسطين والأردن . فتح مصر أيام عمر . سار إلى معاوية بالشام بعد مقتل عثمان وشهد صفين ، وكان له دور فى التحكيم بين معاوية وعلىّ ، ت[٤٣ هـ - ٦٦٣هـ] . انظر : الاستيعاب (١١٨٤/٣)

(٢) الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى : هو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم فتح مكة ، ونزلت فيه قوله تعالى ﴿ياأيها الذين أمنوا إذا جاءكم فاسق ...﴾ الآية . وشهد عليه جماعة عند عثمان بن عفان بشرب الخمر فعزله عن الكوفة وحده . واعتزل الفتنة بين على ومعاوية ، ولكنه رثى عثمان وحرض معاوية على الأخذ بثأره ومات بالرقة ، ت[٦١هـ - ٦٨٠م] .

(٣) الحسن بن على ، سبط النبى ﷺ وابن فاطمة وعلىّ . روى عن النبى ﷺ أحاديث ، واشتهر بحلمه وورعه وكرمه ، وكان مزواجا مطلاقا . وولى الخلافة بعد استشهاد أبيه علىّ رضي الله عنه ثم تنازل عن الحكم لمعاوية درءاً للفتنة ، وهو أشهر من أن يعرف به .

حسن هل تعلم أن أباك أول من أثار الفتنة ، وطلب الملك فكيف رأيت صنع الله تعالى به ، ثم قام الوليد بن عقبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا بنى هاشم كنتم أصهار عثمان بن عفان ، فنعم الصهر كان لكم لقربه من رسول الله ﷺ يقربكم ويفضلكم ثم بغيتم عليه وقتلتموه ، وقد أردنا قتل أبيك فأنقذنا الله منه ، ولو قتلناه ما كان علينا ذنب ، ثم قام عتبة بن أبى سفيان، فقال : يا حسن إن أباك قد تعدى على عثمان فقتله حسدا على الملك والدنيا فسلبهما الله منه ولقد أردنا قتل أبيك حتى قتله الله تعالى ، ثم قام المغيرة بن شعبة وقال : كلاما سبا لعلى وتعظيما لعثمان .

فقام الحسن رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : بك أبدأ يا معاوية لم يشتمنى هؤلاء ، ولكن أنت تشتمنى بغضا وعداوة ومخالفة لجدى رسول الله ﷺ . ثم التفت إلى الناس وقال : أنشدكم الله إن الذى شتمه هؤلاء أما كان أبى وهو أول من آمن بالله وصلى إلى القبلتين وأنت يا معاوية كافر تشرك بالله، وكان مع أبى لواء النبى ﷺ يوم بدر ولواء المشركين مع معاوية ، ثم قال : أنشدكم الله تعالى أما كان معاوية يكتب لجدى صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه يوما فرجع الرسول ، وقال : هو يأكل ، فرد إليه الرسول ثلاث مرات ، كل ذلك يقول : هو يأكل ، فقال النبى ﷺ: «لا أشبع الله بطنك ، يا معاوية»[1]. أما تعرف ذلك من بطنك، ثم قال: وأنشدكم الله أما تعلمون أن معاوية كان يقود بأبيه وهو على جمل وأخوه هذا يسوقه ، فقال رسول الله ﷺ ما قال وأنت تعلم ذلك هذا كله لك يا معاوية . وأما أنت يا عمرو، فقد تنازعك خمسة من قريش فغلب

---

(١) الحديث : أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب ٢٥ رقم ٩٥ .

عليك شبه الأيهم ، وهو أقلهم حسبا وأسوأهم منصبا ، ثـم قمت وسـط قريش ، فقلت: إني شانئ[1] محمد بثلاثين بيتا من الشعر ، فقال النبي ﷺ: «اللهم إنى لا أحسن الشعر اللهم إلعن عمرو بن العاص بكل بيـت لعنـة»[2]. ثم انطلقت إلى النجاشي بما عملت وعلمت، فكذبك وردك خائبا ، فـأنت عدو بنى هاشم فى الجاهلية والإسلام، فلا نلومك على بغضك الآن . وأمـا أنت يا ابن أبى معيط فكيف نلومك على سبك لأبى، وقـد جلـدك أبـى فـى الخمر ثمانين جلدة[3]، وقتل أباك صبرا بأمر جدى ، وقتله جدى بأمر ربى، ولما قدمه للقتل قال : من للصبية بعدى يا محمد ؟ فقال جدى: لهم النـار فلم يكن لهم عند جدى غير النار ، ولـم يكـن لهـم عنـد أبـى غـير السـوط والسيف[4]. وأما أنت يا عتبة فكيف تعيب أحداً بالقتل ولا تعيب نفسـك ، فلم لا قتلت الذى وجدته على فراشك مضاجعا لزوجتك ، ثم أمسكتها بعد أن بغت ، وأما أنت يا أعور ثقيف ففى أى شىء تسب عليا أفى بعـده مـن رسول الله ﷺ أم لحكم جائر فى رعيته فى الدنيا ، فإن قلـت : فـى شـىء من ذلك كذبت وكذبك النـاس ، وإن زعمـت أن عليـا قتـل عثمـان ، فقـد كذبت وكذبك الناس ، وإنما مثلك كمثل بعوضة وقعت على نخلة فقـالت لها : استمسكى فإنى أريد أن أطير فقالت لها النخلة: مـا علمـت بوقوعـك فكيف يشق على طيرانك ، فكيف يا أعور ثقيف يشق علينا سبك ثم نفـض ثيابه وقام .

---

(١) شانئُ : هاجٍ .

(٢) انظر : تهذيب تاريخ ابن عساكر (١٠٨/٧) .

(٣) انظر : الإصابة (٦٠١/٣) .

(٤) انظر : الإصابة لابن حجر العسقلانى (٦٠١/٣ رقم٩١٤٩) .

فقال لهم معاوية : ألم أقل لكم لا تنتصفون منه فوالله لقد أظلم على البيت حتى قام .

[١١] وروى : أى معاوية ﷺ خرج عاما حاجا فمر بالمدينة ففرق على أهلها أموالا جزيلة ولم يحضر الحسن بن على رضى الله تعالى عنهما، فلما حضر قال له معاوية : مرحبا مرحبا برجل تركنا حتى نفد ما عندنا وتعرض لنا ليبخلنا ، فقال الحسن ﷺ : كيف ينفد ما عندك ، وخراج الدنيا يجيء إليك فقال له معاوية : قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة وأنا ابن هند ، فقال الحسن : قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

[١٢] [وقيل] : إن معاوية ﷺ جلس يوما بين أصحابه إذ أقبلت قافلتان من البرية فقال لبعض من كان بين يديه : انظروا هؤلاء القوم وائتونى بأخبارهم ، فمضوا وعادوا ، وقالوا : يا أمير المؤمنين إحداهما من اليمن والأخرى من قريش ، فقال : ارجعوا إليهم ودعوا قريشا يأتوننا ، وأما أهل اليمن فينزلون فى أماكنهم إلى أن نأذن لهم فى الدخول فلما دخلت قريش سلم عليهم وقربهم ، وقال : أتدرون يا أهل قريش لم أخرت أهل اليمن وقربتكم ؟ قالوا : لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : لأنهم لم يزالوا يتطاولون علينا بالفخار ويقولون ما ليس فيهم ، وإنى أريد إذا دخلوا غدا وأخذوا أماكنهم من الجلوس أن أقوم فيهم نذيرا وألقى عليهم من المسائل ما أقل به إكرامهم وأرخص به مقامهم فإذا دخلوا وأخذوا أماكنهم من الجلوس وسألوا عن شيء فلا يجيبهم أحد غيرى .

قال الراوى : وكان المقدم عليهم رجلا يقال له الطرماح بن الحكم الباهلى[1]، فأقبل على اصحابه وقال : أتدرون يا أهل اليمن لم أخركم ابن هند وقدم قريشا ؟ قالوا: لا، قال : لأنه فى غداة غد يقوم فيكم نذيرا ويلقى عليكم من المسائل ما يقل به إكرامكم ويرخص به مقامكم ، فإذا دخلتم عليه وأخذتم أماكنكم من الجلوس وسألكم عن شيء فلا يجيبه أحد غيرى، فلما كان من الغد دخلوا عليه وأخذوا أماكنهم ، فنهض معاوية قائما على قدميه ، وقال : أيها الناس من تكلم بالعربية ، قبل العرب وعلى من أنزلت العربية ، فقام الطرماح وقال : نحن يا معاوية ، ولم يقل يا أمير المؤمنين ، فقال : لماذا ؟ فقال : لأنه لما نزلت العرب ببابل وكانت العبرانية لسان الناس كافة أرسل الله تعالى العربية على لسان يعرب بن قحطان الباهلى[2]، وهو جدنا فقرأ العربية وتداولتها قومه من بعده إلى يومنا هذا ، فنحن يا معاوية عرب بالجنس وأنتم عرب بالتعليم فسكت معاوية زمانا ثم رفع رأسه، وقال: أيها الناس من أقوى العرب إيمانا ومن شهد له بذلك ، فقال الطرماح : نحن يا معاوية، قال : ولم ؟ قال : لأن الله بعث محمداً ﷺ فكذبتموه وسفهتموه وجعلتموه مجنونا فآويناه ونصرناه فأنزل الله ﴿والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا﴾ [الأنفال : ٧٤] وكان

---

(١) الطرماح بن حكيم بن الحكم الباهلى : شاعر إسلامى ، فحل ، من طيىء ، ولد ونشأ فى الشام ، وانتقل إلى الكوفة ، واتصل بخالد بن عبد الله القسرى ، وكان يكرمه ويستجيد شعره ، وكان هجاءا، معاصرا وصديقا للكميت ، ت[١٢٥هـ = ٧٤٣م] .

(٢) يعرب بن قحطان الباهلى : أحد ملوك العرب فى جاهليتهم الأولى ، من الخطباء والحكماء والشجعان، وهو أبو قبائل اليمن كلها ، وبنو العرب العاربة . قال وهب بن منبه : يعرب أول من قال الشعر ووزنه ومدح ووصف .

النبى ﷺ محسنا لنا متجاوزا عن سيئاتنا فلم لم تفعل أنت كذلك كأنك خالفت رسول الله ﷺ. قال : فسكت زمانا ثم رفع رأسه وقال : أيها الناس من أفصح العرب لسانا ومن شهد له بذلك ؟ قال الطرماح : نحن يا معاوية، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن امرأ القيس بن حجر الكندى(١) منا قال فى بعض قصائده:

يطعمون الناس غبا فى السنين الممحلات
فى جفان كالجوابى وقدور راسيات

وقد تكلم بألفاظ جاء مثلها فى القرآن وشهد له رسول الله ﷺ بذلك . قال: فسكت معاوية ، زمانا ، وقال : أيها الناس من أقوى العرب شجاعة وذكرا ومن شهد له بذلك قال الطرماح : نحن يا معاوية ، قال : ولم ذلك ؟ قال : لأن منا عمرو بن معد يكرب الزبيدى ،كان فارسا فى الجاهلية وفارسا فى الاسلام وشهد له بذلك النبى ﷺ فقال له معاوية : وأين أنت وقد أتى به مصفدا بالحديد ، فقال له الطرماح : ومن أتى به ؟ قال معاوية : أتى به علىّ ، قال الطرماح : والله لو عرفت مقداره لسلمت إليه الخلافة ولا طمعت فيها أبداً . فقال له معاوية : أتحجنى يا عجوز اليمن؟ قال : نعم أحجك يا عجوز مضر ، لأن عجوز اليمن بلقيس آمنت بالله وتزوجت بنبيه سليمان بن داود عليهما السلام ، وعجوز مضر ، جدتك التى قال الله فى حقها ﴿**وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل**

---

(١) امرؤ القيس بن حجر الكندى : أشهر شعراء العرب على الإطلاق ، وأحد أصحاب المعلقات، يمانى الأصل،ولد بنجد وكان أبوه ملك أسد وغطفان،ت[٨٠ق هـ=٥٤٥م]

من مسد﴾ [المسد : ٣] قال : فسكت معاوية زمانا ، ثم رفع رأسه وقال : جزاك الله خيرا من صاحب ،ووفر عقلك ،ورحم سلفك ،وأعطاه وأحسن إليه،انتهى .

[١٣] **قال الراوى** : وخطب معاوية يوماً فقال : أيها الناس إن الله تعالى قال: **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾** [الحجر : ٢١] . فعلام تلومننى إذا قصرت عنكم فى عطاياكم ؟ فقال له الأحنف بن قيس[١]: إنا والله ما نلومك فيما فى خزائن الله ولكن وضعت يدك على ما أنزل الله من خزائنه فجعلته فى خزائنك وحلت بيننا وبينه .

[١٤] **ومما يروى عن الشعبى[٢] قال[٣]** : استأذنت سودة بنت عمارة بن الأسد[٤] على معاوية بن أبى سفيان ، فأذن لها . فلما دخلت عليه قال لها يا بنت الأسد ألست القائلة :

شمر كفعل أبيك يا ابن عمارة   يوم الطعان وملتقى الأقران

---

(١) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين : أحد من يضرب بحلمه وسؤدده المثل ، العالم النبيل ، أبو بحر. كان من قواد جيش على بن ابى طالب يوم صفين .قال ابن سعد : كان ثقة ، مأمونا ، قليل الحديث ، وكان معاوية يعظمه ويجله . ويقول : هذا الذى إذا غضب غضب له مئه ألف لايدرون فيم غضب ، ت[٧٢هـ = ٦٧١م] .

(٢) الشعبى : عامر بن شراحبيل بن عبد بن ذى كابر ، تابعى ، إمام ، وعلامة عصره ، من المحدثين وكان ممن خرج مع بن الاشعث على الحجاج . استقضاه عمر بن عبد العزيز . وكان يقول ماكتب سوداء فى بيضاء ولاحدثنى رجل بحديث إلا حفظته ، ت[١٠٣هـ = ٧٢١م] .

(٣) انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٢/١٠٢) .

(٤) سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية :شاعرة من شواعر العرب ،ذات فصاحة وبيان.

وانصر عليا والحسين ورهطه	واقعد لهند وابنها بهوان(١)
إن الامام أخا النبي محمد	علم الهدى ومنارة الإيمان
وقد الجيوش وسر أمام لوائه	وارم بأبيض صارم وسنان

قالت : بلى يا معاوية وما مثلي من رغب عن الحق واعتذر . قال : فما حملك على ذلك ؟ قالت : حب عليّ واتباع الحق . قال : والله ما أرى عليك من أثر عليّ شيئا. قالت : أنشدك الله يا معاوية لا تذكر ما مضى . قال : هيهات وما مثلك ومقام أخيك يسبني وما لقيت من أخيك ، قالت : صدقت يامعاوية لم يكن أخي ذميم المقام ولاحييا،وهو والله كقول الخنساء:

وان صخراً لتأتم الهداة به	كأنه علم في رأسه نار

وأنا أسألك يا معاوية اعفاءك مما استعفيت به ، قال : قد فعلت فما حاجتك؟ قالت : يا معاوية إنك أصبحت للناس سيدا ولأمورهم واليا ، والله سائلك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم علينا من يغرك ويبطش بسلطانك ويحصدنا حصد السنبل ويدرسنا درس العصفر ويسومنا الخسف(٢) ويسلبنا الحيل ، هذا ابن أرطأة(٣) قدم علينا فقتل رجالي

---

(١) الحسين بن علي سبط النبي ﷺ وابن فاطمة وعليّ ، اشتهر بفضله ، وورعه وعبادته . استشهد يوم عاشوراء بكربلاء ، وهو أشهر من أن يعرف به ، ت[٦١هـ = ٦٨٠م]..
لهند ، يعني : هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وأم معاوية .

(٢) الخَسْف : الذل .

(٣) ابن أرطأة ، هو : بسر بن أرطأة العامري القرشي ، ولد بمكة قبل الهجرة وأسلم صغيرا، وله حديثان في مسند أحمد . كان من رجال معاوية بن أبي سفيان ، وجهه

وأخذ مالى، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك وإما أقررته فعرفناك ، فقال لها : أبقولك تهددينى ، هممت أن أحملك على قتب جمل أشرس وأسيرك إليه لينفذ فيك أمره ، فأطرقت وبكت وأنشدت تقول :

صلى الإله على روح تضمنها قبر فأصبح فيه الحق مدفونا
قد حالف الحق لا يبغى به بدلا فصار بالحق والإيمان مقرونا

قال : ومن ذاك ؟ قالت : أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . قال : ولم ؟ قالت : أتيته فى رجل ولاه علينا ولم يكن بيننا وبينه إلا كما بين الغث والسمين فوجدته قائما يصلى ، فلما نظر إلى انفتل من صلاته، ثم قال برأفة ورحمة : ألك حاجة فأخبرته فبكى ، ثم قال : اللهم اشهد على وعليهم إنى لم أولهم وآمرهم بظلم خلقك ، ولا بترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جلد كهيئة ظرف الجواب فكتب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم **﴿قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾** [الأعراف:٨٥] **﴿ولا تعثوا فى الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ﴾** [هود:٨٥،٨٦] إذا قرأت كتابى هذا فاحتفظ بما فى يدك حتى يقدم عليك من يقبضه منك والسلام، فأخذته منه وأوصلته إليه فامتثل ورجع عما كان فيه . فقال معاوية: اكتبوا لها برد مالها والعدل فى حالها ، فقالت :ألى خاصة أم

=معاوية إلى المدينة بثلاث آلاف فأخضعها (٣٩هـ) واحتل مكة . وارتكب فظائع من بطشه وقسوته ، وقتل الأطفال وسبى النساء فى اليمن . قال ابن معين : بن أبى أرطأة، رجل سوء . قال ابن حجر : مختلف فى صحبته ، ت[٨٦هـ = ٧٠٥م] .

لى ولقومى ، قال : بلى لك ، قالت : إذاً الفحشاء واللؤم هى والله إما عدلا شاملا ، وإلا فأنا كسائر قومى . قال : اكتبوا لها بحاجتها هى وقومها .

[١٥] [قيل][١] : لما اتصلت ميسون بنت بحدل[٢] بمعاوية رضي الله عنه ، ونقلها من البدو إلى الشام كانت تكثر الحنين على ناسها والتذكر لمسقط رأسها فاستمع عليها ذات يوم فسمعها تنشد وتقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إلىَّ من قصر منيف
وأكل كسيرة فى كسر بيتى ... أحب إلىَّ من أكل الصنوف
وأصوات الرياح بكل فج ... أحب إلىَّ من نقر الدفوف
ولبس عباءة وتقر عينى ... أحب إلىَّ من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراق حولى ... أحب إلىَّ من قط ألوف
وبكر يتبع الأظعان صعب ... أحب إلىَّ من بغل زفوف
وخرق من بنى عمى ضعيف ... أحب إلىَّ من علج عنيف

قال الراوى : فلما سمع معاوية الأبيات قال ما رضيت ابنة بحدل حتى جعلتنى علجا عنيفا[٣].

---

(١) انظر : خزانة الأدب ، للبغدادى (٥٩٣/٣) .

(٢) ميسون بنت بحدل بن أنيف : زوجة معاوية وام يزيد ، شاعرة ، وكانت من البدو . وقال البغدادى فى خزانة الأدب : لما طلقها معاوية قال لها : كنتِ فَبِنْتِ ، فأجابته : ماسررنا إذ كنا ، ولاأسفنا إذ بنا ، ت[٨٠هـ = ٧٠٠م] .

(٣) عِلْج عنيف : الحمار الوحشى السمين .

حكاية أجنبية عن المقام

[١٦] يحكى: أن بهراما[1] لما ولى الملك بعد أبيه ، أقبل على اللهو واللذات والتنزه والصيد ، ولا يفكر فى ملكه ولا فى رعيته ، حتى خرجت البلاد عن يده ، وخربت فى أيامه ، وقلت العمارة وخلت بيوت الأموال . فلما كان فى بعض الأيام ركب إلى بعض منازهه وصيده ، وهو يسير نحو المدائن وكانت ليلة مقمرة فدعا بالموبذان -وهو عند المجوس كالحاخام عند اليهود والقسيس عند النصارى- لأمر خطر فجعل يحادثه فتوسطا فى سيرهما بين خربات كانت من أمهات الضياع قد خربت فى مدة ملكه لا أنيس فيها إلا البوم ، وإذا ببوم يصيح وصاحبته تجاوبه من تلك الخربات ، فقال بهرام: أترى أن أحدا من الناس أعطى فهم لغة هذا الطائر المصوت فى الليل البهيم ؟ فقال الموبذان : أيها الملك أنا ممن خصه الله بذلك .قال : فما يقول هذا الطائر وما يقول الطائر الآخر ؟ فقال الموبذان : هذا بوم ذكر يخطب بومة ، ويقول لها : متعينى بنفسك حتى يخرج من بيننا أولاد يسبحون الله ويبقى لنا فى هذا العالم عقب يكثرون الترحم علينا ، فأجابت إن الذى تدعوننى إليه فيه الحظ الأكبر والنصيب الأوفر فى العاجل والآجل، إلا أنى أشترط عليك خصالا أن أعطيتها أجبتك إلى ذلك ، فقال لها الذكر: وما تطلبينه منى ؟ قالت : أن تعطينى من خربات أمهات الضياع عشرين قرية مما خربت فى أيام هذا الملك السعيد ، فقال له الملك : فما الذى قال لها الذكر ؟ قال الموبذان :كان من قوله لها : إن دامت أيام هذا الملك السعيد أقطعك منها ألف قرية خراب فما تصنعين . قالت : فى اجتماعنا يحصل ظهور النسل وكثرة الذكر فنقطع لكل ولد من أولادنا ضيعة من

---

(١) بهراما : أحد الملوك الساسانين .

هذه الخربات ، فقال لها الذكر : هذا أسهل أمر سألتنيه وأنا مليء بذلك ما حيى هذا الملك . فلما سمع الكلام من الموبذن تأثر فى نفسه واستيقظ من نومه وفكر فيما خوطب به ، فنزل من ساعته ونزل بنزوله الناس وخلا بالموبذان ، فقال : أيها القائم بأمر الدين الناصح للملك ، والمنبه عما اغفله من أمور ، واضاعة بلاده ورعيته ماهذا الكلام الذى خاطبتنى به فقد حركت منى ماكان ساكنا ، فقال الموبذان : صادفت من الملك السعيد وقت سعد العباد والبلاد فجعلت الكلام مثلا وموعظة على لسان الطائر عند سؤال الملك اياى عما سأل ، فقال له الملك : أيها الناصح اكشف لى عن هذا الغرض ماالمراد منه ، فقال : أيها الملك إن الأمر لايتم الا بالشريعة والقيام لله بطاعته ولاقوام للشريعة إلا بالملك ، ولاعز للملك إلا بالرجال ، ولاقوام للرجال إلا بالمال ، ولاسبيل للمال إلا بالعمارة ، ولاسبيل للعمارة إلا بالعدل وهو الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب جل وعلا ، وجعل له قيما وهو الملك. فقال الملك : أمّاما وصفت فحق ، فأبن لى عما إليه تقصد، وأوضح لى فى البيان ؟ قال : نعم أيها الملك إنك عمدت إلى الضياع فأقطعتها الخدم وأهل البطالة فعمدوا إلى ماتعجل من غلاتها فاستعجلوا المنفعة، وتركوا العمارة والنظر فى العواقب ومايصلح الضياع وسومحوا فى الخراج لقربهم من الملك ، ووقع الحيف على الرعية وعمار الضياع ، فانجلوا عن ضياعهم ، وقلت الأموال وهلكت الجنود والرعية وطمع فى ملك فارس من أطاف بها من الملوك والأمم لعلمهم بانقطاع المواد التى بسببها تستقيم دعائم الملك فلما سمع الملك ذلك أقام فى موضعه ثلاثة أيام وأحضر الوزراء والكتاب وأرباب الدواوين ، فانتزعت الضياع من أيدى الخاصة والحاشية وردت إلى أربابها وحملوا على رسومهم السالفة وأخذوا فى العمارة وقوى من ضعف منهم ، فعمرت البلاد

بذلك وأخصبت وكثرت الأموال عند الجباة وقويت الجنود وانقطعت مواد الأعداء ، وأقبل الملك يباشر الأمور بنفسه فحسنت سيرته وانتظم ملكه حتى كانت أيامه بعده تُدعى بالأعياد مما عم الناس من الخصب وشملهم من العدل ، انتهى .

حكاية أخرى أجنبية

[١٧] **عن الأصمعي**(١) **أنه قال** : دخلت البصرة أريد بادية بنى سعد، وكان على البصرة يومئذ خالد بن عبد الله القسرى(٢)، فدخلت عليه يوما فوجدت قوما متعلقين بشاب ذى جمال وكمال وأدب ظاهر بوجه زاهر حسن الصورة طيب الرائحة جميل البزة(٣) ، عليه سكينة ووقار فقدموه إلى خالد فسألهم عن قصته فقالوا : هذا لص أصبناه البارحة فى منازلنا ، فنظر إليه فأعجبه حسن هيئته ونظافته فقال : خلوا عنه ثم أدناه منه وسأله عن

---

(١) الأصمعى : أبو سعيد عبد الملك بن قريب ابن عبد الملك ، الإمام ، العلامة الحافظ ، حجة الأدب ، لسان العرب ، اللغوى الإخبارى ، أحد الأعلام . قال الشافعى فيه : ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى . وأثنى أحمد بن حنبل على الأصمعى فى السنة . وكان كثير الطواف فى البوادى ، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء ، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة ، ت[٢١٦هـ =٨٣١م].

(٢) خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسرى : أمير العراقيين ، وأحد خطباء العرب وأجوادهم ، يمانى الأصل ، من أهل دمشق . ولى مكة (٨٩هـ) للوليد بن عبد الملك، وولاه هشام الكوفة والبصرة (١٠٥هـ) إلى أن عزله هشام (١٢٠هـ) وولى مكانه يوسف بن عمر الثقفى ، وأمره أن يحاسبه ، فسجنه يوسف وعذبه بالحيرة ، ثم قتله ، ت [١٢٦هـ =٧٤٣م] .

(٣) البزة : الثياب .

قصته ، فقال :إن القول ماقالوه والأمر على ماذكروه، فقال له : ماحملك على ذلك وأنت فى هيئة جميلة وصورة حسنة ؟ قال : حملنى الشر فى الدنيا وبذا قضى الله سبحانه وتعالى ، فقال له خالد: ثكلتك أمك أما كان لك فى جمال وجهك وكمال عقلك وحسن أدبك زاجر لك عن السرقة . قال: دع عنك هذا أيها الأمير وأنفذ ما أمرك الله تعالى به ، فذلك بما كسبت يداى وما الله بظلام للعبيد . فسكت خالد ساعة يفكر فى أمر الفتى ثم أدناه منه وقال له : إن اعترافك على رءووس الأشهاد قد رابنى وأنا ماأظنك سارقا، وأن لك قصة غير السرقة فأخبرنى بها ، فقال : أيها الأمير لايقع فى نفسك سوى مااعترفت به عندك وليس لى قصة أشرحها لك ، إلا أنى دخلت دار هؤلاء فسرقت منها مالاً فأدركونى وأخذوه منى وحملونى إليك ، فأمر خالد بحبسه وأمر مناديا ينادى فى البصرة : ألا من أحب أن ينظر إلى عقوبة فلان اللص وقطع يده فليحضر من الغد استقر الفتى فى الحبس ووُضع فى رجليه الحديد ، تنفس الصعداء ثم أنشد يقول :

هددنى خالد بقطع يدى ... إن لم أبح عنده بقصتها
فقلت هيهات أن أبوح بما ... تضمن القلب من محبتها
قطع يدى بالذى اعترفت به ... أهون للقلب من فضيحتها

فسمعه الموكلون ، فأتوا خالدا وأخبروه بذلك ، فلما جن الليل أمر بإحضاره عنده فلما حضر استنطقه ، فرآه أديبا عاقلا لبيبا ظريفا فأعجب به وأمر له بطعام فأكلا وتحادثا ساعة ؛ ثم قال له خالد : قد علمت أن لك قصة غير السرقة فإذا كان غدا وحضر الناس والقضاة وسألتك عن السرقة فأنكرها واذكر فيها شبهات تدرأ عنك القطع فقد قال رسول الله ﷺ :

«ادرؤوا الحدود بالشبهات»[1] . ثم أمر به إلى السجن فلما أصبح الناس لـم يبق بالبصرة رجل ولا امرأة إلا حضر ليرى عقوبة ذلك الفتى ، وركب خالد ومعه وجوه أهل البصرة وغيرهم ثم دعا بالقضاة وأمر بإحضار الفتى ، فأقبل يحجل فى قيوده ولم يبق أحد من النساء إلا بكى عليه ، وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب فأمر بتسكيت الناس ، ثم قال له خالد ، إن هؤلاء القوم يزعمون أنك دخلت دارهم وسرقت مالهم فما تقول ؟ قال : صدقوا أيها الأمير، دخلت دارهم وسرقت مالهم قال خالد : لعلك سرقت دون النصاب .قال : بل سرقت نصابا كاملا . قال : فلعلك سرقته من غير حرز مثله قال : بل من حرز مثله. قال : فلعلك شريك القوم فى شئ منه . قال: بل هو جميعه لهم لاحق لى فيه ، فغضب خالد وقام إليه بنفسه وضربه على وجهه بالسوط ، وقال متمثلا بهذا البيت :

يريـــد المـــرء أن يعطـى منـاه ويـــأبى الله إلا مـــا أرادا

ثم دعا الجلاد ليقطع يده ، فحضر وأخرج السكين ومد يده ووضع عليه السكين فبرزت جارية من صف النساء وعليها آثار وسخ فصرخت ورمت بنفسها عليه ؛ ثم أسفرت عن وجه كأنه البدر، وارتفع للناس ضجة عظيمة كاد أن تقع منها فتنة ؛ ثم نادت بأعلى صوتها ناشدتك الله أيها الأمير لاتعجل بالقطع حتى تقرأ هذه الرقعة ثم دفعت إليه رقعة ، ففضها خالد ، فإذا هى مكتوب فيها :

---

(١) الحديث : أخرجه البغدادى فى تاريخه (٣٠٣/٩) والزيلعى فى نصب الراية (٣٣٣/٣) بلفظه . انظر : الترمذى (١٤٢٤) والبيهقى (٢٣٨/٨) بلفظ : « ادرؤوا الحدود عن المسلمين» .

أخالد هذا مستهام متيم رمته لحاظي من قسي الحمالق
فأصماه سهم اللحظ مني فقلبه حليف الجوى من دائه غير فائق
أقر بما لم يقترفه لأنه رأى ذاك خيرا من هتيكة عاشق
فمهلا على الصب الكئيب لأنه كريم السجايا في الهوى غير سارق[1]

فلما قرأ الأبيات ، تنحى وانعزل عن الناس ، وأحضر المرأة ، ثم سألها عن القصة فأخبرته أن هذا الفتى عاشق لها وهي له كذلك وأنه أراد زيارتها وأن يعلمها بمكانه فرمى بحجر إلى الدار، فسمع أبوها وأخواتها صوت الحجر فصعدوا إليه ، فلما أحس بهم جمع قماش البيت كله وجعله صرة ، فأخذه وقالوا : هذا سارق ثم أتوا به إليك فاعترف بالسرقة وأصر على ذلك حتى لايفضحني بين إخوتي وهان عليه قطع يده لكي يستر عليَّ ولايفضحني ، كل ذلك لغزارة مرؤته وكرم نفسه فقال خالد : إنه خليق بذلك : ثم استدعى الفتى إليه وقبل مابين عينيه وأمر بإحضار أبا الجارية ، وقال له : ياشيخ إنا كنا عزمنا على إنفاذ الحكم في هذا الفتى بالقطع ، وإن الله عصمني من ذلك وقد أمرت له بعشرة آلاف درهم لبذله يده وحفظه لعرضك وعرض ابنتك وصيانته لكما من العار وقد أمرت لابنتك بعشرة آلاف درهم وأنا أسألك أن تأذن لي في تزويجها منه . فقال الشيخ: قد أذنت أيها الأمير لك بذلك . قال : فحمد الله وأثنى عليه وخطب خطبة حسنة وقال للفتى قد زوجتك هذه الجارية فلانة الحاضرة بإذنها ورضاها وإذن أبيها على هذا المال وقدره عشرة آلاف درهم ، فقال : قبلت منك هذا التزويج وأمر بحمل المال إلى دار الفتى مزفوفا في الصواني وانصرف الناس مسرورين ولم يبق أحد في سوق البصرة إلا نثر عليهما اللوز والسكر

(١) الصَّب : العاشق .

حتى دخلا منزلهما مسرورين مزفوفين قال الأصمعي : فما رأيت يوما أعجب منه أوله بكاء وترح[1]وآخره سرور وفرح .

وهذه حكاية تشابه ماتقدم :

[١٨] **قال حماد الراوية**[2] :كنت عند جعفر بن سليمان بالبصرة إذ أتى بشاب حسن الوجه ومعه جارية كأنها قضيب بان . فقال صاحب الشرطة : أصلح الله الأمير إني وجدت هذا وهذه مجتمعين فى خلوة وليس لها بمحرم . فقال جعفر للفتى : ماتقول ؟ فقال : صدق ولقد طال والله غرامى بها منذ ثلاث سنين والله ما أمكننى الخلوة بها إلا فى هذا الوقت وأنشد يقول :

تمنيت من ربى أفوز بقربها فلما تهيأ لى المنى عاقه العسر
فوالله بل والله ماكان ريبة وماكان إلا اللفظ والضحك والبشر
فدونكم جلدى ولاتجلدونها فكم من حرام كان من دونه ستر

قال : فجعلت الجارية تبكى بكاء شديدا فقال لها : وأنت لم تبكين؟ فقالت : والله شفقة مما حل بنا وكيف احتلت حتى خرجت وكيف بلينا بهذه البلية . قال : أتحبينه قالت : فلم غررت بنفسى ! قال لها : أنت حرة أم مملوكة ؟ قالت : بل مملوكة فأمرها فدخلت الدار وأحضر مولاها

---

(١) تَرَحَ ، جمع أتراح : الحزن والغم .

(٢) حماد بن سابور بن المبارك ، أبو القاسم : أول من لقب بالرواية ، وكان من أعلم الناس بأيام العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ، أصله من الديلم ، ومولده بالكوفة، وهو الذى جمع المعلقات السبع ، ت [١٥٥هـ = ٧٧٢م] . انظر : وفيات الأعيان (١٦٤/١) ، لسان الميزان (٣٥٢/٢) .

فاشتراها منه بمائتي دينار وأعتقها وزوجها للفتى ووهب له مائة دينار وكساها فأنشد الفتى يقول :

لقد جدت يابن الأكرمين بنعمة جمعت بها بين المحبين فى ستر
فلا زلت بالإحسان كهفا وملجأ وقد جل ما قد كان منك عن الشكر

قال فضحك وأمر لهما بجائزة وانصرفا مسرورين أ هـ .

٢- فصل

فى أيام دولة عبد الملك بن مروان[١]

وهو أول من تسمى عبد الملك فى الإسلام وكان يلقب برشح الحجر ذكره فى حياة الحيوان[٢] .

[١٩] **وذكر** محمد بن واسع الهيتى أن عبد الملك بن مروان بعث كتابا إلى الحجاج بن يوسف[٣] يقول فيه:"بسم الله الرحمن الرحيم إلى

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم أبو الوليد الأموى : من أعاظم خلفاء بنى أمية ودهاتهم. نشأ فى المدينة فقيها واسع العلم ، متعبدا ، ناسكا . شهد يوم الدار مع أبيه، واستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ستة عشرة عاما . وانتقلت إليه الخلافة بموت أبيه [٦٥هـ] وضبط أمورها وظهر بمظهر القوة ، فكان جبارا على معانديه . ونقلت فى أيامه الدواوين من الفارسية والرومية إلى العربية ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات. وهو أول من سك الدنانير فى الإسلام . قال الشعبى : ما ذاكرت أحدا إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان، ت [٨٦هـ - ٧١٥م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٩٨/٤) ، الطبرى (١٥٦/٨) .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (٩٥/١) .

(٣) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى : قائد ، داهية ، سفاك ، خطيب . ولد ونشأ بالطائف في الحجاز ، لحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان فى عديد شرطته ثم مازال يظهر حتى قلده عبد الملك أمر عسكره ، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير فقتله ، وفرق جمعه ، فولاه عبد الملك أمر مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليه العراق ،فتولى قمع الثورة فيها وثبت الإمارة لعبد الملك عليها عشرين سنة ، وله=

الحجاج بن يوسف إذا ورد عليك كتابى هذا وقرأته فسير لى ثلاث جوار مولدات نهداً بكار يكون إليهن المنتهى فى الجمال ، واكتب لى بصفة كل واحدة منهن ومبلغ ثمنها من المال". فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين ثم أمرهم بما أمر به أمير المؤمنين ، وأمرهم أن يغوصوا فى البلاد حتى يقعوا على الغرض فلم يزالوا من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا على الغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار نهدٍ بكار مولدات ليس لهن مثيل؛ وكان الحجاج فصيحا فجعل ينظر إلى كل واحدة منهن وثمنها من المال فوجدهن لايقومن بقيمة وإن ثمنهن ثمن واحدة منهن ؛ ثم كتب كتابا إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه : بعد الثناء الجميل وصلنى كتاب أمير المؤمنين متعنى الله تعالى ببقائه يأمر فيه أن أشترى له ثلاث جوار مولدات نهداً بكار وأن أكتب له بصفة كل واحدة منهن وثمنها : أما الجارية الأولى -أطال الله بقاء أمير المؤمنين- فإنها لطيفة السوالف[1]، عظيمة الروادف ، كحلاء العينين ، حمراء الوجنتين ، قد أنهدت نهداها والتفت فخذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهى كما قيل :

بيضاء فى طرفها دعج يزينها   كأنها فضة قد شابها ذهب[2]

وثمنها ياأمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم . وأما الجارية الثانية : فإنها فائقة فى الجمال معتدلة القد والكمال ، يشفى السقيم كلامها الرخيم ،

مآثر حسنة . وكان سفاكاً للدماء جباراً روع المسلمين . وأمره معروف ، ت[٩٥هـ = ٧١٤م] .انظر : وفيات الأعيان (١٢٣/١) ، مروج الذهب للمسعودى (١٣٠/٢).

(١) لطيفة السَوَالِف ، جمع السَالِفَة : صفحة العنق عند مُعَلَّق القرط .

(٢) دعج : سواد العين مع سعتها .

وثمنها ياأمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم . وأما الجارية الثالثة : فإنها فـاترة الطرف ، لطيفة الكف ، عظيمة الردف ، شاكرة للقليل ، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف[1] غزال ، وثمنهـا يـاأميرالمؤمنين ثمـانون ألـف درهم؛ ثم أطنب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين، وطوى الكتـاب وختمـه ودعـا بالنخاسـين ، وقـال : تجهـزوا للسـفر بهـؤلاء الجـوارى لأميرالمؤمنين. فقال أحد النخاسين : أيد الله الأمير إنى رجل كبير وضعيف عن السفر ولى ولد ينوب عنـى فتـأذن لـى أن أجهـزه قـال : نعـم فتجهـزوا وخرجوا . ففى بعض مسيرهم نزلوا ليستريحوا فـى بعـض الأمـاكن فنـامت الجوارى ، فهبت ريح فانكشفت إحداهن وهى الكوفية فظهر نور سـاطع ، وكان اسمها مكتوم فنظر إليها ابـن النخـاس وكـان شـابا جميـلا ففتـن بهـا لساعته فأتاها على غفلة من أصحابنا وجعل يقول :

أمكتـوم عينـى مـا تمـل مـن البكـا ... وقلبـى بإسـهام الأسـى يترشـق
أمكتوم كم من عاشـق قتـل الهوى ... وقلبـى رهـين كيـف لا أتعشـق

فأجابته تقول :

لـو كـان حقـا مـاتقـول لزرتنـا ... ليلا إذا هجعـت عيـون الحسد[2]

فلما جن الليل انقض ابن النخاس بسيفه وأتى نحو الجارية ، فوجدهـا قائمة تنتظر قدومه ، فأخذها وأراد الهرب بها ففطن بـه أصحابـه ، فـأخذوه وكتفـوه وأوثقـوه بـالحديد ولـم يـزل مأسـورا معهـم إلـى أن قدمـوا علـى

(١) خِشْف : ولد الظبى ، أول ما يولد .
(٢) هجعت : نامت .

عبد الملك. فلما قدموا بالجوارى بين يديه أخذ الكتاب وفتحه وقرأه فوجد الصفة موافقة فى اثنتين ولـم توافـق فـى الثالثـة ورأى بوجههـا صفـرة وهـى الجارية الكوفية ، فقال للنخاسين : مابال هذه الجارية لم توافق الصفة التـى ذكرها الحجاج فى كتابه وماهذا الاصفرار الذى بها وهذا الانتحال؟ فقـالوا ياأمير المؤمنين : نقول وعلينا الأمان ؟ إن صدقتم أمنتم وأن كذبتم هلكتـم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد بالحديد،فلما قدموه بين أمـير المؤمنين وأخبروه بما فعل بكى بكاءاً شديداً وأيقن بالعذاب ثم أنشأ يقول:

أمـير المؤمنيـن أتيـت رغمـا ... وقـد شـدت إلـى عنقـى يديـا
مقـرا بـالقبيح وسـوء فعلـى ... ولسـت بمـا رميـت بـه بريـا
فـإن تقتـل ففـوق القتـل ذنبـى ... وإن تعـف فمـن جـود عليـا

فقال له عبد الملك يافتى ماحملك على مافعلت استخفافا بنا أم هوى للجاريـة؟ فقـال : وحقـك يـاأمير المؤمنيـن وعظيـم قـدرك مـاهو إلاهـوى بالجارية، فقال هى لك بما أعد لها فأخذ الغلام الجارية بكل ما أعدها أمير المؤمنين من الحلى والجمان وسار بها فرحا مسرورا ، حتى إذا كانا ببعض الطريـق نـزلا مـنزلا ليـلا فتعانقـا فلمـا أصبـح الصبـاح وأراد النـاس الرحيـل نبهوهما فوجدا ميتين ، فبكوا عليهما ودفنوهما فى الطريق، ومضى خبرهما إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فبكى عليهما وتعجب من ذلك أهـ.

وهذه حكاية تشابهها فى العشق :

[٢٠] **حكى عن عبد الله بن معمر القيسى أنه قال :** حججت سنة إلى بيت الله الحرام فلما قضيت حجى عدت لزيارة قبر النبى ﷺ فبينما أنا

ذات ليلة جالس بين القبر والروضة إذ سمعت أنينا عاليا وحنينا باديا فأنصت إليه فإذا هو يقول هذه الأبيات:

أشجاك نوح حمائم السدر ... فأهجن منك بلابل الصدر
أم عز نومك ذكر غانية ... أهدت إليك وساوس الفكر
ياليلة طالت على دنف ... يشكو الغرام وقلة الصبر
أسلمت من يهوى لحر جوى ... متوقدا كتوقد الجمر
فالبدر يشهد أننى كلف ... مغرى بحب شبيهة البدر
ماكنت أحسبنى بها شجنا ... حتى بليت وكنت لا أدرى

قال ثم انقطع الصوت ولم أدر من أين جاءنى فبقيت حائرا ، وإذا به قد أعاد البكاء والحنين وأنشأ يقول هذه الأبيات :

أشجاك من ريا خيال زائر ... والليل مسود الذوائب عاكر
واقتاد مقلتك الهوى برسيسه ... واهتاج مقلتك الخيال الزاهر
ناديت ليلى والظلام كأنه ... يم تلاطم فيه موج زاخر
والبدر يسرى فى السماء كأنه ... ملك ترحل والنجوم عساكر
ياليل طلت على محب ما له ... إلاالصباح مساعد وموازر
فأجابنى مت حتف أنفك ... إن الهوى لهو الهوان الحاضر

قال : فنهضت عند ابتدائه الأبيات أؤم الصوت فما انتهى لآخر الآبيات إلا وأنا عنده ، فرأيته غلاما ماسال عِذارَه وُقد خرق الدمع وجنتيه خرقين ، فقلت : أنعمت غلاما. فقال : وأنت ، فمن الرجل ؟ قلت : عبد الله بن معمر القيسى . قال : أفلك حاجة ؟ قلت له : كنت جالسا فى الروضة فما راعنى فى هذه الليلة إلا صوتك فبنفسى أفديك ما الذى تجده

قالَ اجلس فجلست ، قال : أنا عتبة بـن الحبـاب بـن المنـذر بـن الجمـوح الأنصارى غدوت إلىمسجد الأحزاب فبقيت راكعا وساجدا ثـم اعـتزلت غير بعيد ، فإذا بنسوة يتهادين كالأقمار وفى وسطهن جارية بديعة الجمـال كاملة الملاحة فوقفت علىّ ، وقالت : ياعتبة ماتقول فى وصـل مـن يطلب وصلك ؛ ثم تركتنى وذهبت فلم أسمع لها خبرا ولا وقفت لها على أثر فأنا حيران أتنقل من مكان إلى مكان،ثم صرخ وانكب على الأرض مغشيا عليه؛ ثم أفاق كأنما صبغت ديباجتا خديه بورس ثم أنشد يقول هذه الأبيات :

أراكـم بقلبـى مـن بـلاد بعيـدة ... تراكـم ترونـى بـالقلوب علـى بعـد
فـؤادى وطرفـى يأسـفان عليكـم ... وعندكـم روحـى وذكركـم عنـدى
ولسـت ألـذ العيـش حتـى أراكم ... ولو كنت فى الفردوس أو جنة الخلد

قال : فقلت له : يا ابن أخى تب إلى ربك واستقل مـن ذنبـك ، فـإن بيـن يديـك هـول المطلـع ، فقـال : هيهـات مـا أنـا بسـال حتـى يـؤب القارظـان[1]ولـم أزل بـه حتـى طلـع الفجـر فقلـت : قـم بنـا إلـى مسـجد الأحزاب، فقمنا إليه فجلسنا حتى صلينا الظهر، وإذا بنسـوة قـد أقبلن وأما الجارية فليست فيهن فقلن ياعتبة مـاظنك بطالبـة وصلـك وكاشـفة مـا بـك قال: ومابالها ؟ قلن : أخذها أبوها وارتحل إلى السـماوة ، فسـألتهن عـن الجارية ،فقلن : هى ريا بنت الغطريف السلمى[2] فرفع رأسه وأنشد يقول:

---

(١) حتى يؤب القَارِظان : هما رجلان يضرب بهما المثل فيمن لم يرجع من ذهابه .

(٢) ريَّا بنت الغطريف السُّلَمِيَّة : شاعرة مـن أهـل العصـر الأمـوى ، كـانت تسـكن بادية السماوة بين الكوفة والشام ، وكان أبوهـا مـن أشـراف قومـه . انظـر : أعـلام النسـاء (٤٧٣/١) .

خليلـى ريـا قــد أجــد بكروهــا	وسـار إلـى أرض السـماوة عيرهـا
خليلى إنــى قــد عييـت عن البكا	فهــل عنــد غيرى عبرة أستعيرها

فقلت له : ياعتبة إني وردت بمال جزيل أريـد بـه أهـل السـتر ووالله لأبذلنه أمامك حتى تبلغ رضاك وفوق الرضـا قـم بنـا إلـى مسـجد الأنصـار فقمنا حتى اشرفنا على مائهم ، فسلمت فأحسنوا الرد ثم قلت : أيهـا المـلأ ماتقولون فى عتبة وأبيه ؟ قـالوا: مـن سـادات العـرب ، قلـت : فإنـه رمُـى بداهية من الهوى فأريد منكم المساعدة إلى السماوة قالوا : سمعا وطاعة ، فركبنا وركـب القوم معنا حتى أشرفنا على منازل بنى سليم فعلـم الغطريـف بمكاننا ، فخرج مبادرا واستقبلنا وقال : حييتم ياكرام . قلنا: وأنت حييـت إنا لك أضياف ، فقال : نزلتم بأكرم منزل ، ثم نادى يامعشـر العبيـد انزلـوا فنزلت العبيد ففرشت الأنطاع[١]والنمارق[٢] وذبحت النعم والغنم فقلنا لسـنا بذائقين طعامك حتى تقضى حاجتنا ، فقال : وما حاجتكم ؟ قلنا : نخطب ابنتك الكريمة لعتبة بن الحباب بن المنـذر العـالى المفخر الطيـب العنصـر، فقال : يا أخى إن التى تخطبونها أمرها إلى نفسها وأنا أدخـل وأخبرهـا ثـم نهض مغضبا ودخل إلى ريا ، فقالت: ياأبت مالى أرى الغضب بين عينيـك، فقال: ورد على قوم من الأنصار يخطبونك منـى ، فقـالت : سـادات كـرام استغفر لهم النبى ﷺ فلمن الخطبـة فيهـم ؟ قـال : لفتـى يعـرف بعتبـة بـن الحباب ، قالت : سمعت عن عتبة هذا أنه يفى بما وعد ويـدرك مـاطلب ، قال: أقسمت لا زوجتك به أبدا . فقد نمى إلىَّ بعض حديثك معه ، قـالت:

---

(١) الأنْطاع ، جمع نطع : بساط من الجلد يفرد تحت الذبائح .

(٢) النمارق ، جمع نُمْرُقَة : الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .

ماكان ذلك ، قال : ولكن أقسمت أني ماأزوجك به ، قالت :أحسن إليهم فإن الأنصار لايردون ردا قبيحا ، فأحسن الرد ، قال : بأى شئ ، قالت : أغلظ عليهم المهر فإنهم يرجعون، قال : ماأحسن ماقلت : ثم خرج مبادرا فقال : إن فتاة الحى قد أجابت ولكن أريد لها مهر مثلها فمن القائم به ؛ قال عبد الله، فقلت : أنا فقال : أريد لها ألف سوار من ذهب أحمر ، وخمسة آلاف درهم من ضرب هجر ، ومائة ثوب من الأبراد والحبر ، وخمسة أكرشة من العنبر قال : قلت لك ذلك فهل أجبت ؟ قال : أجل ؛ فأنفذ عبد الله نفرا من الأنصار إلى المدينة المنورة فأتوا بجميع ماضمنه ، وذبحت النعم والغنم واجتمع الناس لأكل الطعام ، قال : فأقمنا على هذا الحال أربعين يوما . ثم قال : خذوا فتاتكم فحملناها على هودج وجهزها بثلاثين راحلة من التحف ، ثم ودعنا وانصرف وسرنا حتى إذا بقى بيننا وبين المدينة المنورة مرحلة خرجت علينا خيل تريد الغارة وأحسب أنها من بنى سليم فحمل عليها عتبة بن الخباب ، فقتل عدة رجال وانحرف راجعا وبه طعنة ثم سقط إلى الأرض ، وأتتنا النصرة من سكان تلك الأرض فطردوا عنا الخيل ، وقد قضى عتبة نحبه. فقلنا : واعتبتاه فسمعتنا الجارية تقول : واعتبتاه فألقت نفسها من فوق البعير وانكبت عليه وجعلت تصيح وتقول بحرقة :

تصبرت لا إنى صبرت وإنما أعلل نفسى إنها بك لاحقه

ولو أنصفت روحى لكانت إلى الردى أمامك من دون البرية سابقة

فما أحد بعدى وبعدك منصف خليلا ولانفس لنفس موافقه

ثم شهقت شهقة قضت نحبها ، واحتفرنا لهما قبرا واحدا وواريناهما فى التراب ورجعت إلى ديار قومى ، وأقمت سبع سنين عدت إلى الحجاز،

ووردت المدينة المنورة للزيارة ، فقلت : لأعودن إلى قبر عتبة فأتيت إلى القبر فإذا شجرة عليها عصائب حمر وصفر وخضر ، فقلت : لأرباب المنزل مايقال لهذه الشجرة ؟ فقالوا: شجرة العروسين فأقمت عند القبر يوما وليلة وانصرفت وكان آخر العهد به(١).

ومثل ماتقدم من العشق وماورد فى كتمان الهوى مع تحقق النظر عند إعلانه :

[٢١] **ماحكى عن بعض المعمرين من ذوى النعم ، قال** : بينما أنا فى منزلى إذ دخل على خادم لى ومعه كتاب فقال : رجل بالباب دفع إلى هذا الكتاب ففتحته فإذا فيه شعر:

تجنبك البلاء ونلت خيرا ... ونجاك المليك من الغموم
فعندك لو مننت شفاء نفسى ... وأعضاء ضنين من الكلوم

فقلت عاشق والله ، وقلت للخادم : اخرج وأتنى به فخرج فلم ير أحدا فتعجبت من أمره وأحضرت الحوارى كلهن من يخرج منهن ومن لم يخرج منهن وسألتهن عن ذلك فحلفنى أنهن لايعرفن من حديث هذا الكتاب شيئا ، فقلت : إنى لم أفعل ذلك بخلا بمن يهوى منكن فمن عرفت بحال هذا الفتى فهى هبة منى له بمالها ومائة دينار ، وكتبت جوابه أشكره على ذلك وأسأله قبولها ، ووضعت الكتاب فى جنب البيت ومائة دينار وقلت : من عرف شيئا فليأخذه . فمكث الكتاب والذهب أياما لا

---

(١) انظر : تزيين الأسواق فى أخبار العشاق لداود الأنطاكى ص ١٦٤

يأخذه أحد فغمني ذلك . قلت : هـذا قنع ممـن يحبه بـالنظر فمنعـت مـن يخرج من جوارى من الخروج فما كان إلا يوم أو بعض يوم إذ دخل علـى الخادم ومعه كتاب ، وقال : هذا من بعض أصدقائك بعث به إليك فقلت : اخرج وائتنى به فخرج فلم يجده ففتحت الكتاب فإذا فيه :

مــاذا أتيــت إلــى روح معلقــة	عند التراقى وحادى الموت حاديهـا
حثـت حاديهـا ظلمـا فجذبهـا	فى السير حتى تخلـت عـن تراقيهـا
والله لـو قيـل لـى تـأتى بفاحشـة	وإن عقبـاك دنيانـا ومـا فيهـا
لقلـت لا والـذى أخشـى عقوبتـه	ولابأضعافهـا مـاكنت آتيهـا
لـولا الحيـاء لبحنا بالذى سـكنـت	بيـت الفـؤاد وأبدينـا أمانيهـا

قال فغمني أمـره فقلـت للخـادم : لايـأتينك أحـد بكتـاب إلا قبضـت عليه، قال : وقرب موسم الحاج ، قال : فبينما أنا قد أفضت من عرفـة وإذا فتى إلى جانبى على ناقة لم يـق منـه إلا الخيـال فسـلم علـى فـرددت عليـه السلام ورحبت به ، فقال : أتعرفني؟ فقلت : ومانكرك بسوء ، فقـال : أنـا صاحب الكتابين ، فانكبت عليه فقلت له : يا أخى لقد غمنى أمرك وأقلقنى كتمانك لنفسك ووهبت لك طلبتك ومائة دينار، فقال : بارك الله لك إنمـا أتيتك مستحلا من نظر كنت أنظره على غير حكم الكتاب والسنة ، فقلت: غفر الله لك وللجارية فسر معى إلى منزلى لأسلمها إليك ومائة دينار ومثلها فى كل سنة ، فقال : لا حاجة لى بذلك فألححت عليه فلم يفعـل ، فقلـت له : أما إذا أبيت فعرفنى من هى من جوارى لأكرمهـا مـن أجلـك مـاحييت فقال ماكنت لأسميها لأحد وودعنى وانصرف وكان آخر العهد به، انتهى.

ونعود إلى الكلام عَلى ماوقع فى زمان عبد الملك بن مروان

[٢٢] روى : أنه لما ولى الحجاج الحرمين الشريفين حظى عنده إبراهيم بن محمد بن طلحة فلما أراد الحجاج الرجوع إلى الشام إلى عبد الملك بن مروان أوفد معه إبراهيم بن محمد بن طلحة ، وقال : أتيتك برجل الحجاز فى الشرف والأبوة والفضل والمروءة ياأمير المؤمنين مع ماهو عليه من حسن الطاعة وجميل المناصحة والله لم يكن فى الحجاز له نظير فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا فعلت معه من الخير ماهو مستحقه، فقال عبد الملك : من هو ياأبا محمد ؟ قال له : إبراهيم بن محمد بن طلحة ، قال : ياأبا محمد لقد ذكرتنا بحق واجب ائذن له فى الدخول فلما دخل على عبد الملك أمر بجلوسه فى صدر المجلس ثم قال : إن أبا محمد الحجاج ذكر لنا مانعرفه من كمال مروءتك وحسن نصيحتك فلا تدع فى صدرك حاجة إلا أعلمتنا بها حتى نقضيها لك ، ولانضيع شكر أبى محمد الحجاج فيك . قال إبراهيم : إن الحاجة التى نبغى بها وجه الله تعالى والتقرب إلى النبى ﷺ فى القيامة نصيحة أمير المؤمنين ، قال : قل ، قال : لاأقولها وبينى وبينك ثالث ، قال : ولاصديقك الحجاج ، قال : لا ،. قال : قم ، فقام خجلا وهو لايعرف أين تطأ رجله .

فلما مضى ، قال له : هات نصيحتك ، فقال إبراهيم : ياأمير المؤمنين وليت الحجاج الحرمين الشريفين وفيهما من تعرف من أولاد المهاجرين والأنصار وصحابة رسول ﷺ مع ما تعلمه من ظلمه وفسقه وجوره وبعده من الحق ، وقربه به إلى الباطل ، يسومهم الخسف ويطؤهم بالعسف ، فليت شعرى أى جواب أعددته لرسول الله ﷺ إذا سألك الله فى عرصات القيامة عن ذلك فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا عزلته وادخرتها قربة إلى الله

تعالى ، فقال عبد الملك : لقد ظن الحجاج الخير بغير أهله ؛ ثم قال : يا إبراهيم قم فقمت على أنحس حال وخرجت من المجلس وقد اسودت الدنيا في وجهي ، فتبعني حاجبه وقبض على زندي وجلس بي في الدهليز، ثم دعا عبد الملك بالحجاج ، فدخل فمكثنا طويلا فما شككت أنهما يتشاوران في قتلي ثم دعاني فقمت ودخلت فوافاني الحجاج خارجا فعانقني ، وقال : جزاك الله عني خيرا في هذه النصيحة أما والله لئن عشت لأرفعن قدرك ، وتركني وخرج ؛ ودخلت وأنا أقول يهزأ بي وهومعذر ، فدخلت على عبد الملك فأجلسني مجلسي الأول ثم قال لي : قد علمت صدقك وقد عزلته عن الحرمين ووليته العراق وأعلمته أنك استقللت له الحجاز واستدعيت له العراق وأنك تطلب له الزيادة في الأعمال وهو يظن أنك السبب في توليته العراق وقد تهلل وجهه فرحا بذلك ، فسر معه أيضا أينما توجه يولك خيرا ولاتقطع نصيحتك عنا والله أعلم[1].

[٢٣] وفي مروج الذهب للمسعودي[2] وشرح السيرة وغيرهما :
أن أم الحجاج بن يوسف ، وهي : الفارعة بنت همام ولدته مشوها لادبر له فثقب دبره وأبى أن يقبل ثدي أمه أو غيرها فأعياهم أمره ، فيقال : إن الشيطان تصور لهم في صورة الحارث بن كلدة[3] ، فقال : ماخبركم ؟

---

(١) انظر : الشهب اللامعة في السياسة النافعة ، لابن رضوان المالقي ص ١٢٨ .

(٢) انظر : مروج الذهب (١٣٠/٢) ، والمسعودي هو : أبو الحسن علي ، مؤرخ ورحالة من أهل بغداد ، من ذرية بن مسعود رضي الله عنه ، ت[٣٤٦هـ - ٩٥٧م] .

(٣) الحارث بن كلدة الثقفي : طبيب العرب في عصره ، وأحد الحكماء المشهورين ، من أهل الطائف . مولده قبل النبي ﷺ وبقي أيام رسول الله ، وأيام أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وكان النبي يأمر من به علة أن يأتيه فيتطيب عنده ، ت[٥٠هـ - ٦٧٠م] . انظر : طبقات الأطباء (١٠٩/١) .

فقالوا : ولد ليوسف الثقفى من الفارعة ولد وقد أبى أن يقبل ثدى أمه ، فقال : اذبحوا له تيسا أسود وألعقوه دمه ثم اذبحوا له أسود سالخا وأولغوه من دمه وأطلوا به وجهه ثلاثة أيام ، ففعلوا فقبل الثدى فى اليوم الرابع فكان لايصبر عن سفك الدم وارتكاب أمور لا يقدر عليها غيره أهـ(١) .

[٢٤] **من حياة الحيوان(٢) فى حرف التاء(٣)** وحكى :أن الحجاج انفرد يوما من عسكره فلقى أعرابيا ،فقال له :ياوجه العرب كيف الحجاج؟ فقال : ظالم غاشم . قال : هلا شكوته إلى عبد الملك بن مروان، قال : أظلم وأغشم عليهما لعنة الله . فبينما هو كذلك إذ تلاحقت به عساكره فعلم الأعرابى أنه الحجاج ؛ فقال : الأعرابى :أيها الأمير السر الذى بينى وبينك لايطلع عليه أحد إلا الله.فتبسم الحجاج وأحسن إليه وانصرف .

[٢٥] **وذكر أهل التواريخ** : أن الحجاج بن يوسف الثقفى ، سهر ليلة وعنده جماعة منهم خالد بن عرفطة ، فقال : ياخالد ائتنى بمحدث من المسجد ، والناس إذ ذاك يطلبون المقام فى المسجد ، فانتهى إلى شاب قائم يصلى فجلس حتى سلم ، ثم قال : أجب الأمير قال : أبعثك الأمير إلىَّ قاصد ؟ قال : نعم فمضى معه حتى انتهى إلى الباب ، فقال له خالد : كيف أنت ومحادثة الأمير ؟ قال : سيجدنى كما يحب إن شاء الله تعالى ،

---

(١) انظر : مروج الذهب للمسعودى (١/١٣٠) .

(٢)صاحب كتاب حياة الحيوان : محمد بن موسى بن عيسى بن على الدميرى ، أديب من فقهاء الشافعية من أهل دميرة (بمصر) ولد بالقاهرة وتوفى بها [٨٠٨هـ - ١٤٠٥م] .

(٣) انظر : حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، حرف التاء (١/٢٤٥) .

فلما دخل عليه ، قال له الحجاج : هل قرأت القرآن ؟ قال : نعم وقد حفظته ، قال : فهل تروى شيئا من الشعر ؟ قال : ما من شاعر إلا وأروى عنه ، قال: فهل تعرف من أنساب العرب ووقائعها ؟ قال : لايذهب عنى شيء من ذلك، فلم يزل يحدثه بكل ماأحب حتى إذا هم بالانصراف ، قال: ياخالد مر للفتى يبرذون وغلام ووصيفة وأربعة آلاف درهم ، فقال الفتى : أصلح الله الأمير بقى من حديثى أطرفه وأعجبه فعاد الحجاج إلى مجلسه، وقال: حدثنى ، فقال: أصلح الله الأمير هلك والدى وأنا طفل صغير فنشأت فى حجر عمى وله ابنة بسنى وكنا فى التصابى من الصبا وماكنا فيه أعجوبة، حتى إذا بلغت وبلغت تنافس الخطاب فيها وبذلوا فيها أموالا لجمالها وكمالها فلما رأيت ذلك خامرنى السقم وضنيت ورميت على الفراش ثم عمدت إلى خابية عظيمة فملأتها رملا وصخرا وقبرت رأسها ودفنتها تحت فراشى فلما، تم على ذلك أيام بعثت إلى عمى، فقلت: ياعمى إنى كنت أريد السفر فوقعت على مال عظيم وخفت أن أموت ولايعلمه أحد فإن حدث بى أمر فأخرجه ، وأعتق عنى عشر نسمات، واحجج عنى عشر حجج ، وجهز عنى عشر رجال بخيولهم وأسلحتهم، وتصدق عنى بألف دينار ، ولاتبال ياعم فإن المال كثير . فلما سمع عمى مقالتى أتى امرأته فأخبرها بقولى فما كان بأسرع من أن أقبلت بجواريها حتى دخلت على فوضعت يدها على رأسى؛ ثم قالت: والله يابن أخى ماعلمت بسقمك وماحل بك حتى أخبرنى أبو فلان الساعة وأقبلت تلاطفنى وتعالجنى بالأدوية وحملت لى لطائف وردت الخطاب عن ابنتها. فلما رأيت ذلك تحاملت ثم بعثت إلى عمى أن الله عز وجل قد أحسن إلى وعافانى فابتغ لى جارية من خصالها وكمالها كيت وكيت ولايسألونك

شيئا إلا أعطيته ، فقال يابن أخى مايمنعك من ابنة عمك، فقلت : هى من أعز خلق الله تعالى على غير أنى قد خطبتها قبل ذلك فامتنعت ، قال:كلا إن الامتناع كان من قبل أمها وهى الآن سمحت ورضيت بذلك ، فقلت : شأنك فرجع إلى امرأته فأخبرها بقولى فجمعت عشيرتها وزوجونى إياها ، فقلت: عجل على بابنة عمى كيف شئت ثم أريك الخابية فأهديت إلى ولم تدع شيئا يصنع بإشراف النساء إلا فعلته ثم زفت ابنتها علىَّ وأحضرتها بكل ماوجدت إليه سبيلا ؛ وأخذ عمى؛ متاعا من التجار بعشرة آلاف درهم وكان يأتينا فى كل صباح من قبل أبويها لطائف وتحف مدة فلما كان بعد ذلك بأيام أتانى عمى ؛ وقال : يابن أخى إنا قد أخذنا من التجار متاعا بعشرة آلاف درهم وليسوا صابرين على حبس الثمن ، قلت : شأنك والخابية فمر مسرعا حتى جاء بالرجال والحبال فاستخرجها وحملها ومر مسرعا بها إلى منزله . فلما فتحها وجد فيها ما علمت فما كان بأسرع من أن جاءت أمها بجواريها فلم تدع فى منزلى كثيرا ولا قليلا إلا حملته فبقيت مهانا على الأرض ، وجفتنا كل الجفاء فهذا حالى أصلح الله الأمير فأنا من خجلى وضيق صدرى آوى إلى المساجد؛ فقال الحجاج : ياخالد مر للفتى بثياب ديباج وفرس أرمنية وجارية وبرذون وغلام وعشرة آلاف درهم ، وقال : يافتى اغد إلى خالد غدا حتى تستوفى منه المال فخرج الفتى من عند الحجاج قال : فلما انتهيت إلى باب دارى سمعت ابنة عمى تقول : ياليت شعرى ماأبطأ بابن عمى أقتل أم مات أم عرض له سبع ، قال: فدخلت عليها وقلت يابنة عمى أبشرى وقرى عينا فإنى دخلت على الحجاج فكان من القصة كيت وكيت وحكيت لها ما كان من أمرى فلما سمعت الفتاة مقالتى ، لطمت وجهها وصاحت فسمع أبوها وأمها

وأخواتها صراخها فدخلوا عليها وقالوا لها : ماشـأنك ؟ فقـالت لأبيهـا : لا وصل الله رحمك ولاجزاك عنـى وعـن ابـن أخيـك خـيرا جفوتـه وضيعتـه حتىأصابته الخفة وذهب عقله اسمع مقالته فقال العم ياابن أخى ماحـالك ؟ فقلت : والله مابى من بأس إلا أنى دخلت على الحجاج وذكر له مـن أمـره ما كان وأنه أمر له بمال جزيل ، فقـال العـم لمـا سـمع مقالتـه هـذه مـرة صفراء ثائرة فباتوا يحرسونه تلك الليلة فلما أصبحوا بعثوا إلى المعالج فجعل يعالجه ويسعطه مرة ويسهله أخرى ، فيقـول الفتـى : واللـه مـابى مـن بـأس وإنما دخلت على الحجاج فكـان كيـت وكيـت فلمـا رأى الفتـى أن ذكـر الحجاج لايزيده إلا بلاء كف عنــه وعـن ذكـره ؛ ثـم قـال لـه مـاتقول فـى الحجاج قال مارأيته ثم خرج المعالج فقال لهم قد ذهب عنـه الأذى ولكـن لاتعجلوا بحل قيده فبقى الفتى مقيدا مغلولا .

فلما كان بعد أيام ذكره الحجاج، فقال ياخالد : مافعل الفتى ؟ فقال أصلح الله الأمير مارأيته منذ خرج مـن حضـرة الأمـير ، قـال : فـابعث إليـه أحدا ، قال : فبعث إليه خالد حرسـيا فمـر الحرسى على العم فقـال لـه : مافعله ابن أخيك فإن الحجاج يطلبه ، قـال : إن ابـن أخـى لفـى شـغل عـن الحجاج قد ابتلى ببلاء فى عقله ، قال : لاأدرى ماتقول لابد من الذهاب به الساعة ؛ فدخل عليه العم فقال : يابن أخى إن الحجاج قد بعث فى طلبـك أفاحلك ؟ قال : لا إلا بين يديه فحمل فى قيوده وغله علـى ظهـور الرجـال حتى أدخل على الحجاج ، فلما نظره من بعد جعل يرحب بـه حتـى انتهـى اليه فكشف قيده وغله وقال : أصلح الله الأمير إن آخـر أمـرى أعجـب مـن أوله وحدثه بحديثه فعجب الحجاج ، وقال : ياخالد أضعـف للفتـى ماكنـا

قد أمرنا له به ، فقبض المال أجمع وحسن حاله ولم يزل مسامراً للحجاج حتى مات أهـ.

[٢٦] **قيل** : وحضر أعرابى عند الحجاج ، فقدم الطعام فأكل الناس منه ثم قدمت الحلوى فترك الحجاج الأعرابى حتى أكل منها لقمة ثم ، قال: من أكل من الحلوى ضربت عنقه فامتنع الناس من أكلها وبقى الأعرابى ينظر إلى الحجاج مرةوإلى الحلوى مرة ثم ؛ قال : أيها الأمير أوصيك بأولادى خيرا ثم اندفع يأكل ، فضحك الحجاج حتى استلقى على قفاه وأمر له بصلة.

[٢٧] **وحكى** : أن الحجاج أمر صاحب حراسته أن يطوف بالليل فمن وجده بعد العشاء ضرب عنقه ، فطاف ليلة فوجد ثلاثة صبيان يتمايلون وعليهم أثر الشراب فأحاط بهم ؛ وقال لهم : من أنتم حتى خالفتم الأمير ؟

فقال الأول :

أنا ابن من دانت الرقاب له ... مابين مخزومها وهاشمها
تأتى إليه الرقاب صاغرة ... يأخذ من مالها ومن دمها

فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين .

وقال الثانى :

أنا ابن الذى لاينزل الدهر قدره ... وإن نزلت يوما فسوف تعود
ترى الناس أفواجا إلى ضوء ناره ... فمنهم قيام حولها وقعود

فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من أشراف العرب .

وقال الثالث :

أنا ابن الذى خاض الصفوف بعزمه وقومها بالسيف حتى استقامت
ركاباه لاتنفك رجلاه منهما إذا الخيل فى يوم الكريهة ولت

فأمسك عن قتله ، وقال : لعله من شجعان العرب فلما أصبح رفع أمرهم إلى الحجاج فأحضرهم وكشف عن حالهم ، فإذا الأول ابن حجام ، والثانى ابن فوال ، والثالث ابن حائك ، فتعجب الحجاج من فصاحتهم ، وقال : لجلسائه علموا أولادكم الأدب فوالله لولا الفصاحة لضربت أعناقهم ثم أطلقهم وأنشد :

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك محموده عن النسب
إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

[٢٨] **وقيل** : أمر الحجاج بقتل أسرى ، فقتل منهم جماعة ؛ فقال رجل منهم، وقد عرض للقتل : ياحجاج إن كنا أسأنا فى الذنب فما أحسنت فى العفو والله تعالى يقول **﴿فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منًا بعد وإما فداء﴾** [محمد:٤] فهذا قول الله تعالى فى الكفار فكيف بالمسلمين،وقد قال الشاعر:

ومانقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل الغلائل

فقال الحجاج : أف لهؤلاء الجيف ، والله لو قال هؤلاء مثل ما قال هذا الرجل ماقتلت منهم أحدا ولكن أطلقوا بقيتهم .

[٢٩] **قال الراوى** : ولما ولى الحجاج العراق قال : على بالمرأة الحرورية فلما حضرت قال لها كنت بالأمس فى وقعة الزبير تحرضين الناس على قتل رجالى ونهب أموالى ، قالت : نعم قد كان ذلك ياحجاج فالتفت

الحجاج إلى وزرائه ، وقال : ماترون فى أمرها ؟ فقالوا : عجل بقتلها ، فضحكت المرأة ، فاغتاظ الحجاج وقال:ماأضحكك ؟ قالت : وزراء أخيك فرعون خير من وزرائك هؤلاء ، قال : وكيف ذلك قالت : لأنه استشارهم فى موسى ، فقالوا : أرجه وأخاه أى أنظره إلى وقت آخر وهؤلاء يسألونك تعجيل قتلى فضحك الحجاج وأمر لها بعطاء وأطلقها .

[٣٠] **وحكى** : أن هند بنت النعمان(١) كانت أحسن نساء زمانها فوصف للحجاج حسنها فخطبها وبذل لها مالا جزيلا وتزوج بها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتى ألف درهم ، ودخل بها ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة مدة طويلة ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ماشاء الله ثم دخل عليها فى بعض الأيام وهى تنظر فى المرآة وتقول :

وماهند الا مهرة عربية ... سلالة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلاً فلله درها ... وإن ولدت بغلا فجاء به البغل

فلما سمع الحجاج كلامها انصرف راجعا ولم يدخل عليها ولم تكن علمت به فأراد الحجاج طلاقها ، فأنفذ إليها عبد الله بن طاهر وأنفذ لها معه مائتى ألف درهم وهى التى كانت لها عليه ، وقال : ياابن طاهر طلقها بكلمتين ولاتزد عليهما فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها : يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت ؛ وهذه المائتا ألف درهم التى كانت لك

(١) هند بنت النعمان بن بشير الأنصارية : شاعرة فصيحة وأديبة برزة ، كانت ذات حسن وجمال . وكانت عند روح بن زنباع ، قبل أن يتزوجها الحجاج . انظر : أعلام النساء (٢٥٩/٥) .

قبله. فقالت : اعلم يابن طاهر إنا والله كنّا فما حمدنا ثـم بنّـا فمـا ندمْنـا ، وهذه المائتا ألف هي لك ببشارتك بخلاصي من كلب ثقيف ؟

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرهـا ووُصـف له جمالها فأرسل إليها يخطبها لنفسه فأرسلت إليه كتاباً تقـول فيـه : بعـد الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين : إن الكلب ولغ في الإناء . فلما قرأ عبـد الملك بن مروان الكتاب ضحك من قولها ، وكتـب إليهـا يقـول : إذا ولـغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعا إحداهن بالتراب ، فغسْـلُ الإنـاء يحـل الاستعمال . فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفـة ، فكتبـت إليه تقول بعـد الثنـاء عليـه : اعلـم ياأمير المؤمنيـن إنـي لاأجـري العقـد إلا بشرط، فـإن قلـت : مـا الشـرط ؟ أقـول : أن يقـود الحجـاج محملـي مـن المعرة[1] إلى بلدك التي أنت فيها ويكون ماشيا حافيا بحليته التي كان فيهـا أولا . فلما قرأ ذلك الكتاب عبد الملك ضحك ضحكا شديدا وأرسل إلـى الحجاج يأمره بذلك . فلما قرأ الحجاج رسالة أميـر المؤمنيـن أجـاب ولـم يخالف وامتثل الأمر وأرسل الحجـاج إلـى هنـد يأمرهـا بـالتجهز فتجهـزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلـد هنـد فركبـت فـي محمـل وركـب حولها جواريها وخدمها فترجل الحجاج وهـو حـاف وأخـذ بزمـام البعير يقوده ويسير بها ، فأخذت تهزأ عليه وتضحك مع الهيفاء دايتهـا؛ ثـم إنها قالت لدايتها:يادايتي اكشفي لـي سـتارة المحمـل لنشـم رائحـة النسـيم فكشفته فوقع وجهها في وجهه فضحكت عليه فأنشد يقول :

---

(١) المَعَرَّة هي : معرة النُّعمان ، مدينة في سوريا ، وهي مركز رأس أبي العلاء المعري.

فإن تضحكي ياهند يارب ليلة   تركتك فيها كالقباء المفرج[1]

فأجابته تقول :

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت   بما فقدناه من مال ومن نشب[2]
فالمال مكتسب والعز مرتجع   إذا النفوس وقاها الله من عطب

ولم تزل تلعب وتضحك إلى أن قربت من بلد الخليفة ؛ فلما قربت من البلد رمت من يدها دينارا على الأرض وقالت : ياجمّال إنه سقط منّا درهم. قال : بل دينار فقالت : الحمد لله سقط منّا درهم فعوضنا الله دينارا . فخجل الحجاج وسكت ولم يرد جوابا ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها وكان من أمرها ما كان[3] .

[٣١] ذكر في حياة الحيوان[4] قال عون بن أبي شداد العبدي : بلغني أن الحجاج بن يوسف لما ذكر له سعيد بن جبير[5] أرسل قائدا من الشام يسمي المتلمس بن الأحوص ومعه عشرون رجلا ، فبينما هم يطلبونه

---

(١) القباء المفرج ، المراد : أنه أهملها وتركها وحيدة .

(٢) النَشَب : الديار والأملاك .

(٣) انظر : أخبار النساء لابن القيم ص ٦٥ .

(٤) انظر حياة الحيوان ، حرف اللام (٢/٤٢٦) .

(٥) سعيد بن جبير الأسدي ، أبو عبد الله : من علماء التابعين العباد ، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس ، ثم كان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه قال : أتسألونني وفيكم ابن أم دهماء يعني سعيدا ، قال أحمد بن حنبل ، لما قتله الحجاج : قتل الحجاج سعيدا وما على وجه الأرض أحدا إلا وهو مفتقر إلى علم سعيد ، ت[٩٥هـ = ٧١٤م] . انظر : طبقات ابن سعد (٦/١٧٨) ، وفيات الأعيان (١/٢٠٤) .

إذا هم براهب فى صومعة له فسألوه عنه ، فقال الراهب : صفوه فوصفوه فدلهم عليه ، فانطلقوا فوجدوه ساجدا يناجى ربه بأعلى صوته فدنوا منه وسلموا عليه فرفع رأسه فأتم بقية صلاته ثم رد عليهم السلام ، فقالوا : أرسل الحجاج إليك فأجبه فقال : لابد من الإجابة ؟ قالوا : لابد ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ ثم قام فمشى معهم حتى انتهى إلى دير الراهب .

فقال الراهب : يامعشر الفرسان أصبتم صاحبكم ؟ قالوا : نعم ، قال: اصعدوا إلى الدير فإن الأسد واللبوة يأويان إلى الدير فعجلوا الدخول قبل المساء ففعلوا ذلك ، وأبى سعيد أن يدخل الدير ، فقالوا : مانراك الا تريد الهرب ، قال : لا ولكن لا أدخل منزل مشرك أبدا ، قالوا : فإنا لاندعك فإن السباع تقتلك ، قال سعيد : إن معى ربى يصرفها عنى ويجعلها حرسا لى من كل سوء إن شاء الله تعالى ، قالوا : أفأنت نبى من الأنبياء ؟ قال:ما أنا من الأنبياء ولكن عبد من عبيد الله خاطئ مذنب ، قالوا احلف لنا إنك لاتبرح ، فحلف لهم . فقال لهم الراهب : اصعدوا الدير وأوتروا القسى[1] لتنفروا السباع عن هذا العبد الصالح ، فإنه كره الدخول علىّ فى الصومعة فدخلوا وأوتروا القسى فإذا هم بلبوة أقبلت ودنت من سعيد وتحككت وتمسحت به ثم ربضت قريبا منه ، ثم أقبل الأسد فصنع مثل ذلك ، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا نزل إليه وسأله عن شرائع الإسلام وسنن رسول الله ﷺ ففسر له سعيد ذلك كله فأسلم الراهب وحسن إسلامه ، وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه ويقبلون يديه ورجليه ويأخذون التراب الذى

(١) أوتروا القِسّى : استعدوا للرمى بالسهام .

وطئه بالليل وصلى عليه وقالوا ياسعيد حلفنا الحجاج بالطلاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه فمرنا بما شئت قال : امضوا لشأنكم فإنه لابد من الرجوع لخالقي ولاراد لقضائه فسار حتى وصلوا واسط فلما انتهوا ، قال لهم سعيد : يامعشر القوم قد تحرمت بكم وصحبتكم ولست أشك أن أجلي قد حضر وأن المدة قد انقضت ، فدعوني الليلة آخذ أهبة الموت وأستعد لمنكر ونكير وأذكر عذاب القبر ومايحثى عليَّ من التراب فإذا أصبحتم فالميعاد بيني وبينكم المكان الذي تريدون ، فقالوا لبعضهم : لانريد أثراً بعد عين ، وقال بعضهم : قد بلغتم أمنيتكم واستوجبتم جوائزكم من الأمير فلا تعجزوا عنه ، فقال بعضهم : هو على أدفعه إليكم إن شاء الله تعالى فنظروا إلى سعيد فدمعت عيناه واغبر لونه ولم يأكل ولم يشرب ولم يضحك منذ لقوه فقالوا بأجمعهم : ياخير أهل الأرض ليتنا لم نعرفك ، ولم نرسل إليك ، الويل لنا ، كيف ابتلينا ، ماعذرنا عند خالقنا يوم المحشر الأكبر، والمحاوبة له ، وقال كفيله : أسالك ياسعيد بالله ألا مازودتنا من دعائك وكلامك ، فإنا لانلقى مثلك أبدا فدعا لهم سعيد ، ثم خلوا سبيله فغسل رأسه ومدرعته وكساءه وهم مختفون الليل كله .

فلما انكشف عمود الصبح جاءهم سعيد بن جبير فقرع الباب ، فقالوا: صاحبكم ورب الكعبة فنزلوا إليه وبكوا معه طويلا ثم ذهبوا به إلى الحجاج ، فدخل عليه المتلمس فسلم وبشره بقدوم سعيد بن جبير ؛ فلما مثل بين يديه ، قال : ماسمك؟ قال : سعيد بن جبير . قال أنت شقى بن كسير. قال : بل أمي كانت أعلم باسمي منك .قال : شقيت أنت وشقيت أمك . قال : الغيب يعلمه غيرك . قال: لأبدلنك بالدنيا نار . قال : لو

علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها . قال : فما قولك في محمد؟ قال : نبى الرحمة قال: فما قولك فى على أفى الجنة أم فى النار قال لو دخلتها وعرفت أهلها عرفت من فيها قال : فما قولك فى الخلفاء قال : لست عليهم بوكيل. قال : فأيهم أحب إليك ؟ قال : أرضاهم للخالق . قال : فأيهم أرضى للخالق ؟ قال : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم . قال : فما بالك لاتضحك قال أيضحك مخلوق من طين والطين تأكله النار فما بالنا نضحك . قال : لم تستو القلوب . قال : ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فوضعه بين يديه، فقال سعيد : إن كنت جمعت لتفتدى به من فزع يوم القيامة فصالح وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ولاخير فى شئ جمع لدنيا إلا ماطاب وزكا ؛ ثم دعا الحجاج بآلات اللهو فبكى سعيد . فقال الحجاج: ويلك ياسعيد اختر أى قتلة تريد. قال: اختر لنفسك ياحجاج فوالله لاتقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة . قال : أفتريد أن أعفو عنك . قال : إن كان العفو من الله فبلى ، وأما أنت فلا . قال : اذهبوا به فاقتلوه فلما خرج من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده ، وقال: ماأضحكك ؟ قال : عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عليك ، فأمربالنطع فبسط بين يديه ، وقال : اقتلوه . قال : ﴿**وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وماأنا من المشركين**﴾[الأنعام:٧٩] قال : وجهوه لغير القبلة. قال سعيد : ﴿**فأينما تولوا فثم وجه الله**﴾[البقرة: ١١٥] قال : كبوه لوجهه. فقال سعيد : ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى**﴾[طه: ٥٥] فقال الحجاج: اذبحوه. فقال سعيد : أشهد أن لااله الا الله وأشهد أن محمدا

عبده ورسوله اللهم لاتسلطه على أحد يقتله بعدى ، فذبح على النطع رحمه الله تعالى فكان رأسه بعد قطعه يقول لا إله إلا الله ، وعاش الحجاج بعدها خمسة عشرة يوما وذلك فى سنة خمس وتسعين وكان عمر سعيد رضى الله تعالى تسعا وأربعين سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم[1].

(١) انظر : حلية الأولياء لأبى نعيم (٢٧٢/٤) .

٣- فصل

خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان[١]

كان يختم القرآن فى ثلاث ، وكـان يختم فـى رمضـان سبع عشـرة ختمة، قال إبراهيم بن علية[٢] : كان يعطينـى أكيـاس الدنـانير أقسـمها فـى الصالحين ، وكان يقول: لولا أن الله عز وجل ذكر اللواط فى كتابه العزيـز ماظننت أن أحدا يفعله .

[٣٢] **قال الحافظ بن عساكر**[٣] : كان الوليد عند أهل الشام أفضـل من خلفائهم؛ بنى المسجد بدمشق وفـرض للمجذومين مـايكفيهم ، وقـال لاتسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادما ، وكـل أعمـى قـائدا ؛ وذكـر أن جملة ماأنفق على المسجد الأموى أربعمائة صندوق فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار وكان فيه ستمائة سلسلة ذهـب للقنـاديل ، ومـا كمـل بناءه الا أخوه سليمان لما ولى الخلافة وفعل خـيرات كثيرة وآثـارا حسنة

---

(١) الوليد بن عبد الملك بن مروان ، ولى الخلافة بعد وفاة أبيه (٨٦ هـ) امتدت فى زمنـه حدود الدولة الإسلامية إلى بلاد الهند ، فتركستان ، فأطراف الصين شرقا . وأول مـن أحدث المستشفيات فى الإسلام ، وجعل لكل أعمى قائدا ، يتقاضى نفقاتـه مـن بيـت المال ، وبنى الجامع الأموى بدمشـق . وكـانت مـدة خلافتـه (تسـع سـنوات وثمانيـة أشهر) وكان نقش خاتمه "يا وليد إنك ميت" ، ت[٩٦هـ =٧١٥م] .

(٢) انظر : تاريخ بغداد (٦/ ٢٠) .

(٣) الحافظ بن عساكر : علي بن أبي محمد الحسن بـن هبـة الله .، محـدث الشـام فـى وقته، ومن أعيان فقهاء الشافعية ، لـه تـاريخ دمشـق ، ت[٥٧١هـ] . انظـر : وفيـات الأعيان (٣/ ٣٠٩-٣١١) .

وبعد هذا كله ، فقد روى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال لما أدرج في أكفانه غلت يداه إلى عنقه نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة ونسأله حسن الخاتمة ، انتهى من حياة الحيوان[1] .

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١٠٠) .

٤- فصل

خلافة سليمان بن عبد الملك بن مروان[١]

[٣٣] **فمما يذكر من محاسنه**[٢] : أن رجلا دخل عليه ، فقال : ياأمير المؤمنين أنشدك الله والأذان ، فقال سليمان : أما أنشدك الله فقد عرفناه فما الأذان ؟ قال : قوله تعالى ﴿**فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين**﴾ [الأعراف: ٤٤] فقال سليمان : ما ظلامتك؟ قال : ضيعتى الفلانية غلبنى عليها عاملك فلان ؛ فنزل سليمان عن سريره ورفع البساط ووضع خده على الأرض وقال : والله لارفعت خدى من الأرض حتى يُكتبَ له بردِ ضيعته فكتب الكتاب وهو واضع خده على الأرض . ولما سمع كلام ربه الذى خلقه وخَوْلّه فى نعمه ، خشى من لعن الله وطرده ؛ رحمه الله .

قيل : إنه أطلق من سجن الحجاج ثلاثمائة ألف نفس مابين رجل وامرأة، وصادر آل الحجاج ، واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز وزيرا مشيرا، وكان شرها فى الأكل نَكّاحا . قال بن خلكان فى ترجمته[٣]: إنه

---

(١) سليمان بن عبد الملك بن مروان ، ولى الخلافة يوم وفات أخيه الوليد (٩٦هـ) وكان بالرمله ، فلم يتخلف أحد عن مبايعته . أطلق الأسرى وأخلى السجون ، وعفا عن المجرمين ، وجهز جيشا كبيرا وسيره فى السفن بقياده أخيه مسلمة بن عبد الملك لحصار القسطنطينية . وفى عهده فتحت جرجان، وطبرستان . وتوفى فى دابق ، بين حلب والمعرة . وكانت مدة خلافته سنتان وثمانية أشهر ، ت[٩٩هـ - ٧١٧م] .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١٠١/١) .

(٣) انظر : وفيات الأعيان (٤٢٠/٢ رقم ٢٧٩) .

كان يأكل كل يوم نحـو مائة رطـل شـامى . قـال محمـد بـن سـيرين[1] : رحمه الله سليمان افتتح خلافته بخير وختمها بخير : افتتحها بإقامة الصلاة لمواقيتها الأولى ، وختمها باستخلافه لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

[٣٤] **وقال أبو سويد حدثنى أبو زيد الأسدى قال**[2]: دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس فى إيوان مبلط بالرخام الأحمـر مفـروش بالديباج الأخضر فى وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبتها وقـد غـابت الشـمس وغنـت الأطيـار فتجاوبت وصفقت الرياح على الأشجار فتمـايلت. فقلـت : السـلام عليـك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته ، وكان مطرقا فرفع رأسه ، وقال : ياأبا زيد فى مثل هذا الحين تصالحنا ، فقلت : أصلح الله الأمـير أو قـامت القيامـة ؟ قال: نعم على أهل المحبة ؛ ثم أطرق مليا ورفع رأسه ، فقال : يـا أبـا زيـد مايطيب فى يومنا هذا؟ قلت : أعـز اللـه الأمـير؛ قهـوة حمـراء فـى زجاجـة بيضاء تناولها غادة هيفاء ملفوفة لفاء أشربها من كفها وأمسح فمى بخدها. فأطرق سليمان مليا لايرد جوابا ، تنحدر من عينيه عبرات بلا شـهيق. فلمـا رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه ، فقال : يا أبا زيد حضـرت فى يوم انقضاء أجلك ومنتهى مدتك وتصرم عمرك، واللـه لأضربـن عنقـك أولتخبرنى ما آثار هذه الصفـة مـن قلبـك ؟ قلـت : نعـم أيهـا الأمـير كنـت جالسا على باب أخيك سعيد بن عبد الملك ، فإذا أنا بجاريـة قـد خرجـت من باب القصر كأنها غزال انفلت مـن شـبكة صيـاد عليهـا قميـص سـكب

---

(١) محمد بن سيرين البصرى الأنصارى : إمام عصره ، وحافظ وقته من كبـار التـابعين ، ومن المعبرين للرؤيا ، ت[١١٠هـ] .

(٢) انظر : العقد الفريد ، لابن عبد ربه (٦٦/٦) .

إسكندراني يبين منه بياض ثدييها وتدوير سرتها ونقش تكتها ، وفي رجليها نعلان صراران ، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها بذؤابتين تضربان حقويها[1] ، ولها صدغان كأنهما نونان ، وحاجبان قد قوسا على محاجر عينيها ، وعينان مملوءتان سحرا ، وأنف كأنه قصبة بلور ، وفم كأنه جرح يقطر دما ، وهي تقول : عباد الله من لي بدواء من لا يسلو ، وعلاج من لا يسمو ، طال الحجاب وأبطأ الجواب ، فالقلب طائر ، والعقل عازب ، والنفس والهة ، والفؤاد مختلس ، والنوم محتبس ، رحمة الله على قوم عاشوا تجلدا وماتوا كمدا[2]، ولو كان إلى الصبر حيلة وإلى العزاء سبيل لكان أمرا جميلا ، ثم أطرقت مليا ورفعت رأسها ، فقلت : أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية سماوية أم أرضية فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك ، فسترت وجهها بكفيها كأنها لم ترني ، ثم قالت : اعذر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد والمقاساة لصب معاند ثم انصرفت ، فوالله -أصلح الله الأمير- ماأكلت طيبا إلا غصصت به لذكرها، ومارأيت حسنا إلا سمج في عيني لحسنها . قال سليمان : ياأبا زيد كاد الجهل يستفزني والصبا يعاودني والحلم يعزب عني لشجو ما سمعت اعلم ياأبا زيد تلك الجارية التي رأيتها هي الذلفاء[3] التي قيل فيها :

إنما الذلفاء ياقوتة　　　قد أخرجت من كيس دهقان[4]

---

(١) الحَقْو : الخصر .

(٢) الكمد : الحزن والغم .

(٣) الذلفاء : جارية ابن طَرخْان مغنية شاعرة اشتراها سليمان بن عبد الملك بعد أن صارت إليه الخلافة . انظر : اعلام النساء (٤٢٧/١) .

(٤) الدُهْقان : تاجر الأحجار الكريمة .

شراؤها على أخى بألف ألف درهم وهى عاشقة لمن باعها والله إن مات إنما يموت بحبها ولايدخل القبر إلا بغصتها وفى الصبر سلوة وفى توقع الموت هيبة ، قم يا أبا زيد فى دعة الله ، ياغلام ثقله ببدرة فأخذتها وانصرفت .

قال : فلما أفضت الخلافة له صارت إليه الذلفاء فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة وضرب فى روضة خضراء مونقة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها من أنواع الزهر من أصفر فاقع وأحمر ساطع وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغن يقال له سنان كان به يأنس وإليه يسكن فأمره أن يضرب فسطاطه بالقرب منه ، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتنزه فلم يزل فى أكل وشرب وسرور وأتم حبور إلى أن انصرف شيء من الليل فذهب إلى فسطاطه وذهب سنان أيضا فنزل به جماعة من إخوانه ، فقالوا له : نريد قرى[1] أصلحك الله . قال : وماقراكم قالوا : أكل وشرب وسماع قال : أما الأكل والشراب فمباحان لكم وأما السماع فقد عرفتم غيرة أمير المؤمنين ونهيه إلا ما كان فى مجلسه قالوا : لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا قال : فاختاروا أصواتا أغنيكموه ، قالوا :غننا بصوت كذا وكذا .قال: فشرع يتغنى بهذه الأبيات:

محبوبة سمعت صوتى فأرقها ... من آخر الليل لما نبه السحر
فى ليلة البدر مايدرى مضاجعها ... أوجهها عنده أم عنده القمر
لم يحجب الصوت حراس ولاغلق ... فدمعها الطروق الصوت ينحدر
لو مكثت لمشت نحوى على قدم ... وكاد من لينها للمشى ينفطر

---

(١) القِرى : مايقدم للضيف .

قال : فسمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت إلى صحن الفسطاط فجعلت لاتسمع شيئا من حسن خلق ولطافة إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكنا من قلبها فهملت عيناها وعلا نحيبها ؛ فانتبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحالة فقال لها : ماهذا ياذلفاء ؟ فقالت :

ألارب شخص رائع ومشوه   قبيح المحيا واضع الأب والجد
يروعك منه صوته ولعله   إلى أمه يعزى معا وإلى عبد

فقال سليمان : دعيني من هذا الحال فوالله لقد خامر قلبك منه ياغلام عليَّ بسنان ، فدعت الذلفاء خادما لها وقالت له : إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرته فلك عشرة آلاف درهم ، وأنت حر لوجه الله تعالى ؛ فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين ؛ فلما أتى به قال : ياسنان ألم أنهك عن مثل هذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين حملني الشمول وأنا عبد أمير المؤمنين وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عني ، فليفعل قال : قد عفوت عنك ، ولكن أما علمت أن الفرس إذا صهل ودقت له الحجرة ، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة ، وأن الرجل إذا تغنى صغت إليه المرأة ، وإياك والعود إلى ماكان منك فيطول غمك ، انتهى[1] .

[٣٥] **وقيل** : كان في أيام سليمان رجل يقال له : خزيمة بن بشر من بني أسد كانت له مروءة ظاهرة ونعمة حسنة وفضل وبر بالإخوان فلم يزل على تلك الحالة حتى قعد به الدهر فاحتاج إلى إخوانه الذين كان

(١) انظر : تزيين الأسواق في أخبار العشاق ، لداود الأنطاكي ص ٢٨٦ .

يتفضل عليهم وكان يواسيهم فواسوه حينا ثم ملوه فلما لاح له تغيرهم أتى امرأته وكانت ابنة عمه فقال : ياابنة عمى قد رأيت من إخوانى تغيرا وقد عزمت على أن ألزم بيتى إلى أن يأتينى الموت ، فأغلق بابه وأقام يتقوت بما عنده حتى نفد وبقى حائرا .

وكان يعرفه عكرمة الفياض الربعى متولى الجزيرة وإنما سمى بذلك لأجل كرمه ، فبينما هو فى مجلسه إذ ذكر خزيمة بن بشر ، فقال عكرمة الفياض : ماحاله فقالوا : قد صار إلى أمر لايوصف ، وإنه أغلق بابه ولزم بيته قال : أفما وجد خزيمة بن بشر مواسيا ولامكافئا ؟ فقالوا : لا ، فأمسك عن الكلام . ثم لما كان الليل عمد إلى أربعة آلاف دينار فجعلها فى كيس واحد ثم أمر بإسراج دابته وخرج سرا من أهله ، فركب ومعه غلام من غلمانه يحمل المال ثم سار حتى وقف بباب خزيمة ، فأخذ الكيس من الغلام ثم أبعده عنه وتقدم إلى الباب فدفعه بنفسه ، فخرج إليه خزيمة فناوله الكيس، وقال : أصلح بهذا شأنك فتناوله فرآه ثقيلا فوضعه عن يده ، ثم أمسك بلجام الدابة وقال له : من أنت جعلت فداك ؟ فقال له عكرمة : ياهذا ماجئتك فى هذا الوقت والساعة وأريد أن تعرفنى ، قال : فما أقبله إلا إن عرفتنى من أنت ، فقال : أنا جابر عثرات الكرام ، قال : زدنى قال : لا، ثم مضى ودخل خزيمة بالكيس على ابنة عمه فقال لها : أبشرى فقد أتى الله بالفرج والخير ولو كانت فلوسا فهى كثيرة قومى فاسرجى قالت : لاسبيل إلى السراج فبات يلمسها بيده فيجد خشونة الدنانير ولايصدق وأما عكرمة فإنه رجع إلى منزله فوجد امرأته قد فقدته وسألت عنه فأخبرت بركوبه فأنكرت ذلك وارتابت وقالت له : والى الجزيرة يخرج بعد هدو من الليل منفردا من غلمانه فى سر من أهله إلى

زوجة أو سرية، فقال: اعلمي أني ماخرجت في واحدة منهما ، قالت : فخبرني فيم خروجك. قال: يا هذه ماخرجت في هذا الوقت وأنا أريد أن يعلم بي أحد ، قالت : لابد أن تخبرني قال : تكتمينه إذاً ؟ قالت : فإني أفعل فأخبرها بالقصة على وجهها وماكان من قوله ورده عليه ، ثم قال : أتحبين أن أحلف لك أيضا ؟ قالت : لا فإن قلبي قد سكن وركن إلى ماذكرت وأما خزيمة فلما أصبح صالح الغُرماء ، وأصلح ماكان من حاله .

ثم إنه تجهز يريد سليمان بن عبد الملك وكان نازلا يومئذ بفلسطين؛ فلما وقف ببابه واستأذن دخل الحاجب فأخبره بمكانه وكان مشهورا بمروءته وكرمه وكان سليمان عارفا به فأذن له ؛ فلما دخل سلم عليه بالخلافة فقال له سليمان بن عبد الملك: ياخزيمة ماأبطأك عنا؟ قال: سوء الحال قال : فما منعك من النهضة إلينا ؟ قال : ضعفي ياأمير المؤمنين. قال : فبم نهضت إلينا الآن ؟ قال :لم أعلم ياأمير المؤمنين إلا أني بعد هدو من الليل لم أشعر إلا ورجل يطرق الباب وكان من أمره كيت وكيت وأخبره بقصته من أولها إلى آخرها ؛ فقال سليمان : هل تعرف الرجل فقال خزيمة : ماعرفته ياأمير المؤمنين لأنه كان متنكرا ، وماسمعت من لفظه إلا أني جابر عثرات الكرام . قال : فتلهب وتلهف سليمان بن عبد الملك على معرفته وقال : لوعرفناه لكافأناه على مروءته ، ثم قال : عليّ بقناة فأتي بها؛ فقعد لخزيمة بن بشر المذكور على الجزيرة عاملا عوضا عن عكرمة الفياض فخرج خزيمة طالبا الجزيرة .فلما قرب منها خرج عكرمة وأهل البلد للقائه فسلما على بعضهما ثم سارا جميعا إلى أن دخلا البلد، فنزل خزيمة في دار الإمارة ، وأمر أن يأخذ لعكرمة كفيل وأن يحاسب فحوسب فوجد عليه فضول أموال كثيرة ، فطالبه بأدائها ، قال : مالي إلى شيء من

ذلك سبيل ، قال: لابد منها ، قال: ليست عندى فاصنع ماأنت صانع ، فأمر به إلى الحبس ثم أنفذ إليه من يطالبه فأرسل يقول : إنى لست ممن يصون ماله بعرضه فاصنع ماشئت ، فأمر أن يكبل بالحديد فأقام شهرا كذلك أو أكثر فأضناه[1] ذلك وأضر به .

وبلغ ابنة عمه خبره، فجزعت واغتمت لذلك ثم دعت مولاة لها وكانت ذات عقل ومعرفة وقالت لها : امضى الساعة إلى باب هذا الأمير خزيمة بن بشر ، وقولى عندى نصيحة فإذا طلبت منك فقولى : لاأقولها إلا للأمير خزيمة بن بشر ، فإذا دخلت عليه فسليه أن يخليك ، فإذا فعل ذلك فقولى : ماكان هذا جزاء جابر عثرات الكرام منك كافأته بالحبس والضيق والحديد ففعلت الجارية ذلك ؛ فلما سمع خزيمة كلامها نادى برفيع صوته وا سوأتاه ، وإنه لهو قالت : نعم فأمر لوقته بدابته فأسرجت وبعث إلى وجوه أهل البلد فجمعهم إليه وأتى بهم إلى باب الحبس ففتح ودخل خزيمة ومن معه فرآه قاعدا فى قاعة الحبس متغيرا أضناه الضرو الألم وثقل القيود ، فلما نظر إليه عكرمة وإلى الناس أحشمه ذلك فنكس رأسه فأقبل خزيمة حتى أكب على رأسه فقبله فرفع عكرمة إليه رأسه قال : ما أعقب هذا منك ؟ قال : كريم فعالك وسوء مكافأتى يغفر الله لنا ولك ثم أتى بالحداد ففك القيود عنه وأمر خزيمة أن توضع القيود فى رجل نفسه ، فقال عكرمة : ماذا تريد فقال : أريد أن ينالنى من الضر مثل مانالك ، فقال : أقسم عليك بالله لاتفعل ، فخرجا جميعا حتى وصلا إلى دار خزيمة فودعه عكرمة وأراد الانصراف عنه، فقال : ماأنت ببارح ، قال : وماتريد ، قال :

---

(١) أضناه : عاناه .

أغير حالك وإن حيائى من ابنة عمك أشد من حيائى منك ، ثم أمر بالحمام فأخلى ودخلاه معا فقام خزيمة وتولى أمره وخدمه بنفسه ثم خرجا فخلع عليه وحمله وحمل معه كثيرا ، ثم سار معه إلى داره واستأذنه فى الاعتذار إلى ابنة عمه فاعتذر إليها ، وتذمم من ذلك . قال : ثم سأله بعد ذلك أن يسير معه إلى سليمان بن عبد الملك وهو يومئذ مقيم بالرملة فأنعم له بذلك، وسارا جميعا حتى قدما على سليمان بن عبد الملك ، فدخل الحاجب فأعلمه بقدوم خزيمة بن بشر فراعه ذلك ، وقال : والى الجزيرة يقدم بغير أمرنا ماهذا إلا لحادث عظيم فلما دخل قال له : قبل أن يسلم عليه ماوراءك ياخزيمة ؟ قال: الخير ياأمير المؤمنين . قال : فما الذى أقدمك ؟ قال : ظفرت بجابر عثرات الكرام فأحببت أن أسرك به لما رأيت من تلهفك وتشوقك إلى رؤيته ، قال : ومن هو ؟ قال : عكرمة الفياض ، قال : فأذن له بالدخول فدخل وسلم عليه بالخلافة فرحب به وأدناه من مجلسه وقال عكرمة : ماكان خيرك له إلا وبالا عليك ؛ ثم قال سليمان : اكتب حوائجك كلها وماتحتاج إليه فى رقعة ففعل ذلك ، فأمر بقضائها من ساعته وأمر له بعشرة آلاف دينار وسفطين ثيابا ثم دعا بقناة وعقد له على الجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، وقال له : أمر خزيمة إليك إن شئت أبقيته وإن شئت عزلته قال : بل اردده إلى عمله ياأمير المؤمنين ثم انصرفا من عنده جميعا ولم يزالا عاملين لسليمان مدة خلافته والله أعلم .

٥- فصل

خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه ونفعنا به(١)

أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فهو تابعى جليل.

[٣٦] قال الإمام أحمد بن حنبل : ليس أحد من التابعين قوله حجة إلا عمر بن عبد العزيز ، كان رضى الله عنه عفيفا زاهد ناسكا عابدا مؤمنا تقيا صادقا ، أزال ماكانت بنو أمية تذكر به عليا رضي الله عنه على المنابر وجعل مكان ذلك قوله تعالى ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ [النحل: ٩٠] الآية.

[٣٧] و[قيل] : لما ولى الخلافة رضي الله عنه وفد الشعراء إليه وأقاموا ببابه أياما لايؤذن لهم فبينما هم كذلك إذ مر بهم رجاء بن حيوة وكان جليس عمر فلما رآه جرير(٢) داخلا قام إليه وأنشد يقول أبياتا منها :

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموى ، أبو حفص : الخليفة العادل ، عد من الخلفاء الراشدين كان يقول : كانت لى نفس تواقة ، تاقت إلى الإمارة ، فلما بلغتها ، تاقت إلى الخلافة فلما بلغتها تاقت إلى الجنة . ت [٩٩هـ - ٧١٧م] . انظر: حلية الأولياء (٢٥٢/٥،٢٥٣) .

(٢) جرير ، أبو حرزة : شاعر أموى ولد فى اليمامة . امتاز بالهجاء لاسيما هجو خصميه الأخطل والفرزدق . له ديوان يتضمن الفنون التقليدية من مدح وهجاء وفخر وغزل..، ت[١١٤هـ - ٧٣٣م] .

ياأيها الرجل المرخى عمامته هذا زمانك فاستأذن لنا عمرا

فدخل ولم يذكر شيئا من أمرهم ثم مر بهم عدى بن أرطأة[1] فقال جرير: أبياتا آخرها قوله :

لاتنس حاجتنا لقيت مغفرة قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

قال[2]: فدخل عدى على عمر وقال : يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة فقال : ويحك ياعدى مالى وللشعراء ، قال: أعز الله أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد امتدح وأعطى لك فى رسول ﷺ أسوة ، قال: كيف ؟ قال : امتدحه العباس بن مرداس السلمى[3] فأعطاه حلة قطع بها لسانه . قال: أتروى من قوله ؟ قال : نعم ، وأنشد :

رأيتك ياخير البرية كلها نشرت كتابا جاء بالحق معلما
شرعت لنادين الهدى بعد جورنا عن الحق لما أصبح الحق مظلما
ونورت بالبرهان أمرا مدنسا وأطفأت بالإسلام نارا تضرما
فمن مبلغ عنى النبى محمدا وكل امرئ يجزى بما كان قدما

---

(١) عدى بن أرطأة الغزارى ، أبو واثلة : أمير من أهل دمشق ، كان من العقلاء الشجعان، ولاه عمر بن عبد العزيز على البصرة ، قتل فى فتنة يزيد بن المهلب بالعراق ، ت[١٠٢هـ = ٧٢٠م] . انظر : تاريخ اليعقوبى (٥٣/٣) .

(٢) انظر : ثمرات الأوراق ص٦٣ .

(٣) العباس بن مرداس : شاعر سليمى أسلم وبايع النبى ﷺ هو وقومه ، ت[١٨هـ = ٦٣٩م].

أقمت سبيل الحق بعد اعوجاجه وقد كان قدما ركنه قد تهدما

فقال : ويلك ياعدى من بالباب منهم ؟ قال : عمر بن أبى ربيعة[1] ، قال له : أو ليس هو الذى يقول :

ثم نبهتنا فمرت كعابا طفلة ماتبين رجع الكلام
ساعة ثم إنها لى قالت ويلتى قد عجلت يابن الكرام

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم على نفسه لكان أستر له لايدخل علىّ والله أبدا فمن بالباب سواه ؟ قال : الفرزدق[2] قال : أو ليس هو الذى يقول:

هما دليانى من ثمانين قامة كما انقض بازأكتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا أحى فيرجى أم قتيل نحاذره

لايدخل علىّ والله أبدا ، فمن سواه منهم ؟ قال : الأخطل[3] قال : ياعدى أو ليس هو الذى قال :

ولست بصائم رمضان طوعا ولست بآكل لحم الأضاحى
ولست بزاجر عيسا بكورا إلى بطحاء مكة للنجاح

---

(١) عمر بن أبى ربيعة المخزومى ، أبو الخطاب : كان شاعرا مشهورا كثير الغزل ، والنوادر والوقائع ، والمجون والخلاعة ،ت[٩٣هـ - ٧١٢م] .

(٢) همام بن غالب بن صعصعة بن مجاشع ، الفرزدق : من شعراء الدولة الأموية . ولد فى البصرة ، اشتهر بالمدح والهجو ، لاسيما مادار بينه وبين جرير فى الهجاء .له ديوان جمعه محمد بن حبيب ، ت[١١٤هـ - ٧٣٣م] .

(٣) غياث التغلبى ، الأخطل : شاعر نصرانى ، اشتهر بمدح الأمويين وهجاء أعدائهم . له نقائض مع جرير ، وديوان جمع قصائده السكرى ، ت[٩١هـ - ٧١٠م] .

ولست بقائم كالعود أدعو | قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشر بها شمولا | وأسجد عند مبتلج الصباح

والله لايدخل على أبدا وهو كافر . فمن بالباب سوى من ذكرت ؟ قال: الأحوص[1] قال : أوليس هو الذى يقول :

الله بيني وبين سيدها | يغربها عني وأتبعه

فمن بالباب دون من ذكرت أيضا ؟ قال : جميل بن معمر[2] . قال : أوليس هو الذى يقول :

فياليتنا نحيا جميعا وإن أمت | يوافق موتى موتها وضريحها

فلو كان عدو والله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بعد صالحا لكان أصلح والله لايدخل على أبدا . فهل أحد سوى من ذكرت ؟ قال : جرير ، قال : أوليس هو الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس إذ | وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان ولابد فهو الذى يدخل فلما مثل بين يديه ، قال : ياجرير اتق الله ولاتقل الا حقا فأنشد قصيدته الرائية المشهورة التى منها :

إنا لنرجو اذا ما الغيث أخلفنا | من الخليفة مانرجو من المطر

---

(١) عبد الله ، الأحوص : شاعر أموى من أهل المدينة . اشتهر بالهجاء والغزل ، وكان ماجنا فناله الجلد والتشهير ، ت[١٠٤هـ = ٧٢٣] .

(٢) جميل بن معمر العذرى ، جميل بثينة : شاعر أموى من بنى عذرة ، تغنى بمعشوقته بثينة فعرف بها توفى بمصر ، ت[٨١هـ = ٧٠١م] .

جاء الخلافة أو كانت له قدرا　　كما أتى ربه موسى على قدر
هذى الأرامل قد قضيت حاجتها　　فمن لحاجة هذا الأرمل الذكر
الخير مادمت حيا لايفارقنا　　بوركت ياعمر الخيرات من عمر

فقال ياجرير : لاأرى لك فيما ههنا حقا قال : بلى ياأمير المؤمنين أنا ابن سبيل منقطع ، فأعطاه من طيب ماله مائة درهم ، وقال : ويحك ياجرير لقد ولينا هذا الأمر ولم نملك إلا ثلثمائة درهم فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله ، ياغلام: اعطه المائة الاخرى فأخذها جرير، وقال : والله لهى أحب مال اكتسبته في عمرى ثم خرج . فقال له الشعراء: ماوراءك ؟ فقال : مايسوءكم ، خرجت من عند خليفة يعطى الفقراء ويمنع الشعراء ، وإنى عنه لراض وأنشد يقول :

رأيت رقى الشيطان لاتستفزه　　وقد كان شيطانى من الجن راقيا

٦- فصل

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان(١)

[٣٨] قال أبو الفرج الأصبهانى فى كتاب الأغانى قال يونس الكاتب : خرجت إلى الشام فى خلافة هشام بن عبد الملك ومعى جارية غانية وكنت علمتها جميع ماتحتاج إليه وأنا أقدر فيها أنها تساوى مائة ألف درهم ، قال : فلما قربنا من الشام نزلت القافلة عن غدير من الماء ونزلت ناحية منه وأصبت من طعام كان معى وأخرجت ركوة كان فيها نبيذ فبينما أنا كذلك ، وإذا بفتى حسن الوجه والهيئة على فرس أشقر ومعه خادمان فسلم عليَّ وقال : أتقبل ضيفا ؟ قلت : نعم فأخذ بركابه ونزل ، وقال : اسقنا من شرابك فسقيته فقال : إن شئت أن تغنى صوتا فغنيته :

حازت من الحسن مالا حازه البشر فلذ لى فى هواها الدمع والسهر

فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ثم قال : قل لجاريتك فلتغن ، فأمرتها فغنت:

جويرة حار قلبى فى محاسنها فلا قضيب ولاشمس ولاقمر

فطرب طربا شديدا واستعاده مرارا ولم يزل مقيما إلى أن صلينا العشاء؛ ثم قال : ماأقدمك علينا هذا البلد ؟ قلت : أردت بيع جاريتى هذه.

---

(١) هشام بن عبد الملك بن مروان : من ملوك الدولة الأموية بالشام ، أخو يزيد الثانى . فى عهده بلغت الدولة الإسلامية أقصى اتساعها فتح ناربونا ، وبلغت أبوابه فرنسا حيث وقعت معركة "بلاط الشهداء" ت[١٢٥هـ =٧٤٣م] . انظر : تاريخ الطبرى (٣٨٣/٨) ، تاريخ ابن خلدون (٨٠/٣-١٣٠) .

قال : فكم أملت فيها من الثمن قلت ماأقضى به دينى وأصلح به حالى ، قال : ثلاثون ألفا ، قلت مــاأحوجنى إلى فضل الله والمزيد فيه ، قال : أيقنعك أربعون ألفا ، قلت فيها قضاء دينى وأبقى صفر اليد ، قال : قد أخذناها بخمسين ألفا من الدراهم ، ولك بعد ذلك كسوة ونفقة طريقك وأشركك فى حالى أبدا مابقيت ، فقلت : قد بعتكها . قال : أفتثق بى أن أوصل ذلك غدا وأحملها معى ، أو تكون عندك إلى أن أحمل ذلك اليك غدا، فحملنى السكر والحياء مع الخشية منه على أن قلت : نعم قد وثقت بك فخذها بارك الله لك فيها ، فقال : لأحد غلاميه احملها على دابتك وارتدف وراءها وامض بها ؛ ثم ركب فرسه وودعنى وانصرف ، فما هو إلا أن غاب عنى ساعة، فعرفت موضع خطئى وغلطى ، وقلت : ماذا صنعت بنفسى أسلم جاريتى إلى رجل لاأعرفه ولاأدرى من هو ، وهب أنى عرفته فمن أين الصلة إليه ، فجلست متفكرا إلى أن صليت الصبح ودخل أصحابى دمشق وجلست حائرا لاأدرى ماأصنع وقرعتنى الشمس وكرهت المقام فهممت بالدخول إلى دمشق ثم قلت لم آمن أن الرسول يأتى فلا يجدنى ، فأكون قد جنيت على نفسى جناية ثانية فجلست فى ظل جدار هناك فلما أضحى النهار وإذا أحد الغلامين اللذين كانا معه قد أقبل على فما أذكر أنى سررت بشئ لأعظم من سرورى ذلك الوقت بالنظر إليه ، فقال لى : ياسيدى أبطأنا عليك فلم أذكر له شيئا مما كان بى ؛ ثم قال لى : أتعرف الرجل ؟ قلت : لا ، قال : هو الوليد بن يزيد[1] ولى العهد فسكت

---

(١) الوليد بن يزيدبن عبد الملك بن مروان ، أبو العباس : ولى الخلافة بعد وفاة عمه هشام، فمكث فى الخلافة سنة وثلاثة أشهر . ونقم عليه الناس حبه للهو ، حتى قتل فى قصر النعمان بن بشير ت[١٢٦هـ-٧٤٤م]. انظر : تاريخ ابن خلدون (١٠٦/٣).

عند ذلك ؛ ثم قال : قم فاركب وإذا معه دابة فركبتها وسرنا إلى أن وصلنا إلى داره فدخلت إليه وإذا بالجارية قد وثبت وسلمت على فقلت : ماكان من أمرك ؟ قالت : أنزلني هذه الحجرة وأمر لي بما أحتاج إليه فجلست عندها ساعة ، وإذا أنا قد أتاني خادم له ، فقال لي : قم فقمت فأدخلني على سيده فإذا هو صاحبي بالأمس وهو جالس على سريره ، فقال : من تكون فقلت: يونس الكاتب ، قال : مرحبا بك قد كنت والله إليك بضنين وكنت أسمع بخبرك فكيف كان مبيتك في ليلتك قلت : بخير أعزك الله ، قال : فلعلك ندمت على ماكان منك البارحة وقلت دفعت جاريتي إلى رجل لاأعرفه ولا أعرف اسمه ولامن أى البلاد هو ، فقلت : معاذ الله أيها الأمير أن أندم ولو أهديتها إلى الأمير كانت أقل وأخس وماقدر هذه الجارية ، فقال : والله لكني ندمت على أخذها منك ، وقلت: رجل غريب لايعرفني وقد دهمته وسفهت عليه في استعجالي لأخذ الجارية أفتذكر ماكان بيننا ، قلت : نعم قال : بعتني هذه الجارية بخمسين ألف درهم قلت : نعم ، قال : هات ياغلام المال فوضعوه بين يديه ، فقال : هات ياغلام ألف دينار فأتي بها ثم قال : ياغلام هات خمسمائة دينار أخرى فجاء بها ثم قال : هذا ثمن جاريتك فضمه إليك وهذه ألف دينار لحسن ظنك بنا وهذه الخمسمائة دينار لنفقة طريقك وماتبتاعه لأهلك رضيت ، قلت : رضيت وقبلت يديه وقلت: والله قد ملأت عيني ويدى ثم قال : والله إني لم أدخل بها ولاشبعت من غنائها على بها فجاءت فأمرها بالجلوس فجلست فقال لها : غني فأنشدت تقول :

أيا من حاز كل الحسن طرا ... وياحلو الشمائل والدلال
جميع الحسن في عجم وعرب ... ومافي الكل مثلك ياغزالي
فعطفا يامليح على محب ... بوعدك أو بطيف من خيال

حلالـى فيـك ذلـى وافتضـاحى وطـاب لمقلتـى سـهر الليـالى
ومأأنـا فيـك أول مسـتهام فكـم قبلـى قتلـت مـن الرجـال
رضيتـك لى مـن الدنيـا نصيبـا وأنت أعـز مـن روحـى ومـالى

فطرب طربا شديدا وشكر حسن تأديبى لها وتعليمى إياهـا ثـم قـال : ياغلام قدم له دابة بسرجها وآلتها لركوبه وبغلا لحمل حوائجه وثقلـه ؛ ثـم قال : يايونس إذا بلغك أن هذا الأمر قد أفضى إلى فالحق بى فوالله لأمـلأن لك يدك ولأعلين قدرك ولأغنينك مابقيت قال : فأخذت المـال وانصرفـت فلما أفضت الخلافة إليه سرت إليه ، فوفـى واللـه بوعـده وزاد فـى إكرامـى وكنت معه على أسر حال وأسـمى منزلـة ، وقـد اتسـعت أحوالـى وكـثرت أموالى وصار لى من الضيـاع والأمـلاك مـايكفينى إلـى ممـاتى ويكفـى مـن بعدى ولم أزل معه حتى قتل عفا الله عنه .

[٣٩] **وقيل** : إنه لما حج هشام فى أيام أبيه طاف بالبيت وجهـد أن يصلى إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصـب لـه منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ومعه جماعة من أهـل الشـام . فبينمـا هـو كذلك إذا أقبل زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طـالب رضي الله عنهم(١) أجمعين ، وكان من أحسن الناس وجها وأطيبهـم أرجـا(٢)، فطـاف بـالبيت

---

(١) زين العابدين على بن الحسين بن على بن أبى طالب : رابع الأئمـة الاثنى عشر عنـد الإمامية ، وأحد من كان يضرب بهم المثل فى الحلم والورع ، يقال له : علىّ الأصغر للتمييز بينه وبين أخيـه ، ت[٩٤هـ - ٧١٢م] . انظر : وفيـات الأعيـان (١/٢٣٠) ، طبقات ابن سعد (٥/١٥٦) ، الحلية (٣/١٣٣) .

(٢) أرج : فاحت منه رائحة طيبة .

فلما انتهى إلى الحجر الأسود تنحى له الناس حتى استلمه ، فقال رجل من أهل الشام : من هذا الذى قد هابه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام : لاأعرفه مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، وكان أبو فراس الفرزدق حاضرا، فقال: أنا والله أعرفه ، فقال الشامى : من هذا ياأبا فراس ؟ فقال[1] :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
ينمى إلى ذروة العز التى قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم
يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ماجاء يستلم[2]
فى كفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع فى عرنينه شمم[3]
يغضى حياء ويغضى من مهابته ... فما يكلم إلا حين يتسم[4]
ينشق نور الهدى من نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها القتم[5]
مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا
الله شرفه قدرا وعظمه ... جرى بذاك له فى لوحه القلم
وليس قولك من هذا بضائره ... والعرب تعرف من أنكرت والعجم

---

(١) انظر : ديوان الفرزدق ص ٥١١ .

(٢) الحَطِيم : جدار حجر الكعبة ، سمى بذلك لانحطام الناس عليه ، أى لازدحامهم ..

(٣) خَيْزُران : عود من الخشب اللين . العِرَان : عود يجعل فى الأنف

(٤) غَضَّ : نضرُ . يغضى ، بمعنى : منع النظر إليه من مهابته

(٥) القَتَمَ : ضرب من السواد.

كلتــا يديــه غيــاث عــم نفعهــا يــستو كفان ولايعــروهــمــا عــدم[1]
ســهل الخليقــة لاتخشــى بــوادره يزينـه أثنـان حسـن الخلـق والشـيم[2]
حمــال أثقــال أقـــوام إذا اقــترحوا حلــو الشــمائل يحلــو عنــده نعــم
ماقــال لا قــط إلا فــى تشــهده لــولا التشــهد كــانت لاؤه نعــم
عــم البريــة بالإحســان فانقشــعت عنهــا الغيــاهب والإمــلاق والعــدم
مــن معشــر حبهــم ديــن وبغضهــمو كفــر وقربهــم منجــى ومعتصــم
إن عــد أهــل التقــى كــانوا أئمتهــم أو قيل ومن خير أهل الأرض قيــل هــم
لايســتطيع جــواد بعــد غــايتهم ولايدانيهــم قــوم وإن كرمــوا
هــم الغيــوث إذا مــا أزمــة أزمــت والأسد أسد الشرى والبـاس محتـدم[3]
لاينقـص العسـر بسـطا مــن أكفهــم سيان ذلــك إن أثــروا وإن عدمــوا
مقــدم بعــد ذكــر اللــه ذكرهــم فــى كــل بــدء ومختــوم بــه الكلــم
يــأبى لهــم أن يحــل الــذم ســاحتهم خلــق كريــم وأيــد بــالندى هضــم
أى الخلائــق ليســت فــى رقــابهم لاوليــة هــذا أولــه نعــم
مــن يعــرف الله يعــرف أوليــة ذا فــالــدين من بيت هــذا نــالــه الأمــم

فلمـا سـمع هشـام ذلـك غضـب وحبس الفـرزدق ، فـأنفذ لـه زيـن العابدين رضي الله عنه اثنـى عشـر ألـف درهـم فردهـا وقـال : مدحتـه للـه لاللعطـاء والصلات فقال زين العابدين : إنا أهـل بيـت إذا وهبنـا شيئا لانعـود فيـه ، فقبلها الفرزدق، انتهى[4] .

---

(١) غِيَاث : ما أغثت به المضطر من طعام وغيره.

(٢) بَوادِره : ما يبدو من الإنسان عند حدته .

(٣) الشَرَى، جمعها أشراء: مأسده جانب الفرات. يضرب بها المثل فيقال:كأسد الشرى.

(٤) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (٢٠/١) .

[٤٠] **ومما يحكى** : أن هشـام بـن عبـد الملـك كـان ذات يـوم فـى صيده وقنصه ، إذ نظر إلى ظبى تتبعه الكلاب فتبعه وأحالته إلى خباء أعرابى يرعى غنما ، فقال هشام: ياصبى دونك هذا الظبى ، فأْتِنى به ، فرفع الصبى رأسه إليـه وقـال لـه : ياجـاهل بقـدر الأخيـار لقـد نظـرت إلـيِّ باسـتصغار وكلمتنى باحتقار فكلامك كلام جبار وفعلك فعـل حمـار ، فقـال هشـام : ياصبى ويلـك مـاتعرفنى ! فقـال : قـد عرّفنـى بـك سـوء أدبـك، إذ بدأتنـى بكلامك قبل سلامك ، فقال : ويلك أنا هشام بـن عبـد الملـك ، فقـال لـه الاعرابى : لاقرب دارك ولاحيا مـزارك مـا أكـثر كلامـك وأقـل إكرامـك ؛ فما استتم حتى أحدقت بـه الجيـوش مـن كـل جـانب كـلٌ منهـم يقـول : السلام عليك ياأمير المؤمنين ، فقال هشام : أقصروا الكلام واحفظوا الغـلام فقبضوا عليه .

ورجع هشـام إلـى قصـره وجلـس فـى مجلسـه وقـال : علـيَّ بـالغلام البدوى فأتى به ، فلما رأى الغلام كثرة الغلمـان ، والحجـاب ، والـوزراء ، والكتاب، وأبناء الدولة ، وأرباب الصولة ، لم يكترث(١) بهم ، ولـم يسـأل عنهم ، بل جعل ذقنه على صدره ، وجعل ينظـر حيـث تقـع قدمـاه إلـى أن وصل إلى هشام، فوقف بين يديه ونكس رأسه إلـى الأرض وسـكت الغـلام وامتنع من الكلام ، فقال بعض الخدام : يـاكلب العـرب مـامنعك أن تسـلم على أمير المؤمنين؟ فالتفت إليه مغضبا وقـال : يابرذعـة الحمـار منعنـى مـن ذلك : طول الطريق ونهر الدرجة(٢) والتعويق . فقال هشام : وقد تزايـد بـه

(١)لم يكترث : لم يعبأ .

(٢) نهر الدرجة : الأمور العظيمة .

الغضب ياصبى قد حضرت في يوم حضر فيه أجلك وخاب فيه أملك وانصرم فيه عمرك ، فقال له الصبى : والله ياهشام لئن كان فى المدة تأخير ماضرنى من كلامك لاقليل ولاكثير، فقال له الحاجب : بلغ من أمرك ومحلك ياأخس العرب أن تخاطب أمير المؤمنين كلمة بكلمة ، فقال له مسرعا : لقيك الخذل ولأمك الويل والهبل أما سمعت ماقال الله تعالى ﴿يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها﴾ [النحل: ١١١] فإذا كان الله يجادل جدالا ، فمن هشام حتى لايخاطب خطابا ؛ فعند ذلك : قام هشام واغتاظ غيظا شديدا وقال : ياسياف على برأس هذا الغلام ؛ فقد أكثر الكلام فيما لايخطر على الأوهام ، فقام السياف وأخذ الغلام وبركه فى نطع الدم وسل سيف النقمة على رأسه، وقال : ياأمير المؤمنين عبدك المذل بنفسه المتقلب فى رمسه(١) أأضرب عنقه وأنا برئ من دمه؟ قال : نعم فاستأذنه ثانية ، فأذن له ، ثم استأذنه ثالثة، فهم أن يأذن له فضحك الصبى حتى بدت نواجذه فازداد هشام منه تعجبا ، وقال : ياصبى أظنك معتوها ترى أنك مفارق الدنيا ومزايل الحياة وأنت تضحك هزأ بنفسك ، فقال: يا أمير المؤمنين لئن كان فى المدة تأخير ولم يكن فى الأجل تقصير ماضرّنى منك لا قليل ولاكثير ، ولكن أبيات حضرت الساعة فاسمعها فقتلى لايفوت فأكثر الصموت ، فقال هشام : هات وأوجز فهذا أول أوقاتك من الآخرة وآخر أوقاتك من الدنيا فأنشد يقول :

نُبئت أن البـاز علـق مـرة ... عصفور بـر ساقـه المقـدور
فتعلـق العصفـور فـى أظفـاره ... والبـاز منهمـك عليـه يطيـر

---

(١) الرَّمْسُ : القبر .

فأتى لسان الحال يخبر قائلا	ها ظفرت وإنني مأسور
مثلى فما يغنى لمثلك جوعة	ولئن أكلت فإننى محقور
فتبسم الباز المدل بنفسه	طربا وأطلق ذلك العصفور[1]

قال : فتبسم هشام ، وقال : وقرابتى من رسول الله ﷺ لو تلفظ بهذا من أول وقت من أوقاته وطلب مادون الخلافة لأعطيته ، ياخادم : احش فاه درا وجوهرا وأحسن جائزته ودعه يمض إلى حال سبيله .

[٤١] **وقيل** : وفد عروة بن أذينة[2] على هشام بن عبد الملك فشكا إليه فقره، فقال ألست القائل :

لقد علمت وما الإسراف من خلقى	أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيعيينى تطلبه	وإن قعدت أتانى ليس يعيينى

وخرجت الآن من الحجاز إلى الشام فى طلب الرزق ، فقال : ياأمير المؤمنين وعظت فأبلغت ، وخرج وركب ناقته وكر إلى الحجاز راجعا .

فلما كان الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة ، وقال : رجل من قريش قال حكمة ووفد علىّ فرددته خائبا . فلما أصبح وجه إليه بألفى دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة فأعطاه المال ، فقال : أبلغ عنى أمير المؤمنين السلام وقل له : كيف رأيت قولى سعيت فأكديت[3] فرجعت خائبا فجلست فى دارى فأتانى رزقى فى منزلى انتهى .

---

(١) المُدِلّ : الواثق بنفسه .

(٢) عروة بن يحيى بن مالك ، ابن أذينة : شاعر غزل ، من أهل المدينة ، وهو معدود من الفقهاء والمحدثين أيضا . ت[١٣٠هـ=٧٤٧م] . انظر : الشعر والشعراء ص٢٢٥ .

(٣) أكدى : ألح فى الطلب .

الباب الثالث

أخبـــار بنى العباس

١- فصل

ابتداء الدولة العباسية

[٤٢] كان القائم بهذه الدولة أبو مسلم الخراساني وكان اسمه عبد الرحمن بن مسلم(١) فمن قوله :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

مازلت أسعى بجهد في دمارهم ... والقوم في غفلة والناس قد رقدوا

حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنما في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

---

(١) عبد الرحمن بن مسلم ، أبو مسلم الخرساني : مؤسس الدولة العباسية ، تعهداه بالبصرة عيسى ومعقل ابني إدريس العجلي ، فربياه إلى أن شبه فاتصل بإبراهيم بن الإمام محمد (من بني العباس) فأرسله إلى خرسان داعية ، فأقام فيها واستمال أهلها . ووثب على ابن الكرماني (والي نايسابور) فقتله واستولى على نيسابور . وسُلم عليه بإمرتها فخطب باسم السفاح العباسي . وقضى على الدولى الأموية وصفا الجو للسفاح إلى أن مات وخلفه أخوه المنصور فرأى المنصور من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع في الملك فقتله .[١٣٧هـ=٧٥٥م] . انظر : تاريخ بغداد (١٠/٢٠٧) ، الطبري (١٥٩/٩) ، والأبيات انظر: وفيات الأعيان (١٥٢/٣) .

٢- فصل

أولهم عبد الله السفاح[١]

[٤٣] ذكر ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء[٢] عن خالد بن صفوان[٣] : أنه دخل يوما على أبى العباس السفاح وليس عنده أحد ، فقال: ياأمير المؤمنين إنى والله مازلت منذ قلدك الله خلافته أطلب أن أصير معك بمثل هذا الموقف فى الخلوة فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإمساك الباب فعل حتى نفرغ ، فأمر الحاجب بذلك ، فقال: ياأمير المؤمنين إنى فكرت فى أمرك واستجلبت الفكر فيك فلم أر أحدا له قدرة واتساع فى الاستمتاع بالنساء ولاأضيق فيهن عيشا منك إنك ملّكت نفسك امرأة من

---

(١) عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، أبو العباس السفاح: أول خلفاء الدولة العباسية ، وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب . قام بدعوته أبو مسلم الخراسانى ، مقوض عرش الدولة الأموية ، فبويع له بالخلافة جهرا فى الكوفة سنة [١٣٢هـ] وكان شديد العقوبة ، عظيم الانتقام ، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال ، ولذلك لقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماءهم . وهو الذى بنى "الهاشمية" وجعلها مقرا لحكمه ، وهو أول من أحدث الوزارة فى الإسلام ، وكان سخيا جوادا ، يوصف بالفصاحة والعلم والأدب ، ت[١٣٦هـ = ٧٥٤م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٥٢/٥) ، المسعودى (١٦٥/٢) الطبرى (١٥٤/٩) .

(٢) انظر : كتاب الأذكياء لابن الجوزى ص ١٤٢ ، وفيات الأعيان (٢٤٣/١) .

(٣) خالد بن صفوان بن عبد الله : من فصحاء العرب المشهورين . ولد ونشأ بالبصرة وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه ، ت[١٣٢هـ = ٧٥٠م] .انظر : وفيات الأعيان (٢٤٣/١) .

نساء العالمين فاقتصرت عليها فإن مرضت مرضت وإن غابت غبت وإن عزلت عزلت، وحرمت ياأمير المؤمنين على نفسك التلذذ بما يُشتهى منهن فإن منهن الطويلة التى تشتهى لحسنها ، والبيضاء التى تحب لرؤيتها ، والسمراء العساء[1] والصفراء الذهبية، ومولدات المدينة والطائف واليمامة ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر، وبنات سائر الملوك ، ومايشتهى من نضارتهن ونظافتهن ، وتحلل خالد لسانه فأطنب فى صفات ضروب الجوارى وشوّقه إليهن ؛ فلما فرغ من كلامه قال له السفاح: ويحك ملأت مسامعى ماأشغل خاطرى والله ماسلك مسامعى كلام أحسن من هذا، فأعد علىَّ كلامك فقد وقع منى موقعا فأعاد عليه خالد كلامه بأحسن مما ابتدأ به، ثم قال له : انصرف فانصرف وبقى أبو العباس مفكرا فدخلت عليه أم سلمة[2] زوجته وكان قد حلف لها أنه لايتزوج عليها ولايتخذ عليها سرية ووفى لها فلما رأته على تلك الحالة قالت له : إنى لأنكرك ياأمير المؤمنين فهل حدث شيء تكرهه أو أتاك خبرا ارتعت له ؟ قال : لا فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد ، فقالت له : وماقلت لابن الفاعلة ، فقال لها : أينصحنى وتشتمينه ، فخرجت إلى مواليها وأمرتهم بضرب خالد .

قال خالد : فخرجت من الدار مسرورا بما ألقيت إلى أمير المؤمنين ولم أشك فى الصلة فبينما أنا واقف ، إذ أقبل موالى أم سلمة يسألون عنى فحققت الجائزة ، فقلت لهم: هاأنا واقف فاستبقى إلى أحدهم بخشبة

---

(١) العساء : شديدة السواد .

(٢) هند بنت يعقوب بن عبد الله المخزومى ، أم سلمة : سيدة جليلة ذات عقل وحزم ، غلبت على أمر زوجها أبى العباس السفاح غلبة شديدة فكان لايقطع أمر إلا بمشورتها. انظر : أعلام النساء (٢/٢٣٥) .

فغمزت برذونى(1) فلحقنى وضرب كفل البرذون وركضت ففررت منهم واستخفيت فى منزلى أياما ووقع فى قلبى أنى أمنت من أم سلمة ، فبينما أنا ذات يوم جالس فى المنزل فلم أشعر إلابقوم هجموا على ، فقالوا: أجب أمير المؤمنين فسبق إلى قلبى أنه الموت فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون لم أر دم شيخ أضيع من دمى فركبت إلى دار أمير المؤمنين فأصبته جالسا ولحظت فى المجلس بيتا عليه ستور رقاق وسمعت حسا خفيفا خلف الستر ، فأجلسنى ثم قال : ياخالد أنت وصفت لأمير المؤمنين صفة فأعدها فقلت : نعم ياأمير المؤمنين أعلمتك أن العرب مااشتقت اسم الضرتين إلا من الضر ، وإن أحدا لم يكثر من النساء أكثر من واحدة إلا كان ضر وتنغيص، فقال السفاح : لم يكن هذا من كلامك أولا ، قلت: بلى : ياأمير المؤمنين ، وأخبرتك أن الثلاث من النساء يدخلن على الرجل البؤس ، فقال: برئت من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك أولا أو مرة فى حديثك، قلت: بلى ياأمير المؤمنين : وأخبرتك أن الأربع من النساء شر مجتمع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه ، قال : والله ماسمعت منك هذا أولا ، قلت : بلى ياأمير المؤمنين وأخبرتك، أن أبكار الإماء رجال إلا أنه ليست لهن خصاء ، قال أمير المؤمنين : أفتكذبنى ؟ قلت: أفتقتلنى ؟ قال خالد : فسمعت ضحكا خلف الستر ، ثم قلت : وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش وأنت تطمح بعينيك إلى النساء والجوارى ، فقيل لى من وراء الستر: صدقت ياعماه هذا حديثك ولكنه غير حديثك ونطق بما فى خاطره عن لسانك ، فقال السفاح: مابك قاتلك الله ؛ قال خالد : فانسللت وخرجت، فبعث إلى أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذونا وتخت ثياب ، انتهى .

---

(1) بِرْذَون : الدابة التى تحمل المتاع .

[٤٤] وروى : أن أبا دلامة[١] الشاعر كان واقفا بين يدى السفاح فى بعض الأيام ، فقال : سلنى حاجتك فقال له أبو دلامة : أريـد كلـب صيـد، فقال : أعطوه إياه فقال : ودابة أتصيد عليها ، فقـال : أعطـوه دابـة فقـال : وغلاما يقود الكلب والصيد، فقال : أعطوه غلاما ، فقال : وجاريـة تصلـح لنا الصيد وتطعمنا منه ، فقال: أعطوه جارية فقال : هـؤلاء يـاأمير المؤمنيـن عيال ولابد لهم من دار يسكنونها ، فقال: أعطوه دارا تجمعهم ، ثم قـال : وإن تكن لهم الدار فمن أين يعيشون قال : قد أقطعتك عشـر ضيـاع عـامرة وعشـر غـامرة مـن فيـافى[٢] بنـى إسـرائيل ، قـال : ومـامعنى الغـامرة يـاأمير المؤمنين؟ قال: مالا نبات فيها ، قـال : قـد أقطعتـك يـاأمير المؤمنيـن مائـة ضيعة غامرة من فيافى بنى سعد ، فضحك منه وقال : أعطوها كلها عـامرة. قال الحافظ[٣] : فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفـه فيهـا كيـف ابتـدأ بكلـب صيد فسهل القضية وجعل يأتى بمسألة مسألة على ترتيب وفكاهة حتى نـال ماسأله ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليها بارك الله فيه ، انتهى[٤].

[٤٥] وروى عن الحسن بن الحصين قال : لما أفضت الخلافة إلـى بنى العباس، كان من جملة من اختفى : إبراهيم بن سليمان بن عبـد الملـك فلـم يـزل مختفيـا إلـى أن أضنـاه وأضجـره الاختفـاء ، فـأخذ لـه أمـان مـن

---

(١) زند بن الجون ، أبو دلامة :شاعر من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، جسيم ، نشأ فى الكوفة ، واتصل بالخلفاء من بنى العبـاس ولـه فيهـم مدائح ، واتهـم بالزندقـة لتهتكه وأخباره كثيرة متفرقة ، ت[١٦١هـ] .

(٢) فيافى ، مفردها فيفى : المفازة لا ماء فيها .

(٣) الحافظ : أبو الفرج ابن الجوزى ، انظر : الأذكياء ص ١٢٨ .

(٤) انظر : ثمرات الأوراق ص٧٤ .

السفاح، وكان إبراهيم رجلا أديبا بليغا حسن المحاضرة فحظى عند السفاح ، فقال له : لقد مكثت زمانا طويلا مختفيا فحدثنى بأعجب مارأيت فى اختفائك ، فإنها كانت أيام تكدير[1] .

فقال : ياأمير المؤمنين وهل سُمع بأعجب من حديثى. لقد كنت مختفيا فى منزل أنظر منه إلى البطحاء فبينما أنا على مثل ذلك ، وإذا بأعلام سود قد خرجت من الكوفة تريد الحيرة فوقع فى ذهنى أنها خرجت تطلبنى، فخرجت متفكرا حتى أتيت الكوفة من غير الطريق وأنا والله متحير ولاأعرف بها أحدا ، وإذا أنا بباب كبير فى رحبة منيعة فدخلت فى تلك الرحبة فوقفت قريبا من الدار ، وإذا برجل حسن الهيئة وهو راكب فرسا ومعه جماعة من أصحابه وغلمانه فدخل الرحبة فرآنى واقفا مرتابا ، فقال لى: ألك حاجة ؟ قلت: غريب خائف من القتل ، قال : ادخل فدخلت إلى حجرة فى داره ، فقال : هذه لك ، وهيأ لى مااحتاج إليه من فرش وآنية ولباس وطعام وشراب وأقمت عنده ووالله ماسألنى قط من أنا ولاممن أخاف، وهو فى أثناء ذلك يركب فى كل يوم ويعود متعوبا متأسفا كأنه يطلب شيئا فاته ولم يجده ، فقلت له يوما : أراك تركب فى كل يوم وتعود متعوبا متأسفا كأنك تطلب شيئا فاتك فقال لى : إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك ، قتل أبى وقد بلغنى أنه مختف من السفاح وأنا أطلبه لعلى أجده وآخذ بثأرى منه ، فتعجبت والله ياأمير المؤمنين من هربى وشؤم بختى الذى ساقنى إلى منزل رجل يريد قتلى ، ويطلب ثأره منى فكرهت الحياة واستعجلت الموت لما نالنى من الشدة فسألت الرجل عن اسم أبيه وعن سبب قتله فعرفنى الخبر فوجدته صحيحا، فقلت : ياهذا قد وجب

(١) تَكَدُّرَ : غم .

على حقك وان من حقك أن أدلك على قاتل أبيك وأقرب إليك الخطوة وأسهل عليك مابعد ، فقال : أتعلم أين هو قلت : نعم ، فقال : أين هو؟ ، فقلت : والله هو أنا فخذ بثأرك منى ، فقال لى : أظن أن الاختفاء أضناك فكرهت الحياة ، قلت : نعم والله أنا قتلته يوم كذا وكذا فلما علم صدقى تغير لونه واحمرت عيناه وأطرق رأسه ساعة ثم رفع رأسه إلى وقال لى : أما أبى فسيلقاك غدا يوم القيامة فيحاكمك عند من لاتخفى عليه خافية ، وأما أنا فلست مخفرا[1] ذمتى ولامضيعا نزيلى، اخرج عنى فإنى لاآمن من نفسى عليك بعد هذا اليوم ؛ ثم وثب ياأمير المؤمنين إلى صندوق فأخرج منه صرة فيها خمسمائة دينار ، وقال : خذ هذه واستعن بها على اختفائك فكرهت أخذها وخرجت من عنده وهو أكرم رجل رأيت . فبقى السفاح يهتز طربا ويتعجب .

[٤٦] **وعن الهيثم بن عدى[2] ، قال** : كان أبو العباس السفاح تعجبه المسامرة ومنازعة الرجال ، فحضرت ذات ليلة فى مسامرة إبراهيم بن مخرمة الكندى وناس من بنى الحارث بن كعب وهم أخواله وخالد بن

---

(١) خفر : نقض العهد - الغدر .

(٢) الهيثم بن عدى بن عبد الرحمن الثعلى الطائى البحرى ، أبو عبد الرحمن : علام بالأدب والنسب ، مؤرخ ، اختص بمجالسة المنصور والمهدى والهادى والرشيد ، وروى عنهم وكان يتعرض لمعرفة أصول الناس ، ونقل أخبارهم فأورد فى بعض كتبه، معايبهم ، وأظهرها فكُره لذلك ، وطعن فى نسبه وقيل :

إذا نسبت عديا فى بنى ثعل فقدم الدال قبل العين فى النسب

قال بن قتيبة : كان يرى رأى الخوارج ، ت[٢٠٧هـ = ٨٢٢م] . انظر :المعارف ص٢٣٤ ، مرآة الجنان (٣٢/٢) .

صفوان بن إبراهيم التميمى فخاضوا فى الحديث وتذاكـروا مضـر واليمـن ، فقال إبراهيم: ياأمير المؤمنين إن اليمن هم العـرب الذيـن دانـت لهـم الدنيـا وكانت لهم القرى ولم يزالوا ملوكا أرباباً وورثوا ذلك كابرا عن كابرا أولا عـن آخـر منهـم : النعمانيـات ، والمنذريـات ، والقابوسـيات ، والتبابعـة ومنهم: من مدحته الزبر، ومنهم : غسيل الملائكة ، ومنهم : من اهتز لموته العرش، ومنهم : من كلمه الذئـب ، ومنهـم الـذى كـان يـأخذ كـل سـفينة غصبا ، وليس شىء له خطر إلا وإليهم ينسـب مـن فـرس رائـع ، أو سـيف قاطع ، أو درع حصينة ، أو حلة مصونة أو درة مكنونة ، إن سئلوا أعطوا ، وأن سيموا أبوا ، إن نزل بهم ضيف قروه، لايبلغهم مكابر ولاينالهم مفـاخر هم العرب العرباء ، وغيرهم المتعربة .

قال : أبو العباس السفاح ماأظن التميمى يرضى بقولك ، ثم قال لـه : ماتقول ياخالد ؟ قال : إن أذنت لى فى الكلام تكلمت قال : أذنت لك فى الكلام فتكلم ولاتهب أحدا ، فقـال: أخطـأ يـاأمير المؤمنيـن المقتحـم بغـير علم، والناطق بغير صواب فكيف يكون ماقال ، وإن القوم ليست لهـم ألسن فصيحة ، ولاحجة رجيحة نزل بها كتاب ولاجـاءت بهـا سنة ، وهـم منـا علـى منزلتين : إن حـادوا عـن قصدنـا أكلـوا وإن جـاوزوا حكمنـا قتلـوا ، يفخرون علينا بالنعمانيات والمنذريات وغير ذلك مما سنأتى عليه ، ونفخـر عليهم بخير الأنام وأكرم الكرام سيدنا محمد عليـه أفضـل الصـلاة والسـلام ولله المنة به علينا وعليهم، لقد كانوا أتباعه فبه عزوا وله أكرموا فمنا النبى ﷺ ، ومنا الخليفة المرتضى ، ولنا البيت المعمور ، والمسـعى ، وزمـزم ، والمقـام ، والمنـبر ، والركـن ، والحطيـم ، والمشـاعر ، والحجابـة ، والبطحاء، مع مالايخفى من المآثر ولايدرك من المفاخر ، فليس بعـدل بنـا

عادل ، ولايبلغ فضلنا قـول قـائل، ومنـا الصديـق ، والفـاروق، والوصـى ، وأسد الله ، وسيد الشهداء ، وذو الجناحين ، وسيف الله ، عرفوا أعالم الله وأتاهم اليقين ، فمن زاحمنا زاحمناه، ومن عادانا اصطلمناه(1) ، ثـم التفـت إلى إبراهيم فقال : أعالم أنت بلغة قومـك ؟ قـال : نعـم ، قـال : فمـا اسـم العين ؟ قال: الحمحمة ، قال : فما اسم السن ؟ قال : الميدن ، قـال : فمـا اسم الأذن؟ قال : الصنارة ، قال : فما اسم الأصابع ؟ قال : الشناتر ، قـال: فما اسم اللحية ؟ قال: الذئب ، قال : فما اسم الذئب ؟ قال : الكنع ، قال: أفمؤمن أنت بكتاب الله ؟ قال: نعم فإن الله تعالىيقول **﴿إنـا أنزلنـاه قرآنـا عربيـا لعلكـم تعقلـون﴾** [يوسف: ٢] وقـال تعـالى **﴿بلسـان عربـى مبيـن﴾** [الشعراء: ١٩٥] وقال **﴿ماأرسـلنا مـن رسـول إلا بلسـان قومـه﴾** [إبراهيم: ٤] فنحـن العـرب والقـرآن بلسـاننا نـزل ؛ ألـم تـر أن اللـه تعـالى قـال **﴿العيـن بـالعين﴾** [المائدة: ٤٥] ولـم يقـل الحمحمـة بالحمحمـة ، وقـال **﴿السـن بالسن﴾** [المائدة: ٤٥]ولـم يقـل الميـدن بـالميدن ، وقـال **﴿الأذن بـالأذن﴾** [المائدة: ٤٥] ولم يقل الصنـارة بالصنـارة ، وقـال **﴿يجعلـون أصـابعهم فـى آذانهم﴾** [البقرة: ١٩] ولـم يقـل شـناترهم فـى صنـاراتهم ، وقـال **﴿لاتـأخذ بلحيتى ولا برأسى﴾** [طه: ٩٤] ولم يقل بذئبى وقال تعالى **﴿فأكله الذئب﴾** [يوسف: ١٧] ولم يقل فأكله الكنع ، ثم قـال : أسـألك عـن أربـع إن اقـررت بهن قهرت ، وإن جحدتهن كفرت ، قال : وماهن ؟ قـال: الرسـول منـا أو منكم ؟ قال : منكم ، قال : فالقرآن نزل علينا أو عليكم ؟ قـال : عليكـم ، قال : فالبيت الحرام لنا أو لكم ؟ قال: لكم قال : فالخلافة فينـا أو فيكـم ؟ قال خالد : فما كان بعد هذه الأربع فهو لكم.

---

(١) اصْطَلَمَ : استأصله .

٣- فصل

خلافة أبى جعفر المنصور(١)

[٤٧] **قيل** : إنه كان يحفظ الشعر من مرة ، وله مملوك يحفظه من مرتين ، وكان له جارية تحفظه من ثلاث مرات ، وكان بخيلا جدا حتى أنه كان يلقب بالدوانيقى لأنه كان يحاسب على الدوانق(٢) فكان إذا جاء شاعر بقصيدة قال له : إن كانت مطروقة بأن يكون أحد يحفظها أو أحد أنشأها أى بأن كان أتى بها أحد قبلك فلا نعطيك بها جائزة ، وإن لم يكن أحد يحفظها نعطيك زنة ماهى مكتوبة فيه فيقرأ الشاعر القصيدة، فيحفظها الخليفة من أول مرة ، ولو كانت ألف بيت ، ويقول للشاعر : اسمعها منى وينشدها بكمالها ، ثم يقول له وهذا المملوك يحفظها وقد سمعها المملوك مرتين مرة من الشاعر ومرة من الخليفة فيقرؤها ، ثم يقول الخليفة : وهذه الجارية التى خلف الستارة تحفظها أيضا ، وقد سمعتها الجارية ثلاث مرات فتقرؤها بحروفها ، فيذهب الشاعر بغير شيء .

---

(١) عبد الله بن محمد بن على بن العباس ، أبو جعفر المنصور : ثانى خلفاء بنى العباس ، كان عارفا بالفقه والأدب ، محبا للعلماء . ولد فى الحميمة من أرض الشراة ، وولى الخلافة بعد وفاة أخية السفاح [١٣٦هـ] ، وهو بانى مدينة "بغداد" أمر بتخطيطها سنة [١٤٥هـ] وجعلها دار ملكه بدلا من الهاشمية التى بناها السفاح ، وكان بعيدا عن اللهو والعبث كثير الجد والتفكير ، وهو والد الخلفاء العباسيين جميعا ، وكان أفحلهم شجاعة وحزما ، مدة خلافته [٢٢] عاما توفى ببئر ميمون محرما بالحج [١٥٨هـ - ٧٧٥م] . انظر : الكامل لابن الأثير (١٧٢/٥) ، تاريخ الطبرى (٢٩٢/٩-٣٢٢) .

(٢) الدّوَانِق ، جمع دانق : جزء من الدرهم .

[٤٨] قال الراوى : وكان الأصمعى من جلسائه وندمائه فنظم أبياتا صعبة، وكتبها على قطعة عمود من رخام ، ولفها فى عباءة وجعلها على ظهر بعير ، وغير حليته فى صفة أعرابى غريب وضرب له لثاما ولم يبن منه غير عينيه ، وجاء إلى الخليفة ، وقال : إنى امتدحت أمير المؤمنين بقصيدة فقال : ياأخا العرب إن كانت لغيرك لانعطيك عليها جائزة ، وإلا نعطك زنة ماهى مكتوبة عليه فأنشد الأصمعى هذه القصيدة :

صوت صفير البلبل ... هيج قلبى الثمل
الماء والزهر معا ... مع زهر لحظ المقل
وأنت ياسيد لى ... وسيدى ومولى
وكم وكم تيمنى ... غزيل عقيقلى
قطفت من وجنته ... باللثم ورد الخجل
وقلت بس بسبسنى ... فلم يجد بالقبل
وقال لا لا للا ... وقد غدا مهرولى
والخود مالت طربا ... ولى ولى ياويللى[1]
من فعل هذا الرجل ... وولولت ولولة
لما رأته أشمطا ... فقلت لاتولولى
ويبنى اللؤلؤلى ... إلابطيب الوصللى
يريد غير القبل ... وبعده مايكتفى
وفتية سقوننى ... قالت له حين كذا
انهض وجد بالنقلى ... أزكى من القرنفل
قهوة كالعسللى ... شممتها فى أنفقى

---

(١) خَوْد : المرأة الشابة .

بـــــالزهر والســـــــروللى والعـــــود دنـــــدن دنلـــــى
فـــى وســـط بســتان حلـــى والرقـــص قـــد طبطبلـــى
والســـــف سقسقســـــقلى والطبـــــل طبطبطبلـــــى
علـــــى ورق ســـــفرجل وغـــرد القمـــرى يصيـــح لـــى
شوواشوواشاهشـــــــوا فلـــــو ترانـــــى راكبـــا
علـــــى حمـــــار أهزلـــــى مـــن ملـــل فـــى مللـــى
يمشـــــى علـــــى ثلاثـــــة كمشـــــية العرنجلـــــى
والنـــــاس ترجمجملـــــى فـــى الســـوق بـــــالقلقلى
والكـــل كعكـــع كعكـــع خلفـــى ومـــن حوللـــى
لكـــن مشـــيت هاربـــا مـــن خشـــية العقنقلـــى
إلـــى لعشـــاء وذلـــك معظـــــم مبجـــــل
يـــأمر لـــى بخلعـــة حمـــراء كـــالدم دملـــى
أجـــر فيهـــا ماشـــيا مبغـــــدد اللديـــــل
أنـــا الأديـــب الألمعـــى مـــن حـــى أرض الموصلـــى
نظمـــت قطعـــا زخرفـــت تعجـــــز الأدبللـــــى
أقـــول فـــى مطلعهـــا صـــوت صفـــير البلبـــل

قال الراوى : فلم يحفظها الملك لصعوبتها ونظر إلى المملوك وإلى الجارية فلم يحفظها أحد منهما ، فقال : يـا أخـا العـرب هـات الـذى هـى مكتوبة فيه نعطك زنته ، فقال : يامولاى إنى لم أجد ورقا أكتب فيه وكان عندى قطعة عمود من رخام من عهد أبى وهى ملقـاة ليس لـى بهـا حاجـة فنقشتها فيها ؛ فلم يسع الخليفـة إلا أنـه أعطـاه وزنهـا ذهبـا ، فنفـذ مـافى خزينته من المال فأخذه وانصرف ، فلما ولى قال الخليفة : يغلب على ظنى أن هـذا الأصمعى ، فـأحضره وكشـف عـن وجهـه فـإذا هـو الأصمعـى ،

فتعجب منه ومن صنيعه وأجازة على عادته . قال : ياأمير المؤمنين إن الشعراء فقراء وأصحاب عيال ، وأنت تمنعهم العطاء بشدة حفظك ، وحفظ هذا المملوك وهذه الجارية ، فإذا أعطيتهم ماتيسر ليستعينوا به على عيالهم لم يضرك ، انتهى والله أعلم .

[٤٩] **وذكر الغزالي**(١) **وابن بليان وغيرهما** : أن أبا جعفر المنصور حج ونزل في دار الندوة ، وكان يخرج سحرا فيطوف بالبيت فخرج ذات ليلة سحرا فبينما هو يطوف، إذ سمع قائلا يقول : اللهم أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض ومايحول بين الحق وأهله من الطمع . فهرول المنصور في مشيته حتى ملأ سمعه ، ثم رجع إلى دار الندوة وقال لصاحب شرطته : إن بالبيت رجلا يطوف فأتني به ، فخرج صاحب الشرطة فوجد رجلا عند الركن اليماني ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فلما دخل عليه قال: أنت الذي سمعتك آنفا تشكو إلى الله ظهور البغي والفساد في الأرض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع فوالله لقد حشوت مسامعي ماأمرضني ، فقال له : ياأمير المؤمنين إن الذي دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله وامتلأت بلاد الله بذلك بغيا وفسادا أنت هو ، فقال له المنصور : ويحك كيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء ببابي وملك

---

(١) محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي زين الدين ، حجة الإسلام ، أبو حامد الغزالي : فقيه ، أصولي ، صوفي ، ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي بجرجان ، ثم إلى إمام الحرمين الجويني بنيسابور ، فشتغل عليه ولازمه ، ثم أقبل على العبادة والسياحة، له مؤلفات كثيرة أشهرها "إحياء علوم الدين" ، ت[٥٠٥هـ = ١١١١م] . انظر : سير أعلام النبلاء (١٢/ ٧٥-٨١) ، وفيات الأعيان (٥٨٦/١) .

الأرض فى قبضتى ، فقال الرجل : سبحان الله يا أمير المؤمنين وهل داخل أحدا من الطمع ما داخلك استرعاك الله أمور المؤمنين وأموالهم فأهملت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم واتخذت بينك وبين رعيتك حجابا من الجبس والآجر[1] ، وحجبة معهم السلاح ، وأمرت أن لايدخل عليك إلافلان وفلان نفرا استخلصتهم لنفسك ، وأمرتهم على رعيتك ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا العارى، ولا أحد إلاوله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء ، الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك تجمع الأموال وتقسمها ، قالوا : هذا خان الله ورسوله فما لنالا نخونه ، فأجمعوا على أن لايصل إليك من أموال الناس إلا ماأرادوا فصار هؤلاء شركاءك فى سلطانك وأنت غافل عنهم فإذا جاء المظلوم إلى بابك وجدك أوقفت رجلا ينظر فى مظالم الناس ، فإن كان الظالم من بطانتك علل صاحب المظالم بالمظلوم، وسوف من وقت إلى وقت، فإذا اجتهد وظهرت أنت صرخ بين يديك فضربه أعوانك ضربا شديدا ليكون نكالا لغيره ، وأنت ترى ذلك ولا تنكر.

لقد كانت الخلفاء قبلك من بنى أمية إذا أتت إليهم الظلامة أزيلت فى الحال ، ولقد كنت أسافر الصين يا أمير المؤمنين ، فقدمت مرة فوجدت الملك الذى به قد فقد سمعه فبكى، فقال له : وزراؤه مايبكيك أيها الملك لا أبكى الله لك عينا إلامن خشيته ، فقال: والله مابكيت لمصيبة نزلت بى وإنما لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمعه ، ثم قال: إن كان سمعى ذهب فإن بصرى لم يذهب نادوا فى الناس لايلبس أحد ثوباً أحمر إلا مظلوم ، وكان يركب الفيل طرفى النهار ويدور فى البلد لعله يجد أحدا لابسا ثوباً أحمر ،

(١) الآجُرّ : ما يبنى به من الطين المشوى . وتسميه العامة : القرميد .

فيعلم أنه مظلوم فينصفه ؛ هذا الأمير رجل مشرك غلبت عليه رأفته على شح نفسه بالمشركين ، وأنت مؤمن بالله ورسوله وابن عم رسول الله ﷺ يا أمير المؤمنين لاتجمع الأموال إلا لإحدى ثلاث ، فإن قلت: إنما أجمع الأموال لمصالح الملك ، فقد أراك الله عبرة فى الملوك والقرون من قبلك ما أغنى عنهم ما أعدوا من الأموال والرجال والكراع حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت : إنما أجمع للولد ، فقد أراك الله عبرة فيمن تقدم ممن جمع المال للولد فلم يغن ذلك عنهم شيئاً بل ربما مات فقيرا ذليلا حقيرا ، وإن قلت : إنما أجمعه لغاية هى أجسم من الغاية التى أنت فيها ، فو الله ما فوق منزلتك إلا منزلة لاتدرك إلا بالعمل الصالح .

فبكى المنصور بكاء شديداً ، ثم قال : وكيف أعمل وقد فرت منى العباد ولم تقربنى والصالحون لم يدخلوا على ؟ فقال : ياأمير المؤمنين افتح الباب ، وسهل الحجاب وانتصر للمظلوم ، وخذا المال مما حل وطاب واقسمه بالحق والعدل ، وأنا ضامن من هرب أن يعود إليك ، فقال المنصور: نفعل إن شاء الله تعالى ، وجاء المؤذن فأذن للصلاة فقام وصلى، فلما قضى صلاته طلب الرجل فلم يجده ، فقال : لصاحب الشرطة على بالرجل الساعة فخرج يطلبه فوجده عند الركن اليمانى فقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ليس إلى ذلك من سبيل ، فقال: إذن يضرب عنقى ، فقال : ولا إلى ضرب رقبتك من سبيل ، ثم أخرج من مزود[1] كان معه رقا[2] مكتوبا فقال له : خذه فإن فيه دعاء الفرج من دعا به صباحا ومات

(١) المزود : ما يوضع فيه الزاد ، و جمعه مزاود .

(٢) رِقّ : جلد رقيق يكتب فيه .

من يومه مات شيهدا ، ومن دعا به مساء ومات من ليلته مات شهيدا ، وذكر له فضلا عظيما وثوابا جزيلا ، فأخذه صاحب الشرطة وأتى به المنصور ، فلما رآه قال له : ويلك أو تحسن السحر ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ثم قص عليه القصة فأمر المنصور بنقله وأمر له بألف دينار وهو هذا «اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء ، وعلوت بعظمتك على العظماء ، وعلمك بما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك ، وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وانقاد كل شيء لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم وغم أصبحت وأمسيت فيه فرجا ومخرجا اللهم إن عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى وسترك على قبيح عملي أطمعنى أن أسألك مالا أستوجبه مما قصرت فيه أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا فإنك أنت المحسن إلىَّ وأنا المسيء إلى نفسى فيما بينى وبينك تتودد إلى بالنعم وأتبغض إليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك فجد بفضلك وإحسانك على أنك أنت الرؤوف الرحيم» ، انتهى من حياة الحيوان .

[٥٠] **وحدث عبد الله البلتاجى قال** : دخل ابن أبى ليلى على أبى جعفر المنصور ، وكان ابن أبى ليلى قاضيا ، فقال أبو جعفر : إن القاضى يرد عليه من طرائف الناس ونوادرهم ، فإن كان ورد عليك شيء فحدثنيا فقد طال على يومى .

قال : والله ياأمير المؤمنين قد ورد على منذ ثلاثة أيام أمر ماورد علـ مثله : أتتنى عجوز ، تكاد أن تنال الأرض بوجهها ، أو تسقط من انحنائه

فقالت : أنا بالله وبالقاضى أن يأخذ لى بحقى ، وأن يعيننى على خصمى ، قلت : ومن خصمك ؟ قالت : ابنة أخ لى ، فدعوت بها فجاءت امرأة ضخمة ممتلئة شحما فجلست منبهرة فذهب العجوز تتظلم، فقالت الشابة أصلح الله القاضى مرها فلتسكت حتى أتكلم بحجتى وحجتها، فإن لحنت[1] بشيء فلترد علىّ فإن أذنْتَ لى أسفرتُ[2] ، فقالت : العجوز إن أسفرت قضيت لها ، فقلت لها : أسفرى فأسفرت عن وجه والله ما ظننت أن يكون مثله إلا فى الجنة .

فقالت : أصلح الله القاضى هذه عمتى مات والدى وتركنى يتمية فى حجرها فربتنى فأحسنت التربية حتى إذا بلغت مبلغ النساء ، قالت لى : يا بنت أخى هل لك فى التزويج ؟ قلت : ما أكره ذلك ياعمة ، قالت العجوز: نعم ، قالت: فخطبنى وجوه أهل الكوفة فلم ترض إلا رجلا صيرفيا[3] فتزوجنى ، فكنا كأننا ريحانتان ما نظن أن الله خلق غيره يغدو إلى سوقه ويروح على بما رزقه الله تعالى؛ فلما رأت العمة موقعه منى وموقعى منه ؛ حسدتنا على ذلك وكانت لها ابنة فشوفتها[4] وهيأتها لدخول زوجى فوقعت عينه عليها ، فقال : ياعمة هل لك أن تزوجينى ابنتك؟ قالت : نعم بشرط ، فقال لها : وما الشرط ؟ قالت: تصير أمر ابنة أخى إلى ، قال : قد صيرت أمرها إليك ، قالت : فإنى قد طلقتها ثلاثا بتة،

---

(١) لَحَنَ : اخطأ

(٢) أسفَرَت : كشفت عن وجهها .

(٣) صَيْرَفِيّ : بيَّاع النقود بنقودٍ غيرها .

(٤) شوفتها : زينتها .

وزوجت ابنتها زوجي فكان يغدو عليها ويروح ، فقلت لها : ياعمتي أتأذنين لي أن أنتقل عنك ؟ قالت : نعم ، فانتقلت عنها . وكان لعمتي زوج غائب فقدم فلما توسط منزلها قال : مالي لا أرى ربيبتنا ؟ قالت : طلقها زوجها فانتقلت عنا، فقال : إن لها من الحق علينا أن نعزيها بمصيبتها فلما بلغني مجيئه إلى تهيأت له وتشوفت ، فلما دخل عليَّ عزاني بمصيبتي ثم قال : إن فيك بقية من الشباب فهل لك أن أتزوج بك ؟ قلت: ما أكره ذلك ولكن على شرط ، قال لي : وما الشرط ؟ قلت : تصير أمر عمتي بيدى، قال : فإني قد فعلت وصيرت أمرها بيدك ، قلت : فإني قد طلقتها ثلاثا بتة ، قالت: فقدم على بثقله من الغد ومعه ستة آلاف درهم فأقام عندى ، ثم إنه اعتل وتوفي ؛ فلما انقضت عدتي جاء زوجي الأول الصيرفي يعزيني بمصيبتي فلما بلغني مجيئه تهيأت وتشوفت له ، فلما دخل على قال لي : يا فلانة إنك تعلمين أنك كنت أعز الناس على وأحبهم إلىّ وقد حلت المراجعة هل لك في ذلك؟ قلت : ما أكره ، ولكن اجعل أمر ابنة عمتي بيدى ، قال : فإني قد فعلت ، قلت : فإني قد طلقتها ثلاثا بتة ، أصلح الله القاضي فرجعت إلى زوجي فما اعتدائي عليها ؟

فقالت العجوز : أنا فعلت مرة وفعلت مرة بعد أخرى ، فقلت : إن الله لم يؤقت في هذا وقتا وقد قال ﴿**من عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله**﴾ [الحج: ٦٠] واحدة بواحدة والبادى أظلم ، فقال القاضي: إن زوج العمة لم يكن له أن يتزوج ابنة أخيها وهي في عدته ، فأرادت العجوز أن تتولى التفريق بينه وبينها استيفاء لها ومجازاة لها على فعلها ، فقلت لها : قد فرقت بينكما قومي إلى منزلك ، انتهى .

[٥١] و[قيل] : ذكر المنصور يوما فى مجلسه زوال ملك بنى أمية وما جرى عليهم وأنهم عاشوا سعداء وماتوا فقراء ، فقال له إسماعيل بن على الهاشمى : إن عبد الله بن مروان بن محمد[١] فى حبسك وله قصة مع ملك النوبة فأحضره واسأله عنها ، فأحضره فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال المنصور : رد السلام أمن ولم تسمح نفسى بذلك، ولكن اقعد فقعد ، فقال : ما قصتك مع ملك النوبة ؟

فقال : يا أمير المؤمنين كنت ولى عهد أبى ، فلما طلبتنا دعوت عشرة من غلمانى ودفعت لكل واحد ألف دينار وأوسقت خمس بغال وشددت فى وسطى جوهرا له قيمة عظيمة وخرجت هاربا إلى بلاد النوبة فلما قربنا بعثت غلاما لى فقلت: امض إلى هذا الملك وأقرئه السلام وخذ لنا منه الأمان وابتغ لنا ميرة[٢] ، فمضى وأبطأ حتى أسأت به الظن ، ثم أقبل ومعه رجل فدخل وسلم ، وقال: الملك يقرئك السلام ويقول لك : من أنت وما جاء بك إلى بلادى أمحارب أم راغب فى دينى أم مستجير بى ، فقلت له : رد على الملك ما أنا بمحارب ولا راغب فى دينك ولا ممن يبتغى بدينه بدلا بل مستجير به ، فذهب الرسول ورجع إلى وقال : الملك يقول لك إنى أجيء إليك غدا فلا تحدث نفسك حدثا ولا شيئاً من الميرة، فقلت لأصحابى : افرشوا الفرش ففرش لى وجلست من الغد أرقبه وإذا هو

---

(١) عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، الأموى : شهد زوال دولتهم فى أيام أبيه [١٣١هـ] وفر من عبد الله بن على العباسى "عم السفاح" إلى بلاد النوبة ، ت[١٧٠هـ = ٧٨٧م] . انظر : تاريخ ابن خلدون (١١٢/٣)

(٢) المِيْرَة : الطعام الذى يدخره الإنسان .

قد أقبل وعليه بردان قد ائتزر بأحدهما وارتدى بالآخر حافى الرجلين ومعه عشرة معهم الحراب ثلاثة يقدمونه وسبعة خلفه فاستصغرت أمره وسولت لى نفسى قتله فلما قرب إذا سواد عظيم قلت: ماهذا ؟ قالوا : الخيل فوافى بها عشرة آلاف عنان[1] ووافت الخيل عند دخوله فأحدقوا بنا ؛ فلما دخل جلس على الأرض ، قال: فقلت لترجمانه : لِمَ لَمْ يقعد على الموضع الذى وطئ له فسأله فقال : قل له إنه ملك وكل ملك حقه أن يكون متواضعا لله وعظمته إذ رفعه الله على عباده، ثم نكت بأصبعه الأرض طويلا ، ورفع رأس ، وقال : قل له كيف سلبتم هذا الملك فأخذ منكم وأنتم أقرب الناس إلى نبيكم؟ فقلت : جاء من أقرب منا قرابة إليه فسلبنا وغلبنا وطردنا ، فخرجت إليك مستجيرا بالله ثم بك ، قال : فلم كنتم تشربون الخمر وهو محرم عليكم ؟ قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا فى ديننا وفى ملكنا من غير رأينا ، قال : فلم تركبون على الديباج وعلى خيولكم سروج الذهب والفضة وهى محرمة عليكم ؟ قلت : فعل ذلك عبيد وأعاجم دخلوا فى ديننا وفى ملكنا بغير رأينا ، قال : فلم كنتم إذا خرجتم إلى الصيد مررتم على القرى وكلفتم أهلها مالا طاقة لهم به : الضرب والإهانة ولا يقنعكم ذلك حتى تحطموا زرعهم فى طلب دراج[2] قيمته نصف درهم والتكليف والعناء محرم عليكم؟ قلت : فعل ذلك عبيد وغلمان وأتباع ، قال : لا ولكنكم استحللتم ما حرم الله عليكم وأتيتم مانهاكم الله عنه فسلبكم العز وألبسكم الذل ونصر أعداءكم عليكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد ، وإنى أخاف أن ينزل بك النقمة إذا كنت من الظلمة فتشملنى

---

(١) عَنان : لجام الخيل .

(٢) الدَرَّاج : القنفد لأنه يدرج فى الليل .

معك ، فإن النقمة إذا نزلت شملت، فاخرج بعد ثلاث فإن وجدتك بعدها أخذت مامعك وقتلتك ومن معك ، ثم وثب قائما وخرج وأقمت ثلاثا ورجعت الى مصر فأخذني عاملك ، وبعث بي إليك وها أنا والموت أحب إلي من الحياة ، فرق له المنصور وهم بإطلاقه ، فقال له إسماعيل بن علي: في عنقي بيعة هذا ، قال : فما ترى قال ينزل في دار من دورنا ، ويجري عليه مايجري على مثله ، ففعل به ذلك، انتهى .

[٥٢] و[قيل] خطب المنصور يوما بالشام فقال : "أيها الناس ينبغي لكم أن تحمدو الله تعالى على ماوهبكم الله في فإني منذ وليتكم صرف الله عنكم الطاعون الذي كان يجيئكم" ، فقال أعرابي : إن الله أكرم من أن يجمعك أنت والطاعون علينا.

[٥٣] و[قيل] : دخل ابن هرمة(١) على المنصور وامتدحه ، فقال له المنصور: سل حاجتك ، قال : تكتب إلى عاملك بالمدينة إذا وجدني سكرانا لا يحدني ، فقال له المنصور : هذا حد لاسبيل إلى تركه ، فقال : مالي حاجة غيرها ، فقال لكاتبه : اكتب إلى عاملنا بالمدينة من أتاك بابن هرمة وهو سكران فاجلده ثمانين واجلد الذي جاء به مائة فكان الشرطة

---

(١) إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر : شاعر غزل من سكان المدينة ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، رحل إلى دمشق ومدح الوليد بن يزيد ثم وفد إلى المنصور العباسي في وفد أهل المدينة فتجهم له ، ثم أكرمه ، وهو آخر الشعراء الذين يحتج بشعرهم . وقال الأصمعي : ختم الشعر بابن هرمة وكان مولعاً بالشراب ، وجلد فيه أكثر من مرة ، ت[١٧٦هـ] . انظر : عيون الأخبار لابن قتيبة (١٦٢/١) ، تاريخ بغداد (١٢٧/٦) ، البداية والنهاية (١٦٩/١٠).

يمرون عليه وهو سكران ويقولون من يشترى ثمانين بمائة فيمرون عليه ويتركونه ، انتهى(١) .

[٥٤] **وحدث أحمد بن موسى قال** : ما رأيت رجلا أثبت جنانا ولا أحسن معرفة ولا أظهر حجة من رجل رفع فيه عند المنصور بأن عنده أموالا لبنى أمية فأمر المنصور حاجبه الربيع(٢) أن يحضره فلما حضر بين يديه ، قال المنصور : رفع إلينا أن عندك ودائع وأموالا وسلاحا لبنى أمية فأخرجها لنا لنجمع ذلك إلى بيت المال ، فقال الرجل : يا أمير المؤمنين أنت وارث لبنى أمية قال لا قال فلم تسأل إذن عما فىيدى من أموال بنى أمية ولست بوارث لهم ولا وصى فأطرق المنصور ساعة ثم قال : إن بنى أمية ظلموا الناس وغصبوا أموال المسلمين ، فقال الرجل : يحتاج أمير المؤمنين إلى بينة يقبلها الحاكم تشهد أن المال الذى لبنى أمية هو الذى فى يدى وأنه هو الذى غصبوه من الناس ، وأن أمير المؤمنين يعلم أن بنى أمية كانت لهم أموال لأنفسهم غير أموال المسلمين التى اغتصبوها على مايتهم أمير المؤمنين، قال: فسكت المنصور ساعة ، ثم قال : ياربيع صدق الرجل مايجب لنا على الرجل شىء ، ثم قال للرجل ألك حاجة ؟ قال : نعم قال

---

(١) جاء ذكر هذه القصة فى العقد الفريد لابن عبد ربه(٥٨/٨) ولكن كانت بين ابن هرمة مع المهدى .

(٢) الربيع بن يونس بن محمد بن أبى فروة ، كيسان أبو الفضل : من موالى بنى العباس ، وزير من العقلاء الموصوفين بالحزم ، اتخذه المنصور العباسى حاجبا ثم استوزره ، وعاش إلى خلافه المهدى ، وإليه تنسب "قطيعة الربيع" ببغداد وهى محلة كبيرة ، ت[١٩٦هـ - ٧٨٦م] .انظر :وفيات الأعيان (١٨٥/١) ، الأعلام للزركلى (١٥/٣).

ماهى ؟ أن تجمع بينى وبين من سعى فى إليك فوالله ياأمير المؤمنين ما لبنى أمية عندى مال ولا سلاح وإنما أحضرت بين يديك وعملت ما أنت فيه من العدل والإنصاف واتباع الحق واجتناب المظالم فأيقنت أن الكلام الذى صدر منى هو أنجح وأصلح لما سألتنى عنه ، فقال المنصور : ياربيع اجمع بينه وبين الذى سعى به فجمع بينهما ، فقال : ياأمير المؤمنين هذا أخذلى خمسمائة دينار وهرب ولى عليه مسطور شرعى فسأل المنصور الرجل فأقر بالمال قال فما حملك على السعى كاذبا ، قال : أردت قتله ليخلص لى المال ، فقال الرجل : قد وهبتها له ياأمير المؤمنين لأجل وقوفى بين يديك وحضورى مجلسك ووهبته خمسمائة دينار أخرى لكلامك لى، فاستحسن المنصور فعله وأكرمه ورده إلى بلده مكرما وكان المنصور كل وقت يقول ما رأيت مثل هذا الشيخ قط ولا أثبت من جنانه ولا من حجته مثله ولا رأيت مثل حلمه ومروءته ، انتهى .

٤- فصل

خلافة المهدى(١)

[٥٥] اسمه محمد بن المنصور . حدثنا داود بن رشيد قال : قلت للهيثم بن عدى : بأى شيء استحق سعيد بن عبد الرحمن أن ولاه المهدى القضاء وأنزله منه تلك المنزلة الرفيعة ؛ فقال : إن خبر اتصاله بالمهدى ظريف فإن أحببت شرحته لك ، قلت: والله قد أحببت .

قال : اعلم أنه وافى الربيع الحاجب حين أفضت الخلافة إلى المهدى وقال له استأذن لى على أمير المؤمنين فقال له من أنت وما حاجتك ؟ قال أنا رجل قد رأيت لأمير المؤمنين أعزه الله رؤيا صالحة وقد أحببت أن تذكرنى له ، فقال الربيع : ياهذا إن القوم لايصدقون فيما يرونه لأنفسهم فكيف بما يراه لهم غيرهم فاحتل بحيلة غير هذا ، فقال : إن لم تخبره بمكانى سألت من يوصلنى إليه وأخبره أنى سألتك الإذن لى عليه فلم تفعل فدخل الربيع على المهدى فقال له يا أمير المؤمنين إنكم قد أطمعتم الناس فى أنفسكم فقد احتالوا عليكم بكل ضرب فقال له المهدى : هكذا تصنع

---

(١) محمد بن عبد الله بن محمد بن على العباسى ، المهدى : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد بإذنج (من كور الأهواز) ولى الخلافة بعد وفاة أبيه وبعهد منه [١٥٨هـ] كان محمود العهد والسيرة ، محببا إلى الرعية ، جوادا . وكان يجلس للمظالم ويقول : أدخلوا على القضاة فلو لم يكن ردّى للمظالم إلا حياءً منهم لكفى . وهو أول من مشى بين يديه بالسيوف المتصلة والقسى والنشاب . وهو الذى بنى جامع الرصافة . وأقام فى الخلافة عشر سنين وشهرا ، ومات فى ماسبذان [١٦٩هـ = ٧٨٥م] . انظر: دول الإسلام للذهبى (٨٦/١) ، تاريخ الطبرى (١٠/١١-٢١) .

الملوك فماذا ؟ قال: رجل بالباب يزعم أنــه رأى لأمير المؤمنيـن أيـده اللـه رؤيا حسنة وقد أحب أن يقصها عليك ، فقال المهدى : يـاربيع انـى واللـه أرى الرؤيا لنفسى فلا تصح لى فكيف يمكن ادعاؤها ممن لعلة قد افتعلها ، قال : والله قلت له مثل هذا فلم يقبل ، قال : هات الرجل .

قال : فأدخل عليه سعيد وكان له رؤية ، وجمال ، ومـروءة ظـاهرة ، ولحية عظيمة ، ولسان طلق . فقال لـه : مـا رأيـت بـارك اللـه فيـك ؟ قـال رأيت ياأمير المؤمنين آتياً أتانى في منامى ، فقال : أخبر أمـير المؤمنيـن أنـه يعيش ثلاثين سنة فى الخلافة ، وآية ذلك أنه يرى فى ليلة الآتيـة فـى منامـه كأنه يقلب يواقيت ثم يعدها فيجدها ثلاثين ياقوتـة كأنهـا قـد وهبـت لـه . فقال المهدى : ما أحسن مارأيت ونحن نمتحـن رؤيـاك فـى ليلتنـا المقبلـة على ماأخبرتنا ، فإن كان الأمر علـى مـاذكرت أعطينـاك فـوق مـاتريد وإن كان الأمر بخلاف ذلك لم نعاقبك ؛ لعلمنا أن الرؤيا الصالحة ربما صدقت وربما اختلفت . قال : ياأمير المؤمنين فما أصنع أنا السـاعة إذا صـرت إلـى منزلى وعيالى وأخبرتهم أنى كنت عند أمير المؤمنين أكرمه الله ثم رجعـت صفـر اليـد ، فقـال لـه : المهـدى فكيـف نعمـل ؟ فقـال : يعجـل لـى أمـير المؤمنين أعزه الله تعالى ما أحب وأحلف له بالطلاق أنى قد صدقت ، فأمر له بعشرة آلاف درهم وأمر بأن يؤخذ له كفيل ليحضر من غـد ذلـك اليـوم فقبض المال وقال له : من يكفلك فمد عينه إلى خادم حسن الوجـه والـزى وقال : هذا يكفلنى ، فقال لــه المهـدى: أتكفلـه يـاغلام ؟ فـاحمر وخجـل وقال : نعم يـا أمير المؤمنيـن فكفلـه ، وانصـرف سـعيد بـن عبـد الرحمـن بالعشرة آلاف درهم فلما كانت تلك الليلة رأى المهدى مـاذكره لـه سـعيد

حرفا بحرف وأصبح سعيد فوافى الباب واستأذن فأذن له ، فلما وقعت عين المهدى عليه قال له : أين مصداق ماقلت لنا عليه ، فقلت له : وما رأى أمير المؤمنين فضجع فى جوابه[1] ، فقال له : امرأتى طالق إن لم تكن رأيت شيئاً . قال له المهدى : ما أجرأك على هذا الحلف بالطلاق فقال لأنى أحلف على صدق قال له المهدى فقد والله رأيت ذلك مبينا ، فقال له سعيد : الله أكبر فانجزلى يا أميرالمؤمنين ماوعدتنى قال : حبا وكرامة ثم أمر له بثلاثة آلاف دينار وعشرة تخوت[2] ثياب من كل صنف وثلاثة مراكب من أنفس دوابه محلاة فأخذ ذلك وانصرف ، فلحق به الخادم الذى كان كفله ، وقال له : سألتك بالله هل لهذه الرؤيا من أصل ؟ فقال سعيد : لا والله، فقال الخادم : كيف وقد رأى أمير المؤمنين ماذكرته ، قال : هذا من المخاريف التى لا أب لها ، وذلك أنى لما ألقيت هذا الكلام خطر بباله ، وحدث به نفسه ، وأسرى به قلبه واشتعل به فكره ، ففى ساعة نام خيل له ماحل فى قلبه واشتغل به فكره فنام فرآه . فقال له الخادم : قد حلفت بالطلاق ، قال : قد طلقت واحدة وبقيت معى على ثنتين وأزيد مهرها عشرة دراهم ، وأتحصل على عشرة آلاف درهم ، وثلاثة آلاف دينار ، وعشرة تخوت من أصناف الثياب، وثلاثة مراكب فارهة ، فبهت الخادم وتعجب من ذلك . فقال له سعيد : قد صدقتك وجعلت ذلك مكافأتك على كفالتك فاستر على . ثم طلبه المهدى لمنادمته فنادمه وحظى عنده وقلده القضاء على العسكر فلم يزل كذلك حتى مات ،انتهى.

---

(١) فضجع فى جوابه : أبطأ فى الرد .

(٢) التَخْت : خزانة الثياب .

[٥٦] ويحكى : أن المهدى خرج يتصيد فسار به فرسه حتى دخل إلى خباء أعرابى فقال : ياأعرابى هل من قرى ؟ قال : نعم ، فأخرج له قرص شعير فأكله ، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه ، ثم أتاه بنبيذ فى ركوة فسقاه قعبا[١] فلما شرب ، قال: ياأخا أتدرى من أنا ؟ قال : لا والله، قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال: بارك الله فى موضعك ، ثم سقاه قعبا آخر فشربه ، فقال : ياأعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة ، قال : لابل أنا من قواد أمير المؤمنين قال: رحبت بلادك وطاب مرادك ، ثم سقاه ثالثا ، فلما فرغ منه ، قال : يا أعرابى أتدرى من أنا ؟ قال : زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين ، قال : لا ولكنى أمير المؤمنين ، فأخذ الأعرابى الركوة[٢] وأوكأها[٣] وقال : والله لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله ، فضحك المهدى حتى غشى علية ، وأحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف فطار قلب الأعرابى ، فقال له : لا بأس عليك ولا خوف ثم أمر له بكسوة ومال .

[٥٧] وقيل : كان لأسماء بنت المهدى جارية ، يقال لها : كاعب وكانت بكراً ناهداً ذات حسن وجمال وقد[٤] واعتدال وكانت بنت ست عشرة ، سنة قال : فتلاعب عليها أبو نواس[٥] لينالها ، فتمنعت منه مراراً

---

(١) القَعْب : قدح ضخم .

(٢) رِكْوَة : إناء صغير من جلد لشرب الماء وغيره .

(٣) أَوْكَأ : أى شدها بالوكاء ، والوكاء الخيط الذى تشد به الصرة وتعلق منه .

(٤) قد : معتدلة القامة .

(٥) الحسن بن هانىء بن عبد الأول بن صباح الحكمى ، أبو نواس : شاعر العراق فى عصره، ولد بالأهواز من بلاد خوزستان ، ونشأ بالبصرة ورحل إلى بغداد فاتصل =

فظفر بها ليلة من الليالى فـى ناحية مـن نواحـى القصر فمسكها ، فبكت وقالت : الموت دون ذلك ، فقال أبو نواس : فى نفسه هذا جـزع إلأبكـار فتركها مدة ، فاتفق أنه خرج من القصر ليلة ، وقد رقرق الدجى[1] فوجدها نائمة سكرى فتقرب منها وحل السراويل من وسطها ودهمهـا ، فـإذا هـى خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكـون أتاهـا دم فلـم يجـد ، و قـام عنهـا وندم على ماكان منه وأخذ يقول[2] :

ونـاهدة الثديين مـن خـدم القصـر   مرقوقـة الخديـن ليلـة الشـعر
كلفت بها دهرا على حسن وجهها   طويلا ومـاحب الكواعـب مـن أمـرى
فمـازلت بالأشعار حتـى خدعتهـا   وروضتها والشـعر مـن خـدع السـحر
أطالبهـا شـيئاً فقـالت بعـبرة   أمـوت بـه داء ودمعتهـا تجـرى
فلمـا تعانقنـا توسـطت لجـة   غرقـت بهـا يـاقوت فـى لجـج البحـر
فصحـت أغثنـى يـاغلام فجـاءنى   وقد زلقت رحلى ورحت إلى صدرى
ولـولا صيـاحى بـالغلام وأنـه   تداركنـى بـالحبل رحـت إلـى القعـر
فاقسمت عمرى لا ركبت سفينة   ولاسرت طول الدهر إلا علـى الظهر

فيها بالخلفاء من بنى العباس . قال الجاحظ : ما رأيت رجـلا أعلـم باللغـة ولا أفصح لهجة من أبى نواس . قال الشافعى : لولا مجون أبى نواس لأخذت عنـه العلـم . وهـو أول من نهج للشعر طريقته الحضاريـة وأخرجـه مـن اللهجـة البدويـة . ولابـن منظـور "صاحب اللسان" كتاب سماه "أخبار أبى نواس" ، ت[١٩٨هـ = ٨١٤م] . انظـر : الشعر والشعراء ص ٣١٣ ، وفيات الأعيان (١٣٥/١) ، تاريخ بغداد (٤٣٦/٧) .

(١) رَقْرَقَ الدُّجى : خف الظلام .

(٢) انظر : ديوان أبى نواس ص ٢٣٦ .

حكاية أجنبية

[٥٨] **قال المبرد**(١) : صعدت من البصرة إلى بغداد ، فمررت بدير العاقول(٢) فرأيت مجنونا فيه ، فلم أر قط أظرف منه ولاأحسن ثيابا ويده الواحدة على صدره ، فلما دنوت منه أنشأ يقول :

اللـــه يعلـــم أننـــى كمـــد	لاأســـتطيع أيـــث مـــاأجد
روحـــان لـــى روح تملكهـــا	بلـــد وأخـــرى حازهـــا بلـــد
وأرى الصبابـــة ليـــس ينفعهـــا	صـــبر وليـــس لمثلهـــا جلـــد
وأظـــن ظـــاعنتى كشـــاهدتى	بمكانهـــا تجـــد الـــذى أجـــد

فقلت : أحسنت والله لله درك يـامجنون ، فـأهوى لشئ يرمينى بـه فبعدت عنه ، فقال لى :أنشدتك ماتحبه واستحسنته ، وتقول لى : يامجنون وتكـون مـع الزمـان علـى ، فقلـت لـه : أخطـأت ، فقـال : إذن اعـترفت بخطئك، ثم قال : أنشدك شعرا أيضا ، قلت : نعم فأنشأ يقول :

مـــا أقتـــل البيـــن للحـــب ومـــا	أوجع قـــلب المحـــب بالكـــمـــد (٣)
عرضـــت نفســـى علـــى البـــلاء لقـــد	أســـرى فـــى مهجتـــى وفـــى كبـــدى
ياحســـــرة إذ أبيـــت معتقـــــلا	بين اختـــلاج الهمـــوم والســـهـــد(٤)

---

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، أبو العباس المبرد : إمام العربية ببغداد فى زمنـه . من كتبه ، الكامل ، شرح لامية العرب ، ت[٢٨٦هـ] . انظر : بغية الوعاة ص ١١٦ .

(٢) دير العاقول : دير بين مدائن كسرى ، والنعمانية بالقرب من بغداد .

(٣) البَيْن : الفرقة .

(٤) اختَلَجَ : شغلته الهموم والأرق . سُهْد : الأرق .

فقلت : أحسنت والله زدنا ، قال :

إن فتشـونى فمحـرق الكبـد | أو كشـفونى فنـاحل الجسـد
أضعـف مـابى وزادنـى ألمـا | أن لست أشكو النوى إلى أحـد

فقلت : أحسنت والله زدنا ، فقال : يافتى أراك كلما أنشدتك بيتـا ، قلت : زدنا وماذاك إلا لمفارقة حبيب أو خل أريب ، ثم قال : أحسبك أبـا العباس المبرد بالله ماهو أنت ؟ قلت : أنا ذلك فمن أيـن عرفتنـى ؟ فقـال : وهل يخفى القمر ، ثم قال : ياأبا العباس أنشدنى من شعرك شيئاً تنتعش بـه روحى فأنشدته قولى :

بكيت حتى بكى من رحمتـى الطلـل | ومن بكائى بكت أعداى إذ رحلوا[١]
يـامنزل الحـى أيـن الحـى قـد نزلـوا | نفسـى تسـاق إذا ماسـيقت الإبـل
أنعـم صباحـا سـقاك اللـه مـن طلـل | غيثـا وجـاد عليـك الوابـل الهطـل
سـقياً لعهدهـم والـدار جامعـة | والشـمل ملتئـم والحبـل متصـل
فطـال مـاقد نعمنـا والحبيب بـها | والدهـر يسعـد والواشـون قـد غفلـوا
قـد غـير الدهـر مـاقد كنـت أعرفـه | والدهـر ذو دول بالنـاس ينتقـل
بـانوا فبـان الـذى قـد كنـت آملـه | والبيـن أعظـم مـايلى بـه الرجـل
فالشـمل مفـترق والقلـب محـترق | والدمـع منسكب والركـب مرتحـل
كـأن قلبـى لمـا سـار عيسـهم | صـب بـه دنـف أو شـارب ثمـل[٢]
لمـا أنـاخو قبيـل الصبـح عيسهـم | وثـوروها وسـارت بالهـوى الإبـل

---

(١) الطَّلل : الشاخص من الآثار ، جمعه أطلال .

(٢) العِيْس : الإبل البيض يخالط بياضها سواد خفيف . الدَّنَفَ : من ثقل مرضه ودنـا مـن الموت. الثَّمِل : شدة السكر .

وقلبت من خلال السجف ناظرها ترنو إلى ودمع العين منهمل[1]
ياحادى العيس عرج كى أودعهم ياحادى العيس فى ترحالك الأجل
إنى وحقك لاأنسى مودتهم ياليت شعرى لطول العهد ما فعلوا

قال أبو العباس المبرد فلما أتممت شعرى ، قال لى : مافعلوا قلت ماتوا فصاح صيحة عظيمة وخر مغشيا عليه فحركته فوجدته قد مات رحمة الله عليه ، انتهى .

(١) السَّجْف : الستر .

٥- فصل

خلافة موسى الهادى بن محمد(١)

لم أر فيه شيئاً ومن رأى فيه شيئاً فليضعه ، قال بعض الفضلاء من حيث إن المؤلف أمر بأن من رأى فيه شيئا فليضعه فرأيت هذا النزر اليسير مذكورا في تاريخ الإسحاقي(٢) فأحببت ذكره امتثالا لأمره .

[٥٩] فقلت : ذكر صاحب السكردان(٣) : إن الهادى كان يوما في بستان يتنزه على حمار ، ولاسلاح معه وبحضرته جماعة من خواصه وأهل بيته فدخل عليه حاجبه وأخبره أن بالباب بعض الخوارج له بأس ومكايد وقد ظفر به بعض القواد فأمر الهادى بإدخاله فدخل عليه بين رجلين قد قبضا على يديه ، فلما أبصر الخارجي الهادى جذب يديه من

---

(١) موسى بن محمد بن أبي جعفر المنصور ، أبو محمد الهادى : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد بالرى وولى الخلافة بعد وفاة أبيه [١٦٩هـ] وكان غائبا بجرجان فأقام أخوه الرشيد بيعته ، واستبدت أمه الخيزران بالأمر . وعندما تولى الخلافة أراد خلع أخيه هارون من ولاية العهد وجعلها لابنه جعفر ، فلم تر أمه ذلك ، فزجرها ، فأمرت بقتله ، فقتل ودفن في بستانه بعيسى أباذ [١٧٠هـ = ٧٨٦م] . انظر : الكامل لابن الأثير (٦/٢٩-٣٦) ؛ تاريخ الطبرى (١٠/٢١-٣٣) .

(٢) صاحب تاريخ الإسحاقى هو : محمد بن عبد المعطى الإسحاقى ، مؤرخ مصرى من أهل منوف . له "لطائف أخبار الأوّل فيمن تصرف بمصر من أرباب الدول" ، ت[١٠٦٠هـ = ١٦٥٠م] .

(٣) صاحب السكردان هو : أحمد بن يحيى بن أبى حجلة التلمسانى ، أديب ومؤرخ ، ت[٧٧٦هـ = ١٣٦٥م] .

الرجلين واختطف سيف أحدهما وقصد الهادى ، ففر كل من كان حوله وبقي وحده وهو ثابت على حماره حتى إذا دنا منه الخارجي وهم أن يعلوه بالسيف أومأ إلى وراء الخارجي وأوهمه أن غلاما وراءه ، وقال : ياغلام اضرب عنقه، فظن الخارجي أن غلاما وراءه والتفت الخارجي ، فنزل الهادى مسرعا عن حماره فقبض على عنق الخارجي ، وذبحه بالسيف الذى كان معه، ثم عاد إلى ظهر حماره من فوره وأتباع الهادى ينظرون إليه ويتسللون عليه وقد ملئوا منه حياًء ورعباً فما عاتبهم ولاخاطبهم فى ذلك بكلمة ، ولم يفارق السلاح بعد ذلك اليوم ولم يركب إلا جوادا من الخيل فانظر إلى هذا المقدار فى ثبات جأش الملوك ، فإنه قل من يفعل ذلك وهذه مرتبة لم يصل إليها أحد إلا نادرا .

[٦٠] **حكى عبد الحق**(١) : إنه قال : مما ابتلى به الهادى من المحبة أنه كان مغرما بجارية تسمى غادر(٢) ، وكانت من أحسن النساء وجها وأطيبهن غناء ، اشتراها بعشرة آلاف دينار ، فبينما هو يشرب مع ندمائه ، إذ فكر ساعة وتغير لونه وقطع الشراب ، فقيل له : مابال أمير المؤمنين ؟ قال: وقع فى قلبي أنى أموت وأن أخى هارون يلى الخلافة ويتزوج غادر، فامضوا وائتونى برأسه ، ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره ، وحكى له ماخطر بباله فجعل هارون يترفق به ، فقال : لاأرضى حتى تحلف لى بكل ماأحلفك به أنى إذا مت لاتتزوج بها فرضى بذلك وحلف أيمانا عظيمة

---

(١) عبد الحق ، الدهلوى : مؤرخ ، محدث وأديب هندى كبير ، له "تاريخ حقى" أو "تاريخ عبد الحق" ، ت[١٠٥١هـ = ١٦٤٢م] .

(٢) انظر : أعلام النساء لرضا كحالة (٣/٤) .

ودخل إلى الجارية وحلفها أيضا على مثل ذلك ، فلم يلبث بعد ذلك سوى شهر ومات ، وولى الخلافة هارون الرشيد ، فطلب الجارية فقالت : ياأميرالمؤمنين كيف تصنع بالأيمان ؟ فقال : قد كفرت عنك وعنى ثم تزوج بها ، ووقعت فى قلبه موقعا عظيما ، وافتتن بها أعظم من أخيه الهادى حتى كانت تسكر وتنام فى حجره فلا يتحرك ولاينقلب ، فبينما هى فى بعض الليالى وهى فى حجره نائمة إذا بها انتبهت فزعة مرعوبة ، فقال لها : مابالك فديتك ؟ قالت رأيت أخاك الهادى الساعة فى النوم فأنشدنى هذه الأبيات :

أخلفت عهدى بعدما ... جاورت سكان المقابر
ونسيتنى وحنثت فى ... أيمانك الزور الفواجر
ونكحت غادرة أخى ... صدق الذى سماك غادر
لايهنك الألف الجديد ... ولا تدر عنك الدوائر
ولحقتنى قبل الصبا ... ح وصرت حيث غدوت صائر

قالت : ثم ولى عنى ، وكأن الأبيات مكتوبة فى قلبى مانسيت منها كلمة ، فقال لها : هذه أحلام الشيطان ، فقالت : كلا والله يا أميرالمؤمنين ثم اضطربت بين يديه : وماتت فى تلك الساعة ولاتسأل عن هارون الرشيد و ما لقى بعدها ، انتهى .

٦- فصل

خلافة هارون الرشيد بن محمد المهدى(١)

هو أخو موسى الهادى وهو الخامس من بنى العباس

[٦١] **قال إبراهيم الموصلى(٢) فى تهنئة الخلافة** : عندما ولى الرشيد بعد أخيه موسى الهادى :

ألم تر أن الشمس كانت مريضة فلما أتى هارون أشرق نورها
تلبست الدنيا جمالا بملكه فهارون واليها ويحيى وزيرها

[٦٢] و[قيل] : قدم أعرابى حين ولى هارون الخلافة فقيل له : فيم جئت ؟ قال : أتيت برسالة ، قال : ائت بها ، قال : أتانى آت فى منامى فقال ائت أمير المؤمنين فأبلغه هذه الأبيات :

توارثت الخلافة من قريش تزف إليكما أبدا عروسا

---

(١) هارون بن محمد بن أبى جعفر المنصور ، الرشيد : خامس خلفاء العباسيين ، وأشهرهم وعلامتهم كان عالما بالأدب وأخبار العرب ، والحديث والفقه ، ازدهرت الدولة الإسلامية فى عهده وبلغت أوجها ، تولى الخلافة بعد اغتيال أخيه الهادى ، حارب البيزنطيين وهو لايزال حاكما على المقاطعات الغربية وبلغ أبواب القسطنطينية . ازدهرت فى عهده التجارة والأدب والعلوم . وهو من نكب بالبرامكة بعدما لعبت دورا هاما فى الحكم ، ت[١٩٣هـ = ٨٠٩م] . انظر : البداية والنهاية (٢١٣/١٠) ، كامل لابن الأثير (٣٣١/٢) ، تاريخ اليعقوبى (١٣٩/٣) .

(٢) إبراهيم الموصلى : من أشهر موسيقى العرب ، برع فى الغناء والعزف على العود ، نادم المهدى والهادى والرشيد وعرف بالنديم ، ت[٧٤٢م : ٨٠٤م] .

إلى هــارون تهـدى بعـد موسـى   تميـس ومالهـا أن لاتميسـا[1]

فأعطاه الرشيد عطاء جزيلا وصرفه .

[٦٣] **بويع له بالخلافة** في الليلة التي توفي فيها أخوه ، وولد في تلك الليلة المأمون ، وكانت ليلة عظيمة لم ير مثلها في بني العباس مات فيها خليفة ، وولي فيها خليفة ؛ وولد فيها خليفة ولما بويع الرشيد قلد جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك[2] وزارته ؛ وسيأتي إيقاع الرشيد بالبرامكة وسبب ذلك .

[٦٤] **ويحكي** : أن هارون الرشيد مر في بعض الأيام وبصحبته جعفر البرمكي وإذا هو بعدة بنات يستقين الماء فعرج عليهن يريد الشرب وإذا إحداهن تقول:

قولـي لطيفـك ينثنـي   عـن مضجعـي وقـت المنـام
كـي أسـتريح وتنطفـي   نـار تـأجج فـي العظـام
دنـف تقلبـه الأكـف   علـى بسـاط مـن سـقام
أمـا أنـا فكمـا علمـت   فهـل لوصلـك مـن دوام

---

(١) تَميس : مشي وهو يتمايل ويتبختر .

(٢) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي ، أبو الفضل : وزير الرشيد العباسي ولد ونشأ في بغداد ، واستوزره هارون الرشيد ملقيا إليه أمور الحكم وأعبائه ، وكان يدعوه : أخي، فانقادت له الدولة ، يحكم بما شاء فلا ترد أحكامه ، إلى أن نقم الرشيد به وبالبرامكة، وهو أحد الموصوفين بفصاحة المنطق وبلاغة القول وكرم اليد والنفس، ت[١٨٧هـ - ٨٠٣م] . انظر مقدمة ابن خلدون ص٢٢ ، البداية والنهاية (١٠/١٨٩،١٩٤) ، وفيات الأعيان (١/١٠٥) ، تاريخ بغداد (٧/١٥٢) .

فأعجب أمير المؤمنين ملاحتها وفصاحتها ، فقال لها : يابنت الكرام هذا من قولك أم من منقولك ؟ قالت : من قولى ، قال : إن كان كلامك صحيحا فامسكى المعنى وغيرى القافية فأنشدت تقول :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الوسن[1]
كى أستريح وتنطفى ... نار تأجج فى البدن[2]
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من شجن
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من ثمن

فقال لها : والآخر مسروق ، قالت : بلى كلامى ، فقال : إن كان كلامك أيضا فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الرقاد
كى أستريح وتنطفى ... نار تأجج فى الفؤاد
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من حداد
أما أنا فكما علمت ... فهل لوصلك من سداد

فقال لها : والآخر مسروق ، فقالت بل : كلامى ، فقال لها : إن كان كلامك فامسكى المعنى وغيرى القافية فقالت :

قولى لطيفك ينثنى ... عن مضجعى وقت الهجوع[3]
كى أستريح وتنطقى ... نار تأجج فى الضلوع
دنف تقلبه الأكف ... على بساط من دموع

---

(١) الوسن ، وَسِنَ : أخذه ثقل النوم .

(٢) تأجج : التهب .

(٣) الهجوع : النوم .

أمــا أنـــا فكمــا علمـــت   فهـــل لوصلــك مـــن رجــوع

فقال لها أمير المؤمنين : أنت من أى هذا الحى ؟ قالت : من أوسطه بيتا وأعلاه عمودا ، فعلم أمير المؤمنين أنها بنت كبير الحى ؛ ثم قالت : وأنت من أى راعى الخيل ؟ فقال : من أعلاها شجرة وأينعها ثمرة فقبلت الأرض وقالت : أيد الله أمير المؤمنين ودعت له ثم انصرفت مع بنات العرب . فقال الخليفة : لجعفر لابد من أخذها ، فتوجه جعفر إلى أبيها وقال له : أمير المؤمنين يريد بنتك ، فقال : حبا وكرامة ، تهدى جارية إلى أمير المؤمنين مولانا ، ثم جهزها وحملها إليه فتزوجها ودخل بها ، فكانت عنده من أعز نسائه ، وأعطى والدهاما يستره بين العرب من الأنعام ، ثم بعد مدة انتقل والدها بالوفاة إلى رحمة الله تعالى ، فورد على الخليفة خبر وفاته فدخل عليها وهو كئيب ، فلما شاهدته وعليه الكآبة نهضت ودخلت إلى حجرتها وقلعت كل ماعليها من الثياب الفاخرة ولبست ثياب الحزن وأقامت النعى له، فقيل لها : ماسبب هذا ؟ فقالت : مات والدى فمضوا إلى الخليفة فأخبروه ، فقام وأتى إليها وسألها من أعلمها بهذا الخبر ؟ قالت: وجهك ياأمير المؤمنين ! قال : كيف ذلك ؟ قالت : منذ أنا عندك مارأيتك هكذا ولم يكن لى من أخاف عليه إلا والدى لكبره ؛ ويعيش رأسك أنت ياأمير المؤمنين ؛ فترغرغت عيناه بالدموع وعزاها فيه وأقامت مدة وهى حزينة على والدها ثم لحقت به رحمة الله عليهم أجمعين .

[٦٥] **ويحكى** : أن أمير المؤمنين هارون الرشيد أرق ذات ليلة ، فقام يتمشى فى قصره بين المقاصير[١]، فرأى جارية من جواريه نائمة

---

(١) مَقَاصِيرُ : طرق

فأعجبته ، فداس على رجلها فانتبهت فرأته أمير المؤمنين فاستحيت منه وقالت : ياأمين الله ماهذا الخبر ، فأجابها بقوله :

قلت ضيف طارق فى أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السحر

فأجابته تقول :

بسرور وهناء سيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر

فبات عندها إلى الصباح ، فسأل أمير المؤمنين من بالباب من الشعراء؟ قيل له: أبو نواس ، فأمر به فدخل عليه فقال له : هات على ، ياأمين الله ماهذا الخبر ، فأنشأ يقول :

طال ليلى حين وافانى السهر فتفكرت فأحسنت الفكر
قمت أمشى فى المحالى ساعة ثم أجرى فى مقاصير الحجر
فإذا وجه جميل مشرق زانه الرحمن من بين البشر
فلمست الرجل منها موطئا فدنت منى ومدت للبصر
وأشارت لى بقول مفصح ياأمين الله ماهذا الخبر
قلت ضيف طارق فى أرضكم هل تضيفوه إلى وقت السحر
فأجابت بكل سرور سيدى أخدم الضيف بسمعى والبصر

قال فتعجب أمير المؤمنين من ذلك وأمر له بصلة .

[٦٦] ويحكى : أن هارون الرشيد هجر جارية له ، ثم لقيها فى بعض الليالى فى القصر سكرى تدور فى جوانب القصر وعليها مطرف خز[1] وهى تسحب أذيالها من التيه والعجب ، وسقط رداؤها عن منكبيها

---

(١) مُطْرَف خَزّ : رداء من الحرير .

والريح أبان نهديها كأنهما رمانتان ، ولها ردفان ثقيلان ، فراودها عن نفسها ، فقالت : ياأمير المؤمنين هجرتني هذه المدة وليس لي علم بملاقاتك فانظرني إلى غد حتى أتهيأ وآتيك ، فلما أصبح قال : للحاجب لاتدع أحدا يدخل على إلا فلانة وانتظرها فلم تجئ فقام ودخل عليها وسألها إنجاز الموعد ، فقالت : ياأمير المؤمنين كلام الليل يمحوه النهار . فقام واستدعى من بالباب من الشعراء فدخل عليه أبو نواس ، والرقاشي[1] ، وأبو مصعب[2] فقال لهم : هاتوا عليّ : كلام الليل يمحوه النهار ، فقال الرقاشي : أنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول:

أتسلوها وقلبك مستطار ... وقد منع القرار فلا قرار
وقد تركتك صبا مستهاما ... فتاه لاتزور ولاتزار
فولت وانثنت تيها وقالت ... كلام الليل يمحوه النهار

وقال أبو مصعب : وأنا قائل في ذلك ثلاثة أبيات وأنشأ يقول :

فهل لوصلك من دوام ... لما وسعتك في بغداد دار
أما يكفيك أن العين عبرى ... ومن ذكراك في الأحشاء نار
تبسمت الفتاة بغير ضحك ... كلام الليل يمحوه النهار

---

(١) الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشي ، أبو العباس : شاعر من أهل البصرة ، فارسي الأصل . انتقل إلى بغداد ومدح الخلفاء . قال المبرد : كان الفضل يظهر الغنى وهو فقير ، ويظهر العز وهو ذليل ، ويتكثر وهو قليل ، فكانت الشعراء تهجوه ، ت[٢٠٠هـ - ٨١٥م]. انظر : فوات الوفيات (١٢٥/٢) ، تاريخ بغداد (٣٤٥/١٢) .

(٢) مصعب بن الحسين البصري ، أبو الحسين ؛ المعروف : بمصعب الماجن : شاعر من أهل البصرة . كان وراقا ، استفرغ شعره في وصف الغلمان ، ت[٢٥٠هـ-٨٦٥م] .

وقال أبو نواس : وأنا قائل فى ذلك أربعة أبيات وأنشأيقول :

وخود أقبلت فى القصر سكرى ... ولكن زين السكر الوقار
وهز الريح أردافا ثقالا ... وغصنا فيه رمان صغار
وقد سقط الردا عن منكبيها ... من التخميش وانحل الإزار[1]
فقلت الوعد سيدتى فقالت ... كلام الليل يمحوه النهار

فقال الرشيد : قاتلك الله كأنك كنت معنا أو مطلعا علينا ، وأمر لكلٍ بخلعة سنية[2] ، خمسة آلاف درهم ، ولأبى نواس بعشرة آلاف درهم، انتهى[3] .

[٦٧] **وذكر الخطيب[4] فى بعض مصنفاته** : أن الرشيد دخل يوما وقت الظهر إلى مقصورة جارية تسمى الخيزران على غفلة منها فوجدها تغتسل ، فلما رأته تجللت[5] بشعرها حتى لم ير من جسدها شيئاً فأعجبه ذلك الفعل واستحسنه ثم عاد إلى مجلسه وقال : من بالباب من الشعراء ؟ قالوا له : أبو نواس ، وبشار[6] فقال : ليحضرا جميعا فأحضرا فقال الرشيد: ليقل كل منكما أبياتا توافق مافى نفسى فأنشأ بشار يقول :

---

(١) التخميش : اللطم على الوجه .

(٢) خلعة سنية : رفيعة القدر .

(٣) ذكرت القصة فى العقد الفريد لابن عبد ربه (٦/٤٠٩) . ولكن مع الأمين .

(٤) الخطيب ، أبو بكر أحمد : محدث ، أصولى ، مؤرخ . ترحل وسمع الحديث . له تاريخ بغداد ، ت[٤٦٤هـ-١٠٧٢م] .

(٥) تَجَلَّلت : تغطت .

(٦) بشار بن برد بن يرجوخ العقيلى ، أبو معاذ : شاعر غزلى مشهور ، ت[١٧٨هـ] . انظر : شذرات الذهب (١/٣٦٤) .

تحببتكم والقلب صار إليكموا بنفسي ذاك المنزل المتحبب
إذا ذكروا الهجران لاعن ملالة وذكراهم ينمي إلي محبب
وقالوا تحببنا ولاقرب بيننا فكيف وأنتم حاجتي تتجنبوا
على أنهم أحلى من الشهد عندنا وأعذب من ماء الحياة وأطيب

فقال : أحسنت ولكن ماأصبت مافي نفسي ، فقل : أنت ياأبا نواس فجعل يقول(١) :

نضت عنها القميص لصب ماء فورد خدها فرط الحياء
وقابلت الهواء وقد تعرت بمعتدل أرق من الهواء
ومدت راحة كالماء منها إلى ماء معد في إناء
فلما أن قضت وطراو همت على عجل لتأخذ الرداء
رأت شخص الرقيب على التداني فأسبلت الظلام على الضياء
وغاب الصبح منها تحت ليل فظل الماء يجرى تحت ماء
فسبحان الإله وقد براها كأحسن مايكون من النساء

فقال الرشيد : سيفا ونطعا ، فقال له : ولم ياأمير المؤمنين ؟ قال : أمعنا كنت؟ قال : لا والله ولكن شيء خطر ببالي فأمر له بأربعة آلاف درهم وصرفه أهـ .

[٦٨] ويحكي : أن أمير المؤمنين الرشيد أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فقام من فراشه وتمشى من مقصورة إلى مقصورة وقلقه زائد ونفسه محصورة، فلما أصبح قال: عليَّ بالأصمعي فخرج الطواشي(٢) إلى البوابين

---

(١) انظر : ديوانه ص ٢٨ .

(٢) الطَّوَاشِيّ : من جملة الخدم الخاصة .

فقال لهم : يقول لكم أمير المؤمنين : ارسلوا أحداً خلف الأصمعى فلما حضر ، أعلم الخليفة به فأجلسه ورحب به ، وقال: يا أصمعى أريد منك أن تحدثنى بأجود ماسمعت من أخبار النساء وأشعارهن ، فقال : سمعا وطاعة ، لقد سمعت كثيرا ولم يعجبنى سوى ثلاثة أبيات أنشدهن ثلاث بنات ، فقال له : حدثنى حديثهن فقال : اعلم ياأمير المؤمنين إنى توجهت سنة إلى البصرة فاشتد على الحر ، فطلبت مقيلا أقيل فيه فلم أجد ، فبينما أنا أتلفت يمينا وشمالا ، إذا أنا بساباط(١) مكنوس مرشوش ، وفية دكة من خشب وعليها شباك مفتوح تفوح منه رائحة المسك ، فدخلت الساباط وجلست على الدكة وأردت الاضطجاع، فسمعت كلاما عذبا من فم جارية حسناء وهى تقول : ياأختى إنا جلسنا يومنا هذا على وجه الصبوح تعالين نطرح ثلثمائة دينار ، وكل منا تقول بيتا من الشعر ، فكل من قالت البيت الأعذب الأملح كانت الثلثمائة دينار لها ، فقلن : حبا وكرامة ، فقالت الكبرى :

عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ولوزارنى مستيقظا كان أعجبا

فقالت الوسطى :

ومازارنى فى النوم الإ خياله فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا

فقالت الصغرى :

بنفسى وأهلى من أرى كل ليلة ضجيعى ورياه من المسك أطيبا

فقلت : إن كان لهذا المقال جمال تم الأمر على كل حال فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف ، وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه جارية وهى

(١) سَابَاط : سقيفة بين دارين تحتها طريق .

تقول : اجلس ياشيخ فطلعت على الدكة ثانيا وجلست ، فدفعت إلى ورقة فنظرت خطا فى نهاية الحسن مستقيم الألفات مجوف الهاآت مدور الواوات مضمونه ، نعلم الشيخ ، أطال الله بقاءه ، أننا ثلاث بنات أخوات جلسنا على وجه الصبوح وطرحنا ثلثمائة دينار ، وشرطنا أن كل من قالت البيت الأعذب الأملح كان لها الثلثمائة دينار وقد جعلناك الحكم فى ذلك فاحكم بما تراه والسلام ، فقلت للجارية : على بدواة وقرطاس فغابت قليلا وخرجت إلى بدواة مفضضة وأقلام مذهبة فأنشأت أقول :

أحدث عن خود تحدثن مرة ... حديث امرئ ساس الأمور وجربا
ثلاث كبكرات الصحارى جحافل ... حللن بقلب للمشوق معذبا
خلون وقدا نامت عيون كثيرة ... من الراقدين المشتهين التغيبا
فبحن بما يخفين من داخل الحشا ... نعم واتخذن الشعر لهوا وملعبا
فقالت عروب ذات عز عزيزة ... وتبسم عن عذب المقالة أنسبا
عجبت له أن زار فى النوم مضجعى ... ولو زارنى مستيقظا كان أعجبا
فلما انقضى مازخرفت وتضاحكت ... تنفست الوسطى وقالت تطربا
ومازارنى فى النوم إلا خياله ... فقلت أهلا وسهلا ومرحبا
وأحسنت الصغرى وقالت مجيبة ... بلفظ لها قد كان أشهى وأعذبا
بنفسى وأهلى من أرى كل ليلة ... ضجيعى ورياه من المسك أطيبا
فلما تدبرت الذى قلن وانبرى ... لى الحكم لم أترك لذى اللب متعبا
حكمن لصغراهن فى الشعر أننى ... رأيت الذى قالت جميلا وأصوبا

قال الأصمعى ثم دفعت الرقعة إلى الجارية ، فلما صعدت إلى القصر فإذا برقص وتصفيق ودنيا دانية وقيامة قائمة ، فقلت : مابقى لى إقامة فنزلت عن الدكة وأردت الانصراف وإذا بالجارية تنادى وتقول : اجلس

ياأصمعي، فقلت : ومن أعلمك أنني الأصمعي ؟ فقالت ياشيخ إن خفي علينا اسمك فما خفي علينا نظمك ، فجلست وإذا بالباب قد فتح وخرجت منه الجارية الأولى ، وعلى يدها طبق من فاكهة وطبق من حلوى فتفكهت وتحليت وشكرت صنعها وأردت الانصراف ، وإذا بالجارية تنادى وتقول: اجلس ياأصمعي ، فرفعت بصرى إليها فنظرت كفا أحمر في كم أصفر فخلته البدر يشرق من تحت الغمام ، ورمت لي بصرة فيها ثلثمائة دينار ، وقالت : هذا صار لي وهو مني لك هبة في نظير حكومتك فقال لي : أمير المؤمنين لأى شيء حكمت للصغرى ولم تحكم للكبرى ولا للوسطى ، فقلت له : ياأمير المؤمنين إن بيت الكبرى قالت : عجبت له أن زار في النوم مضجعي ، وهو محمول معلق على شرط وقد لايقع . وأما الوسطى : فمر بها طيف خيال في النوم فسلمت عليه . وبيت الصغرى : ذكرت أنها ضاجعته مضاجعة حقيقية وشمت منه أنفاسا أطيب من المسك وفدته بنفسها وأهلها ولايفدى بالنفس إلا من هو أعز من النفس ، فقال الخليفة : أحسنت ياأصمعي ثم دفع إلى ثلثمائة دينار فأخذتها وانصرفت ، فكنت أقول : لله درك من شعر أخذت في حكومتي منه ثلثمائة دينار وفي حكايته مثلها والله أعلم .

[٦٩] **ومما حكى عن الأصمعي في نوادره قال** : سهرت ليلة عند الرشيد في الرقة فقال لي : من معك ياعبد الله يؤنسك ، فقلت ياأمير المؤمنين مالي أنيس غير الوحدة ، فأمسك وأقبل في حديثه ماشاء الله ، ثم نهض ونهض من بحضرته ؛ فلما صرت إلى منزلي وإذا بخادم الأمير يقرع الباب ، فخرجت فإذا ضوء شمع وضجة وغوغاء ومعه جارية فلما رآني الخادم دنا مني وقبل يدى وقال لي : يقول لك أمير المؤمنين : قد أمرنا لك

بمن يؤنسك وهى جارية من خواصه وشيء من المال ، فشكرت أمير المؤمنين ، ودعوت له وتقدم الخادم بإدخال الجارية ومعها من الالآت والخدم والجوارى والفرش مالم أر مثله إلا عند أمير المؤمنين ، ثم ودعنى الخادم وانصرف ؛ فلما نظرت إلى الجارية رأيتها أحسن الناس وجها ، وأكملهم قدا وشكلا وظرفا ، وأكثرهم مجونا ، فداخلنى لها هيبة وانقباض فقالت ماهذا الحياء البارد السمج الذى لاوجه له ، أين ملحك ونوادرك ! ثم قالت لجارية من الجوارى: هات ماعندك فجاءت بأحسن مايكون من ألوان الطعام فأكلنا ، وهى مع ذلك تباسطنى وتؤانسنى بالحديث والملاعبة، ثم دعت بالشراب فشربت وسقتنى، ثم قالت : مابقى بعد الأكل والشرب إلا النوم والخلوة ، فقامت ولبست من الثياب ماأرادت وألبستنى ثيابا فاخرة مبيضة ، وتفرق من كان عندنا ، ثم اضطجعت إلى جانبى فلما جمعنا الفراش اصابنى من الحصر وانقطاع الإنعاظ ورخاوة الاير مالم أكن أعهده قبل ذلك ، فجعلت تقلبه بيدها وتغمزه فلا يزداد إلا انكماشا وموتا ، فلما أعيتها الحيلة فيه ، ويئست من قيامه ، ومضى من الليل أكثره ، قالت : عظم الله أجرك فى إيرك ، ثم نهضت ولبست ثياب الحداد ودعت بسفط فأخرجت منه مناديل صغار ، أو حنوطا و قالت : نم على ظهرك يابطال فاستولى على الخجل ، حتى أنى لم أقدر أخالفها فى شيء مما تأمرنى به فى جميع ماتفعله فى ، فغسلته وحنطته وكفنته بتلك المناديل ، فلما فرغت همت بجواريها وقامت معهن فى بكاء ، ونحيب ، ونوح ، وندب ، وصراخ بأشد مايكون ومازلن على ذلك إلى وقت السحر، ثم قالت : مابقى إلا مايتولاه الرجال من الصلاة والدفن وولت عنى، فقمت وأنا أخزى خلق الله حالا فلبست ثيابى وصليت الفجر،

وسرت من وقتي وساعتي إلى الرشيد ، فأنكر الحاجب حضوري في ذلك الوقت وأعلم الرشيد بي فأذن لي فدخلت وهو قاعد في مصلاه ، فقال لي : ويحك مادهاك في هذا الوقت ؟ فقلت : ياأمير المؤمنين خبري عجيب وأمري غريب فبالله عليك ياأمير المؤمنين ألا مارحمتيني وأرحتني من هذه الجارية التي أنفذتها إلي ، فلا حاجة لي بها ، فقال أمير المؤمنين : ومالسبب لذلك ومالخبر الذى دهاك وليس لها عندك حين من الزمان ؟ فشرحت له القصة من أولها إلى آخرها ، حتى بلغت إلى إقامة الصلاة فاشتد ضحكه حتى أنه كاد أن يستلقي على قفاه ، وسمعت الضحك من كل ناحية في الدار من الجوارى وغيرهن ، ثم قال نحن إلى هذه أحوج منك إليها وقد كنا غافلين ، عنها ثم إنه أمر بحملها إلى داره وعوضني عنها خمسين ألف درهم وترك جميع ماحل معها في منزلي وخرجت مجردة ، فحظيت بعد ذلك عند الرشيد حتى انه لم يتقدم عليها أحد من نظائرها وسميت من وقتها هذا بالأصمعة إلى أن توفيت رحمة الله عليهم أجمعين .

[٧٠] **وعن أبي إسحاق إبراهيم الموصلي قال**(١) : استأذنت الرشيد أن يهب لي يوما من الأيام للانفراد بجواري وإخواني فاذن لي في يوم السبت، فأتيت منزلي وأخذت في اصلاح طعامي وشرابي ومااحتجت إليه وأمرت البوابين بغلق الأبواب ، وأن لايأذنوا لأحد بالدخول عليَّ ، فبينما أنا في مجلس والحريم قد حففن بي ، وإذا بشيخ ذى هيبة وجمال وعليه جبتان قصيرتان وقميص ناعم وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة من فضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار والرواق ، فداخلني غيظ

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص٥٥ .

عظيم لدخلوه على وهممت بطرد البوابين ، فسلم عليَّ أحسن سلام فرددت عليه وأمرته بالجلوس فجلس وأخذ يحدثني بأحاديث العرب وأشعارهم حتى ذهب مابي من الغضب وظننت أن غلماني تحروا مسرتي لإدخال مثله عليَّ لأدبه وظرفه ، فقلت : هل لك في الطعام ؟ قال : لاحاجة لي فيه قلت فالشراب ؟ قال : ذلك إليك فشربت رطلا وسقيته مثله ، ثم قال ياأبا إسحاق هل لك أن تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ماقد فقت به العام والخاص ، فغاظني قوله ثم سهلت الأمر على نفسي فأخذت العود وضربت وغنيت فقال أحسنت ياإبراهيم فازددت غيظا ، فقلت: مارضي بما فعله في دخوله بغير إذني واقتراحه على حتى سماني باسمي ولم يجهل مخاطبتي ، ثم قال: هل تزيد ونكافئك فتذممت وأخذت العود وغنيت وتحفظت فيما غنيته وقمت به قياما تاما لقوله ونكافئك فطرب ، وقال : أحسنت ياسيدي، ثم قال : أتأذن لي في الغناء ؟ فقلت : شأنك واستضعفت عقله في أن يغني بحضرتي بعد الذي سمعه مني فأخذ العود ، وجسه فوالله خلت أن العود ينطق بلسان عربي ، اندفع يغني هذه الأبيات :

ولي كبد مقروحة من يبيعني	بها كبد ليست بذات قروح
أباها على الناس لايشترونها	ومن يشترى ذا علة بصحيح
أئن من الشوق الذي في جوانحي	أنين غصيص بالشراب طريح[1]

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننت أن الأبواب والحيطان وكل مافي البيت تجيبه وتغنى معه وبقيت مبهوتا لاأستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبي ، ثم اندفع يغني فقال :

---

(١) غَصَّ : اعترض الشراب حلقه فمنعه من التنفس .

ألا ياحمامات اللوى عدن عودة فإنى إلى أصواتكن حزين
فعدن ولما عدن كدن يمتننى وكدت بأسرار لهن أبين
دعوت بترداد الهدير كأنما شربن الحميا أو بهن جنون
فلم ترعينى مثلهن حمائمها ولم تدمع لهن عيون

قال ثم سكت قليلا وغنى هذه الأبيات :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد فقد زادنى مسراك وجدا على وجدى
لئن هتفت ورقاء فى رونق الضحى على فنن من غصن بان ومن رند
بكيت كما يبكى الوليد صبابة وأبديت من شكواى مالم أكن أبدى
وقد زعموا أن المحب إذا دنا يمل وأن البعد يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف ما بنا على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع إذا كانت من تهواه بغير ذى ود

ثم قال : يا إبراهيم هذا الغناء الماخورى خذه وانح نحوه فى غنائك وعلمه جواريك فقلت : أعده على ، فقال : لست تحتاج إلى إعادة فقد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين يدى فارتعت منه وقمت إلى السيف وجردته ثم غدوت نحو أبواب الحريم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى : أى شيء سمعتن فقلن سمعنا غناء أطيب شيء وأحسنه فخرجت متحيرا إلى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البوابين عن الشيخ فقالوا: أى شيخ فو الله مادخل اليوم إليك أحد ، فرجعت أتأمل أمره ، فإذا هو قد هتف بى من جوانب البيت ، وقال : لابأس عليك ياأبا إسحاق فإنما هو أبو مرة[1] قد كنت نديمك اليوم فلا تفزع ، فركبت إلى الرشيد فأخبرته الخبر ، فقال :

---

(١) أبو مرة : كنية الشيطان .

أعد الأصوات التى قد أخذتها فأخذت العود وضربت فإذا هى راسخة فى صدرى ، فطرب الرشيد عليها وجعل يشرب ولم يكن له همة على الشراب، وقال كأن الشيخ علم أنك قد أخذت الأصوات وفرغت منها فليته متعنا بنفسه يوما واحدا ، كما متعك ثم أمر لى بصلة فأخذتها وانصرفت ، انتهى .

[٧١] و[قيل] : قال الرشيد يوما للفضل بن يحيى ، وهو بالرقة : قد قدم إسماعيل بن صالح بن على وهو صديقك ، وأريد أن أراه فقال : إن أخاه عبد الملك فى حبسك وقد نهاه أن يجيئك ، قال الرشيد : فإنى أتعلل حتى يجيئنى عائدا فتعلل ، فقال الفضل لإسماعيل : ألا تعود أمير المؤمنين قال : بلى فجاءه عائدا فأجلسه ثم دعا بالغداء فأكل إسماعيل بين يديه ، فقال له الرشيد : كأنى قد نشطت برؤيتك إلى شرب قدح فشرب وسقاه ، ثم أمر فأخرج جوارى يغنين وضربت ستارة وأمر بسقيه فلما شرب أخذ الرشيد العود من يد جارية ووضعه فى حجر إسماعيل ، وجعل فى عنقه سبحة وفيها عشر حبات من در شراؤها بثلاثين ألف دينار ، وقال : غن يا إسماعيل وكفر عن يمينك بثمن هذه السبحة فاندفع يغنى شعر الوليد بن يزيد فى غالية أخت عمر بن عبد العزيز ، وكانت تحته وهى التى ينسب إليها سوق الغالية فقال :

فأقسم ماكفاى مدت لريبة ولاحملتنى نحو فاحشة رجلى
ولاقادنى سمعى ولابصرى لها ولادلنى رأيى عليها ولاعقلى
واعلم أنى لم تصبنى مصيبة من الدهر إلا قد أصابت فتى مثلى

فسمع الرشيد أحسن غناء بأحسن صوت ، فقال : الرمح ياغلام فجيء بالرمح فعقد له لواء على إمارة مصر ، قال إسماعيل : فوليتها سنتين فأوسعتهم عدلا وانصرفت بخمسمائة ألف دينار وبلغ أخاه عبد الملك ولايته، فقال : غني والله الخبيث لهم ليس هو بصالح ، انتهى .

[٧٢] ويروى : أنه لما دخل هارون الرشيد إلى مكة شرفها الله تعالى، وابتدأ بالطواف ومنع الخاص والعام من ذلك لينفرد بالطواف سبقة أعرابى فشق ذلك على الرشيد فالتفت إلى حاجبه منكرا عليه ، فقال الحاجب للأعرابى : تخل عن الطواف حتى يطوف أمير المؤمنين فقال الأعرابى : إن الله قد ساوى بين الإمام والرعية فى هذا المقام فقال عز وجل ﴿**سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم**﴾ [الحج : ٢٥] فلما سمع الرشيد من الأعرابى ذلك راعه أمره ، فأمر حاجبه بالكف عنه، ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابى فاستلمه ثم أتى الرشيد إلى المقام للمصلى فسبقه الأعرابى فصلى فيه؛ فلما فرغ الرشيد من صلاته قال لحاجبه : ائتنى بهذا الأعرابى فأتاه الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين فقال : مالى اليه من حاجة إن كان له حاجة فهو أحق بالقيام إلى والسعى ، فقام الرشيد حتى وقف بإزاء الأعرابى وسلم عليه فرد عليه السلام فقال له الرشيد : ياأخا العرب اجلس هنا بأمرك، فقال الأعرابى : ليس البيت بيتى ولا الحرم حرمي وكلنا فيه سواء ، فإن شئت تجلس وإن شئت تنصرف ، قال الراوى : فعظم ذلك على الرشيد وسمع مالم يكن فى ذهنه وماظن أنه يواجهه أحد بمثل هذا الكلام، فجلس الرشيد وقال : ياأعرابى أريد أن أسألك عن فرضك إن أنت قمت به فأنت بغيره أقوم ، وإن أنت عجزت عنه فأنت عن غيره أعجز ، فقال الأعرابى : سؤالك هذا سؤال تعلم أم سؤال تعنت ! فتعجب الرشيد من

سرعة جوابه ، وقال : بل سؤال تعلم . فقال له الأعرابى : قم فاجلس مقام السائل من المسئول ، قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدى الأعرابى ، فقال : قد جلست فاسأل عما بدالك، فقال له : أخبرنى عما افترض الله عليك ؟ فقال له : تسألنى عن أى فرض : عن فرض واحد ، أم عن خمسة ، أم عن سبعة عشر ، أم عن أربعة وثلاثين ، أم عن خمسة وثمانين ، أم عن واحدة فى طول العمر ، أم عن واحدة من أربعين ، أم عن خمسة من مائتين ، قال : فضحك الرشيد حتى استلقى على قفاه استهزاء به، ثم قال : له سألتك عن فرضك فاتيتنى بحساب الدهر ، قال : يا هارون لولا أن الدين بالحساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة، فقال﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧] قال : فظهر الغضب فى وجه الرشيد واحمرت عيناه حين قال : ياهارون ولم يقل ياأمير المؤمنين وبلغ مبلغا شديدا ، غير أن الله تعالى عصمه منه ، وحال بينه وبينه لما علم أنه هو الذى أنطق الأعرابى بذلك، فقال له الرشيد : يا أعرابى أن فسرت ماقلت نجوت والا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة ، فقال له الحاجب : ياأمير المؤمنين أعف عنه وهبه لله تعالى ولهذا المقام الشريف ، قال : فضحك الأعرابى من قولهما حتى استلقى على قفاه ، فقال : مم تضحك ؟ قال : عجبا منكما إذ لا أدرى أيكما أجهل الذى يستوهب أجلا قد حضر أم الذى يستعجل أجلا لم يحض ، قال: فهال الرشيد ماسمعه منه وهانت نفسه عليه ، ثم قال الأعرابى : أما سؤالك عما افترض الله علىَّ ، فقد افترض على فرائض كثيرة فقولى لك عن فرض واحد : فهو دين الإسلام . وأما قولى لك عن خمسة : فهى الصلوات . وأما قولى لك عن سبعة عشر : فهى سبعة عشر ركعة . وأما

قولى لك عن أربعة وثلاثين : فهى السجدات . وأما قولى لـك عـن خمسة وثمانين : فهى التكبيرات . وأما قولى لك عن واحدة فى طول العمر: فهـى حجة الإسلام واحدة فى طول العمر . كله وأما قولى لـك عـن واحـدة مـن أربعين : فهى زكاة الشياه شـاة مـن أربعين ؟ وأما قولى لـك خمس مـن مائتين: فهى زكاة الورق . قال : فامتلأ الرشـيد فرحـا وسـرورا مـن تفسير هذه المسائل ومن حسن كلام الأعرابـى وعظـم الأعرابى فـى عينـه وتبـدل بغضـه محبـة، ثـم قـال الأعرابى : سـألتنى فـأجبتك وأنـا أريـد أن أسـألك فأجبنى، قال: قل فقال الأعرابى : ماتقول فـى رجل نظر إلـى امـراة وقـت صلاة الفجر فكانت عليه محرمة، فلما كان وقت الظهر حلت له فلما كـان وقت العصر حرمت عليه ، فلما كان وقت المغرب حلـت لـه ، فلمـا كـان وقت العشاء حرمت عليه ، فلما كان وقـت الصبـح حلـت لـه ، فلمـا كـان وقت الظهر حرمت عليه ، فلما كان وقت العصر حلت له ، فلما كان وقت المغرب حرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء حلت له ؟ فقال : والله ياأخا العرب لقد أوقعتنى فى بحر لم يخلصنى منه غيرك ، فقال لـه : أنـت خليفـة ليس فوقك شيء ولاينبغى أن تعجز عن مسألة فكيف عجـزت عـن مسـألتى وأنا رجل بدوى لاقدر لى فقال لـه الرشـيد : قـد عظـم قـدرك العلـم ورفـع ذكرك ، فاشتهى إكراما لى ولهذا المقام تفسير ذلك ، فقال : حبا وكرامة، ولكن على شرط أن تجبر الكسير وترحم الفقير ولاتزدرى بالحقير ، فقـال: حبا وكرامة ثم قال : إن قولى لك رجل نظر إلى امرأة وقـت صـلاة الفجـر فكانت عليه حراما ؛ فهو رجل نظر إلى أمة غـيره وقـت الفجـر فهـى حـرام عليه ، فلما كان وقت الظهر اشتراها فحلـت لـه ، فلمـا كـان وقـت العصـر أعتقها فحرمت عليه ، فلما كان وقت المغـرب تزوجهـا فحلـت لـه ، فلمـا كان وقت العشاء طلقها فحرمـت عليـه ، فلمـا كـان وقـت الفجـر راجعهـا

فحلت له ، فلما كان وقت الظهر ظاهر منها فحرمت عليه ، فلما كان وقت العصر أعتق عنها فحلت له ، فلما كان وقت المغرب ارتد عن الاسلام فحرمت عليه ، فلما كان وقت العشاء تاب ورجع إلى الإسلام فحلت له . قال : فأغتبط وفرح به واشتد إعجابه ، ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال لاحاجة لى بها ردها إلى أصحابها ، فقال له: أريد أن أجرى لك جراية تكفيك مدة حياتك ، قال : الذى أجرى عليك يجرى على، قال : فإن كان عليك دين قضيناه عنك ، قال : لا ولم يقبل منه شيئاً ثم أنشد يقول :

هب الدنيا تواتينا سنينا ... فتكدر ساعة وتلذ حينا
فما أبغى لشئ ليس يبقى ... وأتركه غدا للوارثينا
كأني بالتراب على يحثى ... وبالإخوان حولى نادبينا
ويوم تزفر النيران فيه ... وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقى وجلال ربى ... لانتقمن منهم أجمعينا
وقد شاب الصغير بغير ذنب ... فكيف يكون حال المجرمينا

فلما فرغ من إنشاده ، تأوه وسأله عن أهله وبلاده فأخبره أنه موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن الحسين بن على بن أبى طالب رضي الله عنهم أجمعين(١) ، وكان يتزيا بزى أعرابى زهدا فى الدنيا ، وتباعدا عنها، فقام إليه الرشيد وقبل مابين عينيه ثم قرأ ﴿**الله أعلم حيث يجعل رسالته**﴾ [الأنعام: ١٢٤] وانصرف رحمة الله عليهم أجمعين .

---

(١) موسى الكاظم : سابع الأئمة الاثنى عشر ، عند الإمامية كان من سادات بنى هاشم ومن أعبد أهل زمانه ، وأحد كبار العلماء الأجواد ، ت[١٨٣هـ = ٧٩٩م] . انظر : وفيات الأعيان (١٣١/٢) ، فرق الشيعة ص٨١ .

[٧٣] وقال السجستانى[1] : أرق الرشيد ليلة ، فوجه إلى الأصمعى وإلى حسين الخليع[2] فأحضرهما وقال : عللانى ، وابدأ أنت ياحسين .

فقال حسين : نعم يأمير المؤمنين خرجت فى بعض السنين منحدرا إلى البصرة ممتدحا محمد بن سليمان الزينبى[3] بقصيدة ، فقبلها وأمرنى بالمقام فخرجت ذات يوم إلى المربد وجعلت المهالبة طريقى ، فأصابنى حر شديد فدنوت من باب دار كبيرة لأستسقى ، فإذا بجارية كأنها قضيب ينثنى واسعة العينين ، زجاء الحاجبين[4] مفتوحة الجبين ، عليها قميص جلنارى ، ورداء عدنى قد غلب شدة بياض بدنها على حمرة قميصها ،

---

(١) سهل بن محمد بن عثمان الجشمى ، السجستانى : من كبار العلماء فى اللغة والشعر. من أهل البصرة ، كان المبرد يلازمه القراءة عليه . من مصنفاته "المعمرين"، "الشوق إلى الوطن" ، الفرق بين الآدميين وكل ذى روح" ، ت [٢٤٨هـ =٨٦٢م] . انظر : الفهرست لابن النديم (٥٨/١) ، بغية الوعاة ص ٢٥٦ .

(٢) الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلى ، أبو على : شاعر من ندماء الخلفاء العباسيين، وكان يلقب : بالأشقر ، أصله من خرسان . ولده ونشأ فى البصرة ، وشعره رقيق عذب . واُتهم أبو نواس بأخذ معانيه فى الخمر . أخباره كثيرة ، ت [٢٥٠هـ=٨٦٤م] . انظر : وفيات الأعيان (١٥٤/٢) .

(٣) محمد بن سليمان بن على العباسى ، أبو عبد الله : أمير البصرة . وليها فى أيام المهدى . قال ابن الأثير : كان على البصرة وكور دجلة والبحرين وعمان وكور الأهواز وفارس .عُزل سنة [١٦٤هـ] وأعاده الرشيد وزوجه أخته العباسة بنت المهدى [١٧٢هـ] .وكان غنيا من النبلاء ، ت [١٧٣هـ=٧٨٩م] .انظر الكامل لابن الأثير (١٧/٦) ، تاريخ بغداد (٢٩١/٥) .

(٤) زَجَّاء الحاجبين : حاجبان رقيقان فى طولهما .

تتلألأ من تحت القميص بثديين كرمانتين ، وبطن كطي القباطي[1] ، وعكن[2] كالقراطيس ، لها جمة[3] جعدت[4] بالمسك محشوة ، وهي يأمير المؤمنين متقلدة خرزا[5] من الذهب والجوهر يزهو بين نهديها ، وعلى صحن جبينها طرة كالسبج[6] ، وحاجبان مقرونان، وعينان نحلاوان[7] ، وخدان أسيلان[8] ، وأنف أقنى[9] تحته ثغر كاللؤلؤ ، وأسنان كالدر وقد غلب عليها الطيب ، وهي حيرانة ذاهبة في الدهليز ورائحة تخطر على أكباد محبيها في مشيتها وقد خالط أصوات نعلها خلاخيلها فهي كما قال الشاعر فيها:

كل جزء من محاسنها   كائن من حسنها مثلا

فهبتها يأمير المؤمنين ، ثم دنوت منها لأسلم عليها ، فإذا الدهليز والدار والشارع قد عبق بالمسك ، فسلمت عليها فردت بلسان منكسر وقلب حزين حريق مسعر ، فقلت لها : ياسيدتي إني شيخ غريب أصابني

---

(١) القباطي : ثياب من الكتان .

(٢) عكن : ما تثنى من لحم البطن .

(٣) جُمَّة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) جَعُدَت : ضد استرسل .

(٥) الخَرَزَ : الحَبّ المثقوب من المعادن ، والزجاج ، وغيرهما ، تُنظم من قلائد .

(٦) الطرة : شعر الناصية ، لونه أسود كالسبج وهو نوع من الكساء .

(٧) عينان نحلاوان : واسعتان .

(٨) أسيل : أملس .

(٩) أنف أقنى : ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه .

عطش أفتأمرين بشربة من ماء تؤجرين عليها ، قالت : إليك عنى ياشيخ ، فإنى مشغولة عن الماء وادخار الزاد ، قلت : لأى علة ياسيدتى : قالت : لأنى عاشقة لمن لاينصفنى وأريد من لايريدنى ، ومع ذلك فإنى ممتحنة برقباء[1] فوق رقباء ، قلت : وهل ياسيدتى على بسيطة الأرض من تريدينه ولايريدك ؟ قالت : نعم ، وذلك لفضل ماركب فيه من الجمال والكمال والدلال ، قلت : وما وقوفك فى هذا الدهليز ؟ قالت : ههنا طريقه وهذا أوان اجتيازه، فقلت : ياسيدتى اجتمعتما فى وقت من الأوقات ووجب حديث فى هذا القرب فتنفست الصعداء وأرخت دموعها على خدها كطل[2] سقط على ورد ثم أنشأت تقول :

وكنا كغصنى بانة فوق روضة ... نشم جنى اللذات فى عيشة رغد
فافرد هذا الغصن من ذاك قاطع ... فيا من رأى فردا يحن إلى فرد

قلت : ياهذه فما بلغ من عشقك لهذا الفتى ، قالت : أرى الشمس على حائطهم أحسب أنها هو وربما أراه بغتة فأبهت ، ويهرب الدم والروح من جسدى وأبقى الأسبوع والأسبوعين بغير عقل ، فقلت لها : فاعذرينى فأنت على مابك من الصبا وشغل البال بالهوى وانتحال الجسم وضعف القوى أرى بك من اللون ورقة البشرة ، فكيف لو لم يمسك الهوى لكنت مفتنة فى أرض البصرة ، قالت : والله قبل محبتى هذا الغلام كنت تحفة الدلال والجمال والكمال ، ولقد فتنت جميع ملوك البصرة، حتى فتننى هذا الغلام .

---

(١) رقباء ، جمع رقيب : الحارس .

(٢) الطل : الندى

قلت : ياهذه فما الذى فرق بينكما ؟ قالت : نوائب الدهر ، ولحديثى وحديثه شأن من الشئون وذلك أنى كنت قعدت فى يوم نيروز[١] ودعوت عدة من مستظرفات البصرة من النساء الجميلات ، وكانت فيهن الحوراء جارية شيراز ، وكان شراؤها عليه من عمان بثمانية آلاف درهم ، وكانت بى ولعة[٢] ، فلما دخلت رمت نفسها علىّ تقطعنى قرصا وعضا ، ثم خلونا نتمرن القهوة[٣] إلى أن يدرك طعامنا ويجتمع من دعونا ، وكانت تلاعبنى وألاعبها فتارة أنا فوقها وتارة هى فوقى ، فحملها السكر إلى أن ضربت يدها إلى تكتى[٤] فحلتها من غير ريبة كانت بينا ونزلت سراويلى ملاعبة ، فبينما نحن كذلك إذ دخل علينا حبيبى فرأى ذلك فاشمأز لذلك وصدف[٥] عنى صدوف المهرة العربية إذ سمعت صلاصل لجامها فولى خارجا، فأنا ياشيخ منذ ثلاث سنين أسأل جمعيته ، فلا ينظر إلى بطرف ولايكتب لى بحرف ، ولايكلم لى رسولا ولايسمع منى قليلا ، فقلت لها : ياهذه مِنَ العرب هو أم مِنَ العجم ؟ فقالت : ويحك هو من جملة ملوك البصرة ، فقلت لها : شيخ هو أم شاب ؛ فنظرت إلى شزراً[٦] . وقالت :

---

(١) نيروز : يوم الفرح .

(٢) وَلِعة : متعلقة به من شدة الحب .

(٣) نتمرن القهوة : نتناول شرب الخمر ، قيل : سميت بذلك لأن شاربها يُقْهِى عن الطعام ، أى تقل شهوته .

(٤) التِكّة : رباط السراويل ، جمعها تِكَك .

(٥) صَدَفَ : أعرض وانصرف .

(٦) شَزَرَ : نظرت إليه بجانب عينها مع إعراض .

إنك أحمق هو مثل القمر ليلة البدر أجرد[1] أمرد[2] له طرة كحلك الغراب[3]، لايعيبه شيء غير انحرافه عني ، قلت لها : مااسمه قالت : ماذا تصنع به ؟ قلت : أجتهد في لقائه فأتعرف الفصل بينكما ، قالت: على شرط أن تحمل إليه رقعة ، قلت : لاأكره ذلك .

فقالت : اسمه ضمرة بن المغيرة ويكنى بأبي السخاء ، وقصره بالمربد ، ثم صاحت في الدار ياجواري الدواة والقرطاس ، وشمرت عن ساعدين كأنهما طوقان من ففته وكتبت بعد البسملة سيدى ترك الدعاء في صدر رقعتي ينبئ عن تقصيري ودعائي أن دعوته هجنة[2] ورعونة[4] ولولا أن بلوغ المجهود يخرج عن حد التقصير ، لكان لما تكلفته خادمتك من كتابة هذه الرقعة معنى مع يأسها منك لعلمها تركك الجواب ، سيدى جد بنظرة وقت اجتيازك في الشارع إلى الدهليز[5] تحيي بها نفسا ميتة ، واخطط بخط يدك بسطها الله بكل فضيلة رقعة ، واجعلها عوضا عن تلك الخاوات التي كانت بيننا في الليالي الخاليات التي أنت ذاكر لها ، سيدى ألست لك محبة مدنفة ، فإن رجعت إلى -الآيسة- كنت لك شاكرة ، وبعد خادمة والسلام .

---

(١) أجرد : الخالي من الشعر ، جمعها جرد .

(٢) أمْرَد : الشاب طَرَّ شاربه ولم تنبت لحيته ، وجمعها مرد .

(٣) حلك : شديدة السواد .

(٢) الهُجْنَة من الكلام : العيب والقبح .

(٤) الرُعُونَة : الحمق .

(٥) الدِهْلِيز : ما بين الباب والدار : المسلك الطويل الضيق ، وجمعها دهاليز .

فتناولت الكتاب وخرجت فأصبحت غدوة إلى باب محمد بن سليمان ، فوجدت مجلسا محتفلا بالملوك ورأيت غلاما زان المجلس وفاق على من فيه جمالا وبهجة قد رفعه الأمير فوقه، فسألت عنه فإذا هو ضمرة بن المغيرة ، فقلت فى نفسي: بالحقيقة حل بالمسكينة ماحل بها ، ثم قمت وقصدت المربد ووقفت على باب داره فإذا هو قد ورد فى موكب ، فوثبت إليه وبالغت فى الدعاء له وناولته الرقعة ؛ فلما قرأها وفهم معناها ، قال : ياشيخ قد استبدلنا بها فهل لك أن تنظر إلى البديل ، قلت: نعم فصاح فى الدار اخرجوا إلى المربد ، فإذا أنا بجارية : خابوطية الكمين، ناهدة الثديين تمشى مشية مستوحل من غير وحل[1] ، فناولها الرقعة وقال : أجيبى عنها، فلما قرأتها اصفرت وعرقت وقالت : ياشيخ استغفرالله مما جئت به .

فخرجت ياأمير المؤمنين وأنا أجر رجلى ، حتى أتيتها واستأذنت عليها ، فقالت : ما وراءك ؟ فقلت : البؤس واليأس ، فقالت : ماعليك منه فأين الله والقدر ، ثم أمرت لى بخمسمائة دينار، ثم جزت بعد أيام ببابها فوجدت غلمانا وفرسانا ، فدخلت فإذا أصحاب ضمرة يسألونها الرجوع إليه ، فقالت : لا والله لانظرت له وجها ، فسجدت لله ياأمير المؤمنين شماتة بضمرة ونفرته من الجارية فاوردت علىَّ منه رقعة فإذا فيها بعد التسمية : سيدتى لولا إبقائى عليك أدام الله حياتك لوصف شطرا من غدرك ، وبسطت شطر غبنى[2] عليك ، وسلكت ظلامتى فيك ، إذ كنت الجانية على نفسك ونفسى ، والمظهرة لسوء العهد ، وقلة الوفاء والمؤثرة

---

(١) الوَحَل : الطين الرقيق ، ومشية مستوحل أى : مشية بحذر وتردد .

(٢) الغبن : الخديعة .

علينا غيرنا ، فخالفت هواى ، والله المستعان على ماكان من سوء اختيارك والسلام .

وأوقفتنى على ماحمله إليها من الهدايا والتحف العظيمة ، فإذا هو بمقدار ثلاثين ألف دينار ، ثم رأيتها بعد ذلك وقد تزوج بها ضمرة. فقال الرشيد : لولا أن ضمرة سبقنى إليها لكان لها معى شأن من الشئون ، انتهى.

[٧٤] **وحكى مسرور الخادم قال** : أرق الرشيد أرقا شديدا ليلة من الليالى ، فقال : يامسرور من على الباب من الشعراء ، فخرجت إلى الدهليز فوجدت : جميل بن معمر العذرى ، فقلت : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة ، فدخلت ودخل معى إلى أن صار بين يدى هارون الرشيد فسلم بسلام الخلافة ، فرد عليه وأمره بالجلوس ، فقال له الرشيد : ياجميل أعندك شيء من الأحاديث العجيبة ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين أيما أحب إليك ماعاينته ورأيته ، أو ماسمعته ووعيته ؟ فقال : بل حدثنى عما عاينته ورأيته .

فقال : نعم يأمير المؤمنين أقبل على بكلك واصغ إلى بأذنك ، قال : فقصد الرشيد إلى مخدة من الديباج الأحمر المزركش بالدهب محشوة بريش النعام ، فجعلها تحت فخذه ، ثم مكن منها مرفقيه، وقال : هلم بحديثك .

فقال : اعلم ياأمير المؤمنين أنى كنت مفتونا بفتاة محبا لها ، وكنت آلفها إذ هى سؤلى وبغيتى من الدنيا ، وأن أهلها رحلوا بها لقلة المرعى ، ثمت مدة لم أرها ، ثم إن الشوق أقلقنى وجذبنى إليها ، فراودتنى نفسى

بالمسير إليها ؛ فلما كانت ذات ليلة من الليالى هزنى الوجد إليها فقمت وشددت رحلى على ناقتى ، واعتممت بعمتى ، ولبست أطمارى[1] ، وتقلدت بسيفى ، وتنكبت حجفتى[2] ، وركبت ناقتى ، وخرجت طالبا لها، وكنت أجد فى السير ؛ فسرت وكانت ليلة مظلمة مدلهمة[3] ، وأنا مع ذلك أكابد هبوط الأودية ، وصعود الجبال ، وأسمع زئير الآساد وعواء الذئاب ، وأصوات الوحوش من كل جانب ؛ وقد ذهل عقلى وطاش لبى ، ولسانى لايفتر عن ذكر الله تعالى .

فبينما أنا أسير كذلك ، إذ غلبنى النوم فأخذت بى الناقة على غير الطريق التى كنت فيها وزاد على النوم وإذ أنا بشىء لطمنى على رأسى ، فانتبهت فزعا مرعوبا ، وإذا بأشجار وأنهار وماء وأطيار على تلك الأغصان تترنم[4] بلغاتها وألحانها وأشجار تلك المروج[5] مشتبكة بعضها ببعض ، فنزلت عن ناقتى ، وأخذت زمامها بيدى ولم أزل أتلطف بها إلى أن خرجت بها من تلك الأشجار إلى أرض فلاة[6] ، وفأصلحت كورها[7] ، واستويت راكبا على ظهرها ، ولا أدرى إلى أين

---

(١) الأطمار : الثياب .

(٢) تنكبت حجفتى ، أى لبسها على منكبه ، والحجفة : الترس من الجلد بلا خشب .

(٣) مدلهمة : شديدة السواد .

(٤) تترنم : تطرب .

(٥) المُرُوج : الأرض الواسعة فيها نبت كثير .

(٦) الفلاة : الصحراء الواسعة .

(٧) الكور: رَحْل البعير .

أذهب ولا إلى ماتسوقنى الأقدار ، فمددت نظرى فى تلك البرية فلاحت لى نار فى صدرها ، فوكزت ناقتى وسرت طالبا إلى أن وصلت إلى تلك النار فقربت منها وتأملت وإذا بخباء مضروب ، ورمح مركوز ، وراية قائمة ، وخيل واقفة ، وإبل سائمة ، فقلت فى نفسى : يوشك أن يكون لهذا الخباء شان عظيم ؛ فإنى لاأرى فى هذه البرية سواه .

ثم تقدمت خلف الخباء وقلت : السلام عليكم ياأهل الخباء ورحمة الله وبركاته ، فخرج إلىَّ من الخباء غلام من أبناء تسعة عشر كأنه البدر إذا أشرق والشجاعة لائحة بين عينيه فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ياأخا العرب إنى أظنك ضالا عن الطريق . فقلت : الأمر كذلك ، أرشدنى يرحمك الله تعالى ، فقال : ياأخا العرب إن أرضنا هذه مسبعة ، وهذه الليلة مظلمة موحشة شديدة الظلمة والبرد ولا آمن عليك من الوحش أن يفترسك، فانزل عندى على الرحب والسعة ، فإذا كان الغد ارشدتك إلى الطريق ، قال : فنزلت عن ناقتى وعقلتها بفاضل زمامها ، ونزعت ماكان على من أطمار ، وجلست ساعة ، وإذا بالشاب قد عمد إلى شاه فذبحها وإلى نار فأضرمها وأججها ، ثم دخل الخباء وأخرج أبزاراً[1] ناعمة ، ولحما مطيبا ، وأقبل يقطع من اللحم ويشوى على النار ويطعمنى ويتنهد تارة ويبكى تارة أخرى ، ثم شهق شهقة عظيمة وبكى بكاء شديدا وأنشد يقول:

ولم يبق إلا نفس خافت ... ومقلة إنسانها باهت
لم يبق فى أعضائه مفصل ... إلا وفيه سقم ثابت

---

(١) أبزار : الثياب .

فدمعـــه جـــار وأحشــاؤه توقــد إلا أنـــه ســاكت
تبكـــى لـه أعـــداؤه رحمـة ياويــح مـن يرثـى لـه الشامت

قال جميل : فعند ذلك يا أمير المؤمنين علمت أن الغلام عاشق ولهان، ولا يعرف الهوى إلامن ذاق طعم الهوى ، فقلت فى نفسى : أنا فى منزل الرجل وأتهجم عليه فى السؤال فردعت نفسى : وأكلت من ذلك اللحم بحسب الكفاية ؛ فلما فرغت من الأكل قام الشاب ودخل الخباء ، وأخرج طستا نظيفا وإبريقا حسنا ومنديلا من الحرير أطرافه مزركشه بالذهب الأحمر وقمقما مملوء من الماورد الممسك ، قال: فتعجبت من ظرفه ورقه حاشيته ، وقلت فى نفسى : ماأغرب الظرف فى البادية ، ثم غسلنا أيدينا وتحدثنا ساعة، ثم إنه قام ودخل الخباء وقطع بينى وبينه بمقطع من الديباج الأحمر ، ثم خرج وقال : ادخل ياوجه العرب وخذ مضجعك ، فقد لحقك فى هذه الليلة تعب وفى سفرك هذا نصب مفرط .

قال جميل : فدخلت فإذا أنا بفراش من الديباج الأخضر ، فعند ذلك نزعت ما كان على من الثياب ونمت بليلة لم أنم عمرى مثلها ، فلم أزل كذلك وأنا متفكر فى أمر هذا الشاب إلى أن جن الليل ونامت العيون ، فلم أشعر إلا بحس خفى لم أسمع ألطف منه ولا أرق حاشية فرفعت سجاف المضرب ونظرت ، فإذا أنا بصبيه لم أر أحسن منها وجها وهى إلى جانبه وهما يبكيان ويتشاكيان ألم الهوى والصبابة والجوى وشدة اشتياقهما إلى التلاقى. فقلت : يالله العجب من هذا الشخص الثانى، وهذا بيت فرد فإنى لم أر فيه غير هذا الفتى وليس حوله أحد ، ثم قلت فى نفسى : لاشك أن هذه الجارية من بنات الجن تهوى هذا الغلام وقد تفرد بها فى هذا المكان

وتفردت به فحققتها ، فإذا هى إنسية عربية إذا رمقت[1] تخجل الشمس المضيئة ، وقد أضاء الخباء من نور وجهها ، فلما تحققت أنها محبوبته غلبتنى الغيرة على الحب ، فأرخيت الستر وغطيت وجهى ونمت. فلما أصبحت ، لبست ثيابى وتوضأت لصلاتى وصليت ماكان على من الفرض، ثم قلت له: ياأخا العرب هل لك أن ترشدنى إلى الطريق فقد تفضلت علىَّ فنظر إلىَّ وقال : على رسلك ياوجْهَ العرب ، الضيافة ثلاثة ، وما كنتُ بالذى يدْعك إلا لثلاثة أيام ، قال جميل : فأقمت عنده ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الرابع جلسنا للحديث فحادثته وسألته عن اسمه ونسبه، فقال: أما نسبى فأنا من بنى عذرة[2] ، وأنا فلان بن فلان ، وعمى فلان ، فإذا هو ابن عمى يا أمير المؤمنين ، وهو من أشرف بيت فى بنى عذرة ، قال: فقلت ياابن العم : ماحملك على ما أراه منك من الانفراد فى هذه البرية، وكيف تركت عبيدك وإماءك وانفردت بنفسك فى هذا المكان، فلما سمع يا أمير المؤمنين كلامى ، تغرغرت عيناه بالبكاء ، ثم قال : يا ابن العم إننى كنت محبا لابنة عمى مفتونا بها ، هائما بحبها ، مجنونا عليها، لاأطيق الفراق عنها ، فزاد عشقى لها فخطبتها من عمى فأبى أن يزوجنيها، وزوجها من رجل من بنى عذرة ، ودخل بها وأخذها إلى المحلة التى هو فيها من العام الأول ، فلما بعدت عنى ، وحجبت عن النظر إليها حملتنى لوعات الهوى ، وشدة الشوق والجوى على تركى أهلى

---

(١) رمقت : أدام النظر .

(٢) عُذْرة : قبيلة عربية من قضاعة إليها يُنسب الحب العذرى المشهور بشدة العشق والعفة.

ومفارقتى عشيرتى وخلانى ، وجميع أمتعتى وانفردت بهذا البيت فى هذه البرية ، وألفت وحدتى . فقلت : وأين أبياتهم ؟ قال: هم قريب فىذروة هذا الجبل ، وفى كل ليلة ، عند نوم العيون وهدو من الليل ، تنسل من الحى سراً ، بحيث لا يشعر بها أحد ، فأقضى منها بالحديث وطراً وتقضى هى كذلك ، وها أنا مقيم كذلك على هذا الحال أتسلى بها ساعة من الليل ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، أو يأتينى الأمر على رغم الحاسدين أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين .

قال جميل: فلما حدثنى الغلام ياأمير المؤمنين ، غمنى أمره ، وصرت من ذلك فى حيرة لما أصابنى عليه من الغيرة . فقلت له : يا ابن العم هل لك أن أدلك على حيلة أشير بها عليك ، وفيها إن شاء الله عين الصلاح وسبيل الرشد والنجاح، وبها يفرج الله عنك الذى تخشاه ، فقال لى : قل يا ابن العم ، فقلت له : إذا كان الليل وجاءت الجارية فاطرحها على ناقتى فإنها سريعه الرواح واركب أنت جوادك، وأنا أركب بعض هذه النوق وأسير بكم الليلة جميعها فما يصبح الصباح إلا وقد قطعت بكم برارى وقفارا ، وتكون قد بلغت مرادك وظفرت بمحبوبة قلبك وأرض الله واسع فضاها، وأنا والله مساعدك ماحييت بروحى ومالى وسيفى . فلما سمع ذلك، قال : يا ابن العم حتى أشاورها فى ذلك فإنها عاقلة لبيبة بصيرة بالأمور .

قال جميل : فلما جن الليل وحان وقت مجيئها ، وهو منتظر الوقت المعلوم أبطأت عن عادتها ، فرأيت الفتى وقد خرج من باب الخباء وفتح فاه وجعل يتنسم هبوب الريح التى تهب من نحوها وأنشد يقول :

ريح الصبا تهدى إلى نسيم | من بلدة فيها الحبيب مقيم
يا ريح فيك من الحبيب علاقة | أفتعلمين متى يكون قدوم

ثم دخل الخباء وقعد ساعة زمانية وهو يبكى ، ثم قال لى : يا ابن العم إن لبنت عمى فى هذه الليلة نبأ وقد حدث لها حادث وعاقها عنى عائق، ثم قال لى : كن مكانك حتى آتيك بالخبر ، ثم أخذ سيفه وحجفته[1] ، ثم غاب عنى ساعة من الليل ثم أقبل وعلى يديه شيء يحمله، ثم صاح إلىّ فأسرعت إليه ، فقال : أتدرى يا ابن العم ما الخبر ؟ فقلت : لا والله ، فقال: فُجعت فى ابنة عمى فى هذه الليلة ، لأنها كانت توجهت إلينا كعادتها ، إذ عرض لها فى طريقها أسد فافترسها ، ولم يبق منها إلا ماترى ، ثم إنه طرح ماكان على يده فإذا هو : مشاش[2] الجارية وما فضل من عظامها، ثم بكى بكاء شديدا ورمى الترس من يده وأخذ كساء على يده، ثم قال لى: لاتبرح إلى أن آتيك إن شاء الله تعالى ، ثم سار فغاب عنى ساعة، ثم عاد وبيده رأس الأسد فطرحه عن يده، ثم طلب ماء فأتيته به،فغسل فم الأسد،وجعل يقبله ويبكى ويئن وزاد حزنه عليها،وأنشد يقول:

ألا أيها الليث المغر بنفسه | هلكت لقد هيجت لى بعدها شجنا
وصيرتنى فردا وقد كنت ألفها | وصيرت بطن الأرض لى ولها وطنا
أقول لدهرٍ خاننى بفراقها | وغار عليها أن أكون لها حزنا

ثم قال : يا ابن العم سألتك بالله ، وبحق القرابة ، والرحم التى بينى وبينك ألا حفظت وصيتى : إنك سترانى الساعة ميتا بين يديك ، فإذا كان

(١) الحجفة : الترس من الجلد بلا خشب ، وجمعها حجف .
(٢) المُشَاش : رؤوس العظام .

كذلك فغسلني وكفني أنا وهذا الفاضل من مشاش الجارية في هذا الثوب وادفنا في قبر واحد واكتب على قبرنا هذه الأبيات ، وأنشد يقول :

كنا على ظهرها والعيش في رغد ... والشمل مجتمع والدار والوطن
ففرق الدهر والتصريف ألفتنا ... وصار يجمعنا في بطنها الكفن

قال : ثم بكى بكاء شديدا ، ثم دخل المضرب وغاب عني ساعة ، وخرج وجعل يتنهد ويصيح ثم شهق شهقة فارق الدنيا ، فلما رأيت ذلك منه عظم علي وكبر عندي حتى كدت ألحق به من شدة حزني عليه ، ثم تقدمت إليه وفعلت به ما أمرني : من الغسل وكفنتهما جميعا ، ودفنتهما في قبر واحد ، وأقمت على قبرهما ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت ، وأقمت سنين أتردد إلى زيارتهما ، وهذا ما كان من حديثهما يا أمير المؤمنين . قال : فلما سمع الرشيد كلامه: استحسنه وخلع عليه وأجازه جائزة حسنة ، والله أعلم.

حكاية أجنبية

[٧٥] **قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي**(١): بينما أنا ذات يوم في منزلي ، وكان زمن الشتاء وقد انتشرت السحب وتراكمت الأمطار بقطر

---

(١) إسحاق بن إبراهيم بن ميمون الموصلي ، أبو محمد النديم : من أشهر ندماء الخلفاء، تفرد بصناعة الغناء ، فكان عالماً باللغة ، والموسيقى ، والتاريخ ، راويا للشعر حافظا للأخبار ، نادم الرشيد والمأمون ، والواثق . ولما مات نُعي إلى المتوكل ، فقال : ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته ، ت[٢٣٥هـ= ٨٥٠م] .انظر : وفيات الأعيان (٦٥/١) الفهرست (١٤٠/١) .

كأفواه القرب وامتنع الغادى والمقبل من المسير فى الطرقات لما فيها من الأمطار والوحل ، وأنا ضيق الصدر ، إذلم يأتنى أحد من إخوانى ولم أقدر على المسير إليهم من شدة الوحل والطين ، فقلت لغلامى : أحضرلى ما أتشاغل به فأحضر لى طعاما وشرابا ، فتنغصت إذلم يكن معى من يؤانسنى ولم أزل أتطلع من الطاقات وأراقب الطرقات ، وأقبل الليل فتذكرت جارية لبعض أولاد المهدى كنت أهواها ، وكانت عارفة بالغناء وتحريك الملاهى، فقلت فى نفسى : لو كانت الليلة عندنا ، لتم سرورى وطالت ليلتى مما أنا فيه من الفكر والقلق، وإذا بداق يدق الباب وهو يقول : أيدخل محبوب على الباب واقف ؟

فقلت فى نفسى : لعل غرس التمنى أثمر ، فقمت إلى الباب ، فإذا بصاحبتى وعليها مرط[1] أخضر ، قد اتشحت به ، وعلى رأسها وقاية من الديباج تقيها من المطر، وقد غرقت فى الطين إلى ركبتها ، وابتل ما عليها من المزاريب وهى فى حال عجيب. فقلت لها : ياسيدتى ما الذى أتى بك فى مثل هذه الأوحال ؟ فقالت: قاصدك جاءنى ووصف كما عندك من الصبابة والشوق ، فلم يسعنى إلا الإجابة والإسراع نحوك . فعجبت من ذلك ، وكرهت أن أقول لها إنى لم أرسل إليك أحدا، فقلت : الحمدلله على جمع الشمل بعدما قاسيت من ألم الصبر ، ولو كنت أبطأت علىّ ساعة: كنت أحق بالسعى إليك ، فإنى كثير الصبابة نحوك. ثم قلت لغلامى: هات الماء ، فأقبل بسخانة فيها ماء حار حتى أصلح لها حالها ، ثم أمرته أن يصب الماء على رجليها ، وتوليت غسْلهما ثم دعوت ببدلة من

(١) مِرْط : كساء من صوف يؤتزر به .

أفخر الملبوس فألبستها إياها بعد أن نزعت ماكان عليها وجلسنا ، ثم استدعيت بالطعام فأبت ، فقلت : هل لك فى الشراب ؟ فقالت : نعم فتناولت أقداحا، ثم قالت : من يغنى لى ؟ فقلت لها : أنا ياسيدتى ، فقالت: لا أحب ، فقلت : بعض جوارى ، قالت : لا أريد ، فقلت : غنى لنفسك ، قالت : ولا أنا ، قلت : فمن يغنيك ؟ قالت : التمس من يغنى لى، فخرجت طاعة لها ، إلا أنى آيس من أن أجد أحدا فى مثل هذا الوقت، فلم أزل حتى بلغت الشارع ، فإذا أنا بأعمى يخبط بعصا ، وهو يقول : لاجزى الله من كنت عندهم خيرا ، إن غنيت لم يسمعوا وإن سكت استخفوا بى. فقلت : أمغن أنت ؟ قال : نعم ، قلت : فهل لك أن تتم ليلتك عندنا ، وتؤانسنا ؟ قال : إن شئت خذ بيدى ، فأخذت بيده وسرت إلى الدار ، وقلت لها : يا سيدتى أتيت بمغن أعمى نلتذ به ولايرانا، فقالت: علىّ به فأدخلته وعزمت عليه فى الطعام ، فأكل أكلا لطيفا، وغسل يده وقدمت إليه الشراب فشرب ثلاثة أقداح ثم قال لى : من تكون ؟ قلت: إسحاق بن إبراهيم الموصلى ، قال : لقد كنت أسمع بك والآن فرحت بمنادمتك ، فقلت : ياسيدى فرحت بمن يسرك ، فقال : غن ياإسحاق فأخذت العود على سبيل المجون ، وقلت : السمع والطاعة ؛ فلما غنيت وانقضى الصوت ، قال : يا إسحاق قاربت أن تكون مغنيا ، فصغرت علىّ نفسى وألقيت العود من يدى ، فقال : ما عندك من يحسن الغناء ؟ قلت : عندى جارية قال : مرها فلتغن قلت : تغنى وأنت واثق بغنائها ، قال : نعم، فغنت ، قال : ما صنعت شيئاً فرمت العود من يدها مغضبة، وقالت : الذى عندنا جدنا به ، فإن كان عندك شيء فتصدق به ، فقال : علىّ بعود لم تمسه يد ، فأمرت الخادم فجاء بعود جديد فضرب فى طريقة لا أعرفها واندفع يغنى هذه الأبيات :

سرى يقطع الظلماء والليل عاكف حبيب بأوقات الزيارة عارف
وما راعنا إلا السلام وقولها أيدخل محبوب على الباب واقف

قال : فنظرت إليَّ الجارية شزرا ، وقالت : سرٌ بينى وبينك ماوسعه صدرك ساعة وأودعته لهذا الرجل ، فحلفت لها ثم اعتذرت إليها وأخذت أقبل يديها، وأدغدغ ثدييها ، وأعض خديها ، حتى ضحكت ثم التفت إلى الأعمى وقلت : غن ياسيدى فأخذ العود وغنى هذه الأبيات :

ألا ربما زرت الملاح وربما لمست بكفى البنان المخضبا
ودغدغدت رمان الصدور ولم أزل أعضعض تفاح الخدود المكتبا

فقلت لها : ياسيدتى فمن أعلمه بما نحن فيه ؟ قالت : صدقت ثم تجنبناه، فقال: إنى لحاقن(١). فقلت : يا غلام خذ الشمعة وامض بين يديه، فخرج وأبطأ فخرجنا فى طلبه ، فلم نجده ، وإذا الأبواب مغلقة والمفاتيح فى الخزانة ، فلا ندرى أفى السماء صعد أم فى الأرض هبط ، ثم علمت أنه إبليس وأنه قاد لى ثم انصرف، فتذكرت قول أبى نواس حيث قال :

عجبت من إبليس فى كبره وخبث ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة وصار قوادا لذريته

[٧٦] ونظير ذلك مما يستظرف لأبى نواس، ماحكى عنه أنه قال : ضجرت من ملازمة أمير المؤمنين هارون الرشيد ، حتى أنى لم أجد فراغا إلى نفسى ، فتوجه أمير المؤمنين إلى الصرح ليبيت فيه ثم يعود ، فوجدت لروحى فرصة ، فدخلت دارى وأغلقت بابى وأحضرت شرابا وطلبت

---

(١) حَاقِن : من حقن بوله واشتد عليه .

نفسى الخلوة ، فعند المساء وإذا بالباب يطرق، فخرجت وإذا أنا بظبى من أولاد الأتراك[1] ، ما رأت عينى أحسن منه منظرا فسلم على، وقال لىّ : أتقبل ضيفا ؟ قلت : ياسيدى ومن لى بذلك ، فدخل بيتى فحار عقلى عند دخوله ، ثم أخرج من تحت ثيابه سلاحية شراب ونقلا[2] وشيئاً من الدجاج، ثم شرب وغنى شيئاً لم أسمعه من غيره ، وقضيت مرادى منه مرارا، إلى أن مضى وقت من الليل ، وقد هام عقلى من الشراب ومن حسنه ومن تسيلم نفسه إلىَّ بغير تقديم عوض .

ثم قال : ياسيدى أريد الانصراف ، فقلت له : ياسيدى متى خرجت أنت ، خرجت روحى من جسدى ، وكل شىء أملكه بين يديك ، وأنا أصير عبدك بعد هذا اليوم ، ولا أفارقك ، قال : أصحيح ماتقول ؟ قلت : نعم ، قال : أنا محتاج إلى مالك ، وإن كنت صادقا فيما ادعيت من محبتك لى ، قم واحلق لحيتك وشاربك واقعد مثلى أمرد ، قال فحكم علىَّ السكر والعشق ، فما قدرت أن أخالفه فأجبته إلى ذلك على أنه يبيت عندى ، فعمد إلى موسى وبل لحيتى وفى الحال أنزلها وبقيت مثله أمرد ؛ ثم صار يضحك علىَّ ، وقال : يا أبا نواس كيف الشعر الذى ذكرت فيه آدم وإبليس فأنشدته قائلا :

عجبت من إبليس فى كبره ... وخبث ما أضمر فى نيته
تاه على آدم فى سجدة ... وصار قوادا لذريته

---

(١) ظبى من أولاد الأتراك : يقصد به غلام جميل الصورة .

(٢) النقل : هو ما يؤكل على الشراب كالفستق والتفاح .

ثم ضحك ضحكا عاليا وصك على ساحل قفاى صكا مزعجا فاغتظت منه ؛ ثم قلت له : ويلك أتفعل بى هكذا ، ثم أردت التطلع إليه فما وجدت أحدا يحيينى، فقلت : إنه الملعون إبليس ، انتهى.

[٧٧] وقال بعضهم :

قد جاءنى ليلا أبو مرة ... إبليس يدعونى بلا ترجمان
وقال لى هل لك فى أمرد ... يهز من أعطافه غصن بان
قلت نعم قال وفى خمرة ... حبابها يحكى عقود الجمان
قلت نعم قال فنم آمنا ... أنت رئيس الفسق هذا الزمان

[٧٨] وقال أبو نواس :

وليلة طال سهادى بها ... فزارنى إبليس عند الرقاد
وقال لى هل لك فى قحبة ... لبيبة تطرد عنك الرقاد(١)
قلت نعم قال وفى قهوة ... عتقها العاصر من عهد عاد
قلت نعم قال وفى مطرب ... إذا شدا يطرب منه الجماد
قلت نعم قال وفى شادن ... قد كحلت أجفانه بالسواد
قلت نعم قال وفى طفلة ... فى وجنتيها للمحب انقياد
قلت نعم قال فنم آمنا ... ياكعبة الفسق وركن الفساد

[٧٩] وقال زين الدين عمر بن الوردى(٢) معارضا لذلك :

---

(١) قَحْبة : المرأة البغى .

(٢) زين الدين عمر بن الوردى : مؤرخ ، وشاعر .ولى قضاء منبج بالشام .له "نصيحة الإخوان "المعروفة بـ "لامية ابن الوردى" .ت[٧٤٨هـ=١٣٤٨م] .

نمـــت وإبليـــس أتـــى　　بحيلـــه منتدبـــه
فقـــال مـــا قولـــك فـــى　　حشيشـــة منتخبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا　　خمـــرة كـــرم مذهبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا　　مليحـــة مطيبـــه
فقلـــت لا قـــال ولا　　أغيـــد بـــالبدر اشـــتبه[1]
فقلـــت لا قـــال ولا　　آلـــة لهـــو مطربـــه
فقلـــت لا قـــال فنم　　مـــا أنـــت إلا حطبـــه

[٨٠] و[قيل] : حضر أبو نواس عند الرشيد ليلة أنس ، وكان أبو طوق حاضرا ، وكان أبو نواس مشغوفا بحسنه وجماله ، فلما انقضى المجلس : أخذ كل واحد مضجعا للنوم ، فخاف الخليفة من أبى نواس على أبى طوق، فقال الخليفة لأبى طوق : نم أنت على السرير ، وقال لأبى نواس : أنام أنا وأنت أسفل السرير ، فقال : سمعاً وطاعة وهو بذلك غير راض فى نفسه ؛ وتغافل الخليفة عن أبى نواس ، وأظهر النوم، ثم انتبه فوجد أبا نواس فوق السرير بجنب أبى طوق يضمه ويعانقه ، فقال : ما هذا يا أبا نواس ؟ فقال :

هزنى الشوق من أجل أبى طوق　　فتدحرجت من أسفل إلى فوق

فقال له : قاتلك الله ، انتهى من حلبة الكميت .

---

(١) أغيَد : الغلام يتمايل فى مشيته .

[٨١] ومن غريب ما يحكي ماحكاه القاضي أبو الحسن التنوخي[١] في كتاب الفرج بعد الشدة : أن منارة وكان صاحب شرطة الرشيد ، قال: رفع إلى هارون الرشيد أن رجلا بدمشق من بقايا بني أمية ، عظيم المال ، كثير الجاه ، مطاع في البلد له ، جماعة وأولاد ومماليك يركبون الخيل ويحملون السلاح ، ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد ، كثير البذل والضيافة ، وأنه لا يؤمن منه . فعظم ذلك على الرشيد . قال منارة: وكان وقوف الرشيد على هذا وهو بالكوفة في بعض حجه في سنة ست وثمانين ومائة ، وقد عاد من الموسم وقد بايع للأمين والمأمون والمعتصم ، أولاده؛ فدعاني وهو خال وقال : إني دعوتك لأمر يهمني وقد منعني النوم فانظر كيف يكون : ثم قص عليَّ خبر الأموي وقال اخرج الساعة فقد أعددت لك الخيول، وأزحت علتك في الزاد والنفقة والآله ، ونضم إليك مائة ، واسلك البرية ، وهذا كتابي إلى نائب دمشق ، وهذه قيود فابدأ بالرجل فإن سمع وأطاع فقيده وجئني به، وإن عصى فتوكل عليه أنت ومن معك لئلا يهرب، وأنفذ الكتاب إلى أمير دمشق ليكون مساعدا لك ، واقبضا عليه وجئني به ، وأجلت لذهابك ستا ولإيابك ستا، ويوما لمقامك ، وهذا محمل تجعله في شقة منه إذا قيدته ، وتقعد أنت في الشقة الأخرى ، ولاتكل حفظه إلى غيرك حتى تأتيني به في الثالث عشر يوما من خروجك؛ فإذا دخلت داره ، فتفقدها وجميع مافيها من أهله وولده وحاشيته وغلمانه، وقدر نعمته ، والحال والمحل ، واحفظ مايقوله الرجل حرفا بحرف من

(١) أبو الحسن التنوخي : القاضي ، الأديب ، الشاعر .تعلم على الصولي ، وأبي الفرج الأصبهاني .تولى القضاء في بغداد وتوفي بها ت[٣٨٤هـ-٩٩٤] .

ألفاظه منذ يقع طرفك عليه حتى تأتينى به ، وإيـاك أن يشـكل عليـك شـىء من أمره ، انطلق .

قال منارة : فودعته وانطلقت وخرجت فركبت الإبل وسـرت أطـوى المنازل، أسير الليـل والنهـار ولا أنـزل إلا للجمـع بيـن الصلاتيـن ، والبـول وتنفيس الناس قليلا إلى أن وصلت إلى دمشق فى أول الليلة السابعة وأبواب البلد مغلقة ، فكرهت طروقها ليلا ، فبت بظاهر البلد إلى أن فتح بابهـا مـن غد . فدخلت حتى أتيت باب الرجل وعليه صف عظيم وحاشية كثيرة فلـم أستاذن ودخلت بغير إذن ؛ فلما رأى القوم ذلك سألوا بعض من معى عنى، فقال : هذا منارة رسول أمير المؤمنين إلى صـاحبكم قـال فلمـا صـرت فـى صحن الدار نزلت ودخلـت مجلسـا رأيـت فيـه قومـا جلوسـا ، فظننـت أن الرجل فيهم فقاموا ورحبوا بى فقلت : أفيكم فلان ؟ قالوا : نحن أولاده ، وهو فى الحمام ، فقلت : استعجلوه فمضى بعضهم يستعجله ، وأنـا أتفقـد الدار والأحوال والحاشية فوجدتها مـاجت بأهلهـا موجـا كبيرا ، فلـم أزل كذلك حتى خرج الرجل بعد أن طال مكثه واستربت منـه ، واشـتد قلقـى وخوفى من أن يتوارى إلى أن رأيت شخصا بزى الحمام يمشى فـى صحـن الدار ، وحواليه جماعة كهـول وأحـداث وصبيـان، وهـم أولاده وغلمانـه ، فقلت : إنه الرجل فجاء وجلس وسلم على سلاما خفيفا وسـألنى عـن أمـير المؤمنين واستقامة حضرتـه ، فأخبرتـه بمـا وجـب ومـاقضى كلامـه حتـى جاءوا بأطباق فاكهة ، فقال : تقدم يامنارة وكل معنا فقلت مالى إلى ذلـك من سبيل، فلم يعاودنى فأكل هو ومن معه ثـم غسـل يديـه ودعـا بالطعـام ، فجاءوا إليه بمائدة حسنة لم أر مثلها إلا للخليفة ، فقـال : يامنـارة سـاعدنا

على الأكل ، لايزيد على أن يدعونى باسمى كما يدعونى الخليفة ، فامتنعت عليه فما عاودنى ، فأكل هو ومن معه وكانوا تسعة من أولاده . فتأملت أكله فى نفسه فوجدته يأكل أكل الملوك ووجدت ذلك الاضطراب الذى كان فى داره قد سكن ، ووجدتهم لايرفعون شيئاًمن بين يديه قد وضع على المائدة إلاتهيأ غيره حالا أعظم وأحسن منه ، وقد كان غلمانه أخذوا لما نزلت إلى الدار مالى وغلمانى وعدلوا بهم إلى دار أخرى ، فما أطاقوا ممانعتهم وبقيت وحدى وليس بين يدى إلا خمس أو ست غلمان وقوف على رأسى ، فقلت فى نفسى: هذا جبار عنيد ، فإن امتنع من الشخوص ، لم أطق إشخاصه بنفسى ولابمن معى ولا أحفظ إلا أن يلحقنى أمير البلد وجزعت جزعا شديدا ، ورابنى منه استخفافه وتهاونه بأمرى ، يدعونى باسمى ولا يفكر فى امتناعى من الأكل ، ولايسأل عما جئت ، ويأكل مطمئنا ، وأنا مفكر فى ذلك .

فلما فرغ من أكله وغسل يديه دعا بالبخور فتبخر ، وقام إلى الصلاة وصلى الظهر ، وأكثر من الدعاء والابتهال، ورأيت صلاته حسنة فلما انتقل من المحراب أقبل على ، وقال : ما أقدمك يامنارة ؟ فأخرجت كتاب أمير المؤمنين ، ودفعته إليه ففضه وقرأه ، فلما استتم قراءته دعا أولاده وحاشيته، فاجتمع منهم خلق كثير فلم أشك أنه يريد أن يوقع بى ، فلما تكاملوا ، ابتدأ فحلف أيمانا غليظة فيها : الطلاق ، والعتاق ، والحج ، والصدقة، والوقف ، أن لايجتمع اثنان فى موضع واحد ، وأمرهم أن ينصرفوا ويدخلوا منازلهم ولايظهروا إلى أن يكشف لهم أمرا يعتمدون عليه ، وقال : هذا كتاب أمير المؤمنين بالمصير إليه ، ولست أقيم بعد نظرى فيه ساعة

واحدة، فاستوصوا بمن ورائى من الحريم ، خيرا ومالى حاجة أن يصحبنى أحد منكم هات قيودك يامنارة فدعوت بها وكانت فى سفط[1] ومدَّ يده فقيدته وأمرت غلمانى بحمله ، حتى صار فى المحمل وركبت فى الشق الآخر ، وسرت من وقتى ولم ألاق أمير البلد ولا غيره .

وسرت بالرجل وليس معه أحد إلى أن صرنا بظاهر دمشق ، فابتدأ يحدثنى بانبساط حتى انتهينا إلى بستان حسن فى الغوطة ، فقال لى : أترى هذا ؟ قلت : نعم قال : إنه لى وقال : إن فيه من غرائب الأشجار كيت وكيت ، ثم انتهى إلى آخر ، فقال : مثل ذلك ، ثم انتهى إلى مزارع حسان، وقرى ، فقال : مثل هذا لى ، فاشتد غيظى منه، وقلت : ألست تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أرسل إليك من انتزعك من بين أهلك ومالك وولدك ، وأخرجك فريدا مقيدا مغلولا ، ماتدرى إلى ما يصير إليه أمرك، ولاكيف يكون ، وأنت فارغ القلب من هذا ، حتى تصف ضياعك وبساتينك بعد أن جئتك وأنت لا تفكر فيما جئت به ، وأنت ساكن القلب قليل التفكر ، لقد كنت عندى شيخا فاضلا .

فقال لى مجيبا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، أخطأت فراستى فيك، لقد ظننت أنك رجل كامل العقل ، وأنك ما أحللت من الخلفاء هذا المحل إلالما عرفوك به ، فإذا عقلك وكلامك يشبه كلام العوام والله المستعان ، أما قولك فى أميرالمؤمنين ، وإزعاجه وإخراجه إياى إلى بابه على صورتى هذه ، فإنى على ثقة من الله عز وجل الذى بيده ناصية أمير المؤمنين

---

(١) السفط : وعاء كالقفة أو الجوالق .

ولايملك أمير المؤمنين لنفسه نفعا ولا ضرا إلا باذن الله عز وجل ، ولا ذنب لى عند أمير المؤمنين أخافه ، وبعد فإذا عرف أمير المؤمنين أمرى وعرف سلامتى وصلاح نيتى سرحنى مكرما ، فإن الحسدة والأعداء رمونى عنده بما ليس فى وتقوّلوا علىّ الأقاويل ولم يستحل دمى ويخرج من إيذائى وإزعاجى ويردنى مكرما ويقيمنى ببلاده معظما مبجلا وإن كان قد سبق فى علم الله عز وجل أنه يبدو لى منه سوء ، وقد اقترب أجلى وكان سفك دمى على يده ، فلو اجتهدت الملائكة والأنبياء وأهل الأرض والسماء على صرف ذلك عنى ما استطاعوا، فلم أتعجل الفكرة فيما فرغ الله منه ، وإنى أحسن الظن بالله الذى خلق ورزق وأمات ، وإن الصبر والرضا والتسليم إلى من يملك الدنيا والآخرة ، وقد كنت أحسب أنك تعرف هذا ، فإذن قد عرفت مبلغ فهمك، فإنى لا أكلمك بكلمة واحدة ، حتى يفرق بيننا أمير المؤمنين إن شاء الله تعالى ثم أعرض عنى فما سمعت منه لفظة غير : القرآن والتسبيح ، أو طلب ماء ، أو حاجة ، حتى شارفنا الكوفة فى اليوم الثالث عشر بعد الظهر، والنحب[1] قد استقبلتنى قبل ستة فراسخ من الكوفة يتحسسون خبرى ، فحين رأونى رجعوا عنى متقدمين بالخبر إلى أمير المؤمنين ، فانتهيت إلى الباب فى آخر النهار ، فحططت رحلى على الرشيد ، وقبلت الأرض بين يديه . ووقفت . فقال : هات ماعندك يامنارة وإياك أن تغفل عن لفظة واحدة، فسقت الحديث من أوله إلى آخرة حتى انتهيت إلى ذكر الفاكهة والطعام والغسل والبخور وماحدثتنى به نفسى من امتناعه ، والغضب يظهر فى وجه أمير المؤمنين

(١) النحب : الشجر ، وكنى بها عن الجواسيس لأنهم يختبئون ورائها .

ويتزايد حتى انتهيت إلى فراغ الأموى من الصلاة والتفاته إلى وسؤاله عن سبب قدومى ودفعى الكتاب إليه ، ومبادرته إلى إحضار ولده وأهله وأصحابه وحلفه عليهم أن لا يتبعه أحد وصرفه إياهم ومد رجليه فقيدته ، فما زال وجه الرشيد يسفر ؛ فلما انتهيت إلى ما خاطبنى به عند توبيخى له لما ركبنا فى المحمل ، فقال : صدق و الله ما هذا إلا رجل محسود على النعمة ، مكذوب عليه ، ولعمرى لقد أزعجناه ، وآذيناه، ورعنا أهله فبادر بنزع قيوده وأئتنى به .

قال : فخرجت فنزعت قيوده وأدخلته إلى الرشيد ، فما هو إلا أن رآه حتى رأيت ماء الحياء يجول فى وجه الرشيد ، فدنا الأموى وسلم بالخلافة ووقف فرد عليه الرشيد ردا جميلا وأمره بالجلوس ، فجلس وأقبل عليه الرشيد فسأله عن حاله ، ثم قال له : بلغنا عنك فضل هيئة وأموراً حببنا معها أن نراك ونسمع كلامك ونحسن إليك فاذكر حاجتك ، فأجاب الأموى : جوابا جميلا وشكر ودعا ، ثم قال : ليس لى عند أمير المؤمنين إلا حاجة واحدة ، فقال: مقضية ، فما هى ؟ قال : يا أمير المؤمنين تردنى إلى بلدى وأهلى وولدى ، قال : نفعل ذلك ولكن سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك ، فإن مثلك لا يخرج إلا ويحتاج إلى شىء من هذا ، فقال : يا أمير المؤمنين عمالك منصفون وقد استغنيت بعدلهم عن مسألتى ، فأمورى مستقيمة ، وكذلك أهل بلدى بالعدل الشامل فى ظل أمير المؤمنين ، فقال الرشيد : انصرف محفوظا إلى بلدك واكتب إلينا بأمر إن عرض لك ، فودعه الأموى ، فلما ولى خارجا ، قال الرشيد : يامنارة احمله من وقتك وسر به راجعا كما سيرته ، حتى إذا وصلت إلى مجلسه

الذى أخذته منه فودعه وانصرف. قال منارة : فمازلت معه حتى انتهى إلى محله ، ففرح به أهله وأعطانى عطاء جزيلا وانصرفت ، والله أعلم وهذه الحكاية على سبيل الاختصار(١) .

[٨٢] وحكى : أن الخليفة هارون الرشيد قلق فى بعض الليالى قلقا شديدا، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكى ، وقال له : ياوزيرى إن صدرى ضيق ، ومرادى الليلة التفرج في شوارع بغداد ، وننظر فى مصالح العباد بشرط أن لا يعرفنا أحد من الناس ، ونتزيا بزى التجار الأكياس ، فقال له الوزير : السمع والطاعة فقاموا فى الوقت والساعة ، وقلعوا ما عليهم من ثياب الملك والافتخار ولبسوا ثياب التجار؛ الخليفة والوزير جعفر ومسرور السياف الأكبر ، وتمشوا من مكان إلى مكان حتى وصلوا إلى الدجله فرأوا بالأمر المقدر شيخا قاعدا فى شختور(٢) ، فتقدموا إليه وسلموا عليه ، وقالوا: يا شيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تفرجنا الليلة فى مركبك وخذ هذين الدينارين أجرتك انتفع بهما ، فقال لهم الشيخ : ومن يقدر علي الفرجة والخليفة هارون الرشيد ينزل كل ليلة فى حراقة(٣) صغيرة إلى الدجلة ومعه منادي ينادى معاشر الناس كافة : جيد وردئ ، شيخ وصبى ، خاص وعام وغلام ، كل من نزل فى مركب بالليل و شق الدجلة ضربت عنقه ، أو يشنق على صارى مركبه ، وكأنكم الساعة بالحراقة وهى مقبلة ، فقال له الخليفة هارون الرشيد وجعفر البرمكى: ياشيخ خذ هذين الدينارين

---

(١) انظر : الفرج بعد الشدة (٦٣/٢) .

(٢) الشَختور :سفينة صغيرة .

(٣) الحَرّاقة : من السفن الحربية ، وجمعها حرّاقات .

وادخل بنا قبواً من هذه الأقبية إلى أن تروح الحراقة ، فقال لهم الشيخ : هاتوا الذهب والله المستعان فأخذ الذهب وعوم بهم قليلا ، وإذا بالحراقة قد أقبلت من كبد الدجلة ، وفيها الشموع والمشاعل ، فقال لهم الشيخ : أما قلت لكم ياستار لا تكشف الأستار ، فقال الخليفة هارون الرشيد والوزير جعفر البرمكي: ادخل بنا يا شيخ في قبو من الأقبية حتى تمضي هذه الحراقة ، فدخل إلى قبو ووضع عليهم ، مئزرا أسود وصاروا يتفرجون من تحت المئزر وإذا بالحراقة قد أقبلت ، والشمع يوقد فيها وإذا في مقدم الحراقة مشاعلي بيده مشعل من الذهب الأحمر ، يوقد فيه بالعود القاقلي[1] وعلى المشاعلي قباء أطلس أحمر بطراز مزركش أصفر ، وعلى رأسه شاش موصلي ، وعلى كتفيه مخلاة من الحرير الأخضر ملآنة من العود القاقلي وهو يوقد به عوض الحطب ، ومشاعلي آخر في مؤخر الحراقة مثله ، ومائتا مملوك واقفون ميمنة وميسرة ، وكرسي منصوب من الذهب الأحمر ، وعليه شاب حسن جالس كالقمر ، وعليه خلعة سوداء بطرازين من الذهب الأصفر ، وبين يديه إنسان كأنه الوزير جعفر ، وعلى رأسه خادم واقف كأنه مسرور بسيف مشهور ، وعشرون نديما ، فقال الخليفة : ياجعفر قال : لبيك ياأمير المؤمنين قال : لعل أن يكون هذا أحد أولادي إما المأمون ، أو محمد الأمين ، فلما وصلت الحراقة إليهم ، وإذا بالمشاعلي ينادي : معاشر الناس كافة الخاص والعام ، والجيد والرديء ، والعبد والغلام ، جهاوات وغير جهاوات قد رسم خليفتنا هذا : إن كل من تفرج في الدجلة ، أوفتح طاقته ، حل ماله وضربت رقبته، ومن لايصدق يجرب

---

(١) العود القاقلي : نبات هندي له رائحة عطرية .

قال : فتأمل الخليفة هارون الرشيد فى الشاب ، وهو جالس على كرسى من الذهب ، قد كمل بالحسن والجمال والبهاء والكمال ، قد زان المنصب ، فلما تأمله هارون الرشيد ، التفت إلى الوزير ، وقال : ياوزير ، قال له : لبيك يا أمير المؤمنين، قال : والله ما أبقى شيئاً من شكل الخلافة، وهذا الذى بين يديه كأنه أنت ياجعفر لا محالة والخادم الذى على رأسه كأنه مسرور هذا ، وهؤلاء الندماء كأنهم ندمائى، وقد حار عقلى فى هذا الأمر ، فقال له الوزير : وأنا والله يا أمير المؤمنين كذلك ، ثم تقدمت الحراقة إلى أن غابت عن العين ، فعند ذلك خرج الشيخ بالشختور الذى فيه الجماعة من تحت القبوة[1]، وقال : الحمد لله على السلامة الذى لم يصادفنا ، فقال له الخليفة : ياشيخ وهذا الخليفة ينزل كل ليلة فى الدجلة ؟ قال : نعم ياسيدى، له على هذه الحالة سنة كاملة ، فقال له الخليفة : ياشيخ نشتهى من فضلك وإحسانك أن تقف لنا ليلة غد فى هذا المكان ، ونحن نعطيك خمسة دنانير ، فإنا قوم غرباء ، وقصدنا التنزة ، ونحن نازلون فى الفندق[2]، فقال الشيخ : السمع والطاعة .

ثم إن الخليفة وجعفراً و مسرورا توجهوا من عند الشيخ المراكبى إلى القصر ، وقلعوا ما عليهم من لبس التجار ولبسوا ثياب الملك والافتخار ، وجلس كل واحد فى مرتبته ، ودخلت الأمراء والحجاب والنواب وانعقد المجلس بالناس ، ولما انقضى النهار وتفرقت الأجناد؛ قال الخليفة هارون الرشيد لوزيره : ياجعفر انهض بنا للفرجة على الخليفة الثانى ، فضحك

---

(١) القبو : البناء على هيئة القبة .

(٢) الفندق : المكان المعد لنزول المسافرين .

جعفر ومسرور ولبسوا لبس التجار وخرجوا منشرحي الصدور ، وكان خروجهم من باب السر ؛ فلما وصلوا إلى الدجلة وجدوا الشيخ صاحب الشختور لهم في الانتظار ، فنزلوا عنده في المركب ، فلما استقروا مع الشيخ المراكبي ، وإذا بالخليفة الثاني في الحراقة وقد أقبلت عليهم فتأملوها وإذا فيها مائتا مملوك غير المماليك الأول ، والمشاعلية تنادى على عادتهم.

فقال الخليفة : ياوزير هذا شيء لو سمعت به ماصدقت ، ولكن رأيت هذا عيانا ، ثم إن الخليفة قال لصاحب الشختور : ياشيخ هذه عشرة دنانير فسر بنا في مساواتهم ، فإنهم في النور ونحن في الظلام ننظرهم ونتفرج عليهم وهم لا ينظروننا، فأخذ الشيخ العشر دنانير وأطلق الشختور في مساواتهم وصار في ظلام الحراقة ولم يزالوا سائرين في أثرهم إلى آخر البساتين ، وإذا بزربية[1] بطول الحراقة التصقت عليها، وإذا بغلامين واقفين ومعهما بغله مسرجة ملجمة ، فطلع الخليفة الثاني وركب البغلة وسار بين الندماء وزعقت المشاعلية والحاويشية ، واشتالت الغاشية . وطلع هارون الرشيد وجعفر ومسرور إلى البر وشقوا بين المماليك وسارو اقدامهم فلاحت من المشاعلية التفاتة فرأو الثلاثة أنفار لبسهم لبس التجار وهم غرباء ، فانكروهم وغمزوا عليهم فمسكوهم وأحضروهم بين يدى الخليفة الثاني ، فلما نظرهم قال : كيف وصلتم إلى هذا المكان وما الذى جاء بكم في مثل هذا الوقت ؟ قالوا : يامولانا اليوم كان قدومنا ونحن قوم

---

(١) زَرْبِيَّة : مابسط واتكيء عليه .

غرباء تجار وخرجنا نتمشى الليلة وإذا بكم قد أقبلتم ، وجاءوا هؤلاء وقبضواعلينا وأوقفونا بين أيديكم ، وهذا خبرنا ، فقال لهم الخليفة الثانى : طيبوا قلوبكم فلا بأس لأنكم قوم غرباء ولوكنتم من بغداد لضربت أعناقكم للمخالفة، ثم التفت إلى وزيره وقال : خذ هؤلاء صحبتك ليكونوا ضيوفنا الليلة ، فقال: سمعا وطاعة .

ثم ساروا إلى أن وصلوا إلى قصر عظيم الشأن محكم البنيان ماحواه سلطان قصر قام من التراب وتعلق بأكناف السحاب ، بابه من خشب الساج[1] مرصع بالذهب الوهاج ، يدخل منه إلى إيوان بفسقية وشاذروان وحصر عبدانية ، ومخدات إسكندرانية ، وستر مسبول ، وفرش تذهل العقول وعلى عتبة الباب مكتوب هذان البيتان :

قصر عليه تحية وسلام ... نشرت عليه جمالها الأيام
فيه العجائب والغرائب نوعت ... فتحيرت فى نعتها الأقلام

قال : فدخل الخليفة الثانى إلى القصر والجماعة فى خدمته إلى أن جلس على كرسى من الذهب مرصع بالدر والجواهر ، وعلى الكرسى بشخانة من الحرير الأخضر لا يرى مثلها إلا عند كسرى وقيصر مزركشة بالذهب الأحمر معلقة فى بكرة من الصندل رباطاتها من الحرير الأصفر ، هذا وقد جلس الندماء فى مراتبهم وصاحب سيف النقمة واقف بين يديه

---

(١) خشب السّاج : من شجر مهده أندونيسيا ، وهو جميل المنظر وأحد أجواد الأخشاب الصلبة المعروفة .

فمدوا السماط[١] وأكلوا ورفعوا الخوان[٢] ، ولأيديهم غسلوا ، وأحضرت آلة المدام ووضعت الطاسات والأواني وصفت الأباريق والكاسات والقناني، ودار الدور إلى أن وصل إلى الخليفة هارون الرشيد فامتنع من الشراب ، فقال الخليفة الثاني : لجعفر مابال صاحبك لايشرب ، فقال : يامولاي له مدة ماشرب فقال الشاب : عندي مشروب غير هذا يصلح لصاحبك ، علي بشراب التفاح ففي الحال أحضر فقدم بين يدي هارون الرشيد ، وقال : كلما وصل إليك الدور فاشرب من هذا ، ولازالوا يشربون في انشراح وتعاطي أقداح إلى أن تمكن الشراب من رؤسهم واستولى على عقولهم ونفوسهم .

فقال الرشيد لوزيره : والله ياوزير ماعندنا آنية مثل هذه الآنية فياليت شعري من يكون هذا الشاب ! فبينما هما يتحدثان بلطافة إذ لاحت من الشاب إلتفاتة فوجد الوزير يسارر الخليفة ، فقال : المساررة عربدة ، فقال الوزير : ما ثم عربدة إلا أن رفيقي هذا يقول : سافرت غالب البلاد ونادمت الملوك وعاشرت الأجناد فما رأيت أحسن من هذا النظام ولامثل آنية هذا المدام إلا أن أهل بغداد يقولون : الشراب بلا سماع من جملة المجون .

فلما سمع الخليفة الثاني تبسم وانشرح وكان بيده قضيب ، فضرب به على مدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم يحمل كرسيا من العاج

---

(١) السماط : مايبسط ليوضع على الخوان .

(٢) الخوان : مايوضع عليه الطعام .

مصفحا بالذهب الوهاج ، وخلفه جارية قد كملت بالحسن والجمال والبهاء والكمال فنصب الخادم الكرسى وجلست عليه الجارية وهى كالشمس الضاحية ، وبيدها عود من صنعة الهنود ، وشدته وحنت إليه بعد أن ضربت أربعة وعشرين طريقة عليه فأذهلت العقول وعادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

لسان الهوى من مقلتى لك ناطق   يخبر عنى أننى لك عاشق
ولى شاهد من طرف قلبى معذب   وقلبى جريح من فراقك خافق
وكم أكتم الحب الذى قد أذابنى   وقلبى قريح والدموع سوابق
وماكنت أدرى قبل حبك ما الهوى   ولكن قضا الرحمن فى الخلق سابق

قال : فلما سمع الخليفة الثانى هذا الشعر من الجارية ، صرخ صرخة عظيمة وشق البدلة التى كانت عليه إلى الذيل ، فأسبلت البشخانة ، وأتى ببدلة غيرها أحسن منها فلبسها وجلس على عادته ؛ فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة وإذا بباب قد فتح وخرج منه خادم حامل كرسيا من ذهب وخلفه جارية أحسن من الأولى ، وجلست على الكرسى، وبيدها عود يكمد الحسود ، وأنشدت تقول :

كيف اصطبارى ونار العشق فى كبدى   والدمع من مقلتى طوفانه مدد
والله ماطاب لى عيش أسر به   وكيف يفرح قلب حشوه كمد

قال : فصرخ الشاب صرخة عظيمة ، وشق ما عليه إلى الذيل وأسبلت عليه البشخانة على العادة وأتى ببدلة غيرها أحسن منها ، فلبسها واستوى جالسا ، ودار المدام ، وانبسط الكلام ، فلما وصل القدح إليه ضرب القضيب على المدورة ، ففتح الباب ، وخرج منه خادم على العادة ،

ومعه كرسى وخلفه جارية ، فجلست على الكرسى ومعها عود يذهل الأسود ، فغنت ، وأنشدت تقول :

أقصروا هجركم وقلوا جفاكم ففؤادى وحقكم ماسلاكم
وارحموا مدنفا كئيباً حزينا ذا غرام متيما فى هواكم
قد براه السقام من عظم وجد يتمنى من الإله رضاكم
يا بدور محلكم فى فؤادى كيف أختار فى الأنام سواكم

قال : فصرخ الشاب ، وشق ماعليه من الثياب ، فأرخو عليه البشخانة، وأتوا ببدلة غيرها ، وعاد إلى حالته مع ندمائه ، ودارت الأقداح وطاب الانشراح ؛ فلما وصل القداح إليه ضرب القضيب على المدورة ، ففتح باب وخرج منه خادم حامل كرسيا ، وخلفه جارية فجلست على الكرسى وأخذت العود وغنت تقول :

ترى ينصرم حال التهاجر والقلى ويرجع ما قد انقضى لى أولا
أيام كنا والديار تلمنا فى طيب عيش والحواسد غفلا
غدر الزمان بنا وفرق شملنا من بعد هاتيك المنازل والحلا
أتروم منى يا عذولى سلوة وأرى بقلبى مايطيع العذلا(١)
فدع الملام وخلنى بصبابتى القلب من أنس المحبة ماخلا
ياسادة نقضوا العهود وبدلوا لاتحسبوا قلبى لبعد كموسلا

قال : فلما فرغت الجارية صرخ الشاب صرخة عظيمة وشق ما عليه من الثياب ووقع إلى الأرض مغشيا عليه ، وسقط منه القوى والحيل ،

---

(١) أتروم : أتريد .

فأرادوا أن يرخوا عليه البشخانة على العادة فتعوقت حبالها بالإرادة ، فلاحت من هارون الرشيد إلتفاتة فنظر على أجناب الشاب أثر مقارع ، فقال الرشيد : بعد النظر والتأكيد لجعفر إنه شاب مليح إلا إنه لص قبيح ، وماعند أحد منه خبر هل رأيت ما على جنبيه من الأثر . وقد أسبلت البشخانة عليه على العادة، وأتى ببدلة غيرها ، فلبسها وقد أفاق من غشيته فاستوى جالسا على العادة مع الندماء فحانت منه إلتفاتة فوجد جعفرا والخليفة يتحدثان ، فقال لهما : ما الخبر يافتيان ؟ فقال جعفر : يامولاى خير لاشك ولاخفاء ، إن رفيقى هذا من التجار الكبار ، وسافر جميع الأمصار ، وصحب الملوك والأخيار ، وقال : إن الذى حصل من مولانا الخليفة فى هذه الليلة إسراف عظيم لم أر أحدا فعل هذا الفعل فى هذه الأقاليم ، لأنه شق كل بدلة بخمسمائة دينار وهذا شيء زائد فى العيار . فقال الشاب : ياهذا المال مالى والقماش قماشى وهذا من بعض إنعامى على الخدم والحواشى ، فإن كل بدلة شققتها هى لواحد من الندماء الحضار وقد رسمت لهم أن العوض على كل بدلة خمسمائة دينار فأنشد عند ذلك الوزير جعفر ، وقال :

بنت المكارم وسط كفك منزلا فجميع مالك للأنام مباح
وإذا المكارم أغلقت أبوابها يوما فأنت لقفلها مفتاح

قال : لما سمع الشاب من الوزير جعفر ذلك رسم له بألف دينار وبدلة، ثم دارت بينهم الأقداح وطاب لهم شراب الراح ، فقال الرشيد : ياجعفر اسأله عن الضرب الذى رأيناه على جنبيه حتى ننظر مايقول فى جوابه ، فقال الوزير : يامولاى لاتعجل وترفق بنفسك فالصبر أجمل ، فقال: وحياة رأسى وتربة العباس ، إن لم تسأله أخمدت منك الأنفاس ،

فعند ذلك إلتفت الشاب إلى الوزير ، وقال : مالك مع رفيقك وما الخبر ؟ فقال : خير يامولانا، فقال : سألتك بالله إلا أخبرتني بخبره ولاتكتم عني شيئاً من أمره فقال : يامولاى إنه أبصر على جنبيك أثر سياط ، فتعجب من ذلك غاية العجب ، وقال : يالله العجب الخليفة يضرب وقصده يعلم ماالسبب ! فلما سمع الشاب هذا الكلام تبسم وقال : اللهم فنعم اعلموا أن حديثى عجيب وأمرى غريب لو كتب بالأبر على آماق البصر لكان عبرة لمن اعتبر ثم تأوه وأنَّ واشتكى وبكى وأنشد :

حديثى عجيب حاز كل العجائب — وحق إله قد عرف بالمواهب
فان شئتموا أن تسمعوا لى فانصتوا — ويطرب هذا الجمع من كل جانب
واصغوا إلى قولى ففيه إشارة — وإن كلامى صادق غير كاذب
لانى قتيل من غرام ولوعة — وقاتلتى فاقت جميع الكواعب
لها مقلة كحلا وخد مورد — ويقتلنى منها قسى الحواجب
وقد حس قلبى أن فيكم إمامنا — خليفة هذا الوقت ابن الأطايب
وثانيكمو يدعى الوزير بجعفر — حقيقة يدعى صاحبا وابن صاحب
وثالثكم مسرور سياف نقمة — فإن كان هذا القول حقا بصائب
فقد نلت ماأرجو على كل حالة — وجاء سرور القلب من كل جانب

قال : فعند ذلك حلف له جعفر أنهم لم يكونوا المذكورين ، فضحك الشاب وقال : الذى أعرفكم به أنى ما أنا أمير المؤمنين ، وإنما سميت نفسى بهذا الاسم لأبلغ ما أريد من أبناء المدينة واسمى : على بن محمد الجوهرى ، وإن أبى كان من الأعيان ومات وخلف لى أموالا لاتأكلها النيران من ذهب، وفضة ، ولؤلؤ ، ومرجان ، وياقوت ، وجوهر ،

وزمرد ، وبهرمان ، وحمامات ، وغيطان ، وبساتين ، وفنادق، وطواحين ، وعبيد ، وجوار ، وغلمان .

فلما كان في بعض الأيام ، وأنا جالس في حانوتي وحولي الحشم والخدم ، وإذا أنا بجارية قد أقبلت على بغلة وفي خدمتها ثلاث جوار كأنهن الأقمار ، ونزلت على دكاني وجلست ، وقالت : أنت على بن محمد الجوهري ؟ فقلت لها : مملوك وعبد رقك ، فقالت : هل عندك عقد جوهر يصلح لمثلي ، فقلت : ياستي الذي عندي يحضر بين يديك فإن أعجبك شيء كان بسعد المملوك ، وإن لم يعجبك شيء منه فبسوء حظي ، وكان عندي مائة عقد جوهر فعرضت عليها الجميع فلم يعجبها شيء منها ، وقالت : أريد أحسن مما رأيت . وكان عندي عقد صغير شراؤه على والدى بمائة ألف دينار لم يوجد مثله عند أحد السلاطين الكبار، فقلت : ياسيدتي عندي عقد الفصوص والجواهر الذي لم يملكه أحد من الأصاغر والأكابر ، فقالت : أرني إياه ؛ فلما رأته قالت : هذا الذي طول عمري أتمناه ، ثم قالت : بكم ثمنه في الأسعار ؟

فقلت : شراؤه على والدى بمائة ألف دينار . فقالت : ولك خمسة آلاف زائدة ، فقلت لها : ياسيدتي العقد وصاحبه في الرق بين يديك ولاخلاف ، فقالت : لابد من الفائدة ولك الجميلة الزائدة ، وقامت عجلة، وركبت البغلة بسرعة وقالت : ياسيدى نور الدين باسم الله تكن صحبتنا لنأخذ الثمن ، فإن نهارك اليوم بنا مثل اللبن ، فقمت وقفلت الدكان وسرت معهن في أمان إلى أن وصلنا الدار فوجدتها دارا عليها السعادة لائحة والافتخار وعلى بابها مكتوب بالذهب واللازورد العجيب هذه الأبيات :

ألا يـــادار لايدخلـــك حـــــزن ولايغـــدر بصــــاحبك الزمــــان
فنعـم الـدار أنـت لكـل ضيــف إذا مـاضـاق بالضيـف المكــان

فنزلت الجارية ودخلت الدار وأمرت بجلوسى إلى أن يأتى الصيرفى ، فجلست على باب الدار ساعة لطيفة ، وإذا بجارية خرجت إلى : وقـالت : ياسيدى ادخل إلى الدهلـيز فـإن جلوسـك على البـاب قبيـح ، فقمـت إلـى الدهليز وجلست علـى الدكـة سـاعة، وإذا بجاريـة خرجـت إلـى وقـالت : ياسيدى تقول لك سيدتى : أدخل واجلس على جانب الإيوان حتـى تقبـض مالك ، فقمت فدخلت وجلست حيث أمرتنى ، وإذا بكرســى مـن الذهـب وعليه ستارة من الحرير الأحمر ، وإذا بتلـك السـتارة قـد رفعـت فبـان مـن تحتها الجارية التى اشترت منى العقد ، وقد أسفرت عـن وجـه كأنـه دائـرة القمر والعقد فى عنقها فاندهش عقلى وحار ذهنى ولبـى[1] مـن رؤيـة تلـك الجارية وحسنها .

فلما رأتنى قامت من على الكرسى وسعت نحوى ، وقـالت : يـانور الدين هل رأيت جميلة مثلى ؟ فقلت : ياسيدتى الحسن كله فيك وهـو مـن بعض معانيك ، فقالت : يـاعلى اعلـم أنـى أحبـك ومـاصدقت بـك إلا لمـا صرت عندى ، ثم إنها طوقت على وعانقتها ، فقبلتها وقبلتنى ، ثم جذبتنـى وعلى صدرها رمتنى ؛ فلما علمـت منـى أنـى أريـد أن أهـم بهـا ، قـالت : ياعلى أتريد أن تجتمع بى فى الحرام ، والله لا كان من يفعل الآثام ويرضى بقبيح الكلام، فإنى بكر عذراء ما دنا منى أحد ولسـت مجهولـة فـى البلـد، تعلم من أنا ؟ فقلت : لا والله وحلفت لها يمينا ، فقالت : أنـا السـت دنيـا

---

(١) لبى الذهن : توقف وتردد من شدة الدهشة

بنت يحيى بن خالد البرمكى ، وأخى جعفر ؛ فلما سمعت منها ذلك جمعت خاطرى عنها ، وقلت : ياسيدتى مالى ذنب فى التهجم عليك أنت التي أطمعتينى فى إحسانك والوصول إلى جنابك ، فقالت : لابأس عليك ولابد من الإحسان إليك ، فإن أمرى بيدى والقاضى ولى عقدى ، والقصد أن أكون لك وتكون لى ، ثم إنها دعت بالقاضى والشهود وبذلت المجهود .

فلما حضروا قالت لهم : هذا نور الدين على بن الجوهرى قد طلب زواجى ، ودفع لى هذا العقد مهرى ، وأنا قد قبلت ورضيت ، ثم إن القاضى حمد الله تعالى وأثنى عليه ، وكتب الكتاب ، فدخلت عليها بعد أن أعطت للقاضى شيئا ماله حساب ، وأحضرت المدام وأحضرت الأقداح بأحسن نظام ؛ فلما شعشعت الخمرة فى رؤسنا ، أمرت جارية عودية أن تغنى فأنشات تقول:

قلبى وآمالى بباب رحاكمو	لاأبتغى فى الكون غير رضاكمو
ياجيرة جاروا علىَّ ببعدهم	حنوا علينا وارحموا مضناكمو
حاشاكمو ياسادتى حاشاكمو	صبا معنى مغرما بهواكمو
بالله جودوا وارحموا لمتيم	لايستمع فيكم حديث سواكمو
مرسى اشتياقى فوق طول رضاكمو	فإذا شجاه حسنكم ناجاكمو

قال : فأطربتنا الجارية بحسن غنائها ولم تزل الجوارى يغنين جارية بعد جارية وينشدن الأشعار إلى أن غنت عشر جوار ، فعند ذلك أخذت العود الست دنيا وأنشدت تقول :

أقســم بليــن قوامــك الميَّــاس إنى لنـار الهجـر منـك أقاسـى[1]
فـارحم لصـب فى هـواك متيـم يـابدر تـم أنـت خـير النــاس
أنعـم بوصلـك كـم أبيـت بليلـة احلـو حمـالك فـى ضيـاء الكـاس
مــابين ورد جمعــت ألوانــه مـع نرجس أيضا وحسن الآس[2]

قال الشاب : ثم إني أخذت منها العـود وضربت عليه وغنيت هـذه الأبيات :

سبحان رب جميع الحسن أعطاك حتى بقيت أنـا مـن بعض أسـراك
يـامن لهـا نـاظر تسبى الأنـام بـه خذى الأمان لنا مـن سحر عينـاك
فالماء والنار فى خديك قد جمعـا والورد جورى نبت وسـط خـداك
أنـت الغـرام لقلبـى والنعيـم لـه فمـا أمـرك فـى قلبـى وأحـلاك

قال : فلما سمعت منى ماقلت فرحت فرحا شديدا ، ثم إنها صرفت الجوارى وقمنا إلى أحسن مكان قد فرش لنا فيه من سـائر الألـوان ونزعت ماعليها من الثياب ، وخلوت بها خلوة الأحباب فوجدتهـا بنتـا بكـرا بختم ربها ففرحت بى وفرحت بها فرحا لم أجد فى عمرى ليلة أطيب منها وفيها أنشدت أقول

يـا ليـل دم لـى لاأريـد صباحـا يكفـى بوجـه معـانقى مصباحـا
طوقتـه طـوق الحمـام بسـاعدى وجعلـت كفـى للمنـام مباحـا
هـذا هـو الفـوز العظيـم فمن لنـا متعـانقين فـلا نريـد براحـا

---

(١) الميَّاس من تميس الرجل : مشى وهو يتبختر ويتمايل كالأسد .
(٢) حسن الأس : حسن الأصل .

فأقمت عندها شهرا كاملا ، وقد نسيت الدكان والأهل والأوطان إلى ذات يوم من الأيام ، قالت : يانور الدين قد عزمت اليوم على المسير إلى الحمام وأنت اقعد على هذا السرير إلى أن أرجع إليك ، فقلت : سمعا وطاعة وحلفتنى أنى لاأنتقل من موضعى .فأخذت جواريها وذهبت إلى الحمام ، فوالله يا إخوانى ما لحقت تخرج من رأس الزقاق وإلا والباب قد فتح ودخلت منه عجوز وأى عجوز ، وقالت : يانور الدين الست زبيدة[1] تدعوك ، فقد سمعت بشبابك وطيب غنائك ، فقلت : والله على يمين أننى ما أقوم من مقامى حتى تأتى الست دنيا ، فقالت العجوز : يانور الدين لاتخل الست زبيدة تصير عدوتك : فقم كلمها وارجع فقمت من وقتى إليها والعجوز أمامى إلى أن أوصلتنى إلى الست زبيدة ؛ فلما وصلت إليها قالت : يانور الدين أنت معشوق الست دنيا ، فقلت : مملوكك وعبد رقك ، فقالت: صدق الذى وصفك بالحسن والجمال ، فإنك فوق الوصف والمقال ولكن غن لى شيئا حتى أسمعك ، فقلت : السمع والطاعة، فأتتنى بعود فغنيت عليه وأنشدت أقول :

قلب المحب مع الأحباب متعوب ... وجسمه بيد الأسقام منهوب
مافى الركائب من ذمت حمولهم ... إلا وكان له فى الظعن محبوب
أستودع الله لى فى حيكم قمرا ... يهواه قلبى وعن عينى محجوب
يرضى ويغضب ما أحلى تَدَلُّله ... وكل مايفعل المحبوب محبوب

(١) زبيدة بنت جعفر : زوجة هارون الرشيد ، وابنة عمه وأم الخليفة الأمين .سيدة جليلة اشتهرت بإحسانها توفيت فى بغداد .وعطفها على الأدباء ، والشعراء ، ومن ذوات العقل والرأى والفصاحة ، ت[٢١٦هـ-٨٣١م]. انظر : أعلام النساء (١٧/٢).

فقالت لى : حفظ الله بدنك وطيب أنفاسك ، فلقد كملت فى الحسن والظرف والمعنى ، فقم إلى مكانك قبل أن تجىء إليه الست دنيا فلم تجدك فتغضب عليك ، فقبلت الأرض وخرجت العجوز أمامى إلى أن وصلتنى إلى الباب الذى خرجت منه .

فدخلت وجئت إلى السرير لأجلس ، فوجدتها جاءت من الحمام ونامت على السرير ، فقعدت عند رجليها وصرت أكبسها[1] ففتحت عينيها فرأتنى فجمعت رجليها ورفستنى فرمتنى من على السرير ، وقالت : يانور الدين خنت اليمين وكذبت وذهبت إلى الست زبيدة ووالله لولا خوفى من الهتيكة والفضيحة لخربت قصرها على رأسها ، ثم قالت لعبدها: يا صواب قم اضرب رقبة هذا النذل الكذاب فلا حاجة لنا به ، فتقدم ذلك الخادم إلى وشرط ذيلى وعصب عينى ، وأراد أن يضرب رقبتى فقامت إليها الجوارى الكبار والصغار ، وقلن لها : ياستاه ماهو بأول من أخطأ وماعرف خلقك وأنت ما تبغضينه وما فعل ذنبا يوجب أن تقتليه ، فقالت : والله لابد أن أوثر فيه أثراً ، ثم إنها أمرت بضربى فضربت على أضلاعى الضرب الذى رأيتموه وأمرت بإخراجى فأخرجونى وأبعدونى عن القصر ورمونى ، ورجعوا وتركونى فلممت نفسى فمشيت قليلا إلى أن وصلت إلى منزلى وأحضرت جراحا وأريته الضرب ، فلاطفنى وسعى فى مصالحى؛ فلما صح جسمى دخلت الحمام وزالت عنى الأوجاع والأسقام وجئت إلى الدكان وأخذت جميع مافيها وبعته وجمعت ثمنه ، واشتريت أربعمائة مملوك ماجمعهم أحد من الملوك يركب معى فى كل يوم مائتان وعملت

---

(١) كَبَس الشىء : شده وضغط عليه .

هذه المركب الحراقة بألف ومائتين من الذهب العين ، وسميت نفسى بالخليفة ورتبت من معى من الخدام كل واحد فى وظيفته ، وناديت كل من تفرج في الدجلة ضربت عنقه بلا مهلة ولى على هذه الحالة سنة كاملة ولم أسمع لها بخبر ولا وقفت لها على أثر ، ثم إنه بكى وأنَّ واشتكى وأنشد يقول :

والله ما كنت طول الدهر ناسيها ... ولا دنوت إلى من ليس يدنيها
كأنها البدر فى تكوين خلقتها ... سبحان خالقها سبحان باريها
صدت ولاذنب لى إلا محبتها ... فكيف حال الذى قد بات ناعيها
وصيرتنى حزينا ساهيا دنفا ... والقلب قد حار منى فى معانيها

قال : فلما سمع هارون الرشيد كلام الشاب وما أبداه من الخطاب ، تعجب غاية العجب ، وقال : سبحان من جعل لكل شيء سببا ، ثم إنهم طلبوا من الشاب الانصراف وأضمر الرشيد للشاب الإنصاف وأن يتحفه غاية الإتحاف ، فانصرفوا من عنده سائرين وإلى قصر الخلافة طالبين .

ولما استقر بهم فى المنزل الحلوس غيروا ماكان عليهم من الملبوس ولبسوا أثواب الموكب والملك والزينة وكذلك مسرور سياف النقمة والعطب. فقال الخليفة لجعفر المهاب : ياوزير على بالشاب فخرج إليه فى الحشم والخدم وسار إلى منزل الشاب ، فخرج إليه وسلم عليه فقال له الوزير جعفر : أجب أمير المؤمنين ، فقال : سمعا وطاعة لأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين ، فسار معه إلى القصر وهو من الترسيم[1] عليه فى

(١) الترسيم : حسن المشى .

حصر ؛ فلما دخل إلى الخليفة ، ورفع الوزير الستر عن السدة الشريفة ، ورأى الشاب الخليفة عرفه فقبل الأرض بين يديه ودعا له بدوام العز وأثنى عليه ، وقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين وحامى حوزة الدين وقامع المفسدين وإمام المتقين هناك الله بما أعطاك ، وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعداك وأنشد يقول :

لازال بابك كعبة مقصودة ... وترابها فوق الجباه رسوم
حتى ينادى فى البلاد بأسرها ... هذا المقام وأنت إبراهيم

فعند ذلك : تبسم الخليفة فى وجهه ورد عليه السلام وأظهر له الإحسان والإكرام ، وقربه إليه ، وأجلسه بين يديه وقال له : يا نور الدين أريد أن تحدثنى بحديثك الليلة يا مسكين ، فإنه من أعجب الأمور ، فقال الشاب : العفو يا أمير المؤمنين أعطنى منديل الأمان ليهدأ روعى ويطمئن قلبى ، فقال الخليفة : لك الأمان ، فشرع الشاب يتحدث بالذى جرى له من أوله إلى آخره ، فعلم الخليفة من غير إطالة أن الصبى عاشق لا محالة فقال الخليفة : أتحب أن أردها إليك يا مسكين ؟ قال : نعم ياأمير المؤمنين ثم أنشد :

إن رمت إحسانا فهذا وقته ... أو رمت معروفا فهذا حينه

فعند ذلك التفت الرشيد إلى الوزير وقال له : احضر أختك الست دنيا بنت الوزير يحيى ، فقال له : السمع والطاعة فأحضرها فى الوقت ، فلما مثلت بين يديه قال لها : أتعرفين هذا من ؟ فقالت : أين للنساء معرفة بالرجال ، فتبسم وقال : يا دنيا قد عرفنا الحال وسمعنا الحكاية من أولها إلى آخرها ، وفهمنا باطنها وظاهرها ، والأمر لايخفى وإن كان مستورا ،

فقالت: كان ذلك فى الكتاب مسطورا وأنا أستغفر الله مما جرى وأسأل من فيض الفضل العفو عنى ؛ فضحك الخليفة ، وأحضر القاضى والشهود وعقد له ثانيا عليها وحصل له سعد السعود وأكمد العدو والحسود وجعله نديمه وزاد تكريمه وعاش بقية عمره فى أهنأ عيش ونعمة ، يجالس الخليفة فى الليل، والنهار تؤانسه الست دنيا ذات الفخار وهذا ما انتهى إلينا من التلخيص والله أعلم.

[٨٢] **ويحكى** : أن جعفر البرمكى نادم الرشيد ليلة ، فقال : ياجعفر بلغنى أنك اشتريت الجارية الفلانية ولى مدة أتطلبها ؛ فإنها بديعة الجمال ولى شوق زائد إليها فبعنيها ، قال : ليس على فيها بيع ، قال : هبنيها ، قال : ولا أهبها ، فقال : الرشيد زبيدة طالق منى ثلاثا إن لم تبعنيها أو تهبنيها ، وقال جعفر : زوجتى طالق منى ثلاثا إن بعتها أو وهبتها، ثم أفاقا من نشوتهما وعلما أنهما وقعا فى أمر عظيم وعجزا عن تدبير الحيلة .

فقال الرشيد : هذه واقعة ليس لها غير أبى يوسف[1] ، فاطلبوه وكان قد انتصف الليل ؛ فلما طلب قام فزعا ، وقال : ما طلبت فى هذا الوقت إلا لأمر حدث فى الإسلام ، ثم خرج مسرعا وركب بغلته ، وقال لغلامه : أصحب معك المخلاة واجعل فيها بعض شعير ، فإذا دخلنا دار الخلافة ودخلت فضع بين يدى الدابة شيئاً منه تشتغل به إلى حين خروجى ، فإنها لم تستوف علفها فى هذا الليلة ، قال : سمعا وطاعة .

---

(١) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب ، أبو يوسف : صاحب أبى حنيفة . كان قاضيا ، فقيها، عالما، حافظا ، ت[١٨٢هـ=٧٩٨م]. انظر : الإنتقاء (١٧٢) .

فلما دخل على الرشيد قام له وأجلسه على سريره بجانبه وكان لا يجلس معه غيره ، وقال له : ما طلبناك إلا لأمر مهم ، وهو كذا وكذا وقد عجزنا عن تدبير الحيلة؛ فقال : يا أمير المؤمنين هذا من أسهل مايكون ، ياجعفر بع أمير المؤمنين نصفها وهبه نصفها تبرأ من يمينكما ، فسر بذلك أمير المؤمنين وفعلا ، فقال الرشيد : أحضر الجارية فى هذا الوقت فإنى شديد الشوق إليها فأحضرت فقال للقاضى أبى يوسف : أريد وطأها فى هذا الوقت ولا أطيق الصبر إلى مضى مدة الاستبراء ، فانظر لى الحيلة فى ذلك ، فقال أبو يوسف : إئتونى بمملوك من مماليك أمير المؤمنين الذين لم يجر عليهم العتق ، فأحضر مملوك ، فقال أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ائذن لى أن أزوجها منه ثم يطلقها قبل الدخول فيحل وطؤ ها فى الحال من غير استبراء، فأعجب الرشيد ذلك أكثر من الأول ، فقال : أذنت لك ، فأوجب القاضى النكاح ثم قبله المملوك ، فقال له القاضى : طلقها ، فقال له : هذه صارت لى زوجة ، وأنا لا أطلقها فردد عليه القول فأبى وضاق صدر الخليفة لذلك ، وقال : قد اشتد الأمر أعظم مما كان .

فقال القاضى أبو يوسف : يا أمير المؤمنين رغبه بالمال ، فقال : طلقها ولك مائة دينار، قال : لا أفعل ، قال : مائتا دينار ، قال : لاأفعل ، إلى أن عرضوا عليه ألف دينار ، وهو يمتنع ، وقال للقاضى : الطلاق بيدى أم بيد أمير المؤمنين أم بيدك ؟ قال : بل بيدك أنت ، قال : والله لاأفعل أبدا فاشتد غضب أمير المؤمنين ، فقال القاضى : يا أمير المؤمنين لا تجزع فإن الأمر هين أعتق الجارية ، ثم ملك هذا العبد للجارية ، قال : أعتقتها وملكته لها ، فقال لها القاضى : قولى قبلت ، فقالت : قبلت ، فقال القاضى : حكمت بالتفريق بينكما لأنه دخل فى ملكها فانفسخ النكاح ، فقام أمير

المؤمنين على قدميه ، وقال : مثلك من يكون قاضيا فى زمانى ، واستدعى بأطباق الذهب فأفرغت بين يديه ، وقال للقاضى : هل معك شىء توعيه فتذكرمخلاة البغلة، فاستدعى بها فملئت له ذهبا فأخذها وانصرف .

فلما أصبح قال : لخلانه انظروا إلى من تعلم العلم فليتعلمه هكذا ، فإنى أعطيت هذا المال العظيم فى مسألتين أو ثلاث .

فانظر أيها المتأدب إلى لطف هذه الواقعة فإنها اشتملت على محاسن منها دلال الوزير على قلب أمير المؤمنين ، وحلم الخليفة ، وزيادة علم القاضى ؛ فرحم الله أرواحهم أجمعين ، ولكن مسألة الإستبراء لم تتخرج إلا على مذهب أبى حنيفة فخرجها أبو يوسف على قواعد مذهبه لأنه حنفى المذهب ، والله أعلم ، انتهىمن حلبة الكميت .

[٨٣] ومن كلام إبراهيم الموصلى رحمه الله تعالى :

هجرتك حتى قيل لايعرف الهوى ... وزرتك حتى قيل ليس له صبر
فيا هجر ليلى قد بلغت بى المدى ... وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
ويا حبها زدنى جوى كل ليلة ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر
وإنى لتعرونى لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر

[٨٤] ومن الحكايات اللطيفة : أن بعض الملوك قصد التفرج على المجانين ؛ فلما دخل عليهم رأى فيهم شابا حسن الهيئة نظيف الصورة يرى عليه آثار اللطف ، وتفوح منه شمائل الفطنة فدنا منه ، وسأله مسائل فأجابه عن جميعها بأحسن جواب فتعجب منه عجبا شديدا ، ثم إن المجنون قال : للملك قد سألتنى عن أشياء فأجبتك ، وإنى سائلك سؤالا واحدا ، قال : وماهو ؟ قال : متى يجد النائم لذة النوم ؟ ففكر الملك

ساعة ، ثم قال : يجد لذة النوم حال نومه ، فقال المجنون : حالة النوم ليس له إحساس، فقال الملك: قبل الدخول فى النوم ، فقال المجنون : كيف توجد لذته قبل وجوده ، فقال الملك : بعد النوم ، فقال المجنون : أتوجد لذته وقد انقضى ، فتحير الملك وزاد إعجابه ، وقال لعمرى : إن هذا لايحصل من عقلاء كثير ، فأولى أن يكون نديمى فى مثل هذا اليوم ، وأمر أن ينصب له تخت بإزاء شباك المجنون ، ثم استدعى بالشراب فحضر فتناول الكاس وشرب ، ثم ناول المجنون فقال : أيها الملك أنت شربت هذا لتصير مثلى ، فأنا أشربه لأصير مثل من ؟! فاتعظ الملك بكلامه ورمى القدح من يده ، وتاب من ساعته ، والله أعلم .وهذه الحكاية لها بقية أعرضنا عنها وهذه على سبيل الاختصار أيضا .

[٨٥] **حُكى والله أعلم بغيبه وأحكم** : أن الرشيد أرق ذات ليلة أرقا شديدا ، فاستدعى جعفرا وقال : أريد منك أن تزيل ما بقلبى من الضجر ، فقال الوزير: يا أمير المؤمنين كيف يكون على قلبك ضجر ، وقد خلق الله أشياء كثيرة تزيل الهم عن المهموم والغم عن المغموم وأنت قادر عليها ، فقال الرشيد : وماهى ياجعفر ؟ فقال له : قم بنا الآن حتى نطلع فوق سطح هذا القصر ، ونتفرج على النجوم واشتباكها وارتفاعها ، والقمر وحسن طلعته لأنه وجه من تحب كما قيل :

كأنما حسن السماء وزرقتها قد رقمت فيها أفانين الصور
فكأنما البدر حين لاح لنا فى بعض ليل من غلاف قد ظهر

فقال الرشيد : ياجعفر ماتلتفت نفسى إلى شىء من ذلك فقال : يا أمير المؤمنين افتح شباك القصر الذى يطلع على البستان ، وتفرج على

حسن تلك الأشجار ، واسمع الناعورة[1] التى كأنها آنين محب فارق محبوبه ، وهى كما قال فيها بعض واصفيها:

وناعورة حنت وغنت وقد غدت ... تعبر عن حال المشوق وتعرب
ترقص عطف البان تيها لأنها ... تغنى له طول الزمان ويشرب

وإما أن تنام يا أمير المؤمنين إلى أن يدركنا الصباح ، فقال : ياجعفر ماتلتفت نفسى إلى شىء من ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين افتح الشباك الذى يطلع على الدجلة حتى نتفرج على تلك المراكب والملاحين ، هذا يصفق وهذا ينشد : مواليا ، وهذا يقول : دوبيت وهذا يعمل كيت وكيت، فقال الرشيد : ماتلتفت نفسى إلى شىء من ذلك .

قال جعفر : قم يا أمير المؤمنين حتى ننزل إلى الإصطبل الخاص وننظر إلى الخيل العربيات ونتفرج على حسن ألوانها مابين أدهم كالليل إذا أظلم ، وأشقر ، وأشهب ، وكميت ، وأحمر ، وأبيض ، وأخضر ، وأبلق ، وأصفر، وألوان تحير العقول ؛ فقال الرشيد : ماتلفتت نفسى إلى شىء من ذلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين عندك فى قصرك ثلثمائة جارية مابين: جنكية إلى عودية إلى دفية إلى قانونية إلى زامرة إلى مغنية إلى راقصة إلى سنطيرية أحضر الجميع وأحضر العقار المروق فلعل أن يزول مابقلبك من الضجر ، فقال : ماتهم نفسى إلى شىء من ذلك ، فقال جعفر : يا أمير المؤمنين مابقى إلاّ ضرب عنق مملوكك جعفر فإنى قد عجزت عن إزالة هم مولانا ، فقال : ياجعفر أما سمعت قول ابن عمى رسول الله ﷺ فقال: من فم مولانا أحلى، فقال الرشيد قال : رسول الله ﷺ «فرح أمتى

(١) الناعورة : آلة لرفع الماء .

فى ثلاث : أن يرى بعينه شيئاً ما رآه ، أو يسمع شيئاً ما سمعه ، أو يطأ مكانا ما وطئه» . فيتفق ياجعفر أن يكون فى بغداد مكان ماوطئناه أوشىء ماسمعناه أو موضع مارأيناه؟ فقال جعفر : أتاذن لى ياأمير المؤمنين أن أطلع إلى محلس النوبة . وأنظر أحدا من المسافرين أحضره بين يدى أمير المؤمنين لعله أن يحدثك بحديث ما سمعته ، فقال الرشيد : قم وافعل . فقام جعفر وطلع وعاد بسرعة بالشيخ أبى الحسن الخليع الدمشقى المسامر.

قال : فلما رأى أمير المؤمنين سلم وأحسن وترجم فأبلغ ، ثم قال: ياأمير المؤمنين وحامى حوزة الدين وابن عم سيد المرسلين وخاتم النبيين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين أطال الله بقاك ، وجعل الجنة مأواك والنار مثوى لأعدائك لا خمدت لك نار ولا اغتيظ لك جار ، ثم أنشد يقول :

دام لك العز والبقاء ... ما اختلف الصبح والمساء
ودمت مادامت الليالى ... بمدة ما لها انقضاء
الناس ناس بكل أرض ... وأنت من فوقهم سماء

قال : فرد على الشيخ السلام ، وقال له : اجلس يا أبا الحسن ، وحدثنا بحديث عجيب مليح لم نسمعه قط ، فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين أحدثك بشىء سمعته بأذنى أو بشىء رأيته بعينى ؟ قال الرشيد : ياشيخ أبو الحسن الذى تراه العين أحسن من الذى تسمعه الأذن .

فقال الشيخ : ياأمير المؤمنين افرغ لى عن ثلاثه أشياء منك؛ فقال: ما الثلاثة ؟فقال : ذهنك ،وسمعك ،وقلبك.فقال الرشيد :هات يا أبا الحسن .

فقال : يا أمير المؤمنين لى عادة أنى أسافر فى كل سنة إلى البصرة للأمير محمد بن سليمان الزينبى ، وأقعد عنده أحدثه الأسمار وأورد له الأخبار وأنشد له الأشعار ولى عليه رسم ألف دينار آخذها وأعود إلى بغداد، فاتفق لى فى سنة من السنين أنى سافرت إلى البصرة على عادتى ودخلت على الأمير محمد بن سليمان وجلست عنده اليوم الأول والثانى والثالث ؛ فركب إلى الصيد وتركنى فى منزله وأوصى أرباب دولته بخدمتى ، وإكرامى إلى أن يعود وأوصى الطباخ الذى له أن لا يطعمنى إلا شيئاً تشتهيه نفسى فاشتهيت السمك ، فقلت للطباخ : تعمل من السمك عدة ألوان فأكلت وطاب لى الأكل حتى ثقل على فؤادى ، فقلت : مايصرف عنى هذا إلا المشى ولى عدة أسفار إلى البصرة ما أعرف فيها مكانا وأريد اليوم أجعلها حجة وفرجة، ثم إنى نزلت أتمشى فى شوارع البصرة فعطشت عطشا شديدا وناهيك بعطش السمك ، فقلت فى نفسى : إن تناولت شربة من السقاء لاتطيب نفسى لأنه يشرب منه أصحاب الأمراض ، وكبرت نفسى على أن أحملها إلى شاطئ الدجلة ، وقلت : مالى إلا أن أقصد بعض دور المحتشمين وأطلب منها شربة من ماء ، فأتيت إلى درب وفى ذلك الدرب خمسة دور داران مقابلتان لدارين ودار صدرانية قد قامت من التراب وتعلقت بأذيال السحاب ، ولها باب مقنطر مزخرف بمصاطب طولانية مفروش عليها حصر عبدانية والباب ساج مصفح بصفائح الذهب الوهاج ومسامير الفضه ، وستر من الحرير الأصفر المدثر مكتوب عليه هذه الأبيات :

ألاَ يادار لايدخلك حزن ... ولا يغدر بصاحبك الزمان
فنعم الدار أنت لكل ضيف ... إذا ما ضاق بالضيف المكان

قال : فقلت فى نفسى مِنْ هذه الدار أشرب الماء ، فأتيت إلى الباب فسمعت صوتا ضعيفا من فؤاد نحيف وقائلا يقول:

بالله ربكما عوجا على سكنى	وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بى وقولا فى حديثكما	ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فإن تبسم قولا فى ملاطفة	ماضر لو بوصال منك تسعفه
وإن بدا لكما فى وجهه غضب	فغالطاه وقولا ليس نعرفه

قال : فقلت ياحبذا إن كان قائل هذا الصوت شخصا صورته على قدر صوته ، واحتشمت ثم إنى قويت قلبى ورفعت الستر ودخلت الدهليز إلى أن انتهيت إلى آخره ومددت طرفى ، وإذا أنا بدار قد أقبلت عليها السعادة وزالت عنها الشقاوة ورأيت فى صدر المكان إيوانا وبركة وشاذروانا ، وفى ذلك الإيون تخت من الساج ، وقوائمه من العاج مصفح بالذهب الوهاج ، وفوق التخت فراش من الحرير الأطلس ومسند مزركش، وعليه جارية نائمة خماسية القد قائمة النهد ، لا بالطويلة الشاهقة ولا بالقصير اللاصقة؛ أشهر من علم تربيه العجم على أكتاف الخدم ، بخد أسيل وطرف كحيل ، وخصر نحيل ، وردف ثقيل إن أقبلت فتنت ، وإن ولت قتلت ، كما قال فيها بعض واصفيها :

كما اشتهت خلقت حتى إذا اعتدلت	فى قالب الحسن لا طول ولا قصر
جرى بها الشحم حتى دار أعكنها	طى القباطى فلا سمر ولاغور
كأنما أفرغت من ماء لؤلؤة	فى كل جارحة من حسنها قمر

إلاأن الجارية يا أمير المؤمنين قد حكمت عليها يد الأيام ونزلت بها جميع الأسقام وعند رأسها طبيب وهو يجس يدها ، ويقول : ياست بدور

الضارب ضارب، والساكن ساكن ، ولا برد ، ولاحمى ولاشىء تشتكيه من سهر الليل ، وجريان الدمع، لعل الست فى قلبها هوى من أحد ؛ فلما سمعت كلام الطبيب أنشدت تقول :

إذا هممت بكتمان الهوى نطقت ... مدامعى بالذى أخفى من الألم
فإن أبح أفتضح من غير منفعة ... وإن كتمت فدمعى غير منكتم
لكن إلى الله أشكو ما أكابده ... من طول وجد ودمع غير منصرم

قال : فنهض الطبيب قائما على قدميه ، فناولته صرة فيها عشرون دينارا ، ثم التفتت إلى ، وقالت : من أين ياشيخ ؟ فقلت لها : من بغداد حملنى العطش إلى أن أتيت إلى هنا . فقالت : لعل أن يكون على يدك فرجى، فأنا أكتب لك ورقة فتسأل عن بيت الأمير عمرو وتعطيها له فإن رددت علىَّ الجواب ، فأنا أعطى لك خمسمائة دينار ، ثم استدعت بدواة وورق وكتبت وهى تقول : أما بعد ، يعجز لسانى ويكل جنانى عن بث الأشواق ولكن أسأل الكريم الخلاق أن يمن علينا بالتلاق بالسعد الرائق والأمر الموافق وأنا القائلة حيث أقول :

سرورى من الدنيا لقاكم وقربكم ... وحبكم فرض وما منكم بد
ولى شاهد دمعى إذا ما ذكرتكم ... جرى فوق خدى لا يطاق له رد
إذا الريح من نحو الحبيب تنسمت ... وجدت لمسراها على كبدى برد
فوالله ما أحببت ما عشت غيركم ... ولا كنت إلا ماحييت لكم عبد
سلام عليكم ما أمر فراقكم ... فلا كان منكم ما جرى آخرا عهد

أما بعد ، فهذا كتاب ممن ليلها فى نحيب ، ونهارها فى تعذيب ، لاتركن إلى عاذل ولا تصغى إلى قائل ، قد غلبتها أيدى الفراق ، ولو

شرحت بعض ماعندها للفسيح ضاق وما وسعته الأوراق ، ولكن أسأل الكريم الخلاق رافع السبع الطباق أن يمن علينا بالتلاق وأنشدت تقول :

أحبة قلبي وإن جرتمو ... عليّ فكل المنى أنتمو
رحلتم وفي القلب خلفتم ... لهيبا فهلا ترفقتمو
وأودعتمو يوم ودعتمو ... بأحشاى نارا وأضرمتمو
وما كنتمو تعرفون الجفا ... على شؤم بختي تعلمتمو

فألف ألف لا أوحش الله منكم والسلام منى عليكم عدد شوقى إليكم، ما حنَّ الغريبُ إلى الأوطان ، وغرد حمام الأيك[1] على البان ، فرحم الله من قرأ كتابي ، وتعطف برد جوابي وأنشدت تقول :

أحبابنا ما رقَّا دمعي لفرقتكم ... يوم الفراق ولا كفت غواديه
بنتم فلم يبق لي من بعدكم جلد ... ولا فؤاد ولا صبر أرجيه
فكم أمن فؤادي بالهوى كذبا ... ولست أول من بانت غواشيه[2]

قال : ثم إنها طوت الكتاب ، وختمته بعد أن نثرت فيه فتات المسك والعنبر وناولتني إياه ، فأخذته وأتيت إلى دار الأمير عمرو ، فوجدته في الصيد والقنص ، فجلست على بابه ساعة أنتظره وإذا به أقبل وهو راكب على حصان أشقر من الخيل الضمر[3] يساوى ملك كسرى وقيصر ، من

---

(١) الأيك : الشجر الكثير الملتف .

(٢) بانت غواشيه ، يعني : ظهر ما في قلبها من العشق وشدة الشوق .

(٣) الخيل الضمر : هي التي تربط ويكثر لها الماء والعلف حتى تسمن ثم يقلل لها الماء والعلف مدة ويجعلونها تركض في الميدان حتى تهزل ، ومدة التضمير عند العرب أربعون يوماً .

أولاد الأبحر الذى كان لعنتر إن طلب لحق وإن طلب لـم يلحـق ، والأمـير على ظهره كأنه البدر فى منزلته ، والممـاليك قـد أحدقـوا بـه كمـا تحـدق النجوم بالقمر ، وهو بخد أسيل ، وطرف كحيل ، وخصر نحيـل ، وردف ثقيل ، وله عذار[1] أخضر فوق خد أحمر ، وثغر جوهر ، وعنق مرمـر كمـا قال فيه ابن معشر :

قمـر تكـــامل فـــى نهايــة حســنه | مثـل القضيـب علـى رشـاقة قـده
فـالبدر يطلــع مــن ضيــاء جبينـه | والشمس تغرب فـى شـقائق خـده
مـلـك الجمال بـأسره فكـأنمـا | حسـن البريـة كـلهـا مـن عنـده

قال أبو الحسن : فما أمهلتـه دون أن قبلـت ركابـه ؛ فلمـا انظـر إلـىَّ ترجل ، واعتنقنى وأخذ بيدى وأدخلنى الدار وأنشد يقول :

مـــا أظـن الزمـــان يأتـى بـهــذا | غـــير أنـى رأيتـــه فى منــامى

قال : فلما جلس على حافة البركـة أقبـل علىَّ يحدثنـى سـاعة ، وإذا بالمائدة قد وضعت بين أيدينا وإذا عليها من ألوان الطعام مادرج وتطاير فى الأسحار ، وتناكح فى الأوكار من : قطا ،وسمان ، وأفـراخ حمـام ، وبـط مسمن ، ودجاج محمر ، وأفراخ رضع ، وبعلبكـات السـكر ، فقـال : لـى بسم الله ياشيخ أبو الحسن ، فقلت : لا والله يا مولاى ما أكلت لك طعاما ولا شربت لك مداما إلا أن قضيت لى حاجتى ، فقال : يا أبا الحسن كـان هذا من الأول أين الكتاب الذى للست بـدور ، فقلـت : ياسـيدى ومـاهى الست بدور ؟ فقال : التى جئت من عندها تطلب شـربة مـن المـاء منهـا ،

(١) عذار : الشعر الذى يحاذى الأذن .

ووجدت عندها الطبيب وجرى لـك معها مـاهو كيـت وكيـت ، فقلـت : يامولاى أكنت حاضراً فقال : لوكنت حاضراً فلأى شيء كتبت الكتـاب ، فقلت : هل جاء أحد من عندها وأعلمك ، فقال : إنـه لا يجسر أحد مـن غلمانها يقابلنى ، فقلت : ولا راح أحد من عندك إليها ، فقال : هى أخس وأحقر من أن يمضى إليها أحد مـن عنـدى ، فقلـت : يـا سيدى الغيـب لا يعلمه إلا الله تعإلى والوحى مانزل إلا على رسول الله ﷺ ، فقال : ياعاقل أما سمعت قول القائل :

قلـــوب العاشـــقين لهـــا عيـــون تـــرى مـــا لا يـــراه الناظرونـــا
وأجنحـــة تـطـــير بغـــير ريش إلى ملكـــوت رب العالمينـــا

فقلت : صدقت يامولاى ، ثم ناولته الكتـاب ففضـه وقـرأه ثـم بصـق وداسه برجله ورماه فى البركة فصعب علىَّ ؛ فلما علم منى ذلك قال : مـم غيظك أقعد الليلة عنـدى كـل واشـرب وخـذ منـى الخمسـمائة دينـار التـى وعدتك بها الست بدور ، وأنا أحب إليك منها ، وأنشد يقول :

رأيـت شـاة وذئبـا وهـــى ماســكة بأذنــه وهــو منقــاد لهــا ســـارى
فقلـت أعجوبــة ثــم إلتفــت أرى مـــابين نابيـــه ملقـــى نصـــف دينـــار
فقلـت للشـاة مـاذا الإلـف بينكمـا والذئـب يسـطو بأنيـاب وأظفـــار
تبسـمت ثـم قـالت وهى ضاحكـة بالتبر يكسر ذاك الضيغم الضارى[1]

قال : فلما سمعت كلامه يا أمير المؤمنين ، تقدمت وأكلت بحسـب الكفاية والنهاية ، ثم انتقلنا إلى مجلس الشراب وقدمت بين أيدينـا البواطى

---

(١) الضَيْغَم : الذى يعض ويفترس بأسنانه ، وجمعها ضياغم.

والسلاحيات ، فتناول الأمير عمرو وشرب وسقانى وأنا أحدثه وأنادمه إلـى أن قرب الغروب ، فقال : يا أبا الحسن ما لذة الأمير إذا شرب إلى المساء من غير غناء ، فقلت : يقال الشراب بلا طرب ولاسماع الدن[1] أولى به .

فقال لى : قم بسم الله فقمت معه إلى محلس وحضيرة[2] تنقط بالذهب واللازورد العجيب وهى مزخرفة ، قد عبقت أزهارها ، وضحكت سلاحيتها ، وصفت بواطيها ، ورفعت أقداحها ، فجلس الأمير عمرو وأجلسنى بجانبه وقدمت بين أيدينا الشموع وأسرجت القناديل ، فنظرت إلى مجلس عجيب وحظيرة مليحة ، ثم قلت : يامولاى قد تقدم القول : إن الشراب بلا سماع الدن أولى به ؛ فصفق بكف على كف ، وإذا بثلاث جوار قد أقبلن كأنهن الأقمار ، الواحدة : تحمل عودا ، والثانية : تحمل دفا ، والثالثة : تحمل مزمارا ، ثم نقرت الدفية على دفها، وأصلحت العودية عودها ، وزمرت الزامرة بمزمارها فخيل لى أن المجلس الذى نحن فيه يرقص بنا ، ثم إن الدفية غنت تقول :

أحبابنا إننى من يوم فرقتكم ... على فراش الضنى مازلت مضطجعا
داويت قلبى بحسن الصبر بعدكم ... عسى يفيق من الأسقام مانفعا

فوالله ياأمير المؤمنين لقد طربت غاية الطرب من حسن صوتها ، فلما فرغت الدفية ، ضربت العودية على عودها طرقا عديدة ، ثم رجعت إلى الطريقة الأولى وأنشدت تقول :

---

(١) الدن : الذباب .

(٢) حضيرة : جماعة القوم . قيل هى فى الأصل تطلق على الذين يحضرون المياه أى ينزلون عليها فيقيمون بها ولايرحلون عنها .

أمؤنس طرفى لا خلا منك ناظرى وجامع شملى لا خلا منك مجلسى
ويا ساكنا قلبى ومافيه غيره يحل فما استوحشت فيه لمؤنسى
وبالله يا عين الورى من ملاحة تصدق على صب من الصبر مفلس
أنلنى الرضا أغيظ به العدا ويا موحشى من بعد ماكان مؤنسى
رضاك الذى إن نلته نلت رفعة وألبسنى فى الناس أشرف ملبس

قال : والله ياأمير المؤمنين لم نتمالك عقولنا من الطرب ثم التفتت العودية نحو الدفية ، وقالت لها : يافلانة أتحسنى أن تقولى مثل هذا ؟ فقالت الدفية : أنا أحفظ أبياتا ما أظن أنك تحفظين لهن وزنا ولا قافية ولا عروضا ، فقالت العودية : هات ماعندك ، فنقرت الدفية على دفها بأناملها ورفعت صوتها وهى تقول :

كرر وردد ذكرهم فى مسمعى فهم الشفا لتألمى وتوجعى
أقصر بعذلك ياعذول فإن لى قلبا لعذلك لايفيق ولايعى

فقالت لها العودية : أنا أحفظ الوزن والقافية والعروض ، فقالت لها الدفية : هات فضربت العود طريقة من اثنين واثنين ، وأربعة وأربعة ، وثمانية وثمانية ، وستة عشر وستة عشر ، ثم عادت إلى الطريقة الأولى وجعلت تقول :

إن لم أسل وادى الأسيل بأدمعى اعلم بأنى فى الصبابة مدعى
يا سعدان جئت الغوير وعاينت عيناك بأن المنحنى فلترجع
وخذ الحذار من الغزال المختفى واحذر بصيدك لحظ ذات البرقع

قال : والله يا أمير المؤمنين فلقد طربنا حتى قام بعضنا ورقص ، فلما فرغت الجارية قال لها سيدها ، غنى لى عن الذى بقلبى وحدى ، فعندها ساوت عودها وقالت :

مــاكنت أول رامــق صبــا صبـــا — نحو التصابى وهو فى عشر الصبــا
فعلام يعذلنـى العـذول علـى البكـا — لـولا الغـرام لهــا غــدوت معذبــا
حكم الهوى بحكمه فــى مهجتــى — ولقــد غـــذا قلبـــى بـــه متقلبـــا
يا للرجال خبـا الهـوى بحشاشتى — نـارا فمـا تخبـو علـــى ذاك الخبــا
ولقـد سبى قلبى غـزال لــو رأت — بلقيـس طلعتـه لمـا ســكنت سـبا
ولقــد هربــت من الغرام فقال لى — مهـــلا رويــدا أيــن منـــى تهربــا

فلما سمع الأمير عمرو ذلـــك صـرخ ووقـع علـى الأرض مغشـيا عليه فقالت الجارية : يامولاى إنه قد نام سيدى ، فإن اخترت أن تنـام فقـم نـم فى مرقدك ، وإن اخترت الشراب فدونك ونحن بين يديـك إلـى الصبـاح ، فقمت ونمت .

فلمـا أصبحـت قمـت وسـألت عـن الأمــير عمــرو ، فقــالت بعـض الجوارى: إنه قد سرح إلى الصيد والقنص ، فأخذت شاشـا لألبسـه فرأيـت تحته كيسا فيه ألف دينار فأخذته وأتيت إلــى الست بـدورو إذا بهـا واقفـة خلف الباب تنتظر وهى تقول :

يا رسولى إلى الحبيـب اعتـذر لـى — فلعــل الحبيـــب يقبـــل عـــذرى
ثــم قــل للحبيـب عنـــى بلطـــف — أى ذنب جـرى فأوجـب هجـرى

فلما رأتنى قالت : ياشيخ أقمح أم شعير ؟ فقلـت : لا واللـه مـاهو إلا زوان والله مارضى يقرأ مكتوبا ، ولا يرد جوابك ، فرمـت إلـىّ صـرة فيهـا مائة دينار ، وقالت : اذهب يا أبا الحسن مــامضى الليـل وأتـى النهـار علـى شىء إلا وأزاله وغيره ، ويغير الله ما فى القلوب ، ثم إنها أغلقت الباب فى

وجهى ، ومضت وعدت إلى دار الأمير محمد بن سليمان الزينبى فلقيته قد جاء من الصيد فقعدت عنده أياما ، وأخذت رسمى وعدت إلى بغداد .

ثم إنى فى السنة الثانية سافرت إلى البصرة على ماجرت العادة به ، ومضيت إلى الأمير عمرو بن جبير الشيبانى ، لأتمتع بذلك الوجه المليح والقد الرجيح فوجدت الدار متغيرة الآثار والعبيد لابسين السواد ؛ فلما رأيت ذلك بكيت وأنشدت أقول :

يا دار أين ترحل السكان وسرت بهم من بعدها الأظعان

بالأمس كان بك الضياء مع الهنا واليوم فى عرصاتك الغربان

فسمعنى بعض الغلمان ، فظهر لى وقال : من ذا الذى يبكى على ديارنا ، ويندب منازلنا كفى بنا ماعندنا ، فقلت له : ياعبد الخير إن صاحب هذه الدار كان من أصدق الناس إلىَّ ، فما فعل به الزّمان ؟ فقال لى الغلام : يامولاى هو فى قيد الحياة ، وهو يطلب الموت فلا يجده ، فقلت له : بالله عليك خذ لى الطريق ، فقال لى الغلام : يامولاى من أقول؟ فقلت : قل الشيخ أبو الحسن الخليع الدمشقى المسامر، قال : فعبر الغلام وغاب ساعة وعاد وقال لى : بسم الله ادخل فدخلت فوجدت الأمير عمراً نائما وعند رأسه طبيب وهو يجس يده ، ويقول له : يا مولاى الضارب ضارب ، والساكن ساكن ، ولابرد ولا حمى ولا تشتكى غير سهر الليل وجريان الدمع لا يكون المولى إلا مسحورا ، فلما سمع الأمير عمرو كلام الطبيب بكى وأنشد يقول :

قال الطبيب لقومى حين جس يدى هذا فتاكم ورب البيت مسحور

فقلت ويحك قد قاربت فى صفتى عين الصواب فهلا قلت مهجور

ثم إنه ناوله كاغداً(1) فيه بعض دنانير ، فأخذها الطبيب وانصرف ، ثم إلتفت الأمير عمرو إلىّ ، وقال : ياشيخ أبو الحسن أما تنظر إلى هذا الحال الذى وقعت فيه ، فقلت له : حاشاك من الأسواء ماسبب ذلك ؟ قال : ما أعرف له سببا إلا أن هجر الست بدور قد قتلنى ، وحبها أضنى فؤادى ، فقلت : يا مولاى بالعام الماضى تركتك أميرا واليوم أتيت لقيتك أسيرا ، فما السبب ؟ فقال الأمير عمرو : ياشيخ إنى فى ليلة من الليالى ركبت فى الشط وقد شحنت مركبى من سائر الأزهار ، والفواكه ، والرياحين ، والطعام ، والمدام ، وأوقدت الشموع حتى صارت مثل ضوء النهار وقد غرقنا فى البسط وبقينا فى لعب وضحك إلى ثلث الليل الأول وإذا قد أقبل من صدر الشط مركب وهى تغرب بالطارات والدفوف وتضىء كضوء الشمس ، وفيها وهج عظيم فقلت : للملاح قدم بنا حتى نتفرج وننظر أينا أحسن تعبئة مركبنا أو هذه المركب ؟ فمددت عينى فرأيت صاحبتى الست بدور وهى بين جواريها وغلمانها تلعب وتضحك وهى مثل اسمها اسم على مسمى ؛ فلما وقعت عينى كأنما رمت فى قلبى جمرة نار فقلت فى نفسى : مافارقت هذا الوجه المليح بذنب ثم إنى تذكرت العهد القديم الذى كان بيننا فلم أقدر صبرا فمددت يدى وأخذت تفاحة ورميتها إلى الست بدور ، فالتفتت فرأتنى فقالت : للملاح ارجع بنا إلى البر نحن خرجنا هذه الليلة تنشرح ، فأرسل الله لنا هذا الفتى ينغص علينا عيشنا ؛

---

(1) كاغِد : القرطاس يوضع فيه الدنانير .

فلما سمعتها تشتمني أضرمت[1] النار في قلبي ، ثم قلت : لنفسي أنت المطلوب فصرت الطالب فلم يهنأ لي عيش في هذه الليلة ، وقلت : للملاح ارجع إلى الشط ، ثم إني نزلت ومضيت إلى منزلي وما ذقت طعم المنام .

فلما أصبحت لم يقر لي قرار وصرت أترقب أن يأتي أحد من عندها ثلاثه أيام ، فلم يأت أحد فبعثت من يعرض بذكرى لها فدعت عليهم وشتمتهم ، فكتبت لها بعد ذلك ألف كتاب ، فلم ترد لي جوابا وقد رميت روحي على كل كبير في البصرة فيدخلون عليها ، فلم تقبل ولم تزدد إلا جفاء ولي مدة أنتظرك ياشيخ أبو الحسن ، حتى أبعث معك كتابا وأنا أحلف لك إن هي ردت لك جوابه أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد جوابه أعطيتك مائة دينار ، فقلت له : اكتب فدعا بدواة وقرطاس ، وكتب في أول الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من متيم يشكو إليك الصبابة ، ويسألك بالله أن تردى جوابه ، أما بعد ؛ فإنه يعجز لساني ويكل جناني مما أنا فيه من طول السهر ودوام الفكر ، وبكى لبكائي صم الحجر فألف ألف لا أوحش الله منك والسلام عليك . ثم ختم الكتاب ، وناولني إياه ، فأخذته وأتيت به إلى دار الست بدور ، فلقيت الباب على غير تلك الحالة الأولى عليه ستر مرخى وبواب وخادم .

فقلت : لا إله إلا الله ، كان هذا الباب بالأمس خاليا من الأصحاب واليوم عليه خادم وبواب ، ثم إني تقدمت إلى الخادم وقلت له : قم يا ولدى ادخل واستأذن على مولاتك الست بدور وقل لها : الشيخ أبو

---

(1) أضرمت النار : اشتعلت .

الحسن الخليع الدمشقى قد أتى ويطلب التمثل بين يديك فغاب الخادم ثم عاد مسرعا ، وقال : بسم الله ادخل فدخلت الدهليز فسمعت بدور هى تقول:

ولأصبرن على الزمان وجوره   حتى يعود كما أريد وأشتهى

قال : فلما دخلت رأيتها قاعدة على حافة البركة وبين يديها جارية تروح عليها فتقدمت ، وقبلت يدها وجلست فنظرت ، وإذا عليها غلالة لازوردية[1] وجميع جسدها بائن من تحت الغلة ، كأنه عمود مرمر ، وعلى الغلالة مكتوبة هذة الأبيات :

أقبلت فى غلالة زرقاء   لا زوردية كلون السماء
فتأملت فى الغلالة ألقى   قمر الصيف فى ليالى الشتاء
ليتنى كنت للمليحة عقدا   أو برقعا للوجه مثل الرداء
أو قميصا من الحرير خفيفا   لاصقا للفؤاد والأحشاء
ضربتنى بخنجر العشق حتى   صرت ملقى مختضبا بدمائى
تركتنى على الطريق ونادت   من يصلى على قتيل هوائى

ثم إنى لما فرغت من قراءة الأشعار ، قالت لجاريتها : هات لى بدلة قماش ثم غيرت ماكان عليها وجلست ، ثم أمرت بإحضار المائدة ، وقالت: بسم الله كل يا أبا الحسن فقلت : لا والله لا أكلت لك طعاما ولا شربت عندك مداما حتى تقضى حاجتى ، فقالت : كان هذا من الأول ، لكن والله قد وقعت من عيننا برواحك إلى الأمير عمرو قبل مجيئك إلينا .

(١) غلالة لازوردية : شعار رقيق يلبس تحت الثوب .

فقلت لها : أنا ما رحت ، فقالت : تكون شيخا وتكـذب ! أنت مـا عبرت عنده ولقيت الطبيب وهو يقول له : كيت وكيت وجرى لـك معه كذا وكذا وهذا الكتاب فى طى عمـامتك ، وبالأمـارة قـال لـك إن رددت الجواب أعطيتك ألف دينار ، وإن لم ترد لى الجواب أعطتك مائـة دينـار ، فقلت : ياستى من أعلمك بهذا ، فقلت : أليس القائل يقول :

قلـوب العاشـقين لهـا عيـون   تـرى مـا لا يـراه الناظرونـا

وأنا يا شيخ أبو الحسن أعشـق منه وأرى أكثر ممـا يـراه ، فقلـت : صدقت يامولاتى كان ذلك ، ثم ناولتها الكتاب ففضته وقرأته ثم إنها مزقته وبصقت عليه وداسته ورمته فى البركة ، فلما رأيت ذلك ، قلت فى نفسى: هذا بذاك وقرض الدين لابد له من وفاء إلا أنه حصل لـى بعـض غيـظ علـى الألف دينار التى تفوتنى ، فنظرت إلى وعرفت منـى ذلـك فقـالت : ياشـيخ أبو الحسن مم غيظك إن كان وعدك بألف دينار فبت الليلة عندى ، وكل، واشرب ، والتذ ، واطرب ، وخذ لك غـدا منـى ألـف دينـار ، وامـض فـى وداعة الله .

فقلت : ياسيدتى يكاد الأمير عمرو أن يموت، فقالت : دعنا من هـذا الكلام .ثم إن المائدة حضرت فأكلنا بحسب الكفاية ، فلما فرغنا ، قـالت: ياشيخ أتعرف لعب الشطرنج ، قلت : مـا ألعـب إلا علـى الحكـم والرضـا. فقـالت : نعـم ، ثـم دعـت بالشـطرنج فوضـع بيـن أيدينـا ولعبـت معهـا الدسـت[1]الأول فغلبتنـى ، فـأمرت الجـوارى أن يرمونـى فـى البركـة ، فمسكونى ورمونى فى البركـة وضحكـت علىّ سـاعة ثـم أخرجونـى وقـد

---

(١) الدَّسْتُ : الجولة من لعب الشطرنج .

ابتلت جميع حوائجي ؛ فلما رأتني على تلك الحالة أمرت ببدلة من القماش من أفخر الملبوس فلبستها ، فقالت : أتلعب أيضا على الحكم والرضا ؟ قلت: نعم فلعبنا فتغايرت عليها وأتيت لها بحكاية لطيفة مضحكة وأشغلتها، وسرقت القطع إلى أن غلبتها ، وتحكمت فيها وقلت :أريد الألف دينار وجواب الكتاب ، فأعطتني الألف دينار وطلبت الدواة والقرطاس ، ثم إنها أطرقت ساعة ورفعت رأسها كتبت تقول :

ألا يا عمرو كم هذا العناء	وكم هذا التجلد والإذاء
كتبت إليّ تشكو ما لا تلاقى	من الأسقام إذ نزل القضاء
فسقم لايزال بطول دهر	وداء ما له أبدا دواء
ولو ساعدتنا ياعمرو يوما	لساعدناك إذ نزل البلاء
فعش صبا ومت كمدا حزينا	فواحدة بواحدة جزاء

فلما فرغت ، ناولتني الوّرقة قرأتها فقلت : ياستى بالله عليك لا تفعلى وارحمى الأمير عمراً أو اكتبى له غير هذا ، فقالت : ياشيخ أبو الحسن أنت رسول وإلا فضولى ؟ فقلت لها: رسول ، وفضولى ، وطفيلى، ويعظ القطط ، ويحلف أنه ما يبيت إلافي الوسط ، ويغنى بليت بكم .

قال : فضحكت من كلامي ، وقالت: حكمتك في نفسى ، فقلت : يا ستى بدور أين تلك المحبة التى كنت تحبينها للأمير عمرو ، فلو أبصرتيه ما عرفتيه من شدة ما يقاسى من الأسقام ، والآلآم والأمراض ؛ فلما سمعت ذلك قالت : أخبرنى عن أقوى شيء به من المرض فقلت : ياسيدتى ما أقدر أصف لك بعض ما فيه من ألم المرض فتغرغت عيناها بالدموع ، ثم قالت : يعز على ماوصفت لى عنه وروحى لرورحه الفداء ، فالحمد لله

الذى جعل اجتماعنا على يديك .ثم دعت بدرج غير تلك الورقة وكتبت فى أول الكتاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم إنها ابتدأت وتقول :

وصل الكتاب فلا عدمت أناملا ... عنيت به حتى تضوع طيبا[1]
ففضضته وقرأته فوجدته ... لخفى أوجاع القلوب طبيبا
فكأن موسى قد أعيد لأمه ... أو ثوب يوسف قد أتى يعقوبا

المملوكة تقبل الأرض ، وتنهى أن شوقها شديد وغرامها ما عليه من مزيد ومأمولها من الحميد المجيد أن يجمع شملها بك قبل أن تريد وأقول:

أشتاقكم حتى إذا نهض الهوى ... لمقامكم قعدت بى الأيام
والله إنى لو وصفت صبابتى ... فنى المداد وقلت الأقلام

ثم إنها نثرت فيها فتات المسك والطيب ، وطوتها وحققتها ، وناولتنى إياها فأخذتها وقمت مسرعا وأنا فرحان إلى أن أتيت دار الأمير عمرو ودخلت الدهليز فسمعته يقول :

ترى حرمت كتب المحبة بيننا ... أسحر أم القرطاس أصبح غاليا

فاستأذنت عليه ودخلت ، فلما رآنى قال لى : أقمح أم شعير ، فقلت له : قمح مغربل ليس فيه كدر ، ثم ناولته الكتاب ففضه وقرأه ؛ فلما فهم معناه تهلل وجهه بالفرح فبكى وقال :

هجم السرور علىَّ حتى أنه ... من عظم ما قد سرنى أبكانى
يا عين قد صار البكا لك عادة ... تبكين فى فرح وفى أحزان

---

(١) تضوع طيبا : انتشرت منه رائحة الطيب .

فلما فرغ من البكاء قال لى : يا شيخ ما أظن الحديد يلين ولا الصخر يذوب لعل أن تكون صنعت هذا الكتاب من عندك ، فقلت : يا مولاى والله ما صنعته ولا كتبته بل هو خطها بيدها فبينما هو يخاطبنى إذا هى عبرت علينا وهى تخطر فى قوامها وهى تنشد وتقول :

نزوركم لا نأخذكم بجفوتكم إن الكريم إذا لم يستزر زارا

فلما رآها الأمير عمرو نهض قائما على قدمية ورمى بروحه عليها واعتنقها واعتنقته ساعة زمانية ، فقمت على أن أخلى لهما المكان ، فقالت الست بدور : إلى أين تروح يا شيخ ، قلت : أخلى لكما المكان ، لأنكما ما اجتمعتما من مدة سنة كاملة ، فقالت : لا تفارقنى من الساعة إلى الصباح فقام الأمير عمرو وأخذنا ومضى بنا إلى مجلس مليح وقدم لنا الطعام المفتخر، وأمر بإزالة كل شيء كان عليه من آلة الحزن وجيء له بالماء فغسل يديه وغلسنا أيدينا وانتقلنا إلى مجلس الشراب وبتنا فى لذة ورأيت الماوية تدب فى وجه الأمير عمرو[1] ، فلما أصبحت قال : ياشيخ أبا الحسن امض وأئتنا بالقاضى والشهود ، فلم يكن بأسرع مما أحضرتهم ، فقالت الست بدور للقاضى : اكتب كتابى على الأمير عمرو ، وقد وليت الشيخ أبا الحسن عقد النكاح، فخطب القاضى خطبة النكاح وعقد العقد بينهما ، فرسم الأمير عمرو للقاضى بألف دينار وللشهود بمائتى دينار ، وعمل الوليمة ، وطبخ الطعام وعمل الحلاوات وجمع الناس ، ووضع بين أيديهم الموائد وأطعم الشارد والوارد ، وزفت الست بدور تلك الليلة على الأمير عمرو .

---

(١) رأيت الماوية تدب فى وجه الأمير : كأن الدم جرى فى عروق وجهه .

فلما وقفوا على المنصة ، قلت : ما تصلح إلا لـه ولايصلح إلا لها ، ولو رآها غيره لزلزلت الأرض زلزالها ، ثم تقدمت إلى الأمير عمرو وقلت له : يا مولاى ، المثل يقول : العصفور يتفلى والصياد يتقلى وأنتم تقولون وا طرباه، وأنا أقول وا حزناه ، فقالت الست بدور : مامعنى كلامك هذا ؟ قلت : ياسيدتى الأمير عمرو وعدنى بوعد والوعد على الكرماء دين ، فقالت الست بدور : صدق الشيخ أعطه الذى وعدته به ، فقال الأمير عمرو لبعض غلمانه أعط الشيخ أبا الحسن ألفا وخمسمائة دينار ، ويستحق والله أكثر من ذلك ، فمضى الغلام وعاد بسرعة ومعه كيس وناولنى إياه ، واعطتنى الست بدور مثله ، ثم إننى ودعتهم وخرجت إلى أن أتيت إلى الأمير محمد بن سليمان الزينبى ، وقعدت عنده على عادتى ، وأخذت رسمى الذى لى عليه فى كل سنة ، وعدت إلى بغداد ، فما رأيت سنة أبرك على منها حصل لى فيها أربعة آلاف دينار ، وهذا جملة الحديث .

فتعجب الخليفة ، وقال : ماقصرت ياشيخ أبو الحسن خذ من جعفر ألف دينار، لأنك أنت الذى أزلت عنى ما بقلبى ، فقال جعفر : ومن عند أمير المؤمنين ألف دينار لأنه هو الذى أزال عنه ماكان يجده ، فقال أبو الحسن : صدق الوزير أبقاه الله تعالى ، ثم أنه قبض الألفى دينار ومضى إلى منزله والله أعلم .

[٨٦] قال : أبو القاسم عبد الملك بن بدرون فى شرحه لقصيدة عبد المجيد بن عبدون[١] : جعفر البرمكى هو : جعفر بن يحيى بن خالد

(١) أبو القاسم عبد الملك بن بدرون : أديب أندلسى من أهل شلب . اشتهر بكتابه شرح قصيدة ابن عبدون ، سماه "كمامة الزهر وفريدة الدهر" ، ت[٦٠٨هـ=١٢١١م] =.

بن برمك. والبرمك[1] هو الذى يعمر بيت النور ، وهو بيت النار ، وكان برمك من مجوس بلخ ، وكان عظيم القدر فيهم وولده خالد ، فلما كبر صار وزيراً لأبى السفاح بعد أبى سلمة الخلال[2] ، وقتل هارون الرشيد ، جعفرا سنة سبع وثمانين ومائة ، وكان قد بلغ من الرشيد ما لا يبلغه وزير من خليفة قبله، حتى كان يجلس معه فى حلة واحدة قد اتخذ لها جيبان ، على ماذكره المخبرون ، حتى بلغ عنده أن يحكم عليه فيما شاء من أمر ماله وولده[3] .

[٨٧] **فمن ذلك ، ماحكاه ابن النهدى ، [عن] عم الرشيد وهو :** إبراهيم المعروف بابن شكلة[4] ، وكانت شكلة أمة سوداء ، وقد ذكر أن إبراهيم كان أسود شديد السواد، وكان من الطبقة العليا فى صنعة العود .

انظر : هدية العارفين (٦٢٧/١) . وصاحب القصيدة المشروحة هو : عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون ، الفهرى اليابرتى ، ذو الوزارتين : أديب الأندلس فى عصره، من وزراء بنى الأفطس . كان عالما بالتاريخ والحديث ، والقصيدة فى رثاء بنى الأفطس ، ت[٥٢٩هـ=١١٣٥م] . انظر : كشف الظنون ص١١١٩ .

(١) انظر : دائرة المعارف الإسلامية (٤٩٢/٣) .

(٢) أبو سلمة الخلال : وزير السفاح ، وقائد عباسى . اغتيل بسبب ميله إلى البرامكة ت[١٣٢هـ=٧٥٠م] .

(٣) تقدمت ترجمة جعفر فقرة ٥٨ .

(٤) إبراهيم بن محمد المهدى ابن عبد الله المنصور العباسى ، ابن شكلة : أخو هارون الرشيد ، ولد ونشأ فى بغداد وولاه الرشيد إمرة دمشق ، ثم عزله عنها بعد سنتين ثم أعاده إليها . ولما انتهت الخلافة إلى المأمون كان إبراهيم قد اتخذ فرصة اختلاف الأمين والمأمون للدعوة إلى نفسه وبايعه كثيرون ببغداد ، فطلبه المأمون ، فاستتر ، =

قال : قال لى جعفر يوما : يا إبراهيم إذا كـان غـدا فبكـر لـى ؛ فلمـا كان الغد مشيت إليه بكرة ، فجلسنا نتحـدث ؛ فلمـا ارتفـع النهـار أحضـر حجاما فحجمنا ، ثم قدم لنا الطعام فطعمنا ، ثم خلع إلينا ثيـاب المنادمـة ؛ وقـال جعفـر لخادمـة : لايدخـل علينـا أحـد إلا عبـد القهرمـانى ، فنسـى الحاجب ما قال له، فجاء عبد الملك بن صالح الهاشمى[1] ، وكـان رجـلا من بنى هاشم ذا ملاحة وعلم وحلم، وجلالة قدر ، وفخامة ذكر ، وصيانـة وديانة ، فظن الحاجب أنه الذى أمره بإدخاله عليهما .

فلما رآه جعفر تغير لونه ، فقال له عبد الملـك بـن صـالح لمـا رآهـم على تلك الحالة وظهـر لـه أنهـم احتشـموه أراد أن يرفـع خجلـه وخجلهـم بمشاركته لهم فـى فعلهـم فقـال : اصنعـوا بنـا مـاصنعتم بأنفسـكم ، فجـاء الخادم فطرح عليه ثياب المنادمة ، ثم جلس للشراب ؛ فلما بلغ ثلاثا ، قال للساقي : لتخفف عنى ، فإنى ماشربته قط ، فتهلل وجه جعفر ، فقـال لـه : هل من حاجة تبلغها مقدرتى وتحيط بها نعمتـى فأقضيهـا لـك مكافـأة لمـا صنعت ؟ قال: بلى، إن أمير المؤمنين علىَّ غاضب فسله الرضا عنى . قال :

فأهدر دمه فجاءه مستسلما ، فسجنه ستة أشهر ، ثـم طلبـه إليـه وعاتبـه علـى عملـه ، فـاعتذر فعفـى عنـه . وأمـه جارية سـوداء اسـمها شـكلة ، نسبه إليهـا خصومـه . ت [٢٤٤هـ - ٨٣٩م].

(١) عبد الملك بن صالح بن على بن عبد الله بن عباس الهاشمى : أمير من بنـى العبـاس ، كان فصيحا ، خطيبا له مهابة ، ولاه الهادى إمـرة الموصـل [١٦٩هـ] وقـام الرشـيد بعزله [١٧١هـ] ثم ولاه المدينة ودمشق وأقام فيها أقل من سنة ، وبلغ الرشيد أنه يريـد الخلافة فحبسه ببغداد وتُوفى فيها [١٨٧هـ] .

قد رضي عنك أمير المؤمنين . قال : عليَّ أربعة آلاف دينار ، قال : هي لك حاضرة من مال أمير المؤمنين .قال : وابني إبراهيم أريد أن أشد ظهره بصهر من أمير المؤمنين قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابنته عائشة . قال : وأحب أن تخفق الألوية على رأسه ، قال : نعم قد ولاه أمير المؤمنين مصر، قال إبراهيم بن المهدي : فانصرف عبد الملك بن صالح ، وأنا أتعجب من إقدام جعفر على قضاء الحوائج من غير استئذان .

فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر ، فلم نلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي، ومحمد بن واسع ، وإبراهيم بن عبد الملك فعقد له النكاح ، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر . وخرج جعفر فأشار إليَّ ؛ فلما سار إلى منزله ، ونزلت بنزوله، التفت إليَّ وقال : لعل قلبك معلق بأمر عبد الملك بن صالح ، فأحببت معرفة خبره ؟ قلت : نعم . قال : إني لما دخلت على أمير المؤمنين وتمثلت بين يديه وابتدأت القصة من أولها إلى آخرها ، كما كانت قال الرشيد : أحسن والله، ثم قال : ماصنعت ؟ فأخبرته عما سأل ، وبما أجبته في ذلك ، فقال : أحسنت ، وخرج إبراهيم واليا على مصر في يومه، والله تعالى أعلم(١) .

[٨٨] قال إبراهيم بن إسحاق : كنت منقطعا إلى البرامكة فبينما أنا ذات يوم بمنزلي ، وإذا ببابي يدق فخرج غلامي وعاد ، وقال لي : على الباب فتى جميل يستأذن فأذنت له ، فدخل شاب عليه أثر السقم ، فقال

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص ٦٥ .

لى: مدة أحـاول لقـاءك ، ولـى إليـك حاجـة . فقلـت : ومـاهى ؟ فـأخرج ثلثمائة دينار فوضعها بين يدى وقال : أسألك أن تقبلها منى وتصنع لى لحنا فى بيتين قلتهما ، فقلت أنشد نيهما فقال :

بالله يا طرفى الجانى علـى كبـدى لتطفئـن بدمعـى لوعــة الحــزن
لا لا أبوحـــن حـتى تنزلى سكنى فـــلا أراه ولـو أدرجت فى كفنى

قال : فصنعت لهما لحنا يشبه النوح ، ثم غنيته فأغمى عليه حتى أنـى ظننت أنه مات ، ثم أفاق وقال : أعده فناشـدته الله ، وقلـت : أخشـى أن تموت ، فقال : ليت ذلك ومازال يخضع ويتضرع حتـى رحمتـه وأعدتـه ، فصعق صعقة أشد من الأولى ، فلم أشك فى موته ومازالت أنضح عليـه مـن ماء الورد ، حتى أفاق ، ثـم جلـس فحمـدت الله علـى السـلامة ووضعـت دنانيره بين يديه ، وقلت : خذ مالك وانصرف عنى ، فقـال : لاحاجـة لـى بها ولك مثلهـا إن أعدتـه فشـرهت نفسـى ، فقلـت : أعيـده ولكـن بثلاثـة شروط أولها : تقيم عندى تأكل من طعامى حتى تتقوى نفسـك ، الثـانى : أن تشرب من الشراب مـا يمسـك قلبـك ، الثـالث : أن تحدثنـى بحديثـك .ففعل ذلك، ثم قال : إنى رجل من أهل المدينة خرجت متنزها وقــد سـال المطر فى العقيق مع إخوانى ، فرأيـت فتـاة مـع فيتـات كأنهـا غصـن جللـه الندى تنظر بعينين ما ارتد طرفهما إلا بنفس ملاحظهما فـأظللن حتـى فـرغ النهار ، فانصرفن وقد رمت بقلبى جراحا بطيئـة الإندمـال ، فعـدت أتنسـم أخبارها ، فلم أجد أحدا يرشدنى إليها فجعلت أتتبعهـا فـى الأسـواق ، فلـم أقع لها على خير ومرضت أسى ، وحكيت قصتى لذات قرابة لى ، فقالت : لابأس عليك هذه أيام الربيع ما انقضت وسـتمطر السـماء ، فتخـرج حينئـذ وأنا أخرج معك فافعل مرادك ، قال : فاطمأنت نفسى بذلـك إلـى أن سـال

العقيق وخرج الناس ينظرون فخرجت مع إخوتي وقرابتي ، فجلسنا في مجلسنا بعينه ، فما لبثنا إلا النسوة كفرسي رهان ، فقلت لذات قرابتي : قولي لهذه الجارية يقول لك هذا الرجل : لقد أحسن من قال :

رمتني بسهم أقصد القلب وانثنت وقد عاودت جرحا به وندوبا

قال : فمضت إليها ، وقالت لها : ذلك ، فقالت : قولي له وقد أحسن من أجابه :

بنا مثل ما تشكو فصبراً لعلنا نرى فرجا يشفي القلوب قريبا

قال : فأمسكت عن الكلام خوف الفضيحة ، وقمت منصرفا ، فقامت لقيامي ، فتبعتها قريبتي حتى عرفت منزلها ، ورجعت فأخذتني وسرنا إليها حتى اجتمعنا واتصل ذلك حتى شاع وظهر وحجبها أبوها ، فلم أزل مجتهدا في لقائها فلم أقدر وشكوت ذلك إلى أبي فجمع أهلنا ومضى إلى أبيها راغبا في خطبتها ، فقال : لو بدا له ذلك قبل أن يفضحها لفعلت ، ولكنه أشهرها ، فما كنت لأحقق قول الناس .

قال إبراهيم : فأعدت عليه الصوت وعرفني منزله ، ثم انصرف وكانت بيننا عشرة . ثم جلس جعفر بن يحيى ، وحضرت على عادتي فغنيته شعر الفتى ، فطرب وشرب أقداحا ، وقال : ويلك لمن هذا الصوت؟ فحدثته حديث الفتى ، فأمرني بالركوب إليه وأن أجعله على ثقة من بلوغ أربه ؛ فمضيت إليه وأحضرته ، فاستعاد الحديث فحدثه ، فقال : هي في ذمتي حتى أزوجك إياها فطابت نفسه ، وأقام معنا؛ فلما أصبح ركب جعفر إلى الرشيد وحدثه بذلك فاستظرفه وأمر أن يحضرا جميعا واستعاد

الصوت وشرب عليه ، فأمر بكتب كتاب إلى عامل الحجاز بإحضار المـرأة وأهلها ووالدها مبجلين إلى حضرته ، والإنفاق عليهم نفقة واسعة فلم يمض إلايسير حتى حضروا فأشار الرشيد بإيصال الرجل إليه فحضر وأمره بـتزويج ابنته من الفتى ، وأعطاه ألف دينار ونقلت إلى أهله ؛ ولم يـزل الشـاب مـن ندماء جعفر حتى حدث ما حدث ، فعاد الفتى بأهله إلى المدينة فرحم اللـه تعالى أرواحهم أجمعين .

حكاية أجنبية

[٨٩] [قيل] : مما اتفق أن الوزير أبا عامر أحمد بن مـروان ، كـان قد أهدى له غلام من النصارى لاتقع العيون على أحسن منه ، فلمحه الملك الناصر ، فقال له : أنّى لـك ؟ قـال : هـو مـن عنـد اللـه ، فقـال : تتحفونـا بالنجوم وتستأثرون بالأقمار ، فاعتذر إليه ، ثم احتفل فـي هديـة بعثهـا إليـه مـع الغـلام ، وقـال لـه : كـن داخـلا فـي جملـة الهديـة ، ولـولا الضــرورة ماسمحت بك نفسي وكتب معه هذه الأبيات:

أمـولاى هـذا البـدر سـار لأفقكـم ... وللأفق أولـى بـالبدور مـن الأرض
أراضيكـــم بـــالنفس وهـــى نفيسة ... ولـــم أر قبلى من بمهجته يرضى

قال : فحسن ذلك عند الناصر ، وأتحفه بمال جزيل ، وتمكن عنـده، ثم بعد ذلك أهديت للوزيرجارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينهى(١) ذلك إلى الناصر فيطلبها فتكون كقصة الغلام ، فاحتفل في هدية أعظـم مـن الأولى وأرسلها مع الجارية ، وكتب معها هذه الأ بيات :

---

(١) يُنْهى ذلك إلى الناصر : أى يبلغه الخبر .

أمولاى هذى الشمس والبدر أولا تقدم كيلا يلتقى القمران
قران لعمرى بالسعادة ناطق فدم معهما فى كوثر وجنان
فما لهما والله فى الحسن ثالث ومالك فى ملك البرية ثانى

قال : فتضاعفت مكانته عنده ، ثم وشى به بعض أعدائه عند الناصر ؛ أن عنده بقية من حب الغلام وأنه لايزال يلهج[1] بذكره حين تحركه الشمول[2] فيقرع السن على تعذر الوصول إليه ، فقال الناصر للواشى ، لاتحرك به لسانك وإلا طار رأسك ، وكتب على لسان الغلام ورقة فيها : يامولاى تعلم أنك كنت لى على الانفراد ولم أزل معك فى نعيم ، وأنا وإن كنت عندالسطان مشاركا فى منزله محاذرا ما يبدو من سطوة الملك ، فتحيل فى استدعائى منه . ثم بعثها مع غلام صغير ، وأوصاه أن يقول : هى من عند فلان ، وأن الملك لم يكلمه قط ، فلما وقف عليها أبو عامر واستخبر الخادم ، أحسن بالمكيدة فكتب على ظهر الورقة يقول :

أمن بعد أحكام التجارب ينبغى لدى سقوط العير فى غابة الأسد
ولا أنا ممن يغلب الحب عقله ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
فإن كنت روحى قد وهبتك طائعا وكيف ترد الروح إن فارق الجسد

فلما وقف الناصر على الجواب ، تعجب من فطنته ولم يعد إلى سماع واشٍ فيه بعد ذلك ، ثم قال له : كيف خلصت من الشرك ؟ قال : لأن عقلى بالهوى غير مشترك .

---

(١) يلهج : يولع .

(٢) الشمول : الخمر .

٧- فصل

وهذا سبب قتل البرامكة وماوقع لهم مع الرشيد[١]

[٩٠] والقصة في ذلك على مارواه إبراهيم بن إسحاق عن أبى ثور زاهر بن صقلاب ، قال : بلغنى أنه كان لهارون الرشيد مجلس بالليل مع جعفر البرمكى ، فقال له يوما : لا يطيب لى ذلك إلا بمحضر أختى ميمونة، ولكن لا يجوز إلا إن كتبت لك عليها لإباحة النظر من غير أن تقربها ، فاتفقا على ذلك ، وعقد له عليها ، ثم أحضرها فكانت تحضر لذلك المجلس إلا أنه زاد غرامها وعشقها فيه ، وكان لجعفر البرمكى امرأة تزين له الجوارى كل ليلة ، فجاءت ميمونة لها وأرشتها بمال فزينتها له ، وأدخلتها عليه ، فظن أنها جارية فواقعها ؛ فلما أصبحوا ، قالت له : أنا ميمونة وقد كنت أسألك أن تساعدنى على مودتك فتأبى ؛ فلما أيست منك احتلت عليك بما رأيت فى هذه الليلة ، وإن لم تواظب لأكونن سببا فى سلب نعمتك ، وهل أنت إلا زوجى .

فقال لها جعفر : ويحك أهلكتينى وأهلكت نفسك وكان كما قال ، ولم يزورها حتى ظهر أمرها للرشيد . فهذا كان سبب قتل البرامكة ، وهذا ابتداء الحديث.

---

(١) انظر : البداية والنهاية (١٠/١٨٩-١٩٤) ، تاريخ بغداد (٧/١٥٢) ، تاريخ الطبرى حوادث سنة [١٨٧هـ] ، مقدمة ابن خلدون ص٢٢ .

[٩١] **قال المبرد** : قال أبو عبد الله المارستاني ، عن يحيى بن أكثم القاضي[١] ، قال : سألت إسماعيل بن يحيى الهاشمي ، عن سبب زوال نعمة البرامكة ؟ قال : نعم أعرف صحة الخبر وباطن القصة ، كان سبب ذلك : أني كنت مع الرشيد يوما من الأيام راكبا إلى الصيد فبينما نحن نسير ، إذ نظر إلى موكب بالبعد اعترضنا ، فقال لي: يا إسماعيل لمن هذا؟ فقلت : هو لأخيك جعفر بن يحيى ، فالتفت يمينا وشمالا إلى من معه في موكبه ، فإذا هو شرذمة يسيرة ، ثم نظر إلى الموكب الذي فيه جعفر فلم يره، فقال : يا إسماعيل مافعل جعفر وموكبه ؟ فقلت : ياسيدي قد مضى أخوك في طريق ولم يعلم بموضعك ، فقال : ما رأنا أهلا أن يزيننا بموكبه ويحملنا بجيشه؟ فقلت : العفو يا أمير المؤمنين لو علم بمكانك ماتعداك ، وماسار إلا بين يديك واعتذرت بما حضر لي من الكلام .

ثم سرنا حتى انتهينا إلى ضيعة عامرة ، ومواش كثيرة ، وعمارة حسنة، وكان الطريق يدور عليها ، فدرنا حتى وردنا باب القرية ، فنظر

(١) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن التميمي الأسدي : قاض ، رفيع القدر ، عالي الشهرة، يتصل نسبه بأكثم بن صيفي حكيم العرب ، اتصل بالمأمون أيام مقامه بها ، فولاه قضاء البصرة [٢٠٢هـ] ثم قضاء القضاة ببغداد ، وأضاف إليه تدبير الخلافة ، فكان وزراء الدولة لايقدمون ولايؤخرون في شيء إلا بعد عرضه عليه . وله غزوات وغارات منها أن المأمون وجهه [٢١٦هـ] إلى بعض جهات الروم فعاد ظافراً ، وكان يُتهم بأمور شاعت عنه ، وتناقلها الناس ولكن ذلك من حسد الناس له ، وكفى بابن حنبل لما ذُكر ذلك أمامه ، قال : سبحان الله سبحان الله ، ومن يقول هذا ؟! وأنكر ذلك إنكارا شديداً ، وقال فيه : ماعرفت فيه بدعة ، ت[٢٤٢هـ - ٨٥٧م] . انظر : طبقات الحنابلة (٤١٠/١) ، وفيات الأعيان (٢١٧/٢) .

الرشيد إلى البيدر[1] ، وإلى كثرة الغلال فيه ، والمواشى ، ويسار أهلها . فالتفت إلى وقال : يا إسماعيل لمن هذه الضيعة ؟ قلت : لأخيك جعفر بن يحيى ، فسكت ثم تنفس الصعداء ، ثم سرنا ولم يزل يمر بكل ضيعة أعمر من الأخرى ، وكلما مر وسألنى عن ضيعة ، قلت: لجعفر بن يحيى ، حتى سرنا ووصلنا إلى المدنية ؛ فلما أردت وداعه والانصراف إلى منزله نظر إلى من كان حواليه نظرة فعلموا ما أراد فتفرقوا ، وبقيت أنا وهو ، فقال : يا إسماعيل ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، فقال : انظر إلى البرامكة أغنيناهم وأفقرنا أولادنا وأغفلنا أمرهم ، فقلت فى نفسى : بلية والله ، ثم قلت : لماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : نظرت لهؤلاء وغفلت عن هؤلاء لأنى لا أعرف لأحد من أولادى ضيعة من ضياع البرامكة على طريق واحد على قرب هذه المدينة فكيف بما هو لهم غير ذلك على هذا الطريق فى سائر البلدان ، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما البرامكة عبيدك وخدمك والضيعات وأموالهم وكل ما يملكون لك ، فنظر إلى نظرة جبار عنيد ، ثم قال : ما عد البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وأنهم هم الدولة ، وأن لانعمة لبنى العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها ، فقلت : أمير المؤمنين أبصر من غيره بخدمه ومواليه ، فقال: والله يا إسماعيل إنك لتعلم أنى قلت هذا وكأنى أراك أن تعلمهم بكلامى فتتخذ لك عندهم يدا وإنى آمرك أن تكتم هذا الأمر ، فإنه ما علم به أحد غيرك ، ومتى بلغهم شىء مماجرى ، علمت أنه ما أفشاه إلا أنت ، فقلت : يا أمير المؤمنين أعوذ بالله أن يكون مثلى يفشى سرك .

(١) البيدر : الموضع الذى يجمع فيه الحصيد .

قال : وكان هذا القول أول ماظهر من أمر البرامكة ؛ ثم ودعته وانصرفت متفكرا فى إيقاع الحيلة عليهم .

فلما كان من الغد بكرت إليه وجلست بين يدية ، وكان فى محل يشرف على الدجلة من شرقى مدينة باب السلام ، وبإزائه منزل جعفر من الجانب الغربى ، وكانت المواكب من جميع الأصناف من قائد وأمير وعامل يردون فى كل يوم إلى قصر جعفر ، فالتفت إلىَّ وقال : يا إسماعيل هذا ماكنا فيه بالأمس ، انظر كم على باب جعفر من الجيوش والغلمان والمواكب ، وأنا ماعلى باب دارى أحد ، فقلت : يا أميرالمؤمنين ناشدتك الله أن لاتعلق نفسك بشىء من هذا ، وإن جعفرا إنما هو عبدك، وخادمك، ووزيرك ، وصاحب جيوشك ، إذا لم يكن الجيش على بابه فعلى باب من يكون ، إنما بابه من أبوابك ، فقال : يا إسماعيل انظر إلى دوابهم ألست ترى إعجازهم إلى قصرى وتروث بإزائنا ، ونحن ننظر إليها والله هذا هو الاستخفاف بعينه، والله لا أصبر على ذلك ، ثم غضب غضبا شديدا وامتلأ غيظا فأمسكت عن الكلام ، وقلت : والله هذا قضاء من الله سابق وحكم لا محالة واقع ، ثم استأذنته فى الانصراف ورجعت إلى منزلى؛ فلقينى جعفر فى الطريق يريد الرشيد ، فتواريت عنه حتى مضى ، فدخل إليه وسلم عليه فأجلسه عن يمينه وأكرمه غاية الإكرام ، وبش فى وجهه وحادثه ساعة ووهب له خادما من خاصة خدمه ، وأنبلهم وأوضحهم وجها ، وأكملهم ظرفا ، كاتبا حاسبا لبيبا ؛ فسر جعفر سرورا كاملا ، ووقع فى قلبه أجل موقع ، وكان دسيسا عليه وبلية لديه ، يرفع أخباره إلى الرشيد ويحصى عليه أنفاسه ساعة بساعة ووقتا بوقت ، فخلا به جعفر يومه ذلك وليلتة واحتجب من أجله عن الناس .

فلما كان بعد ثلاثة أيام سرت إلى جعفر فسلمت عليه ، فلما خلا مجلسه ولم يبق عنده غيرى وذلك الخادم واقف ، وعلمت أن الخادم يحصى علينا أخبارنا ؛ فقلت : أيها الوزير نصيحة أفتأذن لى فى الكلام ، قال : تكلم وكان الرشيد ولاه كورة خراسان كلها وما يضاف وينسب لها قبل هذا الكلام بأيام ، وخلع عليه وعقد له لواء وعسكرا بالنهروان ، وضرب الناس مضاربهم بها وهم متأهبون للسفر ؛ فقلت : يا سيدى أنت عازم على الخروج إلى بلدة كثيرة الخير واسعة الأقطار عظيمة المملكة ، فلو صيرت بعض ضياعك لولد أمير المؤمنين لكان أحظى لمنزلتك عنده ، فلما قلت ذلك نظر إلى مغضبا ، وقال : والله يا إسماعيل ما أكل الخبز ابن عمك ؛ أو قال صاحبك إلابفضلى ، ولا قامت هذه الدولة إلا بنا ، أما كفى أنى تركته لايهتم بأمر شىء من أمر نفسه وولده وحاشيته ورعيته ، وقد ملأت بيوت أمواله أموالا ، ولازالت للأمور الجليلة أدبرها ، حتى يمد عينه إلى ما ادخرته واخترته لولدى وعقبى من بعدى ، وداخله حسد بنى هاشم وبغيهم ودب فيه الطمع ، والله لئن سألنى شيئاً من ذلك ليكونن وبالا عليه سريعا ، فقلت: والله ياسيدى ماكان مما ظننت شىء ولاتكلم أمير المؤمنين بحرف ، قال : فما هذا الفضول منك ، فقعدت بعدها هنيهة ثم ، قمت إلى منزلى ولم أركب إليه ولا إلى الرشيد لأنى صرت بينهما فى حال تهمة ، وقلت فى نفسى : هذا الخليفة وهذا وزيره ، وأى شىء لى بالدخول بينهما ، ولاشك فى زوال نعمة البرامكة وإن أمورهم قد انثلمت[1].

---

(١) انثلمت : اختلت .

قال : وحدثني خادم أم جعفر أن الخادم الـذى وهبه الرشيد لجعفر كتب إلى الرشيد بما كان بيني وبينه وما تكلم به من الكلام الغليظ . قال : فلما قرأ الكتاب وفهم الخبر احتجب ثلاثه أيام متفكرا فى إيقاع الحيلة على البرامكة ، فدخل فى اليوم الرابع على زبيدة فخلا بها وشكا لها ما فى قلبه وأطلعها على الكتاب الذى رفعه إليه الخادم ، وكان بين جعفر وزبيدة شر وعداوة قديمة ؛ فلما تملكت الحجة عليه بالغت فى المكر بهم ، واجتهدت فى هلاكهم ، وكان الرشيد يتبرك بمشورتها ، فقال : أشيرى على برأيك الموافق الرشيد ، فإنى خائف أن يخرج الأمر من يدى إنْ تمكنوا من خراسان وتغلبوا عليها .

فقالت : يا أمير المؤمنين مثلك مع البرامكة كمثل رجل سكران غريق فى بحر عميق ، فإن كنت قد أفقت من سكرتك وتخلصت من غرقتك أخبرتك بما هوأصعب عليك وأعظم من هذا بكثير ، وإن كنت على الحالة الأولى تركتك ، فقال لها : قد كان ما كان فقولى أسمع منك . فقالت : إن هذا الأمر أخفاه عنك وزيرك ، وهو أصعب مما أنت فيه وأقبح وأشنع ، فقال لها: ويحك وماهو ؟ فقالت: أنا أجل من أن أخاطبك به ولكن تحضر أرجوان الخادم وتشدد عليه وتوهنه ضربا ، فإنه يعرفك الخبر وكان الرشيد قد أحل جعفرا محلا لم يحله أخاه ولا أباه وأمره أن يدخل على الحريم فى السفر والحضر وأبرز إليه جواريه وأخواته وبناته ، لأنه كان بينهما رضاع سوى امرأته زبيدة ، فإنه لم يكن رآها ولا دخل عليها ولا قضى لها حاجة ولا هى أيضا تستقضيه حاجة ، فلما فسد قلب الرشيد وعزم على هلاك البرامكة ، وجدت سبيلا على البرامكة فحطت على جعفر ، وكان جعفر

يدخل الحريم في غياب الرشيد ، ويقضي حوائجهن لأنهن لايستترن منه ، وكان ذلك بأمر الرشيد ولم يعلم الرشيد ماحدث من جعفر .

قال : فخرج الرشيد واستدعى بأرجوان الخادم وأحضر السيف والنطع، وقال: برئت من المنصور إنْ لم تصدقني في حديث جعفر لأقتلنك، فقال : الأمان يا أمير المؤمنين قال : نعم لك الأمان ، فقال : اعلم إن جعفراً قد خانك في أختك ميمونة، وقد دخل بها منذ سبع سنين ، وولدت منه ثلاث بنين ، أحدهم له ست سنين ، والآخر له خمس سنين ، والثالث عاش سنتين ومات قريبا ، والاثنان قد أنفذهما إلى مدينه الرسولﷺ ، وهي حامل بالرابع ، وأنت أذنت له بالدخول على أهل بيتك، وأمرتني أن لا أمنعه في أي وقت شاء ليلا أو نهارا ، قال : أمرتك أن لاتحجبه ، فحين حدثت هذه الحادثة لم لا أخبرتني أول مرة ، ثم أمر بضرب عنقه ، وقام من وقته على الفور ودخل على زبيدة وقال لها : أرأيت ماعاملني به جعفر ، وما ارتكب من هتك ستري ونكس رأسي ، وفضحني بين العرب والعجم ، فقالت : هذه شهوتك وإرادتك عمدت إلى شاب جميل الوجه ، حسن الثياب طيب الرائحة جبار في نفسه ، أدخلته على ابنة خليفة من خلفاء الله، وهي أحسن منه وجها ، وأنظف منه ثوبا ، وأطيب منه رائحة ، لكنها لم تر رجلا قط غيره ، فهذا جزاء من جمع بين النار والحطب .

فخرج من عندها مكروبا فدعا بخادمه مسرور ، وكان قاسي القلب فظا غليظا ، قد نزع الله الرحمة من قلبه ، فقال : يا مسرور إذا كانت الليلة بعد العتمة فأتني بعشرة من الفعلاء أجلاد ، ومعهم خادمان قال : نعم ،

فلما كان بعد العتمة جاء مسرور ومعه الفعلاء والخادمان ، فقام الرشيد وهم بين يديه حتى أتى المقصورة التى فيها أخته فنظر إليها وهى حامل فلم يكلمها بشىء ولم يعاتبها على مافعلت وأمر الخادمين بإدخالها فى صندوق كبير فى مقصورتها بعد قتلها ، ووضعها بحليها وثيابها كما هى ، وقفل عليها ، وقد علمت أنها بعد قتل أرجوان لاحقه به ؛ فلما علم أنه استوثق بها ، دعا بالفعلاء ومعهم المعاول والزنابيل فحفروا وسط تلك المقصورة ، حتى بلغوا الماء ، وهو قاعد على كرسى ، ثم قال : حسبكم هاتوا الصندوق فدلوه فى تلك الحفرة ، ثم قال : ردو التراب عليه ففعلوا وسووا الموضع كما كان ، ثم أخرجهم وقفل الباب وأخذ المفتاح معه ، وجلس فى موضعه والفعلاء والخادمان بين يديه ، ثم قال : يامسرور خذ هؤلاء القوم وأعطهم أجرتهم ، فأخذهم مسرور وجعلهم فى جواليق وخيط عليهم بعد أن ثقلهم بالصخر والحصى ورماهم فى وسط الدجلة ، ورجع من وقته، فوقف بين يديه فقال : يا مسرور فعلت ما أمرتك به ؟ قال: وفيت القوم أجورهم ، فدفع إليه مفتاح البيت وقال احفظه حتى أسألك عنه ، وامض الآن فانصب فى وسط المحل القبة التركية ، ففعل ذلك ووافاة قبل الصبح ، ولم يعلم أحد ما يريد .

فلما جلس فى مجلسه وكان يوم الخميس يوم موكب جعفر ، قال : يا مسرور لاتتباعد عنى ، ودخل الناس فسلموا عليه ووقفوا على مراتبهم ، ودخل جعفر بن يحيى البرامكى فسلم عليه فرد عليه السلام أحسن رد ، ورحب به وضحك فى وجهه ، فجلس فى مرتبته وكانت مرتبته أقرب المراتب إلى أميرالمؤمنين ، ثم حدثه ساعة وضاحكه ؛ فأخرج جعفر الكتب الواردة عليه من النواحى ، فقرأها عليه وأمر ونهى ، ومنع ونفذ

الأمور ، وقضى حوائج الناس ؛ ثم استأذنه جعفر فى الخروج إلى خراسان في يومه ذلك ، فدعا الرشيد بالمنجم وهو جالس بحضرته ، فقال الرشيد : كم مضى من النهار ؟ قال : ثلاث ساعات ونصف ، وأخذ له الارتفاع وحسب له الرشيد بنفسه ، ونظر فى نجمه ، فقال : يا أخى هذا يوم نحوسك ، وهذه ساعة نحس ولا أرى إلا أنه يحدث فيها حدث ولكن تصلى الجمعة وترحل فى سعودك ، وتبيت فى النهراوان ، وتبكر يوم السبت وتستقبل الطريق بالنهار ، فإنه أصلح من اليوم . فما رضى جعفر بما قاله الرشيد ، حتى أخذ الاصطرلاب[1] من يد المنجم ، وقام وأخذ الطالع وحسب الطالع لنفسه ، وقال : والله صدقت يا أمير المؤمنين إن هذه الساعة ساعة نحس وما رأيت نجما أشد احتراقا ، ولا أضيق مجرى من البروج فى مثل هذا اليوم ، ثم قام وانصرف إلى منزله والناس والقواد والخاص والعام من كل جانب يعظمونه ويحلونه إلى أن وصل إلى قصره فى جيش عظيم وأمر ونهى وانصرف الناس؛ فلم يستقر به المجلس حتى بعث إليه الرشيد مسرورا ، وقال له : امض إلى جعفر وائتنى به الساعة ، وقل له : وردت كتب من خراسان ، فإذا دخل الباب الأول أوقف الجند ، وإذا دخل الباب الثانى أوقف الغلمان ، وإذا دخل الباب الثالث فلا تدع أحد يدخل معه من غلمانه بل يدخله وحده، فإذا دخل فى صحن الدار فمل به إلى القبة التركية التى أمرتك بنصبها فاضرب عنقه ، وأئتنى برأسه ولا توقف أحدا من خلق الله على ما أمرتك به ، ولا تراجعنى فى أمره ، وإن لم تفعل أمرت من يضرب عنقك ويأتينى برأسك ورأسه جملة ، وفى دون هذا كفاية ، وأنت أعلم ، وتبادر قبل أن يبلغه الخبر من غيرك .

---

(١) الإصطرلاب : هو ميزان الشمس وهى كلمة يونانية .

فمضى مسرور ، واستأذن على جعفر فدخل عليه وقد نزع ثيابه وطرح نفسه ليستريح ، فقال : سيدى أجب أمير المؤمنين ، قال : فانزعج وارتاع منه ، وقال : ويلك يا مسرور أنا فى هذه الساعة خرجت من عنده فما الخبر ؟ قال : وردت كتب من خراسان يحتاج أن تقرأها ؛ فطابت نفسه ودعا بثيابه فلبسها وتقلد بسيفه وذهب معه .

فلما دخل من الباب الأول أوقف الجند ، وفى الثانى أوقف الغلمان ، فلما دخل من الثالث إلتفت فلم ير أحداً من غلمانه ولا الخادم الفرد ؛ فندم على ركوبه تلك الساعة ولم يمكنه الرجوع ، فلما صار بإزاء تلك القبة المضروبة فى صحن الدار مال به إليها ، وأنزله عن دابته ، وأدخله القبة فلم ير فيها أحدا ، وفى رواية رأى فيها سيفا ونطعا فحس بالبلاء ، وقال لمسرور: يا أخى ما الخبر ؟ فقال له مسرور : أنا الساعة أخوك ، وفى منزلك تقول لى : ويلك ، أتدرى ما القضية وما كان الله ليهملك ولا ليغفلك ، فقد أمرنى أمير المؤمنين بضرب عنقك ، وحمل رأسك إليه الساعة ؛ فبكى جعفر وجعل يقبل يدى مسرور ورجليه ، ويقول : يا أخى يامسرور قد علمت كرامتى لك دون جميع الغلمان والحاشية ، وإن حوائجك عندى مقضية فى سائر الأوقات ، وأنت تعرف موضعى ومحلى من أمير المؤمنين ، وما يوحيه إلى من الأسرار ، ولعل أن يكون بلغوه عنى باطلا ، وهذه مائة ألف دينار منى لك أحضرها لك الساعة ، قبل أن أقوم من موضعى هذا ، وخلنى أهيم على وجهى ، فقال : لاسبيل إلى ذلك أبدا، قال : فاحملنى إليه وأوقفنى بين يديه ، فلعله إذا وقع نظره على تدركه الرحمة ، فيصفح عنى ، قال : مالى سبيل إلى ذلك أبدا ، ولا يمكننى مراجعته، وقد علمت أنه لا سبيل إلى الحياة أبدا ، قال : فتوقف عنى ساعة

وارجع إليه ، وقل له: قد فرغت مما أمرتني به واسمع مايقول ، وعد فافعل ماتريد فإن فعلت ذلك وحصلت لي السلامة ، فإني أشهد الله وملائكته إني أشاطرك في نعمتي مما ملكته يدى ، وأجعلك أمير الجيش وأملكك أمر الدنيا ، ولم يزل به وهو يبكى حتى طمع فى الحياة . قال له مسرور : إنما يكون ذلك وحل سيفه ومنطقته واخذهما ووكل به اربعين غلاما من السودان يحفظونه ؛ ومضى مسرور ووقف بين يدي الرشيد وهو جالس ، يقطر غضبا وفى يده القضيب الولع ينكت به فى الأرض .

فلما رآه قال له : ثكلتك أمك مافعلت فى أمر جعفر ، فقال : ياأمير المؤمنين قد أنفذت أمرك فيه ، فقال : فأين رأسه ، فقال: فى القبة ، قال: فأتنى برأسه الساعة فرجع مسرور وجعفر يصلى وقد ركع ركعة ، فلم يمهله أن يصلى الثانية حتى سل سيفه الذى أخذه منه وضرب عنقه ، وأخذ رأسه بلحيته فطرحه بين يدى أمير المؤمنين ، وهو يشخب[1] دما فتنفس الصعداء وبكى بكاء شديداً ، وجعل ينكت فى الأرض أثر كل كلمة ، ويقرع أسنانه بالقضيب ويخاطبه ويقول يا جعفر : ألم أحلك محل نفسى ، يا جعفر : ما كافأتنى ولاعرفت حقى ، ولا حفظت عهدى ، ولا ذكرت نعمتى ، ولا نظرت فى عواقب الأمور ، ولا تفكرت فى صروف الدهر ولا حسبت تقلب الأيام ، واختلاف أحوالها ، يا جعفر : خنتنى فى أهلى ، وفضحتنى بين العرب والعجم ، ياجعفر : أسأت إلىَّ وإلى نفسك ، وتفكرت فى عاقبة أمرك .

---

(١) يشخب : يسيل .

قال مسرور : وأنا واقف بين يديه وهو ينكت فى الأرض فى كل كلمة ، ولم يزل كذلك إلى أن أذن لصلاة الظهر ، فدعا بماء فتوضأ للصلاة وخرج للجامع فصلى بالناس جماعة ، ثم إلتفت بوجهه لقصور جعفر ودوره، وقبض على أبيه وأخيه وجميع أولاد البرامكة ومواليهم وغلمانهم واستباح مافيه ووجه مسرورا إلى المعسكر ، فأخذوا جميع مافيه من مضارب وخيام وسلاح وغير ذلك .

فلما أصبح يوم السبت فإذا هو قد قتل من البرامكة وحاشيتهم نحو ألف إنسان ، وترك من بقى منهم لايرجع إلى وطنه وشتت شملهم فى البلادولم يقدر أحد منهم على كسرة خبز ، وحبس أباه يحيى ، وأخاه الفضل فى مطمورة وأمر بجثت جعفر فصلبت على الجسر ببغداد، ثم بعث إلى خراسان أن يوطن بلادها ، وأمر الناس فردوا مضاربهم، ودخل المعسكر واستقرت له الأمور .

وأحضر على بن عيسى بن ماهان(١) فولاه خراسان ، فوجه إلى مدينة النبى ﷺ فأتى بالصبيين ولدى جعفر من أخته ميمونة فأدخلا عليه فى بيته فلما رآهما أعجب بهما وكانا فى نهاية من الحسن والجمال ، فاستنقطهما فوجد لغتهما مدنية وفصاحتهما هاشمية وفى ألفاظهما عذوبة وبلاغة ،

---

(١) على بن عيسى بن مهان : من كبار القادة فى عصر الرشيد والأمين وهو الذى حرض الأمين على خلع المأمون من ولاية العهد ، وسيره الأمين لقتال المأمون بجيش كبير ، ولاه إمارة الجبل وهمذان ، وأصبهان ، وقم ، وحارب جيش المأمون بقيادة طاهر بن حسين فى الرى فقتل ، وانهزم أصحابه ، ت [١٩٥هـ - ٨١٠م] . انظر : النجوم الزاهرة (١٤٩/٢) ، الكامل لابن الأثير (٧٩/٦) ، البداية والنهاية (٢٢٦/١٠) .

فقال لكبيرهما : ما اسمك ياقرة عيني ؟ قال : الحسن ، وقال للصغير : ما اسمك ياحبيبي ؟ قال : الحسين ، فنظر إليهما وبكى بكاء شديدا ، ثم قال: يعز علي حسنكما وجمالكما لارحم الله من ظلمكما ، ولم يد يا ما يراد بهما ، ثم قال : يامسرور ما فعلت بالمفتاح الذى دفعته لك وأمرتك بحفظه ؟ قال : هو حاضر يا أمير المؤمنين ، قال : فإئتنى به ، ثم دعا بجماعة من الغلمان والخدم ، وأمرهم أن يحفروا فى البيت حفرة عميقة ، ودعا مسرورا وأمره بقتلهما ودفنهما مع أمهما فى تلك الحفرة ، رحمهم الله تعالى جميعا ، وهو مع ذلك يبكى بكاء شديدا حتى ظننت أنه رحمهما، ثم مسح عينيه من الدموع، وأمر أن لا تذكر البرامكة فى مجلس، ولايستعان بمن بقى منهم فى المدينة أبدا ، فخرجوا على وجوههم فى البلاد شاردين متنكرين ، وقطع الله دابرهم .

[٩٢] **قال** : لما كان بعد مدة من هلاك البرامكة وجد الرشيد رقعة تحت مصلاه ، فيها خطاب وأبيات من الشعر فبحث عنها، فقيل: إن صاحب السر(١) عملها ، فبعث إليه فسأله عنها ، فقال : يا أمير المؤمنين وجدتها فى صحن الدار ولا أعلم من طرحها ، فأخذتها وطرحتها تحت مصلاتك .

فقيل :إن ذلك من زبيدة ، لتهلك من بقى من البرامكة ،فعملت الرقعة للرشيد وحركته وزادت فى غيظه،فاستدعى فى الوقت بالفضل بن يحيى(٢)،

---

(١) صاحب السر : أحد أعوانة الخليفة .

(٢) الفضل بن يحيى بن خالد البرمكى : وزير الرشيد ، وأخوه فى الرضاعة . سجنه الرشيد وعذبه إثر نكبة جعفر البرمكى ، ومات فى سجن الرشيد بالرقة [١٩٣هـ] .

وضربه سياطا حتى كاد أن يهلكه، وزاد فى حديده وأغلاله ، ثم استدعى يحيى[1] وكان شيخا كبيرا وزاد فى حديده وأغلاله أيضا ، وكان قد نشأ فى النعيم ، فتذكر فقد جعفر وتشتت الأهل ، فكتب كتابا إلى الرشيد يستعطفه ، ويسأله أن يخفف عنه من القيد والغل ، وهو:"بسم الله الرحمن الرحيم إلى أمير المؤمنين ونسل المهديين ، وإمام المسلمين ، وخليفة رسول رب العالمين ، من عبد أسلمته ذنوبه ، وأوبقته عيوبه ، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه ، وخانه الزمان ، وأناخ عليه الخذلان ، ونزل به الحدثان ، فصار إلى الضيق بعد السعة ، وعالج الموت بعد الدعة[2] ، وشرب كأس الموت مترعة[3] ، وافترش السخط بعد الرضا ، واكتحل السهر بعد الكرى ، فنهاره فكر ونومه سهر وساعتة شهر وليله دهر ، قد عاين الموت مرارا وشارف الهلاك جهارا ؛ يا أمير المؤمنين قد أصابتنى مصيبتا الحال والمال ، أما المال : فإن ذلك منك ولك ، وكان فى يدى

---

(١) يحيى بن خالد بن برمك ، أبو الفضل : الوزير السرى الجواد ، سيد بنى برمك وأفضلهم ، وهو مؤدب الرشيد ومعلمهم ، رضع الرشيد من زوجة يحيى مع ابنها الفضل . أمره المهدى [١٦٣هـ] أن يلازم بعد أن بلغ من عمره أربعة عشر عاما ويكون كاتبا له . ولما ولى هارون الخلافة دفع خاتمه إلى يحيى وقلده أمره ، فبدأ يعلو شأنه . واشتهر يحيى بجوده وحسن سياسته. واستمر إلى أن نكب الرشيد البرامكة فقبض عليه وسجنه إلى أن مات . ت [١٩٠هـ – ٨٠٥م] . انظر : وفات الأعيان (٢/٢٤٣) .

(٢) الدعة : الرغد فى العيش .

(٣) مترعة : مملوءة ، وهى كناية عن شدة مايلاقى من العذاب .

عارية(1) منك ولابأس برد العوارى إلى أهلها . وأما المصيبة : بجعفر فبجرمه وجراءته ، وعاقبته بما استخف من أمرك وكان جزاؤه فوق ما استحق . وأما الفقير : فاذكر يا أمير المؤمنين خدمتى وارحم ضعفى ووهن قوتى وهب لى رضاك ، فمِنْ مثلى الزلل ومِنْ مثلك الإقالة(2) ، ولست أعتذر ولكن أقر وقد رجوت أن أفوز برضاك ، فتقبل عذرى ، وصدق نيتى وظاهر طاعتى وتلويح حجتى ، ففى ذلك مايكتفى به أمير المؤمنين ويرى الحقيقة فيه ويبلغ المراد منه ، ثم أنشأ يقول :

قـل للخليفة ذى الصنا ... ئع والعطايا الفاشيه(3)
وابن الخلائف من قريـ ... ـش والملوك العاليه
رأس الأمور وخير من ... ساس الأمور الماضيه
إن البرامكة الذين ... رموا لديك بداهيه
عمتهمو لك سخطة ... لم تبق منهم باقيه
فكأنهم مما بهم ... أعجاز نخل خاويه
صفر الوجوه عليهم ... خلع المذلة باديه
مستضعفون ومطردون ... بكل أرض قاصيه
بعد الإمارة والوزا ... رة والأمور الساميه
ومنازل كانوا بها ... فوق المنازل عاليه
أضحوا وجل مُناهمو ... منك الرضا والعافيه

(1) العَارِية: ما تعطيه غيرك على شرط أن يعيده إليك، وجمعها عوارى .

(2) الإقالة : العفو والصفح .

(3) الفاشية : العديدة المنتشرة .

يـا مـن يريـد لـي الـردى يكفيـك ويحـك مـا بيـه[1]
يكفيـك أنـي مستبـا ح عـترتي ونسـائيه[2]
يكفيـك مـا أبصرتـه ذلـي وذل مكانيـه
فلقـد رأيـت المـوت مـن قبـل الممـات علانيـه
وبكـاء فاطمـة الكبـيرة والدمـوع الجاريـه
ومقالهـا بتفجـع يـا سـوأتي وشـقائيه
مـن لـي وقـد غلـب الزمـا ن علـى جميـع رجاليـه
يـا لهـف نفسـي لهفهـا مـا للزمـان وماليـه
أو مـا سـمعت مقـالتي يـاذا الفـروع الزاكيـه
ياعطفـة الملـك الرضـا عـودي علينـا ثانيـه

فلما وقف الرشيد على الرقعة ، كتب على ظهر ها هذه الأبيات :

يـا آل برمـك إنكـم كنتـم ملوكـا عاتيـه
فعصيتمـو وطغيتمـو وكفرتمـو نعمائيـه
هـذى عقوبـة مـن عصـى مـن فوقـه وعصانيـه
أجـرى القضـاء عليكمـو مـا ختتمـوه علانيـه
مـن تـرك نصـح إمـامكم عنـد الأمـور الباديـه

ثم أردفه بقوله تعالى بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**﴾ [النحل: ١١٢].

---

(١) الردى : الهلاك .

(٢) العترة : الذرية والعشيرة .

فلما قرأها يحيى وهو بالسجن ، أخذته الحمى لوقته وساعته وكان ينام على التراب وأيس من الحياة ، وعلم أنه ليس له مخلص مما هو فيه من السجن انتهى .

[٩٣] [وقيل] **ليحيى بن خالد بن برمك** : أيها الوزير أخبرنا بأحسن ما رأيت في أيام سعادتك ؟ قال : ركبت يوما في بعض الأيام فى سفينة أريد التنزه ، فلما خرجت برجلي لأصعد فاتكأت على لوح من ألواحها ، وكان بإصبعي خاتم فطار فصه من يدى ، وكان ياقوتا أحمر قيمته ألف مثقال من الذهب فتطيرت[1] من ذلك . ثم عدت إلى منزلى وإذا بالطباخ قد أتى بذلك الفص بعينه وقال أيها الوزير لقيت هذا الفص فى بطن حوت ؛ وذلك لأنى اشتريت حيتانا للمطبخ فشققت بطنها فرأيت هذا الفص ، فقلت : لايصح هذا إلا للوزير أعزه الله تعالى ، فقال : الحمد لله هذا بلوغ الغاية .

[٩٤] [وقيل] له أخبرنا ببعض ما لقيت من المحن ؟ قال : اشتهيت لحما فى قدر طباخ وأنا فى السجن فغرمت ألف دينار فى شهوتى ، حتى أتيت بقدر ولحم مقطع فى قصبة فارسية والخل وسائر حوائجها فى قصبة أخرى وتركوا عندى ما أحتاج إليه، وأتيت بنار فأوقدت تحت القدر ونفخت ولحيتى فى الأرض حتى كادت روحى تخرج . فلما أنضجت تركتها تفور وتغلى وفتت الخبز وعمدت لأنزلها فانفلقت وانكسرت القدر على الأرض فبقيت ألتقط اللحم ، وأمسح منه التراب وآكله وذهب المرق الذى كنت أشتهيه وهذا أعظم ما مربى انتهى .

---

(١) تطير : تشاءم

[٩٥] ثم [قيل] : إن الرشيد نذر الحج ، فخرج وخرج معه العسكر وكان خروجه في رمضان ، فكانت تضرب له السرادقات المكللة بالديباج مفروشة بالحرير يخرج من سرادق إلى سرادق ، والناس محدقون به حتى وصل إلى الحرم وحج ؛ فاتفق أن الوفاة دنت من يحيى وهو فى السجن ، فكتب رقعة وأوصى ولده الفضل أن يوصلها إلى الرشيد ، وكتب فيها هذه الأبيات :

ستعلم فى الحساب إذا التقينا ... غدا يوم القيام من الظلوم
وينقطع التلذذ عن أناس ... من الدنيا وتنقطع الهموم
تنام ولم تنم عنك المنايا ... تنبه للمنية يا نؤوم[١]
تروم الخلد فى دار المنايا ... وكم قد رام غيرك ما تروم[٢]
إلى ديان يوم الدين نمضى ... عند الله تجتمع الخصوم

قال : فلما قدم الرشيد أنفذها إليه الفضل ، فلما قرأها علم بموته ، فقال : مات والله يحيى ، ومات الجود والكرم والسخاء ، والله لو كان حيا لفرجت عنه ، ثم أمر بإطلاق الفضل ابنه واستوزره مكان أخيه جعفر رحمة الله عليهم أجمعين .

[٩٦] قال بعضهم فى البرامكة شعرا :

إن البرامكة الكرام تعلموا ... فعل الكرام فعلموه الناسا
كانوا إذا غرسوا سقوا وإذا بنوا ... لم يهدموا مما بنوه أساسا

---

(١) المنايا : الموت .

(٢) تروم : تريد .

وإذا همو صنعوا الصنائع فى الـورى   جعلـوا لهـا طـول البقـاء لباسـا
فعـلام تسـقينى وأنـت سـقيتنى   مـن مـر هجـرك مـن جنـابك كاسـا
آنسـتنى متـفضـلا أفـلا تـرى   أن انقطـاعـك يـوحـش الإينـاسـا

[٩٧] وسئل ، إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيي بن خالد ؟ فقال : أما الفضل ففعله يرضيك . وأما جعفر فقوله يرضيك . وأمـا محمـد فيفعل ما يجد .وفي يحيي يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حر فقال لا   ولكننى عبد ليحيـى بـن خـالد
فقلـت شـراء قـال لابـل وراثـة   توارثنـى مـن والـد بعـد والـد

وفى الفضل يقول القائل :

إذا نـزل الفضـل بـن يحيـى بلـدة   رأيـت بهـا عشـب السـماحة ينبـت
فليـس بسـعال إذا سـئل حاجـة   ولا بمكب فى ثرى الأرض ينكت(١)

وفى محمد يقول القائل :

سألت الندى والجود مالى أراكما   تبدلتمـا عـزا بـذل مؤبـد
وما بال ركن المجد أمسى مهدما   فقالا أصبنا فى ابـن يحيـى محمـد
فقلـت فهـلا متمـا بعـد موتـه   وقد كنتما عبديه فـى كـل مشـهد
فقـالا أقمنـا كـى نعـزى بفقـده   مسافة يـوم ثـم نتلـوه فـى غـد

[٩٨] وذكر الحافظ السيوطي ـ نفعنا الله به ـ في رسالته مشتهى العقول في منتهي النقـول : أن منتهـى الكـرم للـوزراء البرامكـة كـاد أن لا

(١) السعال ، عند سؤال الحاجة : كناية عن الإعراض والصدود .

يوجد أحد من العلماء والحكماء والعظماء والندماء إلا وللبرامكة عليه كرم نما كماء السماء .

وتكرم جعفر بخمسين ألف دينار من الذهب وتكرر منه كثيرا فى ولايته كلها من غير مَنّ ولا أذى ولا لغرض ولا لمرض حتى صار يضرب بهم المثل الأكبر بقولهم تبرمك فلان .

ومن كرم جعفر إنه تكرم فى يوم على ألف شاعر أعطى كل شاعر ألف درهم والدرهم ثلاثة أنصاف فضة ، ومن كرمه أنه تكرم على من هجاه بخمسة آلاف دينار وعفا عن تأديبه وتعذيبه .

[٩٩] [قيل] : أوقع بهم من الأمر ما أوقع الرشيد صار أمرهم إلى ما سيوصف من الفقر والذل والإهانة ، فمن ذلك : ما قاله محمد بن غسان صاحب ولاية الكوفة وقاضيها ، قال : دخلت على أمى فى يوم عيد أضحى فرأيت عندها عجوز فى أطمار[1] رثة وإذا لها بيان ولسان ، فقلت لأمى : من هذه ؟ قالت : هذه خالتك عتابة[2] أم جعفر البرمكى ابن يحيى فسلمت عليها ، وقلت لها : أصار بك الدهر إلى ما أرى ! قالت : نعم يا بنى إن الذى كنا فيه كان عارية ارتجعها الدهر منا .

---

(١) أطمار : الثوب البالى .

(٢) عتابة ، وقيل : فاطمة بنت محمد بن الحسن بن قحطبة : سيدة جليلة ذات نفوذ وسلطان ، واحترام لدى الراعى والرعية ، كان الرشيد يشاورها مظهرا لإكرامها والتبرك برأيها . انظر : أعلام النساء (١/١٩٦) .

قال : فقلت : حدثيني ببعض شأنك ، قالت : خذه جملة لقد مضى عليّ عيد أضحى مثل هذا منذ ثلاث سنين ، وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابني عاق لي ، وقد جئتكم اليوم أطلب جلدي شاة ، أجعل أحدهما شعارا والآخر دثارا . قال : فغمني ذلك وأبكاني فوهبت لها بعض دنانير كانت عندي ، والله أعلم .

[١٠٠] **ومن قول يحيى بن خالد لابنه جعفر** : يا بني مادام قلمك يرعف[1] فأمطره معروفا .

[١٠١] **ومن كلام جعفر** : إذا أحببت إنسانا من غير سبب فارج خيرا ، وإذا أبغضت إنسانا من غير سبب فتوق شرا .

[١٠٢] **وقال يحيى بن سلام الأبرش** ، قال : حدثني أبي قال : خرج الرشيد للصيد يوما بعدما أباد البرامكة فاجتاز بجدار خراب من جدران بني برمك فرأى لوحا مكتوبا عليه هذه الأبيات :

يا منزل لعب الزمان بأهله ... فأبادهم بتفرق لا يجمع
إن الذين عهدتهم فيما مضى ... كان الزمان بهم يضر وينفع
أصبحت تفزع من رآك وطالما ... كنا إليك من المخاوف نضرع
ذهب الذين يعاش في أكنافهم ... وبقي الذين حياتهم لا تنفع

قال : فبكى الرشيد ، وأقبل على الأصمعي وقال : أتعرف شيئاً من أخبار البرامكة تحدثني به ؟ فقال الأصمعي : ولي الأمان ، قال ولك الأمان.

---

(١) رعف القلم : كثر مداده .

فقال : أحدثك بشيء شاهدته بعيني من الفضل بن يحيى ؛ وذلك أنه خرج يوما للصيد والقنص وهو في موكبه إذ رأى أعرابيا على ناقة قد أقبل من صدر البرية يركض في سيره ، قال : هذا يقصدني ، فقلت : ومن أعلمك ؟ قال : لا يكلمه أحد غيري . فلما دنا الأعرابي ورأى المضارب تضرب والخيام تنصب والعسكر الكثير والجم الغفير، وسمع الغوغاء والضجة ظن أنه أمير المؤمنين فنزل وعقل راحته وتقدم وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : اخفض عليك ما تقول ، فقال: السلام عليك أيها الأمير ، قال : الآن قاربت اجلس فجلس الأعرابي فقال له الفضل: من أين أقبلت يا أخا العرب ؟ قال : من قضاعة ، قال : من أدناها أم من أقصاها ؟ قال : من أقصاها ، قال الأصمعي : فالتفت إلى الفضل ، وقال : كم من العراق إلى أرض قضاعة ؟ فقلت : ثمانمائة فرسخ، فقال : يا أخا العرب مثلك لم يقصد من ثمانمائة فرسخ إلى العراق إلا لشيء ، قال : قصدت هؤلاء الأماجد الأنجاد الذين قد اشتهر معروفهم في البلاد . قال : من هم ؟ قال : البرامكة ، قال الفضل : يا أخا العرب البرامكة خلق كثير وفيهم جليل وخطير ؛ ولكل منهم خاصة وعامة ، فهلا أفردت لنفسك منهم من اخترت لنفسك وأتيته لحاجتك ؟ قال : أجل ، قال : أطولهم باعا وأسمحهم كفا ، قال : من هو؟ قال : الفضل بن يحيى بن خالد ، فقال الفضل: يا أخا العرب إن الفضل جليل القدر عظيم الخطر إذا جلس للناس مجلسا عاما لم يحضر مجلسه إلا العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء والكتاب والناظرون للعلم ، أعالم أنت؟ قال : لا ، قال : أفأديب أنت ؟ قال : لا ، قال : أفعارف أنت بأيام العرب وأشعارها؟ قال : لا ،

قال : هل وردت على الفضل بكتاب وسيلة ؟ قال : لا ، فقال: يا أخا العرب غرتك نفسك ؛ مثلك يقصد الفضل بن يحيى ، وهو كما عرفتك عنه من الجلالة ، بأى ذريعة أو وسيلة تقدم عليه ؟ قال : والله يا أمير ما قصدته إلا لإحسانه المعروف وكرمه الموصوف ، وبيتين من الشعر قلتهما فيه ، فقال الفضل : يا أخا العرب أنشدنى البيتين فإن كانا يصلحان أن تلقاه بهما أشرت عليك بلقائه ، وإن كانا لا يصلحان أن تلقاه بهما بررتك بشىء من مالى ، ورجعت إلى باديتك وإن كنت لم تستحق بشعرك شيئاً ، قال : أفتفعل أيها الأمير ؟ قال : فإنى أقول :

ألم تر أن الجود من عهد آدم تحدر حتى صار يمتصه الفضل
ولو أن أما مسها جوع طفلها غذته باسم الفضل لاغتذى الطفل

قال : أحسنت يا أخا العرب فإن قال : لك هذان البيتان قد مدحنا بهما شاعر وأخذ الجائزة عليهما فأنشدنى غيرهما فما تقول ؟ قال . أقول :

قد كان آدم حين حان وفاته أوصاك وهو يجود بالحوباء[1]
ببنيه أن ترعاهما فرعيتهم وكفيت آدم عيلة الأبناء

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل ممتحنا : هذان البيتان أخذتهما من أفواه الناس ، فأنشدنى غيرهما ما تقول ؟ وقد رمقتك الأدباء بالأبصار وامتدت الأعناق إليك وتحتاج أن تناضل عن نفسك ؟ قال إذن أقول :

---

(١) الحَوْباء : النفس . قيل هى مأخوذة من الحوبة بمعنى الحاجة لكون النفس موطنا للحاجات ، الجمع حَوْباوات.

ملت جهابذ فضل وزن نائله ... ومل كاتبه إحصاء ما يهب
والله لولاك لم يمدح بمكرمة ... خلق ولم يرتفع مجد ولا حسب

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك هذان : البيتان أيضا أخذتهما من أفواه الناس ما كنت قائلا ؟ قال ، أقول :

وللفضل صولات على مال نفسه ... يرى المال منه بالمذلة والعنا
ولو أن رب المال أبصر ماله ... لصلى على مال الأمير وأذنا

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أنشدني غيرهما ما تقول إذن ؟ قال : أقول :

ولو قيل للمعروف نادى أخا العلا ... لنادى بأعلى الصوت يا فضل يافضل
ولو أنفقت جدواك من رمل عالج ... لأصبح من جدواك قد نفد الرمل[1]

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : هذان البيتان مسروقان أيضا أنشدني غيرهما ما تقول ؟ قال : أقول :

وما الناس إلا اثنان صب وبازل ... وإنى لذاك الصب والباذل الفضل
على أن لى مثلا كما ذكر الورى ... وليس لفضل فى سماحته مثل

قال : أحسنت يا أخا العرب ، فإن قال لك الفضل : أنشدني غيرهما ما تقول؟ قال : أقول أيها الأمير :

حكى الفضل عن يحيى سماحة خالد ... فقامت به التقوى وقام به العدل

(١) تعلج الرمل : تجمع .

وقـام بـه المعـروف شـرقا ومغربـا ولـم يـك للمعـروف بعـد ولاقبل

قال أحسنت : يا أخـا العـرب فـإن قـال : لقـد ضحرنـا مـن الفـاضل والمفضول. أنشدنى بيتين على الكنية لاعلى الاسـم مـا تقـول ؟ قـال : إذن أقول:

ألا يا أبا العبـاس يـا واحـد الـورى ويـاملكـا خـد الملـوك لـه نعـل
إليـك تسيـر النـاس شـرقا ومغربا فـرادى وأزواجـا كـأنهم نحـل

قال : أحسنت يا أخا العـرب ، فـإن قـال لـك الفضـل : أنشـدنا غـير الاسم والكنية والقافية ، قال : والله لئن زادنى الفضـل وامتحننـى بعـد هـذا لأقولن أربعة أبيات ماسبقنى إليها عربى ولا أعجمـى ، ولئـن زادنـى بعدهـا لأجمعن قوائم ناقتى هذه وأجعلها فى حـر أم الفضـل وأرجعـن إلـى قضاعـة حاسرا ولا أبالى ، فنكس الفضل رأسه ، وقـال للأعرابى : يـا أخـا العـرب أسمعنى الأبيات الأربعة ، قال أقول :

ولائمة لامتك يـا فضـل فـى النـدى فقلت لها هل يقـدح اللـوم فـى البحـر
أتنهيـن فضـلا عـن عطايـاه للغنـى فمن ذا الذى ينهى السحاب عن القطر
كـأن نـوال الفضـل فـى كـل بلـدة تحـدر هـذا المـزن فـى مهمـه قفـر(١)
كـأن وفـود النـاس فـى كل وجهة إلـى الفضـل لاقـوا عنـده ليلة القدر

قال : فأمسك الفضل على فيه وسقط على وجهه ضاحكـا ، ثـم رفـع رأسه وقال : يا أخا العرب أنا والله الفضل بن يحيى ، سل ماشئت ، فقـال: سألتك بالله أيها الأمير إنك لهو ؟ قـال : نعـم ، قـال لـه : فـأقلنى ، قـال :

---

(١) المزن : المطر. القَفْر : الأرض الخلاء لا ماء فيها ولاكلأ

أقالك الله ، اذكر حاجتك . قال : عشرة آلاف درهم ، قال الفضل : ازدريت بنا وبنفسك يا أخا العرب ، تُعطى عشرة آلاف درهم فى عشرة آلاف وأمر بدفع المال ، فلما صار المال إليه حسده وزير الفضل وقال : يا مولاى هذا إسراف ، يأتيك جلف[1] من أجلاف العرب بأبيات استرقها من أشعار العرب فتجزيه بهذا المال ! فقال : استحقه بحضوره إلينا من أرض قضاعة ، قال الوزير : أقسمت عليك يا مولاى إلا أخذت سهما من كنانتك وركبته فى كبد قوسك و أومأت به إلى الأعرابى فإن رد عن نفسه ببيت من الشعر ، وإلا استعطفت مالك ويكون له فى بعضه كفاية فأخذ الفضل سهما وركبه فى كبد قوسه و أومأ به إلى الأعرابى ، وقال : رد سهمى ببيت من الشعر فأنشأ يقول :

لقوسك قوس الجود والوتر والندى | وسهمك سهم العز فارم به فقرى

قال فضحك الفضل وأنشأ يقول

إذا ملكت كفى منالا ولم أنل | فلا انبسطت كفى ولا نهضت رجلى
على الله إخلاف الذى قد بذلته | فلا مسعدى بخلى ولامتلفى بذلى
أرونى بخيلا نال مجدا ببخله | وهاتوا كريما مات من كثرة البذل

ثم قال الفضل لوزيره : أعط الأعرابى مائة ألف درهم لقصده وشعره؛ ومائة ألف درهم ليكفينا شر قوائم ناقته ، فأخذ الأعرابى المال وانصرف وهو يبكى ، فقال له الفضل : مم بكاؤك يا أعرابى استقلالا بالمال الذى

(١) الجلف : الغليظ الجافى .

أعطيناك ؟ قال : لا ولكنى أبكى على مثلك يأكله التراب وتواريه الأرض ، وتذكرت قول الشاعر :

لعمرك ما الرزية فَقْدُ مال ... ولافرس يموت ولابعير[1]
ولكن الرزية فَقْد حر ... يموت لموته خلق كثير

وتوجه الأعرابى بالمال مسرورا رحمة الله عليهم أجمعين

[١٠٣] **ويحكى** : أن الرشيد قال لأبى نواس : بعنى ذقنك ، قال : بكم؟ قال: بألف دينار ، قال : بعتك ، فقال الرشيد لخازن داره : ادفع له ألف دينار فدفعها فأخذها وربطها ، وقال : يا أمير المؤمنين خذ ما اشتريت، قال : لا، ولكن جعلتها وديعة عندك ، قال : فمضى أبو نواس واشتغل بأمره ولهوه وهو خائف على ذقنه من أمير المؤمنين ، قال : فبينما هو متفكر فى شىء يفعله إذ جاء قاصد أمير المؤمنين فلم يقدر أن يتكلم دون أن قام معه ودخل إلى دار الخلافة فوجده فى جمع كثير من خواص المملكة وأعوان الدولة ، وكان من شأنه أن يجلس بالقرب من أمير المؤمنين ، فتحادثوا وتماجنوا فضرط أبو نواس ضرطة مزعجة أزعجت الحاضرين ، فضحكوا جمعيا وضحك أمير المؤمنين ، وقال له : فى ذقنك يا معرص[2] ، فقال له فى الحال : الله أعلم هى ذقن من . فقال أمير المؤمنين : قد وهبتها لك يا ملعون ، فأخذها وانصرف وكسب الألف دينار بهذه الحيلة ، والله أعلم انتهى .

---

(١) الرَّزِيَّة ، مفرد رزايا : المصيبة العظيمة .

(٢) عَرَّصَ الرجل : اضطرب .

[١٠٤] و[قيل] : كان نصر بن مقبل عاملا على الرقة(١) ، فأتى برجل من الظرفاء وجده ينكح شاة ، فقال : ماحملك على هذا ؟ فقال : أيها الأمير إنها والله ملك يمينى وقد قال الله تعالى ﴿أو ملكت أيمانكم﴾ [النساء: ٣] فأطلقه وأمر أن تضرب الشاة الحد ، فإن ماتت تصلب . قالوا : أيها الأمير إنها بهيمة ، قال : وإن كانت بهيمة ، فإن الحدود لا تعطل ، وإن عطلتها فبئس الوالى أنا . فانتهى إلى الرشيد خبره -ولم يكن رآه قبل- فدعا به .

فلما حضر بين يديه قال : من أنت ؟ قال : مولى الكلب ، فضحك منه ، ثم قال : كيف بصرك بالحكم ؟ فقال : يا أمير المؤمنين البهائم عندى والناس سواء ، ولو وجب حد على بهيمة وكانت أمى أو أختى لحديتهما ، ولم تأخذنى فى الله لومة لائم ، فأمر الرشيد أن لا يستعان به على عمل فلم يزل معطلا إلى أن مات والله أعلم.

[١٠٥] ويحكى : أن هارون الرشيد أمر بقتل أبى نواس ، فقال : أتقتلنى شهوة لقتلى ؟ فقال : لا بل أنت مستحق للقتل ، قال : فبم استحقيت القتل ؟ قال ، بقولك:

ألا فاسقنى خمرا وقل هى الخمر ... ولا تسقنى سرا إذا أمكن الجهر

فقال : يا أمير المؤمنين أفتعلم أنه سقانى وشربت ؟ فقال له أمير المؤمنين : أظن ذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين أفتقتلنى على الظن وقد قال

---

(١) الرقة : مدينة فى شمال سوريا على الفرات ، أسسها السلوقيون . جعلها هارون الرشيد عاصمته الصيفية وبنى فيها قصر السلام ، فعرفت بمدينة الرشيد . دمرتها غزوات المغول .

الله تعالى ﴿إن بعض الظن إثم﴾ [الحجرات: ١٢] .فقال له الرشيد : قد قلت أيضا ماتستحق به القتل ، فقال : وماهو ؟ فقال له : قولك :

ماجاءنا أحد يخبر أنه في جنة من مات أو في نار

فقال : يا أمير المؤمنين هل جاءنا أحد ؟ قال : لا ، قال : أتقتلني على الصدق؟ فقال له الرشيد : أولست القائل :

يا أحمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

فقال له : يا أمير المؤمنين أو صار القول فعلا ؟ قال لا أعلم ، قال : أفتقتلني على مالم تعلم . فقال له أمير المؤمنين : دع هذا كله فقد اعترفت في مواضع كثيرة من شعرك بالزنا ، قال أبو نواس : قد علم الله هذا قبل علم أمير المؤمنين بقوله تعالى ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون﴾ [الشعراء: ٢٢٤] فقال الرشيد : خلوا عنه؛ ومن هذا أخذ الصفى الحلى فقال :

نحن الذى جاء الكتاب مخبرا بعفاف أنفسنا وفسق الألسن

[١٠٦] وعن محمد بن نافع قال : رأيت أبا نواس في النوم بعد موته، فقلت :يا أبا نواس ، فقال : لات حين كنية ، فقلت : الحسن بن هانئ قال: نعم ، قلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بأبيات قلتها في علتى قبل موتى هى تحت الوسادة .

فسألت أهله فقلت : هل قال أخى شعرا ؟ قالوا : لا نعلم إلا أنه دعا بدواة وقرطاس ، وكتب شيئاً لاندرى ماهو ، فدخلت ورفعت وسادة ، وإذا أنا برقعة مكتوب فيها :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة		فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلامحسن		فمن الذى يدعو ويرجو المجرمُ
مالى إليك وسيلة إلا الرجا		وجميل عفوك ثم إنى مسلمُ

وهذه حكاية العجمي والكردى وماجرى بينهما على يد القاضى بسبب الجراب

[١٠٧] قيل : إن الخليفة هارون الرشيد قلق ليلة ، فاستدعى بوزيره جعفر البرمكى ، فلما حضر عنده قال له : ياجعفر إنى قلقت وضاق صدرى وأريد منك شيئا يشرح خاطرى ، فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين إن لى صديقا اسمه على العجمى، وعنده من جميع الحكايات والأخبار ؛ فقال : علىَّ به ، فقال سمعا وطاعة ، ثم إن جعفرا خرج من عند الخليفة فى طلب على العجمى فأرسل خلفه ؛ فلما حضر قال : أجب أمير المؤمنين، قال : سمعا وطاعة ، فأتى الخليفة فسلم وترحم ، فقال له: اجلس فجلس ، فقال له الخليفة : اسمع يا على إننى الليلة ضيق الصدر وقد سمعت عنك أن فى ذهنك حكايات وأخبارا وأريد منك أن تسمعنى مايزيل همي وفكرى، فقال : يا أمير المؤمنين تريد أن أحكى لك شيئاً سمعته ، أو رأيته ؟ فقال : إن كنت رأيت شيئاً فاحكه . فقال : سمعا وطاعة .

اعلم يا أمير المؤمنين : أنى سافرت فى بعض السنين من بلدى إلى هذه المدينة وهى بغداد وصحبنى غلام ظريف ومعه جراب نظيف ، فأودعنى إياه فبينما أنا أبيع وأشترى ، وإذا أنا برجل كردى ظالم معتد هجم علىَّ وأخذ الجراب منى ، وقال : هذا الجراب جرابى وكل مافيه قماشى

وثيابى ، فقلت: يامعشر الناس قد اعترانى الوسواس ، فقال الناس جميعا : امضوا إلى القاضى وأنا بحكمه راضى ، فدخلنا عليه وتمثلنا بين يديه .

فقال القاضى : فى أى شىء جئتما ؟ فقال الكردى : نحن خصمان، قال : أيكما المدعى ؟ فتقدم الكردى ، وقال : أيد الله مولانا القاضى هذا الجراب جرابى وكل مافيه قماشي وثيابى ، وقد ضاع منى ووجدته مع هذا الرجل . فقال القاضى : ومتى ضاع منك ؟ فقال الكردى : ضاع منى بالأمس ، فقال القاضى : إن كنت عرفته فصف لى مافيه ؟ فقال الكردى : إن فى جرابى هذا مرودين من لجين، وأكحلا للعينين ، ومنديلا لليدين ، ومشربتين مذهبتين ، وشمعدانين ، ومكبتين، وطبقين ، وإبريقين ، وصينية ، وطشتين ، وقدرة ، ودستين ، ومغرفة وملعقتين، ومسلة ، ومقلمة ، وملبتين وقعبا ، وقصعتين ، ومخدة ، ونطعين ، وجبة ، وفروتين، وبقرة ، وعجلتين ، وعنزا ، وشاتين ، ونعجة وخروفين ، وقطين أبلقين ، وجملا، وناقتين ، وبقرة ، وثورين ، ولبوة وسبعين ، ودبة وثعلبين ، ومرتبة وسريرين ، وطبقة وقاعتين ، ورواقا ومقعدين ، ومطبخا ببابين ، وجماعة ، أكراد يشهدون أن الجراب جرابى .

فقال القاضى : فما تقول أنت يا على ؟ فتقدمت يا أمير المؤمنين وقد بهتنى كلامه ، فقلت : أعز الله مولانا القاضى ؛ أنا ما فى جرابى إلا دويرة خراب ، وأخرى بلا باب ، ومقصورة للكلاب ، وفيه للصبيان كتاب وشباب يلعبون بالكعاب ، وفيه عساكر وأطناب ، ومدينة بصرى وبغداد ، وقصر كنعان بن شداد ، وكور وحداد ، وشبكة وصياد ، وعصا وأوتاد ، وبنات وأولاد ، وألف قواد يشهدون أن الجراب جرابى .

فلما سمع الكردى هـذا الكلام بكـى وانتحب ، وقـال : يـا سـيدى القاضى جرابى هذا معروف وكل مافيه موصوف فى جرابى هذا حصـون ، وقلاع ، وقرى ، وضياع ، وطابق للصـراع ، ووحـوش وضبـاع ، ورجـال يلعبـون الطابـة والرقـاع، وإن فـى جرابـى هـذا حجـرة ومهريـن ، وفحـلا وحصانين ، ورمحين طويلين ، وسبعة وأرنبين، وسكينا وخنجرين ، وبحـرا وخليجين ، وكمرا وخوختين ، وعشـارى ومركبيـن ، وصـارى وقريتيـن ، وكورا ودكانين ، ومنقلة ونردين ، وعجوزا وقحبتيـن، وقـوادا وشـاطرين ، ومخنثا وعلقين ، وأعمى وبصيرين ، وأعرج ومكسحين ، وعياراً وأزعريـن، وجامعا ومدرستين ، وديرا وكنيستين ، وقسيا وشماسين ، وبتركا وراهبين، وقاضيا وشاهدين يشهدون أن الجراب جرابى .

فقال القاضى : ما تقول أنت يا على ؟ فبادرت يا أمير المؤمنين ، وقد امتلأت غيظا وزدت فى الحمق ، وقلـت: أيـد اللـه مولانـا القـاضى إن فـى جرابى هذا زرد خانات صفاح ، وخزائن سلاح ، وألـف كبـش نطـاح فـى عشرين مراح ، وأربعين كلبا نباح ، وبساتين وكروم عنـب وتيـن وتفـاح ، وصـورا وأشـباح ، وقنـانى وأقـداح ، وعرائـس مـلاح ، ومغـانى وأفـراح، وهرجا وصياح ، وعبدا وفلاح ، وأخـاه نجـاح ، ورفيقـه صبـاح ، ومعهـم سيوف ورماح ، وقسى ونشاب ، وأصدقاء وأحباب ، وخلان وأصحـاب ، ومجلس للعتاب وندمـان للشـراب ، وطنبـور مـع ربـاب ، ونايـات وقنـانى مصفوفـات ، وصبيـان ودايـات، وأخـوات معلمـات ، وبنـات محليـات ، وجوارى مغنيات ، وجوارى حبشيات ، وثلاثة هنديات ، وأربعة بدويات ، وخمسة روميات ، وستة تركيات ، وسبعة عجميـات، وثمانيـة قفجيـات ، وتسعة كرجيات ، وعشر كلبـات ، والدجلـة والفـرات ، وشبكة وصيـاد ،

وقداحة وزناد ، وإرم ذات العماد ، وألف جواد ، وقصر شداد بن عاد وخانات مع حمامات ، وقدوم ونجار وخشبة مع مسمار ، وتاجر مع عطار، وبزار مع بيطار ، وعبد أسود بمزمار ، ومقدم وركيدار ، ومدن وأمصار ، ومائه ألف دينار، وبواب وكستدار ورأس نوبة ، وعلم دار والكوفة مع الأنبار ، وعشرين صندوقا ملآنة قماشا ، ودكان نحاس وحاصل معاش ، وبرجان للحمام ، وغزة وعسقلان، ومن دمياط إلى أسوان، وإيوان كسرى، وملك سليمان ، ومن كوش نعمان إلى أرض خراسان ، وبلخ وأصبهان ، ومن الهند إلى بلاد السودان ، وفيه أطال الله عمر مولانا القاضي : قماش وغلائل ، وعراضي وموسى بحد ماضي يحلق ذقن مولانا القاضي إن حكم إن الجراب ماهو جرابي .

فعند ذلك يا أمير المؤمنين حار القاضي مما سمع ثم قال : ما أراكما إلا شخصين نحسين تلعبان بالقضاة والحكام ؛ لأن ماوصف الواصفون ولاسمع السامعون ماوصفتما في هذا الجراب ، ماهذا إلا بحر ليس له قرار، ثم أمر القاضي بفتح الجراب ففتحه الكردي فإذا فيه خبز وليمون وجبن وزيتون ، ثم إني رميت الجراب أمام القاضي والكردي ومضيت إلى حال سبيلي .

فلما سمع أمير المؤمنين ذلك ضحك حتى استلقى على قفاه ، وقد زال همه وغمه وأحسن جائزة على العجمي وانصرف والله أعلم .

٨- فصل

معن بن زائدة الشيبانى[١]

كان من الكرماء ، يقال فيه : حدث عن البحر ولاحرج .

[١٠٨] و[قيل] : كان عاملا بالبصرة فحضر على بابه شاعر وأقام مدة يريد الدخول فلم يتهيأ له ، فقال : يوما لبعض الخدام إذا دخل الأمير البستان فعرفنى ، فلما دخل أعلمه بذلك ، فكتب الشاعر بيتا ونقشه على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان ، وكان معن جالسا على القناة؛ فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها هذا البيت مكتوب :

أيا جود معن نـاج معنا بحاجتى ... فليس إلـى معـن سـواك رسـول

فقال : من الرجل صاحب هذه ؟ فأتى به إليه ، فقال :كيف قلت : فأنشده البيت فأمر له بعشر بدر[٢] ، فأخذها وانصرف فوضع معن الخشبة تحت بساطه ؛ فلما كان فى اليوم الثانى أخرجها من تحت البساط ينظر فيها ودعا بالرجل ، فأمر له بمائة ألف درهم ؛ فلما كان اليوم الثالث فعل مثل ذلك . فتفكر الرجل وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه ، فخرج من البلد بما كان معه ؛ فلما كان فى اليوم الرابع طلب الرجل فلم يوجد ،فقال معن:

---

(١) معن بن زائدة بن عبد الله بن مطر الشيبانى ، أبو الوليد : من أشهر أجواد العرب ، وأحد الشجعان العظماء . أدرك العصر الأموى والعباسى . أخباره كثيرة ، وللشعراء فيه أماديح ومراث من عيون الشعر ، ت[١٥١هـ = ٧٦٨م] . انظر : وفيات الأعيان (١٠٨/٢) ، خزانة البغدادى (١٨٢/١) .

(٢) بِدَر ، مفردها بَدْرة : عشرة الاف درهم .

والله هممت أن أعطيه حتى لايبقى فى بيت مالى درهم ولادينار إلا أعطيته له . وفيه يقول القائل :

يقولون معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم يجد فى دياره ... من المال إلا ذكره وجمائله
تراه ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت آمله
هو البحر من أى النواحى أتيته ... ولجته المعروف والبر ساحله
تعود بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو أن ما فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

ومن قول معن :

دعينى أهب الأموال حتى ... أعف الأكرمين عن اللئام

[١٠٩] ويروى : أن معن بن زائدة ، خرج فى جماعة يتصيدون فاعترضهم قطيع ظباء فتفرقوا فى طلبه ، وانفرد معن خلف ظبى ؛ فلما ظفر به نزل فذبحه ، فرأى شخصا مقبلا من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه ، وقال له : من أين أتيت ؟ قال : أتيت من أرض قضاعة[1] ، وإن لى بها أرضا لها عدة سنين مجدبة وقد أخصبت فى هذه السنة ، فزرعتها قثاء فطرحت فى غير وقتها فجمعت منها ما استحسنته وقصدت الأمير معن بن زائدة لكرمه المشهور ، ومعروفه المأثور ، وإحسانه المذكور ، فقال له : كم أملت منه ؟ قال : ألف دينار ، فقال : إن قال لك كثير ، قال : خمسمائة دينار ، قال : إن قال لك كثير ، قال :

(١) قضاعة : قبيلة عربية جنوبية من حمير من من قحطان اليمن .

ثلاثمائة دينار، قال : إن قال لك كثير ، قال : مائتى دينار ، قـال : إن قـال لك كثير ، قال : مائة دينـار ، قـال : إن قـال لـك كثير ، قـال : خمسين دينارا ، قال : إن قال لك كثير ، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فإن قـال لك كثير ، قال : أدخل قوائم حمارى فى حرأمه وأرجع إلى أهلـى خائبـا ، فضحك معن منه وساق جواده حتى لحق بعسكره ونـزل منزلـه ، وقـال لحاجبه : إذا أتاك شيخ على حمار بقثاء فادخل به علىَّ . فأتى بعد سـاعة ، فلما دخل على الأمير معن لم يعرفه لهيبته وجلالتـه وكـثرة خدمـه وحشـمه وهو متصدر فى دست مملكته ، والحفدة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه

فلما سلم عليه قال له الأمير معن : ما الذى أتى بك يا أخـا العـرب ؟ قال : أملت الأمير وأتيته بقثاء فى غير أوانها ، قال : فكم أملت فينا ؟ قـال: ألف دينار ، قـال : كثير، قـال : خمسـمائة دينـار ، قـال :كثير ، قـال : ثلاثمائة دينار ، قال : كثير ، قال : مائتى دينار ، قال : كثير ، قال : واللـه لقد كان ذلك الرجل الذى قابلنى علىّ مشؤما ، ثم قال : خمسـين دينـار ، قال : كثير، قال : فلا أقل من ثلاثين ، قال : فضحك معن وسكت ، فعلـم الأعرابى أنه صاحبه .

فقال : يا سيدى إن لم تعطنى الثلاثين ، فالحمار مربوط بالبـاب وهـا أنا مع معن جالس، فضحـك معـن حتى استلقى على قفـاه ، ثـم اسـتدعى بوكيله وقال له : أعطه ألف دينار ، وخمسـمائة دينـار ، وثلاثمائـة دينـار ، ومائتى دينار، ومائة دينار ، وخمسـين دينـارا وثلاثيـن دينـارا ودع الحمـار مربوطا مكانه فبهت الأعرابـى ، وتسـلم ألـف دينـار ومائـة وثمـانين دينـارا فرحمة الله عليهم أجمعين .

[١١٠] وقيل : كان معن بن زائدة فى بعض صيوده ، فعطش فلم يجد مع غلمانه ، فبينما هو كذلك ، وإذا بثلاث جوار قد أقبلن حاملات ثلاث قرب فسقينه فطلب شيئاً من المال مع غلمانه فلم يجده ، فدفع لكل واحدة منهن عشرة أسهم من كنانته ، نصولها من ذهب ، فقالت إحداهن : ويلكن لم تكن هذه الشمائل إلا لمعن بن زائدة فلتقل كل واحدة منكن شيئاً من الأبيات فقالت الأولى :

يركب فى السهام نصول تبر ويرمى للعدا كرما وجودا
فللمرضى علاج من جراح وأكفان لمن سكن اللحودا

وقالت الثانية :

ومحارب من فرط جود بنانه عمت مكارمه الأقارب والعدا
صيغت نصول سهامه من عسجد كى لايفوته التقارب والندى(١)

وقالت الثالثة :

ومن جوده يرمى العداة بأسهم من الذهب الإبريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عند انقطاعه ويشترى الأكفان منها قتيلها

[١١١] وكان مع كرمه صاحب شهامة ، فمن ذلك : أنه سعى رجل فى إفساد دولة المهدى وكان من الكوفة فعلم به المهدى فهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فأقام الرجل حينا مختفيا ، ثم ظهر فى بغداد فبينما هو فى بعض الشوارع إذ رآه رجل من الكوفة فعرفه ، فأخذ

---

(١) عَسْجَد : الذهب .

بمجامع طوقه ونادى هذا طلبة أمير المؤمنين ، فبينما الرجل على تلك الحالة وقد اجتمع حوله خلق كثير ، إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه فالتفت فإذا هو بمعن بن زائدة ، فقال : يا أبا الوليد أجرنى أجارك الله ، فوقف فقال للرجل الذى تعلق به : ما تريد منه ؟ قال : هذا طلبة أمير المؤمنين ، أهدر دمه وجعل لمن دل عليه مائة ألف درهم ، فقال له معن : دعه ، ثم قال : يا غلام أردفه فأردفه وكر راجعا إلى داره ، فصاح الرجل معن حال بينى وبين من طلبه أمير المؤمنين ، ولم يزل صارخا إلى أن أتى قصر المهدى فأمر المهدى بإحضار معن ، فأتته الرسل فدعا معن أولاده ومماليكه وقال : لا تسلموا الرجل وواحد منكم يعيش ، ثم سار إلى المهدى فدخل وسلم ، فلم يرد عليه، ثم قال : يامعن أتجير علينا عدونا ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال المهدى : ونعم أيضا ، واشتد غضبه فقال معن : يا أمير المؤمنين بالأمس بعثتنى إلى اليمن مقدم الجيش فقتلت فى طاعتك فى يوم واحد عشرة آلاف رجل ، ولى على مثل هذا أيام كثيرة فما رأيتمونى أهلا أن أجير رجلا واحدا استجار بى ، ودخل منزلى ؛ فسكن غضب المهدى وقال : قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد ، قال معن : فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله بصلة يعلم منها موقع الرضا ، فإن قلب الرجل قد انخلع من صدره خوفا ، قال : قد أمرنا له بخمسين ألف درهم ، قال : يا أمير المؤمنين إن صلات الخلفاء على قدر جنايات الرعية ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف درهم ، قال : عجلها يا أمير المؤمنين ، فإن خير البر عاجله ، فأحضر معن الرجل وقال له : خذ صلة أمير المؤمنين ، وقبل يده وإياك ومخالفة خلفاء الله فى أرضه ، فما كل مرة تسلم الجرة . فأرسلها الناس مثلا وأخذ الرجل المال واستغفر الله ، انتهى .

[١١٢] و[قيل] : كان معن لا يغيظ أحدا ولا أحد يغيظه ، فقال بعض الشعراء: أنا أغيظه لكم ولو كان قلبه من حجر ، فراهنوه على مائة بعير إن أغاظه أخذها ، وإن لم يغظه دفع مثلها .

فعمد الرجل إلى جمل فذبحه وسلخه ولبس الجلد مثل الثوب وجعل اللحم من خارج والشعر من داخل والذباب يقع عليه ، ويقوم ولبس برجليه نعلين من جلد الجمل ، وجعل اللحم من خارج والشعر من ناحية رجليه ، وجلس بين يدى معن على هذه الصورة المشروحة ومد رجليه فى وجهه وقال :

أنا والله لا أبدى سلاما　　على معن المسمى بالأمير

فقال له معن : السلام لله إن سلمت رددنا عليك ، وإن لم تسلم ما عتبنا عليك. فقال الشاعر :

ولا أنزل بلادا أنت فيها　　ولو حزت الشآم مع الثغور(١)

فقال له : البلاد بلاد الله ، إن نزلت فمرحبا بك وإن رحلت كان الله فى عونك . فقال الشاعر :

وأرحل عن بلادك ألف شهر　　أجد السير فى أعلا القفور

فقال له : مصحوبا بالسلامة . فقال الشاعر :

---

(١) الثغور ، مفردها ثغر : الموضع المحاذى للعدو . ويقصد : الشام مع الثغور ، أى الشام وما حولها .

أتذكر إذ قميصك جلد شاة ... وإذ نعلاك من جلد البعير

فقال له : أعرف ذلك ولا أنكره . فقال الشاعر :

وتأوى كل مصطبة وسوق ... بلا عبد لديك ولا وزير

فقال له : مانسيت ذلك يا أخا العرب . فقال الشاعر :

ونومك فى الشتاء بلا رداء ... وأكلك دائما خبز الشعير

فقال : الحمد لله على كل حال . فقال الشاعر :

وفى يمناك عكاز قوى ... تذود به الكلاب عن الهرير

فقال له : ماخفى عليك خبرها إذ هى كعصى موسى . فقال الشاعر :

فسبحان الذى أعطاك ملكا ... وعلمك القعود على السرير

فقال له : بفضل الله لا بفضلك . فقال الشاعر :

فعجل يا ابن ناقصة بمال ... فإنى قد عزمت على المسير

فأمر له بألف دينار . فقال الشاعر :

قليل ما أمرت به فإنى ... لأطمع منك بالشىء الكثير

فأمر له بألف دينار أخرى . فقال الشاعر :

فثلث إذ ملكت الملك رزقا ... بلا عقل ولا جاه خطير

فأمر له بثلاثمائة دينار . فقال الشاعر :

ولا أدب كسبت به المعالى ... ولا خلق ولا رأى منير

فأمر له بأربعمائة دينار . فقال الشاعر :

فمنـــك الجـــود والإفضـال حقا		وفيـــض يديـــك كـالبحر الغزير

فأمر له بخمسمائة دينار ، ومازال يطلب منه الزيـادة حتـى استكمل ألفى دينار ؛ فأخذها وانصرف متعجبا من حلم معن وعدم انتقامه منـه ، ثـم قال فى نفسه : مثل هذا لا ينبغى أن يهجى بل يمدح ، واغتسل ولبس ثيابـه ورجع إليه ، فسلم عليه ومدحه واعتذر له بأن الحامل له على هجوه المائـة بعير التى صار الرهان عليها فى نظير إغاظته فأمر له بمائـة بعير يدفعهـا فـى نظر الرهان وبمائة بعير أخرى لنفسه فأخذها وانصرف ، والله أعلم .

٩- فصل

خلافة المأمون بن هارون الرشيد واسمه عبد الله(١)

[١١٣] ومما وضع في بطون الدفاتر : واستحسنته عيون البصائر ، ونقلته الأصاغر عن الأكابر ، مارواه خادم أمير المؤمنين المأمون قال طلبني أمير المؤمنين المأمون ليلة وقد مضى من الليل ثلثه فقال لي : خذ معك فلانا وفلانا وسماهما لي أحدهما علي بن محمد والآخر دينار الخادم ، واذهب مسرعا لما أقول لك ، فإنه بلغني أن شيخا يحضر ليلا إلى آثار دور البرامكة ، وينشد شعرا ، ويذكرهم ذكرا كثيرا ، ويندبهم ويبكي عليهم ، ثم ينصرف؛ فامض أنت وعليّ ودينار حتى تردوا تلك الخرائب ، فاستتروا خلف بعض الجدران ، فإذا الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتا ، فأتوني به .

قال : فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرائب ، فإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسي حديد ، وإذا شيخ قد جاء وله جمال وعليه مهابة ولطف ، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات :

ولما رأيت السيف جندل جعفرا ... ونادى مناد للخليفة يا يحيى
بكيت على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

---

(١) عبد الله بن هارون الرشيد ، المأمون : من كبار خلفاء الدولة العباسية ، عنى بالأدب والعلوم ، وأنشأ "بيت الحكمة" في بغداد فازدهرت في عهده الترجمة والنقل ، ناصر المعتزلة ، وامتحن الناس في خلق القرآن . قتل أخاه الأمين . ت[٢١٨هـ = ٨٨٣م] . انظر : تاريخ بغداد (١٨٣/١٠) ، المسعودي (٢٤٧/٢) .

مع أبيات أطالها ، فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له : أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعا شديدا وقال : دعونى حتى أوصى بوصية فإنى لا أوقن بعدها بحياة ، ثم تقدم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلمها إلى غلامه ، ثم سرنا به . فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين قال حين رآه : من أنت وبما استوجبت منك البرامكة ماتفعله فى خرائب دورهم ؟ قال الخادم : ونحن نسمع ، فقال : يا أمير المؤمنين إن للبرامكة أيادى خضراء عندى ، أفتأذن لى أن أحدثك بحالى معهم ، قال : قل فقال : يا أمير المؤمنين أنا المنذر ابن المغيرة من أولاد الملوك ، وقد زالت عنى نعمتى كما تزول عن الرجال .

فلما ركبنى الدين واحتجت إلى بيع ما على رأسى ورؤوس أهلى وبيتى الذى ولدت فيه ، أشاروا على بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعى نيف وثلاثين امرأة وصبيا وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ، ونزلنا فى بعض المساجد فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها ، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعا لا شىء عندهم ، ودخلت شوارع بغداد سائلا عن البرامكة ، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفى جانبه شيخ بأحسن زى وزينة ، وعلى الباب خادمان وفى الجامع جماعة جلوس فطمعت فى القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم ، وأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى والعرق يسيل منى ؛ لأنها لم تكن صناعتى ، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد .

فدخلت معهم وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدا وبين يديه عشرة من ولده ، وإذا بأمرد نبت العذار

في خديه قد أقبل من بعض المقاصير ، وبين يديه مائة خادم متمنطقون في وسط كل خادم منطقة(١) من ذهب ، يقرب وزنها من ألف مثقال ، مع كل خادم مجمرة(٢) من ذهب ، في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر(٣) ، وقد قرن به مثله من العنبر السلطاني ، فوضعوه بين يدى الغلام وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضي : تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن أخي هذا، فخطب القاضي خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار بنادق المسك والعنبر فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ، ونظرت وإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايخ وولده والغلام مائة واثنا عشر ، وإذا بمائة واثنى عشر خادما قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة على كل صينية ألف دينار ؛ فوضعوا بين يدى كل رجل منا صينية ، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم ، ويجعلون الصواني تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول ، حتى بقيت وحدى لا أجسر على أخذ الصينية فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي والصينية في يدى، فقمت وجعلت أتلفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب ، فبينما أنا كذلك إلى أن وصلت إلى صحن الدار ويحيى يلاحظني فقال للخادم : ائتني بهذا الرجل ، فأتيته فقال : مالي أراك تلتفت يمينا وشمالا ؟ فقصصت عليه قصتي ، فقال للخادم : ائتني بولدي موسى(٤)

---

(١) المِنْطقة:شقة تشد على الوسط فترسل الأعلى على الأسفل والأسفل ينجر على الأرض

(٢) مجْمَرة : ما يجعل فيه العود والبخور .

(٣) الفِهْرَ : هو حجر رقيق ناعم يسحق به العود الذى جعلوه في المجمرة .

(٤) موسى بن يحيى بن خالد البرمكي : أمير السند من رجال الدولة العباسية ، كان من غسان بن عباد في أرض الهند ، وقبل رجوع غسان إلى العراق [٢١٦هـ] كتب إليه-

فأتاه به ، فقال له : يا ابنى إن هـذا الرجـل غريـب ، فخـذه إليـك واحفظـه بنفسك وبنعمتك فقبض موسى ولده على يدى ، وأدخلنى إلى دار من دوره فأكرمنى غاية الإكرام وأقمت عنده يومى وليلتى فى ألذ عيش وأتم سرور .

فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال لـه : الوزيـر أمرنـى بـالعطف علـى هذا الفتـى ، وقـد علمـت اشـتغالى فـى بيـت أمير المؤمنيـن فأقبضـه إليـك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمنى غاية الإكرام . ثم لما كـان مـن الغـد سـلمنى أخوه أحمد . ثم لم أزل فـى أيـدى القـوم يتداولونـى مـدة عشـرة أيـام ، لا أعرف خبر عيالى وصبيانى أفى الأموات هم أم فى الأحياء .

فلما كان اليوم الحادى عشر جاءنى خـادم ومعـه جماعـة مـن الخـدم فقالوا: قم اخرج إلى عيالك بسلام فقلت : وا ويلاه سلبت الدنانير والصينية وأخرج على هذه الحالة ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، فرفـع السـتر الأول ثـم الثانى ثم الثالث ثم الرابع ، فلما رفع الخادم الستر الأخـير قـال لـى : مهمـا كان لك من الحوائج فارفعها إلى فإنى مأمور بقضاء جميع ما تـأمرنى بـه ؛ فلما رفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حسنا ونورا واسـتقبلنى منهـا رائحة الند[1] والعود ونفحات المسك ، وإذا بصبيانى وعيـالى يتقلبـون فـى الحرير والديباج وحمل إلىَّ مائة ألف درهـم وعشـرة آلاف دينـار ومنشـور بضيعتين وتلك الصينية التى كنـت أخذتهـا بمـا فيهـا مـن الدنـانير والبنـادق

المأمون بتولية موسى ثغر السند . ت[٢٢١هـ = ٨٣٦م] . انظر : نوزهة الخواطر (٦٢/١) .

(١) النَّدّ : عود يتبخر به .

وأقمت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهـم ثلاث عشرة سنة لايعلم الناس أمِنَ البرامكة أنا أم رجل غريب .

فلما جاءتهم البلية ونزل بهـم يـا أمير المؤمنين مـن الرشيد مـا نـزل أجحف بي عمرو بن مسعدة ، وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج مـالا يفي دخلهما به ؛ فلما تحامل على الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرابات دورهم ، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليَّ وأبكي على إحسانهم .

فقال المأمون : علي بعمرو بن مسعدة ، فلما أتي به قال لـه : تعـرف هذا الرجل ؟ قال : يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكـة ، قـال : كـم ألزمته في ضيعته ؟ قال : كذا وكذا ، فقال له : رد إليه كل مـا أخذتـه منـه في مدته وأفرغهما له ليكونا لـه ولعقبـه مـن بعـده ، قـال : فَعَـلاَ نحيـب(١) الرجل فلما رأى المأمون كثرة بكائه ، قال له : يا هذا قـد أحسـنا إليـك ، فما يبكيك؟ قال : يا أمير المؤمنين وهذا أيضا من صنيع البرامكة لو لـم آت خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل ، من أين كنت أصلْ إلـى أمير المؤمنيـن ، قـال إبراهيـم بـن ميمـون ، فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه ، وقال : لعمري هذا مـن صنائع البرامكة فعليهم فابك ، وإياهم فاشكر ، ولهـم فـأوف ولإحسـانهم فاذكر ، انتهى .

[١١٤] **وقال إسحاق** : دخلت يوما على المأمون في زمـن الـورد ، فقال لي: يا إسحاق هل قلت شيئاً في الـورد ؟ قلـت : أقـول بسـعادة أمير

---

(١) نَحَبَ : رفع صوته بالبكاء .

المؤمنين وفكرت ساعة فلم تسمح قريحتى فى ذلك الوقت بشىء ، فخرجت من عنده وبقيت ليلتى ساهرا متفكر ، فلم يفتح على بشىء ، فلما أصبحت غدوت إلى دار الخلافة وإذا غلام الفضل بن مروان على باب المأمون ومعه سبع وردات على صينية فضة ينتظر الإذن فى الدخول بها عليه ، فسألته المهلة بها قليلا فامتنع ، فسألته ثانيا وقلت : أمهل قليلا ولك بكل وردة دينار ، فأجابنى إلى ذلك فدفعت له سبعة دنانير وأحببت أن لايصل إليه الورد قبل وصول الشعر وخرجت أقصد الأزقة لعلى أسمع شيئاً من أحد أو ينبعث خاطرى ، ولو ببيت واحد ؛ فبينما أنا كذلك ، وإذا أنا برجل يغربل التراب وهو ينشد ويقول :

اشرب على ورد الخدود فإنه ... أزهى وأبهى فالصبوح يطيب
ما الورد أحسن من تورد وجنة ... حمراء جاد بها عليك حبيب
صبغ المدام بياضها فكأنه ... ذهب بقالب فضة مضروب

فلما سمعته نزلت عن دابتى ودخلت مسجدا بالقرب منه وطلبته ، فلما أقبل سألته أن يمليها على فاعتل وقال : إن أردت فاعطنى بكل بيت عشرة دنانير ، فدفعتها له واستمليتها منه ، ثم عدت أنا وغلام الفضل بن مروان وإذا بالمأمون يشرب من وراء الستارة ؛ فلما حسيت العود قال : لجواريه اسكتن فقد جاء إسحاق فقدمت ذلك الورد بين يديه وأنشدت الأبيات فسمعت الشهيق والزفير من وراء الستارة ، ثم أخرج إلى بدرة فيها عشرة آلاف درهم فأعدت الأبيات ، فأخرج إلى بدرة أخرى ، فأعدت الثالثة فأخرج إلى بدرة ثالثة ، فأخذت فى غير الشعر ، فخرج إلىَّ خادم وقال: يقول لك أمير المؤمنين لو دمت على إنشادك لدمنا على البدرة ، ولو إلى الليل، انتهى من حلبة الكميت .

[١١٥] ويحكى عن العباس صاحب شرطة المأمون قال : دخلت إلى مجلس أمير المؤمنين ببغداد يوما ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد فقال لى : يا عباس ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : خذ هذا إليك فاستوثق به واحتفظ عليه وبكر به إلى فى غد واحترز عليه كل الاحتراز . قال العباس : فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرك ، فقلت فى نفسى : مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معى فى بيتى .

فلما تركوه فى دارى أخذت أسأله عن قضيته وحاله ومن هو فقال : أنا من دمشق فقلت : جزى الله دمشق خيرا ، فمن أنت من أهلها ؟ فقال : وعمن تسأل ، قلت : أو تعرف فلانا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقعت لى معه قضية ، فقال : ما كنت بالذى أعرفك خبره حتى تعرفنى قضيتك معه ، فقلت : ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق فسمعت أهلها وقد خرجوا علينا ، حتى أن الوالى خرج فى زنبيل[1] من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم ؛ فبينما أنا هارب فى بعض الدور وإذا بجماعة يعدون ، فما زلت أعدو أمامهم حتى تجاوزتهم ومررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت : يا هذا أغثنى أغاثك الله ، قال : لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت لى زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون هو والله عندك فقال : دونكم الدار فتشوها ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك

(١) زِنْبِيل : الجِراب .

المقصورة وامرأته فيها فقالوا : ها هـو هنـا فصـاحت بهـم المرأة ونهرتهـم فانصرفوا ، وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة وأنا قائم أرجـف مـا تحملنى رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لابأس عليـك ، فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجـل ، فقـال : لا تخـف فقـد صـرف الله عنك شرهم وصرت إلى الأمن والدعة إن شاء الله تعالى .

فقلت : جزاك الله خيرا ، فما زال يعاشرنى أحسن معاشـرة وأجملهـا وأفرد لى مكانا من داره ولم يحوجنى إلى شىء ولم يفتر عن تفقد أحوالى، فأقمت عنده أربعة أشهر فى أتم عيش وأرغده إلى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت له : أتأذن لى فـى الخـروج حتى أتفقـد حـال غلمـانى فلعلى أقف منهم على خبر ، فأخذ علىَّ المواثيق بـالرجوع إليـه ؛ فخرجـت وطلبت غلمانى فلم أر لهم أثراً فرجعت إليه وأعلمته بالخبر ، وهو مـع هـذا كله لا يعرفنى ولايعرف من أنا . فقال لـى : عـلام تعـزم ؟ فقلـت: عزمـت على التوجه إلى بغداد ، قال : إن القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج ، فقلـت لـه : إنك قد تفضلت علىَّ هذه المدة ؛ لك على عهد الله إننى لا أنسى لك هـذا الفضل ولأوفينك مهما استطعت ، قال : فدعا بغلام أسود ، وقال له : انعل الفرس الفلانى ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : ما أشـك أنـه يريـد أن يخرج إلى ضيعة له أو ناحية من النواحى ، فأقاموا يومهم ذلـك فـى كـد وتعب .

فلما كان يوم خروج القافلة جاء فى السحر ، فقال : يا فلان قم فـإن القافلة تخرج الساعة وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى : كيف أصنـع وليس معى ما أتزود به ولا ما أكرى به مركبا ، ثم قمـت فـإذا هـو وامرأتـه

يحملان بقجة[1] من أفخر اللباس ، وخفين حديدين ، وآلة السفر ، ثم جاءنى بسيف ومنطقة فشدهما فى وسطى ، ثم قدم لى غلاما وعلى كتفه صرتان وفوقهما مرتبة السفر وسجادة من أفخر ما يكون ، وأعلمنى بما فى الصرتين : أنه خمسة آلاف درهم وشد لى الفرس الذى أنعله بسرجه ولجامه وقال لى : اركب وهذا الغلام الأسود يخدمك ويسوس مركوبك وأقبل هو وامرأته يعتذران إلى من التقصير فى أمرى ، وأركب معى من يشيعنى وانصرفت إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأوفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أقدر أتفرغ ، إلى أن أرسل إليه من يكشف خبره ؛ فلهذا أسأل عنه .

فلما سمع الرجل الحديث قال : قد أمكنك الله من الوفاء له ، ومكافأته على فعله ، ومجازاته على صنعه بلا كلفة عليك ولا مؤنة تلزمك ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنما الضر الذى أنا فيه قد غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى ثم لم يزل يذكر لى تفاصيل الأسباب ، حتى أثبت معرفته ، فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذى صيرك إلى ما أرى ؟ قال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك فنسبت إلىَّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش ، فضبطوا البلد فأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت وبعث بى إلى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم وهو قاتلى لا محالة ، وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية ، وقد تبعنى من ينصرف إليهم بخبرى وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن

---

(1) بقجة : صُرة الثياب .

ترسل من يحضره لى حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأه وقمت بوفاء عهدك .

قال العباس : فقلت : يصنع الله خيرا ، ثم أحضر حدادا فى الليل وفك قيوده وأزال ما كان عليه من الأنكال ، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ، ثم سير من أحضر إليه غلامه ؛ فلما رآه جعل يبكى ويوصيه فاستدعى العباس نائبه وقال : على بفرسى الفلانى والبغلة الفلانية حتى عد عشرة ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا قال : ذلك الرجل وأحضر لى بدرة فيها عشرة آلاف درهم وكيسا فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لعامله فى الشرطة : خذ هذا الرجل وشيعه إلى حد الأنبار .

فقال له : إن ذنبى عظيم عند أمير المؤمنين وخطبى جسيم ، وإن أنت احتجيت بأنى هربت بعث أمير المؤمنين فى طلبى كل من على بابه فأرادوا قتلى ، فقال : انج بنفسك ، ودعنى أدبر أمرى فقال : والله لا أبرح من بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ، فإن احتجت إلى حضورى حضرت ، فقال لصاحب الشرطة : إن كان الأمر على ما يقول فليكن فى موضع كذا، وكذا فإن أنا سلمت فى غداة غد أعلمته ، وإن أنا قتلت وقيته بنفسى كما وقانى بنفسه وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم ، وتجتهد فى إخراجه من بغداد .

قال الرجل : فأخذنى صاحب الشرطة ، وصيرنى فى مكان يثق به وتفرغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهز له كفنا ، قال : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلا و رسل المأمون فى طلبى يقولون : يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم ، قال : فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين ، وإذا هو جالس

وعليه كآبه ، فقال : أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فسكت ، فقال : ويحك أين الرجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين اسمع منى ما أقول ، فقال :لله علي عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك ، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين إنه ما هرب ولكن اسمع ، حديثى معه : كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعا ، وعرفته أنى أريد أن أفى له وأكافئه على ما فعله معى ، وقلت : أنا وسيدى ومولاى أمير المؤمنين بين أمرين إما أن يصفح عنى ، وقد وفيت وكافأت ، وإما أن يقتلنى فأتيه بنفسي وقد تحنطت وها كفنى يا أمير المؤمنين .

فلما سمع المأمون الحديث قال : ويحك لاجزاك الله خيرا عن نفسك إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة ، وتكافئه بعد المعرفة والعهد بهذا لاغير ؛ هلا عرفتنى خبره فكنت أكافئه عنك ، ولا أقصر بوفائى له ، فقلت: يا أمير المؤمنين إنه ههنا وقد حلف أنه لا يبرح حتى يعرف سلامتى ، فإن احتجت إلى حضوره حضر ، فقال المأمون : وهذه منه أعظم من الأولى اذهب الآن فطيب نفسه وسكن روعه وائتنى به حتى أتولى مكافأته عنك ، قال : فأتيت إليه وقلت : ليزل عنك حزنك إن أمير المؤمنين قال : كيت وكيت ، فقال : الحمد لله الذى لا يحمد على السراء والضراء أحد سواه ، ثم قام فصلى ركعتين ، ثم أتيت به إلى أمير المؤمنين ؛ فلما مثل بين يديه أقبل عليه وأدنى مجلسه وحدثه ، حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق ، فاستعفى عنها ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ، ولجامها وعشرة أبغال بآلاتها ، وعشر بدر ، وعشرة آلاف دينار ، وعشرة مماليك بدوابهم ، وكتب إلى عامله بدمشق بالوصية به ، وأطلق خراجه وأمر بمكاتبته بأحوال دمشق ، فصارت كتبه تصل إلى

المأمون ، وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لى : يا عباس هذا كتاب صديقك ، والله أعلم .

[١١٦] **ويحكى عن إسحاق الموصلي أنه قال** : خرجت ليلة من عند المأمون متوجها إلى بيتى ، فأحسست بالبول ، فعمدت لزقاق وقمت لأتمسح بالحيطان ، وإذا بزنبيل كبير بأربعة آذان ملبس ديباجا ، فقلت : إن لهذا سببا وبقيت متحيرا فى أمره فحملنى السكر على أن أجلس فيه فجلست ؛ فلما أحس بى الذين كانوا يرقبونه جذبوه إلى رأس الحائط فإذا أنا بأربع جوار يقلن لى : انزل بالرحب والسعة ومشت بين يدي جارية بشمعة ، حتى نزلت إلى دار ومجالس مفروشة ، لم أر مثلها إلا فى دار الخلافة ، فجلست فما شعرت بعد ساعة إلا بستور قد رفعت فى ناحية من الجدران ، وإذا بوصائف يتمشين وفى أيديهن الشمع ، وبعض مجامر يحرق فيهن العود وبينهن جارية كأنها البدر الطالع ؛ فنهضت وقالت : مرحبا بك من زائر وجلست ، ثم سألتنى عن خبرى ، فقلت : انصرفت من عند بعض إخوانى وغرنى الوقت ، وحرقنى البول فعمدت إلى هذا الزقاق فوجدت زنبيلا معلقا، فحملنى السكر على أن جلست فيه فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه ، قالت: لاضير وأرجو أن تحمد عاقبة أمرك ، ثم قالت : فما صناعتك ؟ قلت : بزاز[١] ببغداد ، فقالت : هل رويت من الأشعار شيئا ؟ قلت : شيئا ضعيفا ، قالت : فذاكرنا شيئاً ، قلت : إن للداخل حشمة ، ولكن تبدئين أنت ، قالت : صدقت فأنشدتنى شعرا لجماعة من القدماء والمحدثين من أجود أقاويلهم ، وأنا مستمع لا أدرى مم أعجب من حسنها

---

(١) بزاز : بائع ثياب .

أم من حسن روايتها، ثم قالت : أذهب ماكان فيك من الحصر ؟ قلت : أى والله ، قالت : فإن رأيت أن تنشدنا، فأنشدتها شيئاً لجماعة من القدماء ما فيه مقنع ، فاستحسنت ذلك ، ثم قالت: والله ماظننت أن يوجد فى أبناء السوقة مثل هذا ، ثم أمرت بالطعام فأحضر فجعلت تقطع وتضع قدامى وفى المجلس من صنوف الرياحين وغريب الفواكه ما لا يكون إلا عند السلطان ، ودعت بالشراب فشربت قدحا ، ثم ناولتنى قدحا ، ثم قالت : هذا أوان المذاكرة والأخبار ، فاندفعت أذاكرها وقلت : بلغنى أن كذا وكذا وكان رجل يقال له : كذا حتى أتيت على عدة أخبار حسان ، فسرت بذلك وقالت كثر تعجبى أن يكون أحد من التجار يحفظ مثل هذا، وإنما هذه أحاديث ملوك ! فقلت : كان لى جار يحادث الملوك وينادمهم، وإذا تعطل حضرت معه فربما حدثت بما سمعت ، فقالت : لعمرى لقد أحسنت الحفظ وما هذه إلا قريحة جيدة وأخذنا فى المذاكرة ، إذا سكت ابتدأت هى ، وإذا سكتت ابتدأت أنا، حتى قطعنا أكثر الليل وبخور العود يعبق وأنا فى حالة لو توهمها المأمون لطار شوقا إليها .

فقالت : إنك من أظرف الرجال وضيء الوجه ، بارع فى الأدب وما بقى إلا شيء واحد ، قلت : وما هو ؟ قالت : لو كنت تترنم ببعض الأشعار؟ قلت : والله لقديما كنت ألفت به ولم أرزقه ، وأعرضت عنه وفى قلبى منه حرارة ، وكنت أحب فى مثل هذا المجلس شيئا منه لتكمل ليلتى. قالت : كأنك عرضت ، فقلت : والله ما هو تعريض قد بدأتِ بالفضل وأنتِ جديرة بذلك ، فأمرت بعود فحضر وغنت بصوت ما سمعت بحسنه مع حسن أدبها ، وجودة الضرب بالكمال الراجح ، ثم قالت: هل تعرف هذا الصوت ومن غنى به ؟ قلت : لا ، قالت : الشعر لفلان ، والغناء

لإسحاق ، قلت : و إسحاق هذا -جُعلت فداكِ- بهذه الصفة ؟ قالت : بخ بخ إسحاق بارع فى هذا الشأن ، فقلت : سبحان الله ، أعطى هـذا الرجـل مالم يعطه أحد ، قالت : فكيف لو سمعت هذا الصوت منه ، ثـم لـم تـزل على ذلك ؛ حتى إذا كان الفجر أقبلت عجوز كأنها داية لها ، وقالت : إن الوقت قد حضر فنهضت عنـد قولهـا . فقـالت : لتستر مـا كنـا فيـه ، فـإن المجالس بالأمانات .

قلت : جُعِلْتُ فداكِ لم أكن أحتـاج إلـى وصيـة فـى ذلـك ، فودعتهـا وجارية بين يدى إلى باب الدار ، ففتح لـى فخرجـت ، ورحـت إلـى دارى فصليت الصبح ونمت ، فانتهى رسول المأمون إلـىَّ فسـرت إليـه ، وأقمـت عنده نهارى .

فلما كان العشاء تفكرت ما كنت فيه البارحة ، وهذا شىء لا يصبر عنه إلا جاهل ، فخرجت وجئت إلى الزنبيل فوجدته على عادته ، فجلسـت فيه ورفعت إلى موضعى البارحة ، وإذا هى قد طلعت فقالت : لقد عاودت، فقلت : ولا أظن إلا أننى قد ثقلت وأخذنـا فـى المحادثـة مثـل تلـك الليلـة السالفة فى المذاكرة والمناشدة وغريب الغناء منها ، إلـى الفجـر فـانصرفت إلى منزلى ، فصليت الصبح ونمت فانتهى رسول أمير المؤمنين إلى فمضيت إليه وأقمت نهارى عنده .

فلما كانت العشية وجه إلى خطابا ، وقال : أقسمت عليـك لتجلسـن حتى أجىء وأحضر ، فما كـان حتـى أن غـاب وجـالت وساوسـى ؛ فلمـا تذكرت ما كنت فيه هان علـى مـا يخصنـى مـن أمـير المؤمنيـن ، فوثبـت مبـادرا وخرجـت جاريـا حتـى أتيـت الزنبيـل ، فجلسـت فيـه فرفعـت إلـى

مجلسي . فقالت : صديقنا ، قلت : إي والله ؛ قالت: أجعلتها دار إقامة ؟ قلت : جُعِلْتُ فداك ؛ حق الضيافة ثلاثة أيام ، فإن رجعت بعد ذلك فأنتم في حل من دمي . ثم جلسنا على ذلك الحال ، فلما قرب الوقت علمت بأن المأمون لابد أن يسألني فلا يقنع إلا بشرح القصة .

فقلت : إني أراكِ ممن يعجب بالغناء ولي ابن عم أحسن مني وجها ، وأظرف قدا ، و أكثر أدبا ، وأطيب أرجا ، وهو أعرف خلق الله بغناء إسحاق ، فقالت : طفيلي وتقترح ! قلت لها : أنت المحكمة ، ثم قالت : إن كان ابن عمك على ما تصف فما نكره معرفته ، ثم جاء الوقت فنهضت وقمت وذهبت ، فلم أصل إلى داري إلا ورسل المأمون قد هجموا عليَّ وحملوني حملا عنيفا فوجدته قاعدا على كرسي وهو مغتاظ.

فقال : يا إسحاق أخروجا عن الطاعة ؟ قلت : لا والله ، قال : فما قصتك أصدقني ؟ قلت : نعم في خلوة ؛ فأومأ إلى من بين يديه ، فتنحوا فحدثته الحديث وقلت له : وعدتها بك ، قال : أحسنت ، فأخذنا في لذتنا ذلك اليوم والمأمون معلق القلب بها ، فما صدقنا أن جاء الوقت وسرنا وأنا أوصيه وأقول له : تجنب واحذر أن تنادنيي باسمي بحضرتها وغن وأنا لك تبع، وهو يقول : نعم . ثم سرنا إلى الزنبيل -فوجدناهما- اثنين فقعدنا فيهما ورفعنا إلى الموضع المعهود فحضرت وأقبلت وسلمت .

فلما رآها المأمون بهت في حسنها وجمالها ، وأخذت تذاكره وتناشده الأشعار ، ثم أحضرت النبيذ -فشربنا- وهي مقبلة عليه مسرورة به، وهو أكثر فأخذت العود وغنت صوتا ، ثم قالت : وابن عمك هذا من التجار وأشارت إليَّ ؟ قلت : نعم ، قالت : والله إنكما لقريبان ، فلما

شرب المأمون ثلاثة أرطال داخله الفرح والطرب فصاح وقال : يا إسحاق قلت : لبيك يا أمير المؤمنين ، قال : غن هذا الصوت ، فلما علمت أنه الخليفة نهضت إلى مكان فدخلته ، فلما فرغتُ من الصوت قال : انظر من رب هذه الدار ، فبادرت العجوزة ، وقالت : للحسن بن سهل[1] ، فقال : على به فغابت العجوز ساعة وإذا الحسن قد حضر ، فقال له المأمون : ألك ابنه ؟ قال : نعم ، قال : ما اسمها ؟ قال : بوران[2] ، قال : أمتزوجة؟ قال : لا والله ، قال : فإنى أخطبها منك، قال : هى جاريتك وأمرها إليك، قال : قد تزوجتها على نقد ثلاثين ألفا تحمل إليك صبيحة يومنا هذا ، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتنا ، قال : نعم ؛ ثم خرجنا .

فقال : يا إسحاق لا توقف على هذا الحديث أحدا ، فسترته إلى أن مات المأمون . فما اجتمع لأحد مثل ما اجتمع لى فى تلك الأربعة أيام مجالسة المأمون بالنهار و بوران بالليل والله مارأيت أحدا من الرجال مثل المأمون ولاشاهدت امرأة تقارب بوران فهما وعقلا ، والله تعالى أعلم انتهى من حلبة الكميت .

[١١٧] وقيل : كان المأمون يوما ، يأكل مع أبيه الرشيد فلما فرغ جعلت جارية تصب الماء على يدى الرشيد ، فنظر إليها المأمون وأشار

---

(١) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخسى ، أبو محمد :وزير المأمون بعد أخيه الفضل، ووالد بوران التى تزوجها المأمون . ت[٢٣٥هـ] . انظر : وفيات الأعيان (١١٧/٢) .

(٢) بوران بنت الحسن بن سهل : من أجمل النساء أدبا وأخلاقا ، بنى بها المأمون فى شهر رمضان سنة [٢١٠هـ] وأنفق على عرسها أموالا جمة ، ت[٢٧١هـ].انظر : أعلام النساء (١٥٩/١) .

إليها كأنه يقبلها ، فأنكرت ذلك بعينها وأبطات فى الصب بقدر النظر إلى المأمون، فقال لها الرشيد : لأى شيء صغى الإبريق في يدك ، فوالله لئن لم تصدقينى الحق لأضربن عنقك ؟ فقالت : ياسيدىَ نظر إلى عبد الله المأمون وأشار كأنه يقبلنى ، فأنكرت ذلك بعينى ، فنظر الرشيد إلى المأمون فسقط مغشيا عليه كأنه ميت مما داخله من الخوف والفزع ، فأخذه وضمه إلى صدره وقال : يا عبد الله أتحبها ؟ قال : إى والله يا أمير المؤمنين ، فقال : هى لك ، خذ بيدها وادخل بها فى هذه القبة ففعل .

فلما خرج إلى الرشيد قال له : هل قلت فى هذا شيئاً ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم أنشد يقول :

ظبى كنيت بطرفى ... عن الضمير إليه
قبلته من بعيد ... فاعتل من شفتيه
ورد أخبث رد ... بالكسر من حاجبيه
فما برحت مكانى ... حتى قدرت عليه

[١١٨] **وعن أبى عبد الله النميرى أنه قال** : كنت يوما مع المأمون وكان بالكوفة، فركب للصيد ومعه سرية من العسكر ؛ فبينما هو سائر إذ لاحت له طريدة فأطلق عنان فرسه وكان على سابق من الخيل ، فأشرف على نهر من ماء بحر الفرات ، فإذا هو بجارية عربية خماسية القد، قائمة النهد ، كأنها القمر ليلة تمامه ، وبيدها قربة قد ملأتها من النهر ورفعتها عن كتفها ، وصعدت من حافة النهر فانحل وكاؤها[١] فصاحت

(١) وكاؤها : الحامل الذى تشد عليه القربة .

برفيع صوتها : يا أبت أدرك فاها قد غلبني فوها لاطاقة لي بفيها . قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت القربة من يدها ، فقال لها المأمون : يا جارية من أى العرب أنت ؟ فقالت : أنا من بني كلاب ، قال : وما حملك أن تكوني من الكلاب ؟ قالت : والله لست من الكلاب وإنما أنا من قوم كرام غير لئام يقرون الضيف ويضربون بالسيف ، ثم قالت : يا فتى من أى الناس أنت ؟ قال : أو عندكم علم بالأنساب ؟ قالت : نعم ، قال : أنا من مضر الحمراء، قالت : من أى مضر ؟ قال : من أكرمها نسبا وأعظمها حسبا وخيرها أما وأبا ممن تهابه مضر وتخشاه ، قالت: أظنك من كنانة ، قال : أنا من كنانة ، قالت : من أى كنانة ؟ قال : من أكرمها مولدا وأشرفها محتدا وأطولها في المكرمات يدا ممن تهابه كنانة وتخشاه، قالت: والله أنت من بني هاشم ، قال : أنا من بني هاشم ، قالت : من أى هاشم ؟ قال : من أعلاها منزلة وأشرفها قبيلة ، ممن تهابه هاشم وتخشاه ، قال : فعند ذلك قبلت الأرض ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين ، قال: فعجب المأمون منها وطرب طربا شديدا ، ثم قال : لأتزوجن بها لأنها من أكبر الغنائم ، ثم وقف حتى تلاحقته العسكر فنزل وأرسل خلف أبيها وخطبها منه فزوجه بها وهي والدة العباس ، والله أعلم .

[١١٩] **ومن محاسن الأخلاق ، ما حكى عن القاضي يحيى بن أكثم قال** : كنت نائما ذات ليلة عند المأمون ، فعطش فامتنع أن يصيح بغلام يسيقه وأنا نائم فينغص عليَّ نومي ، فرأيته وقد قام يتمشى على أطراف أصابعه حتى أتى موضع الماء، وكان بينه وبين الماء نحو ثلاثمائة خطوة ، ثم رجع يتمشى على أطراف أصابعه حتى وصل إلى الفراش ،

الذى أنا عليه وخطا خطوات لطيفه لئلا ينبهنى حتى وصل إلى فراشـه ، ثـم رأيته آخر الليل وقد قام يبول فقعد طويلا يحاول أن أتحرك فيصيح للغـلام، فلمّا تحركت وثب قائما وصاح بالغلام وتأهب للصلاة ؛ ثم جاء إلىّ وقال: كيف أصبحت يا أبا محمد ، وكيف مبيتك ؟ قلـت : بخير مبيت جعلنى الله فداك .

قال : قد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصيح بالغلام فأزعجك ، فقلت : يا أمير المؤمنين لقـد خصك الله بأخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ووهب لك سيرتهم ، فهناك الله بهذه النعمة وأتمها عليك فأمر لى بألف دينار وانصرف .

[١٢٠] وحدث سليمان الوراق قال : ما رأيت أعظم حلما من المأمون دخلت عليه يوما ، وفى يده فص مستطيل من ياقوت أحمر له شعاع قد أضاء له المجلس ، وهو يقلبه بيده ويستحسنه ، ثم دعا برجل صائغ ، وقال له : اصنع بهذا الفص كذا وكذا ونزل فيه كذا وكذا ، وعرفه كيف يعمل به ؛ فأخذه الصائغ وانصرف ، ثم عدت إلى المأمون بعد ثلاث فتذكره، فاستدعى بالصائغ فأتى به وهو يرعد وقد انتقع لونه ، فقال المأمون: ما فعلت بالفص ؟ فتلجلج الرجل ولم ينطق بكلام ، ففهم المأمون بالفراسة أنه حصل فيه خلل ، فولى وجهه عنه حتى سكن جأشه ثم التفت إليه وأعاد القول ؟ فقال : الأمان يا أمير المؤمنين ، قال : لك الأمان ، فأخرج الفص أربع قطع وقال : يا أمير المؤمنين سقط من يدى على السندال فصار كما ترى . فقال المأمون : لا بأس عليك اصنع به أربع خواتم ، وألطف له فى الكلام حتى ظننت أنه كان يشتهى الفص على أربع.

فلما خرج الرجل من عنده ، قال : أتــدرون كـم قيمـة هـذا الفـص ؟ قلنا: لا ، قال : اشتراه الرشيد بمائة ألف وعشرين ألفا انتهى .

[١٢١] **ومن حلمه أيضا قال يحيي** : كنت أنـا والمـأمون يومـا فـى بستان ندور فيه فمشينا فى البسـتان مـن أولـه إلـى آخره وكنـت ممـا يلـى الشمس والمأمون مما يلى الظل، فكان يجذبنى أن أكون فى الظل وهو فـى الشمس فأمتنع من ذلك ، فإذا رجعنا قال لى: واللـه يـا يحيـى لتكونـن فـى مكانى ولأكونن فى مكانك حتى آخــذ نصيبـى مـن الشـمس كمـا أخـذت نصيبك منها .

فقلت : والله يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أقيلــك مـن هـول المطلـع لفعلت ، ولم يزل بى حتى تحولـت إلـى الظـل وتحـول هـو إلـى الشـمس، ووضع يده على عاتقى وقال : بحياتى إليك إلا ما وضعت يدك على عـاتقى مثل ما فعلت فإنه لاخير فى صحبة من لاينصف .

[١٢٢] **و[قيل] من حلمه أيضا** : أنه كان لـه خـادم يسـرق طاسـاته التى يتوضأ فيهـا ، فقـال لـه المـأمون : إذا سـرقت شيئا فـأتنى بمـا تسـرقه فأشتريه منك ، فقال له الخادم : اشتر منى هذه وأشار إلى التى بيـن يديـه ، فقال : بكم ؟ قال : بدينارين ، قـال: علـى شـرط إنـك لاتسـرقها ، قـال : نعم. فأعطاه دينارين ، فلم يعد الخادم يسرق بعدها شيئا لما رأى من حلمه والله أعلم .

[١٢٣] **وروى بعض أهل الأدب** : أن فتى من أهل الكوفـة قـد فـاق أهل زمانه فى الأدب والبيان والفصاحة باللسان ، ناقدا فى صناعته ، حافظـا للأقـدار ، راو للأشـعار ، خبيرا بسـير الملـوك فـى الأيـام السـالفة ، بصـيرا

بالبحث عن أمورهم فى الأيام الآنفة ، حاذقا فى التصنيف ، فائقا فى التأليف ، صبيح الوجه ، مقبول المشاهد حلو الشمائل وكان مع ذلك لايتوجه له وجه من العمل إلا عارضه فيه عائق وحال دونه حائل وقدر سابق ؛ فبقى حينا من الدهر وقد برز فى القدر والمال والجاه من كان عنده فى الصناعة متأخرا ، فضاق صدره وعيل صبره وصلت مقاليده . فخرج إلى بغداد واكترى[1] فى بعض خاناتها منزلا ، وأجمع رأيه على أن يحمل نفسه على خطب هائل ليكون فيه هلكة أو ملكة ، وتربص لذلك أن يرى وجها إلى أن عزم أمير المؤمنين المأمون أن يشرب يوما هو وصنوه[2] المعتصم

فأمر المأمون بالاستعداد ليوم سماه ليخلو فيه مع الجوارى منفردين عن سائر الندماء ، فظهر خبرهما بذلك وعرف الناس ذلك اليوم الذى عزما عليه، فعزم هذا الأديب المذكور على أن يتطفل فى ذلك على المأمون وأخيه المعتصم ، فمضى إلى إخوانه وأصدقائه فاستعار من هذا قباء وجبة وزردية ، ومن آخر منطقة وخفا وسيفا، ومن آخر برذونا ، ومن آخر ما يحتاج إليه من الطيب ، واستعد لذلك اليوم ودخل الحمام سحرا وتطيب ولبس وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرّف الأمير أنى رسول أمير المؤمنين ، واستأذن لى عليه فسعى الحاجب عدوا حتى أخبر المعتصم ، فأذن له ؛ فلما دخل عليه وتمثل بين يديه قال له : سيدى إن أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : أنسيت الوعد ألم يقدم إليك بالركوب لنخلو ونستريح يومنا هذا ، قال المعتصم : لا والله ما

(١) اكترى : استأجر .

(٢) صنوه : الأخ الشقيق .

نسيت ذلك ، ولكن تربصت ساعة ونمت نومة لأتقوى بذلك على انتصابى سائر النهار ، فقال الفتى : فعجل الآن أيها الأمير فإنه أمرنى أن لا أفارقك حتى آتيه بك ، فأمر المعتصم بإسراج مركوبه وأسرع فى التأهب ولبس ثيابه وتطيب وركب الفتى معه ، والمعتصم لاينكر شيئا من كلام الفتى ويتأمل للطافته وهيئته ولم يتوهم إلا أنه من بعض خواص المأمون ، وأخذ الفتى يحدث المعتصم ، وأقبل عليه بكليته ولم يتمكن من سؤاله شهوةً لاستماع حديثه ، حتى بلغ باب الخليفة فألقى الفتى نفسه عن دابته ، وأخذ يمشى بين يديه والحجاب لا ينكرون منه شيئاً ويظنون أنه من خدم المعتصم حتى نزل المعتصم ، وأخذ الفتى بركابه ودخل المجلس .

فلما استقر المعتصم فى مجلسه وجلس الفتى بين يديه ، وهو منهمك فى نوادره وأخباره والمعتصم مصغ إليه تعجبا مما يسمع من حسن كلامه ، وأُخبر المأمون أن المعتصم قد وصل ومعه رفيق لايعرف من هو ، فقال المأمون : أخى قد عرِف أن هذا المجلس اتفقنا عليه لا ينبغى أن يحضره أحد من الناس إلا من هو عديل النفس ، وقد أحسن أخى إذ جعل لنا ثالثا ، فإن المجلس إذا لم يحضره أكثر من اثنين تعطل لقيام أحدهما إلى الصلاة ، وإلى ما لابد منه . ثم خرج من ساعته فرحا وليس له همة إلا تصفح وجه الغلام واستنطاقه واعتباره قده وعقله .

فلما استقر على سرير ملكه والفتى عالم بما وقع فى نفس المأمون نهض قائما وقبل يد المأمون وعاد إلى مجلسه ، وأخذ فى نوادره وحديثه ومضحكاته ، وحسن أخباره وغرائب أشعاره كأنه يغرف من بحر وهو مع ذلك يوهم المأمون أنه من خواص المعتصم فساعة يكنيه وساعة يسميه ،

حتى غلب على قلب المأمون وأظهر الحسد لأخيه فى صحبته مثل هذا الغلام وكلامه ، وأمر المأمون بإحضار المائدة فنصبت بأنواع الطعام فأكلوا وغسلوا أيديهم ، ولمجلس الشراب انتقلوا وأمر المأمون بإحضار الجوارى من غير ستارة فحضرن وأخذن فى الغناء ، فما من صوت يمر إلا والفتى عارف به وبالغناء ومتى قيل وفيمن قيل فعز فى عين المأمون حتى ملأ عينه وتزايد حسده لأخيه فى صحبة مثله ، فمس الفتى بول ولم يجد للمدافعة سبيلا ، فقام وهو متيقن أنهما سيذكرانه ويتواصفان أمره وحاله إذا خلا المجلس ، فما هو إلا أن غاب من بين أيديهما ، حتى قال المأمون : لأخيه المعتصم يا أبا إسحاق من صاحبك هذا ، فوالله ما رأيت رجلا قط أكثر منه أدبا ، ولا أنظف هيئة ، ولا أشرف من شمائله ؟ فقال المعتصم : والله ما أعلم من هو وإنه جاءنى مبكرا برسالة أمير المؤمنين، فقال المأمون : سألتك بالله يا أخى أهو كذلك ؟ فقال إى والله الذى لا إله إلا هو، فقال المأمون : طفيلي ورب الكعبة وغضب وأمر الجوارى بالنهوض فنهضن ، وأقبل الفتى راجعا .

فلما نظر إلى خلو المجلس من الجوارى وإلى تغير وجه المأمون ، وقف على رأس المجلس ، وأقبل بوجه على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق كأنى بك قد أخذت فى نوع الزور والبهتان ، وهذا المجلس من المجالس التى لا تحمل المزاح وما هكذا وعدتنى ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين ما بليت من أحد من الناس مثل ما بليت من هذا ، لأنه دائما أبدا يعرضنى لمثل هذا وأشباهه ، ويغرى بى ويوقعنى فى كل ورطة، ثم أقبل على المعتصم وقال : يا أبا إسحاق سألتك بالله وبحق أمير المؤمنين إلا ما أعفيتنى من ملاعبتك التى لا تحتمل وتؤدى إلى مؤاخذة أمير المؤمنين ،

ولم يزل يأتي بهذا وأمثاله حتى شك المأمون في أمره والتفت إلى أخيه المعتصم وقال : سألتك بالله يا أخي بحياتي عليك ألا ما أعلمتني حقيقة أمره ؟ فقال المعتصم : يا أمير المؤمنين برئت من ذمة الله ورسوله ومن حياتك وولايتك إن كنت أعرفه أو رأيته قط إلا في يومي هذا ، فقال الفتى: كذب والله يا أمير المؤمنين لقد كنت معه دهري الطويل وفي مواضع كذا وكذا ، وإن هذا فعله معي أبدا فضحك المأمون تعجبا ، وقال: ادخل فدخل وأمره بالجلوس فجلس ثم قال : لك الأمان إن صدقتني فصدقه الحديث على وجهه ، فأعجب من حسن منطقه ولطف مدخله ودقيق تصرفه ، وأمر بإعادة الجواري إلى مجلسهن فطربوا سائر يومهم .

فقال له المأمون : أخبرني بأعجب ما لحقك في قدومك من الكوفة إلى بغداد واجعله نظما ولاتكتم عني شيئاً ، فقال : نعم ثم أنشأ يقول :

بينا أنا راقد في البيت مكتسب   مفكر في حصول الكد والقوت
وليس في البيت لي شيء ألم به   وبي من الجوع ما يدني إلى الموت
إذا بصوت بباب الدار أسمعه   والأذن مصغية مني إلى الصوت
ناديت من ذا الذي أرجوه لي فرجا   نادى أنا فرج زن لي كرا البيت

فضحك المأمون حتى استلقى على فراشه ، ثم ضرب برجله الأرض من شدة إعجابه وقال : ثم ماذا ؟ قال : يا أمير المؤمنين فخرجت ، فإذا هو صاحب الخان يطالبني بالكراء[1] فوعدته بأن يرجع إليّ مرة أخرى ، فمضى ومضيت على وجهي لا أعلم أين أتوجه فسألت كل من لقيته من

---

(١) الكراء : إيجار البيت .

صديق لي كنت أستأنس به ، فخطر على بالي بيتان من الشعر في ذلك. وهما :

غريب الدار ليس له صديق جميع سؤاله أين الطريق
تعلق بالسؤال لكل شخص كما يتعلق الرجل الغريق

فأشرفت يا أمير المؤمنين على جارية كأنها البدر ليلة كماله وهي تقول:

ترفق يا غريب فكل حر يمر بحاله سعة وضيق
وكل ملمة إن أنت فيها صبرت لها أتيح لها الطريق(1)

ثم قالت : خذ هذه فادفع بها فاقتك فوالله ما هي إلا مواساة من قوت ورمت إلى صدري بقرطاس ، وإذا فيه عشرة دراهم فرجعت من فوري فوجدت صاحب الكراء قائما على الباب ، فدفعت إليه خمسة دراهم واستعنت بالباقي إلى أن وقعت هذه القصة وهذا الأمر الذي كلفني وحملني على ما فعلت وأنشأ يقول :

لئم آت فعلا غير مستحسن جهلا بفعل الأحسن الأملح
لكنني في حالة أوجبت ضرورة إتيان مستقبح

فأعجب المأمون أمره واستحسنه ، وأمر له بمائة ألف درهم يصلح بها شأنه، وألحقه بمراتب الخاصة ، ورفعت منزلته عنده وصار أقرب الناس إليه ، وآخر خارج من عنده ، وأول داخل إليه ، وسمي طفيلي المعتصم وأنشد للمأمون يوما يقول :

---

(1) ملمّة : شدة .

كـــانت لقلبـــي أهــــواء مفرقـــة   فاستجمعت إذ رأتك العيـــن أهوائـــي
تركـــت للنـــاس دنيـــاهم ودينهـــم   شـــغلا بذلـــك عـــن دينـــي ودنيـــائي
وصار يحسدني مـن كنـت أحسـده   وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

فاستحسن المأمون الأبيات ، وأمر بكتبها على الستارة ، وصار الفتـى إذا حضر يوم سرور المأمون لم يكن للمأمون هـم إلا اقتراح هـذه الأبيـات إلى أن ينقضي المجلس، ثم إن الفتى بعد أن حسنت حالته أرسل إلى الـدار التي أشرفت عليه منها الجارية ، فإذا هي لرجل من أهل بغداد من مباشـريها وقد مات ولـم يخلف ولدا سوى تلـك الجاريـة وما مـات حتـى تضعضـع حاله ؛ فأعلم المأمون بذلك فأمر بخطبتها للفتـى ودفـع المهـر مـن عنـده ، وصار الفتى والجارية في نعمة عظيمة بقية عمرهما ، والله أعلم.

[١٢٤] و[قيل] : سرق شـاب سـرقة فـأتى بـه إلـى المـأمون ، فـأمر بقطع يده فتقدم لتقطع يده فأنشد الشاب يقول :

يـدي يـا أمير المؤمنيـــن أعيذهـا   بعفـوك أن تلقـى نكـالا يشـينها
فلا خير فـي الدنيـا ولاراحـة بها   إذا مـــا شـــمال فارقتهـــا يمينهـا

وكانت أم الشاب واقفة على رأسه ، فبكت وقالت : يا أمير المؤمنين إنه ولدي وواحـدي ناشـدتك اللـه إلا رحمتنـي ، وهـدأت لوعتـي وجـدت بالعفو عمن استحق العقوبة فقال المأمون : هذا حد من حدود الله تعـالى ، فقالت : يا أمير المؤمنين اجعل عفوك عن هذا الحد ذنبا مـن الذنـوب التـي تستغفر منها، فرق لها المأمون وعفا عنه .

[١٢٥] وفى حياة الحيوان(١) قال : رأيت فى بعض المحاميع بخط بعض العلماء الأكابر : أن المأمون أشرف يوما من قصره فرأى رجلا قائما وبيده فحمة وهو يكتب بها على حائط قصره فقال المأمون لبعض خدمه : اذهب إلى ذلك الرجل فانظر ما كتب وائتنى به ، فبادر الخادم إلى الرجل مسرعا وقبض عليه ، وقال : ما كتبت فإذا هو قد كتب هذين البيتين :

يا قصر جمع فيك الشوم واللوم	متى يعشش فى أركانك البوم
يوما يعشش فيك البوم من فرحى	أكون أول من ينعاك مرغوم

ثم إن الخادم قال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال الرجل : سألتك بالله لا تذهب بى إليه ، فقال الخادم : لابد من ذلك ، ثم ذهب به . فلما مثل بين يدى أمير المؤمنين وأعلمه بما كتب قال له المأمون : ويلك ما حملك على هذا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنه لا يخفى عليك ما حواه قصرك هذا من خزائن الأموال ، والحلى ، والحلل ، والطعام، والشراب ، والفرش ، والأوانى، والأمتعة ، والجوارى ، والخدم ، وغير ذلك مما يقصر عنه ، وصفى ويعجز عنه فهمى ، وإنى يا أمير المؤمنين قد مررت عليه الآن، وأنا فى غاية من الجوع والفاقة فوقفت مفكرا فى أمرى ، وقلت فى نفسى : هذا القصر عامر عالٍ ، وأنا جائع ولا فائدة لنا فيه فلوكان خرابا ومررت به لم أعدم رخامةً أوخشبةً أومسماراً أبيعه وأتقوت بثمنه أو ما علم أمير المؤمنين رعاه الله قول الشاعر :

إذا لم يكن للمرء فى دولة امرئ	نصيب ولاحظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير أنه	يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الباء (٢٣٢/١) .

فقال المأمون يا غلام أعطه ألف درهم ، ثم قال : هي لك في كل سنة مادام قصرنا عامرا بأهله مسرورا بدولته ، وأنشدوا في معنى ذلك :

إذا كنت في أمر فكن فيه محسنا … فعما قليل أنت ماض وتاركه
فكم دحت الأيام أرباب دولة … وقد ملكوا أضعاف ما أنت مالكه

[١٢٦] **ويحكي** : أنه تنبأ[1] رجل في أيام المأمون ، فقال ليحيى بن أكثم القاضي: يا يحيى امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ ، وإلى دعواه فركبا في الليل مستترين ومعهما خادم ، حتى صار إلى بابه وكان مستترا بثوبه فاستأذنا عليه ، فخرج إليهما فقال : من أنتما ؟ فقالا : رجلان يريدان أن يسلما على يديك ، قال : ادخلا ، فدخلا وجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن يساره ، فقال المأمون : إلى من بعثت ؟ قال: إلى الناس كافة ، قال : أفيوحي إليك أم ترى في المنام أم ينفث في قلبك ؟ قال: بل أناجي وأكلم ، قال : ومن يأتيك ؟ قال : جبريل ، قال : فمتى كان عندك؟ قال: الساعة قبل أن تأتياني بساعة ، قال : فما أوحي إليك ؟ قال : أوحي إلي أنه سيدخل عليك رجلان فيجلس أحدهما عن يمينك والآخر عن يسارك والذي يجلس عن يسارك ألوط خلق الله تعالى ، فقال له المأمون : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله وكان يحيى يعزى إلى ما قاله عنه المتنبئ ، انتهى .

---

(١) تنبأ أي ؛ ادعى النبوة كذبا .

[١٢٧] و[قيل](١) : دخل أبو نُواس على القاضى يحيى بن أكثم ودخل معه غلام جميل الوجه ، فقال الغلام : هذا مر عليّ وقبلنى كرها ففتن به القاضى فأنشد يقول :

إذا كنت للتخميش والبوس كارها فلا تدخل الأسواق إلا منقبا
ولا تظهر الأصداغ من تحت طرة وتشهر منها فوق خديك عقربا

فلما سمع الغلام ، أنشأ يقول :

لقد كنت أرجو أن أرى العدل بيننا فأعقبنى بعد الرجاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها إذا كان قاضى المسلمين يلوط

[١٢٨] ويحكى(٢) : أنه كان عند المأمون يوما فقال له المأمون وهو يعرض له باللواط : يا يحيى من ذا الذى يقول :

قاض يرى الحد فى الزنا ولا يرى على من يلوط من باس

فقال له : الذى يقول :

ما أرى الجور ينقضى وعلى الأمة والٍ منكم بنى العباس

[١٢٩] ويقال : إن المأمون شرب يوما ومعه القاضى يحيى بن أكثم، فمال الساقى على القاضى حتى وقع سكران ، فأمر المأمون أن يلقى

---

(١) انظر : ثمرات الأوراق ص٤٠١ .

(٢) قلت : ونحن نربأ بالقاضى يحيى بن أكثم عن مثل هذه الحكايات التى دُسَّت عليه حسدا ،وحقدا وننكرها ؛ كما أنكرها الإمام أحمد بن حنبل ، حيث قال : ما عرفت فيه بدعة . وكفى بشهادة إمام أهل السنة له . تقدمت ترجمته فقرة [٩١] .

عليه الورد والرياحين حتى يدفن فيها كأنه ميت ، وصنع بيتى شعر وقال : لمغنيته خذى العود وغنى على رأسه ، فغنت وقالت :

ناديته وهو حى لاحراك له | مزمل فى ثياب من رياحين
فقلت قم قال رجلى لا تطاوعنى | فقلت خذ قال كفى لايواتينى

فاستيقظ يحيى لرقة العود والجارية تغنى البيتين فقام وقال :

يا سيدى وأمير الناس كلهم | قد جار فى حكمه من كان يسقينى
سقانى الراح لم يمزج سلافتها | حتى بقيت سليب العقل لا الدين

[١٣٠] **قال الواقدى**(١) : كان إبراهيم بن المهدى ادعى لنفسه الخلافة بالرى(٢)، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرا واثنى عشر يوما وله أخبار كثيرة .

فمما حكاه قال : لما دخل المأمون الرى فى طلبى أثقل على الطلب وجعل لمن دل على وأتاه بى مائة ألف درهم فخفت على نفسى وتحيرت فى أمرى ، فخرجت من دارى وقت الظهر وكان يوما صائفا وما أدرى أين أتوجه فمررت بزقاق لا ينفذ، فقلت : لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم إنالله وإنا إليه راجعون ، وخفت إن رجعت على أثرى يعلموا بى فرأيت فى

---

(١) محمد بن عمر بن واقد السهمى ، أبو عبد الله الواقدى : الحافظ ، صاحب المغازى والسير من أقدم المؤرخين فى الإسلام ، ت[٢٠٧هـ] . انظر : تذكرة الحفاظ (٣١٧/١) .

(٢) الرى : مدينة فى شمال إيران ، بضاحية طهران ، فتحها المسلمون فى صدر الإسلام، وازدهرت فى عهد العباسيين وكانت من العواصم الإسلامية التجارية والثقافية . ولد فيها هارون الرشيد . خربها المغول [٦١٧هـ] .

صدر الزقاق عبدا أسوداً قائمـا على بـاب داره، فتقدمت إليه وقلت لـه : عندك موضع أقيم فيه ساعة من نهار ، قال : نعم وفتح البـاب فدخلت إلـى بيت نظيف فيه حصر نظيفة وبسط ومخدات جلد ، ثم إنه أغلق الباب عليَّ ومضى ، فخفت أن يكون سمع الجعالـة فى حقـى ، وأنـه عرفنـى ومضـى ليدلهم عليَّ فبقيت مثل الحبة فى المقلاه قلقا ميتا من الخوف .

فبينما أنا كذلك إذا أقبل ومعه حمال حامل كـل مـا أحتـاج إليـه مـن لحم وخبز وقدر جديدة وجرة وكيزان جدد، ثم التفت إليَّ وقال : جعلنى الله فداك أنا رجل حجام ، وأنا أعرف إنك تنفر منى لما أتولاه من معيشتى فشأنك بما لم تقع عليه يدى ، وكان لى حاجة إلى الطعام فقمت وطبخت قدرا ما ظننت أنى أكلت مثلها قدرا ؛ فلما قضيت أربى قال لى: هـل لـك أن تشرب شيئاً فإنه يسلى الهم ، ويزيل الغم ، ويهد للنفس الفرح ؟ قلت : ما أكره ذلك رغبة فى مؤانسته ، فأتى بقطرٍ ، ميز جديد ، وأحضر لى نقـلا وفاكهة فى أوانٍ جدد من فخار ثم قال بعد ذلك : إن أذنـت لـى -جعلت فداك- أن أقعد بناحية منك وآتى بشراب فأشـرب مسرورا بـك ؛ فقلت : افعل ، ففعل وشرب ثلاثا ، ثم دخل إلى خزانة له فـأخرج عـودا مصلحـا ، ثم قال : يا سيدى ليس من قدرى أن أسألك أن تغنى ولكن قد وجب علـى مرؤتك حرمتى ، فإن رأيت أن تشرف عبدك بـأن تغنـى لنفسـك ، والعبد يسمع فافعل فقلت له : ومن أين لـك أنـى أحسـن الغنـاء ؟ فقـال متعجبـا : سبحان الله أنت أشهر من ذلك أنت : إبراهيم بن المهدى خليفتنا بـالأمس، الذى جعل المأمون لمـن يـدل عليـك مائـة ألـف درهـم ؛ فلمـا قـال ذلـك عظمت مرؤتـه عنـدى وعلمـت أن نخوتـه أجل ممـا بـذل فتنـاولت العـود فأصلحته وقد مر بخاطرى ذكر أهلى وولدى فقلت :

وعسى الذى أهدى ليوسف أهله وأعزه فى السجن وهو غريب
أن يستجيب لنا فيجمع شملنا فالله رب العالمين قريب

فقال : يا سيدى اجعل ما تغنيه مما أقتضيك به ، قلت : نعم ، فقال : غن لى :

إن الذى عقد الذى انعقدت به عقد المكاره فهو يملك حلها
فاصبر فإن الله يعقب راحة فلعها أن تنجلى فلعلها

فحسن عندى اقتراحه وشربت ، ثم قال غن لى :

وراء مضيق الخوف متسع الأمن وأول مفروح به آخر الحزن
فلا تيأسن فالله ملك يوسفا خزائنه بعد الخلاص من السجن

ففرح وشربت ، وقال غن لى :

إذا الحادثات بلغن النهى وكاد لهن تذوب المهج
وحل البلاء وقل العزاء فعند التناهى يكون الفرج

فغنيته وحسن فى نفسى اقتضاؤه ، وأنست به واستظرفته ثم قال : إن رأيت يا سيدى أن تأذن لى أن أغنى ما خطر ببالى وإن كنت من غير أهل هذه الصناعة ، فقلت : يكون ذلك زيادة فى أدبك ومروءتك فأخذ العود ثم قال : دستور ، ثم ضرب عليه وغنى ويقول :

شكونا إلى أحبابنا طول ليلنا فقالوا لنا ما أقصر الليل عندنا
وذاك لأن النوم يغشى عيونهم سريعا ولا يغشى لنا النوم أعينا
إذا مادنا الليل المضر بذى الهوى جزعنا وهم يستبشرون إذا دنا
فلو أنهم كانوا يلاقون مثل ما نلاقى لكانوا فى المضاجع مثلنا

فقلت : والله ذهب عنى كل ما كان عندى من الفزع ، وسألته يغنى فغنى يقول :

تعيرنا أنا قليل عدادنا	فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل
وأنا لقوم لانرى الموت سبة	إذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرهه آجالهم فتطول

فوالله لقد أجاد وذهب عنى كل ما كان من الفزع والجزع واستأنست به ، وأخذنى من الطرب ما لامزيد عليه وعالجنى النوم قبل أوانه، فنمت ولم أستيقظ إلا بعد المغرب، وجال فكرى فى هذا الحجام وأدبه وظرفه ، وكيف غناؤه وأدبه وإرادته أن يسلينى عما أنا فيه ، وإشارته إلى تخصيصه بالوفاء لضيفه ونصره لجاره ، فقعدت وغسلت وجهى وأيقظته ، وأخذت خريطة كانت صحبتى فيها دنانير ومصاغ له قيمة، فدفعتها إليه وقلت له : أنت فى وديعة الله وحفظه فإنى ماض عنك وأسألك أن تصرف ما فى هذه الخريطة[1] فى بعض مهماتك ، ولك عندى إذا أمنت المزيد، فأعادها علىَّ مبادرا ، وقال : يا سيدى الصعلوك من لا قيمة له عند أهل الرياسات ويظنون فيه الظنون الرديئة ، أفآخذ على ما وهبنى الله من قربك وحلولك فى منزلى ثمناً ؟ لا والله ، فألححت عليه ، فأخذ موسى له بيده ، وقال : والله إن راجعتنى لأنحرن نفسى ، فتخشيت عليه وأخذت الخريطة وأثقلنى حملها ، فلما انتهيت إلى باب الدار قال : يا سيدى إن هذا الموضع أخفى لك من غيره وليس عندى فى مؤنتك ثقل، فأقم عندى

(١) الخَرِيطة : وعاء من الجلد .

إلى أن يفرج الله عنك فرجعت وسألته أن يكون منفقا من تلك الخريطة ، فلم يفعل وكان كل يوم يفعل بى مثل ما فعل فى اليوم الأول .

قال : فأقمت أياماً فى أطيب عيش وأهناه ، ثم سئمت من الإقامة عنده وخشيت الثقل عليه ، فتركنى ومضى يجدد لنا حالنا ، فلبست ثيابى وتزينت بزى النساء : بالخف والنقاب ، وخرجت . فلما صرت فى الطريق داخلنى من الخوف والفزع أمر شديد ومشيت لأعبر الجسر ، وإذا هو قدرش ورجل قائم فأبصرنى بعض من كان فى خدمتى من الجند ، فتعلق بى وقال : طلبة أمير المؤمنين فدفعته فى صدره فوقع فى الزلق[1] ، وصار عبرة وتبادر الناس إليه ، فاجتهدت فى المشى حتى قطعت الجسر ودخلت زقاقا فوجدت بابا وامرأة واقفة فقلت : يا سيدة النساء احقنى دمى فإنى رجل خائف ، فقالت: ادخل فدخلت فأطلعتنى إلى غرفة وفرشت لى ، وقدمت لى طعاما وقالت : ليهدأ روعك فإنه لا يعلم بك مخلوق ، ولو أقمت سنة ما عليك بأس، وإذا بالباب يدق فخرجت ، وفتحت الباب ، فإذا هو صاحبى الذى دفعته على الجسر وهو مشدوخ[2] الرأس ودمه يسيل على ثيابه فقالت له : ما دهاك ؟ قال : إن حديثى عجيب وأمرى غريب ظفرت بالغنى ، وقد انفلت من يدى. قالت : وكيف ؟ قال : إبراهيم بن المهدى لقيته فتعلقت به فدفعنى فأصابنى ما ترين من حالى ، ولو حملته إلى أمير المؤمنين ، لأخذت منه مائة ألف درهم . قال : فأخرجت له حراقا وذروراً وفرشت له بعد كبس جرحه، فنام قليلا وطلعت . وقالت لى : أظنك

(١) الزَّلَق : أرض ملساء لا تثبت عليها قدم .

(٢) مشدوخ : مكسورة .

صاحب القصة؟ قلت: نعم ، فقالت لى : إنى خائفة عليك ، ثم جددت لى الكرامة وأقمت عندها ثلاثة أيام . ثم قالت لى : إنى خائفة عليك من هذا الرجل لئلا يطلع على أمرك، فينم عليك ، فانج بنفسك ، فسألتها إمهالى إلى الليل .

فلما دخل الليل ، لبست زى النساء وخرجت من عندها ، وأتيت إلى بيت مولاة لنا ؛ فلما رأتنى بكت وتوجعت وحمدت الله تعالى على سلامتى، وخرجت كأنها تريد كرامتى فتوجهت للسوق مظهرة الاهتمام بالضيافة فظننت خيرا ، فلم أشعر إلا بإبراهيم الموصلى بخيله ورجله والمولاة معه حتى سلمتنى إليه ؛ فرأيت الموت عيانا وحملت مثل ما أنا إلى أمير المؤمنين . فجلس مجلسا عاما وأمر بإدخالى عليه .

فلما مثلت بين يديه سلمت عليه سلام الخلافة ، فقال لى : لا سلمك الله ، ولا حفظك، ولا رعاك . فقلت: يا أمير المؤمنين إن ولى الثأر محكم فى القصاص، والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناولته يد الأقدار ربما مد له من أسباب الرجاء ، ما يأمن معه عادية الدهر وقد جعلك الله فوق خلقه، وأصبح عفوك فوق كل ذى عفو، فإن تأخذ فبحقك ، وإن تعف فبفضلك وأنشدت أقول :

ذنبى إليك عظيم   وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا   فاصفح بحلمك عنه
إن لم أكن فى فعالى   من الكرام فكنه

قال : فرفع رأسه إلى فقلت مبتدرا :

أتيـــت ذنبـــا عظيمـــا وأنـــت للعفـــو أهـــل
فـــإن عفـــوت فمـــنٍ وإن جزيـــت فعـــدل

قال : فرق المأمون ، واسترجع فرأيت روائح الرحمة في شمائله ، ثم أقبل على أخيه ، أبي إسحاق محمد المعتصم ، وابنه العباس[1] ، وجميع من حضر من خاصته ، وقال : ما ترون في أمره ؟ فأشار الكل بقتلي ، إلا أنهم اختلفوا في القتل. فقال المأمون لأحمد بن أبي خالد : ما تقول يا أحمد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن قتلته فقد وجدنا مثلك قتل مثله ، وإن عفوت لم نجد مثلك في العفو . فنكس المأمون رأسه إلى الأرض وجعل يخط في الأرض بأصبعه ، ثم رفع رأسه وقال :

قومـي همـو قتلـوا أميـم أخي فـإذا رميـت يصيبنـي سـهمي

ثم قال المأمون : لا بأس عليك يا عم : فقلت : ذنبي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أفوه معه بعذر ، وعفوك أعظم من أن أنطق معه بشكر ، ولكن أقول شعرا :

إن الذي خلق المكارم حازها في صلب آدم للإمام السابع
ملئت قلوب الناس منك مهابة وتظل تكلؤهم بقلب خاشع

(١) العباس بن عبد الله المأمون بن هارون الرشيد : أمير عباسي . ولاه أبوه الجزيرة والثغور والعواصم [٢١٣هـ] ولما مات المأمون ، وولى المعتصم امتنع كثير من القواد والرؤساء من متابعته ونادو باسم ابن أخيه العباس بن المأمون ، فدعاه المعتصم إليه وأخذ بيعته ، فخرج العباس وسكن الناس وأقام إلى أن خرج المعتصم إلى الثغور ، فاتفق العباس مع بعض القواد على قتله ، فعلم المعتصم فقبض عليه وعلى أصحابه ، وسجنه إلى أن مات [٢٢٣هـ=٨٣٨م] .انظر :الأعلام (٢٦٢/٣) .

ما إن عصيتك والغواة تمدني ... أسبابها إلا بنية طائع
وعفوت عمن لم يكن عن مثله ... عفو ولم يشفع إليك بشافع
ورحمت أشبالا كأفراخ القطا ... وحنين والدة بقلب جازع

فقال المأمون : لا تثريب اليوم عليك[1] ، قد عفوت عنك ، ورددت عليك مالك وضياعك فأنشدت أقول :

رددت مالى ولم تبخل على به ... وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
أمنت منك وقد خولتنى نعما ... نعم الحياتان من موت ومن عدم
فلو بذلت دمى أبغى رضاك به ... والمال حتى أسل النعل من قدمى
وإن جحدتك ما أوليت من نعم ... إنى إلى اللؤم أولى منك بالكرم

فقال المأمون : إن من الكلام كلاما كالدر ، وهذا منه ؛ وأمر لى بمالى، وخلع على وقال : يا عم إن أبا إسحاق والعباس أشارا بقتلك ، فقلت : إنهما نصحاك يا أمير المؤمنين ولكن فعلت ما أنت أهله ودفعت ما خفت أنا بما رجوت ، فقال المأمون : لقد مات حقدى بحياة عذرك ، وقد عفوت عنك ؛ ثم سجد المأمون طويلا ؛ ثم رفع رأسه ؛ ثم قال : يا عم أتدرى لم سجدت ؟ قلت له : شكر الله تعالى على ما أوقعك على وملكك إياى فى يدك تفعل بى ما تشاء ، فقال : أخطأت ولكن أشكر الله تعالى على ما ألهمنى من العفو عنك من قبل نفسى ، ثم قال : وأعظم من عفوى عنك أننى لم أجرعك مرارة امتنان الشافعين فحدثنى بما كان من أمرك ، فشرحت له ما جرى لى مع الحجام ، والجندى وزوجته ، والمولاة التى أسلمتنى ، فأمر المأمون بإحضارها وهى فى دارها تنتظر الجائزة .

---

(١) لا تثريب عليك : أى لا لوم عليك .

فلما حضرت قال لها المأمون : ما حملك على ما فعلت من تسليمك إبراهيم مع إنعامه عليك ؟ قالت : رغبة فى المال ، قال : هل لك من ولد أو زوج ؟ قالت : لا ، فأمر بضربها مائة سوط وأمر بتخليدها فى السجن ، ثم أحضر الجندى وامرأته ، والحجام فسأل الجندى عن السبب الذى حمله على ما فعل ؟ قال: رغبة فى المال ، فقال : إنك أولى بأن تكون حجاما من أن تكون خداما ، ووكل من يلزمه الجلوس فى مكان الحجام ليتعلم الحجامة(١) وأحسن إلى امرأته وجعلها قهرمانة قصره وقال : هذه امرأة أديبة تصلح للمهمات ، وسلم للحجام دار الجندى وما فيها وخلع عليه وأثبته برزقه فى الديوان وزيادة ألف دينار فى كل سنة ؛ ولم يزل كذلك إلى أن مات ، والله أعلم .

[١٣١] **وعن محمد بن عبد الله التميمى قال** : حدثنا أحمد بن محمد الحريرى، قال : كان لحمنة بنت عبد الرحمن الهاشمى من الأموال، ما لا يسعه الديوان ، ولا تأكله النيران لكثرته ، وكانت آدب نساء بنى هاشم وأفصحهن لسانا ، وأقولهن شعرا ، فدخلت على المأمون يوما وكانت تحبه غاية الحب سرا ، وكان المأمون جالسا فى إيوان قد ابتدعه لنفسه لم يبتدعه أحد من الخلفاء قبله ، وكان قد تأنق فى بنائه وكان فيه من كل صورة فى البر والبحر ممثلة من الذهب والفضة ، وقد فرشه ببساط من الديباج الأصفر وأسبل عليه ستورا من الحرير الصينى وقد أقام فيه

---

(١) الحِجَامة : المداواة والمعالجة بالمِحْجَم ، قال الأزهرى : المحجم بالكسر هو الالة التى يجمع فيها الدم عند جذبه من الإنسان .

أربعمائة وصيفة بقراطق الحرير وقد لبسن الوشي[1] بطرر وشعور وإصداغ وهن بقد واحد ، لاتزيد الواحد منهن على الأخرى ؛ أقام مائتين عن يمينه ، ومائتين عن يساره .

فقال: ياحمنة هل كان لأبيك أو لبعلك أو لأحد من الخلفاء مثل هذا الإيوان ، مع فرشه ، ومثل هؤلاء الجوارى مع زينتهن ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين متعك الله به ، وعمره بك ، فلقد أوتيت ملكا عظيما تستأهله لترفهك وشرفك ، فإن أجبْتَ خادمتك حمنة؛ أجلستك فى مجلس لم تجلس فى مثله قط ، وأصادتك صيدا لم تصد مثله قط ، وأسقتك شرابا لم تشرب مثله قط ، وكان عنده يحيى بن أكثم . فقال لها : ياحمنة قد أجبْتُكِ إلى ماسألتينى ، ولكن لاينفعنى ولايهنأ لى ذلك إلا بمشهد من يحيى بن أكثم، فإنه لايطيب لى مجلس إلا به . فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ثم ضربت يدها فى جيبها فأخرجت منه مخزنة من ذهب أحمر محشوة مسكا أذفر ، فدفعتها إلى يحيى وقالت: يا يحيى إن الأجير لا يعمل حتى يستوفى أجرته ، وهذه أجرتك منى فكن مستحثا لى أمير المؤمنين غدا عند الزوال فى المسير إلى منزل خادمته ، فقال : حبا وكرامة . ثم خرجت من عنده فهيأت ما تحتاج إليه للمأمون وغيره .

فلما كان من الغد جلس المأمون فى مجلس السلام . فلما زالت الشمس وصارت فى كبد السماء ، قال يحيى : ياأمير المؤمنين الحاجة التى عرضت عليك بالأمس ، ففطن المأمون لذلك وقام من مجلسه ولبس ثياب

---

(١) الوَشْى : الثوب المنمنم المنقوش .

التجار ولبس يحيى مثل ذلك ، ودعا بحمارين مصريين بغاشيتين وركباهما حتى أتيا دار حمنة ، فدقا الباب دقا خفيفا ، فسمعته فأقبلت بنفسها حتى فتحت الباب ، وأقبلا يمشيان جميعا حتى انتهوا إلى بيت في بستان قد حمل على أربعة أعمدة من الرخام الأحمر المنقوش وإذا في صدر البيت أربعة أسطر منقوشة بالدر وصنوف الجوهر وهي :

ما سرني أن فؤادي ولا ... أن لساني بالمدام حلا
وأن لي ملك بني هاشم ... يجيء إليّ أوّلا أوّلا
إن لم أشاهدك أياما لكي ... تأتي إلى بيتي كذا مقبلا
يا سائلي روحي بلا علة ... أنت المعافى وأنا المبتلى

فقال المأمون : يا يحيى ما ملك أحد من الخلفاء مثل هذا البيت ، وإذا فرشه أرمني محفور منقوش باللآلئ ، وإذا فوق الأرمني مطارح من الديباج الأخضر حشوها حواصل الريش ، وفي البيت المسك والعنبر والكافور والصندل والزعفران والند والعود مصفوف في أواني الذهب والفضة ، وتفوح منه روائح لايدرى ماهي من طيبها ؛ ثم أخرجتهما إلى أربعة ميادين فيها أنواعَ الرياحين حول البيت.

فقالا : إن هذا إلا سحر يؤثر ، ثم دعت لهما بمائدة من الجزع اليماني قوائمها منها قطعة واحدة فوضعت وقدمت عليها الألوان الغريبة ، فقال المأمون : ما طعمت مثل هذا الطعام قط، ثم دعت بالطشت والإبريق فغسلا أيديهما ، ثم أمرت بشراب فقدمت إليهما قناني الزجاج الشامية المرتفعة الصافية والبلور فيها شراب قد أتت عليه الأيام والأعوام، فهي تحكي الهواء لرقتها ، والياقوت لحمرتها والزنجبيل لحدتها ، ووضعت بين

أيديهما مع أقداح وأنطال[1] تشاكل ذلك ؛ فقال المأمون : والله ما رأيت مثل هذا قط ، ثم أخرجت جاريتين عليهما ثياب الوشى الكوفى المنسوج بالذهب وعلى رؤوسهما مقانع رشيدية وتيجان من الذهب مكللة بالجوهر، فجلستا وفى حجرهما العيدان المبسوطة الموزونة ، فحركتا الأوتار وغنتا بصوت شجى مليح من أنواع الأغانى وغرائب الأصوات .

فقال المأمون : هذه الجنة بما نرى فيها من غرائب الطيب والجوهر، فقال يحيى : وقد بقى لنا يا أمير المؤمنين شرط آخر ، فقال : وما هو يا يحيى؟ قال : الصيد يا أمير المؤمنين ، قال : صدقت يا يحيى ، ثم قال : يا حمنة ما فعل الصيد ؟ فقالت : قوما إليه فقام المأمون ويحيى حتى دخلا بستانا لم يريا مثله ، وقد كانت زينت البستان بأحسن ما تقدر عليه ، واتخذت فيه ألوان الطيور من الفاخت ، والقمرى ، والهزار ، والطواويس فكانت الأطيار تغنى من رؤوس الأشجار ، وتغرد بالسر والأجهار ، وقد كانت زينت مائة جارية نواهد أبكار بطرر وشعور وخدود ومباسم ساطعات الأنوار ، ترى كل واحدة منهن أبهى من صاحبتها وأحسن ، وعليهن من ألوان الثياب ما يعجز عنه الوصف ، وفى وسطهن مناطق الذهب الأحمر، وتقدمت إليهن وقالت لهن : إذا رأيتن المأمون ويحيى تعادين ما بين الأشجار .

فلما دخل المأمون ويحيى البستان فعلن ما كانت أمرتهن فتضاعف السرور على المأمون وأعجب المأمون بذلك عجبا شديدا ؛ ثم قال ليحيى:

---

(١) أنطَال ، مفردها النَيْطَل : وعاء يكال به الخمر واللبن ، ونحوهما .

هذا الصيد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيك فيه ! فقال المأمون : لو كان لنا كلب لاصطدنا هؤلاء ، فقال يحيى : أنا كلبك يا أمير المؤمنين فعدا المأمون ويحيى فاصطادا منهن صبية ، فقالت حمنة : سألتك بحق أجدادك ألا ما خليت عن الجوارى لا لبخل أبخل بهن عليك ، وقد فهمت المعنى فيه ، وقد كانت حمنة تغار على المأمون ، فخلى عن الجوارى وقال ليحيى: دونك والصيد إذن أنت محل .

فقال يحيى : لو كان لى كلب لاصطدت من هؤلاء فقال المأمون : أنا كلبك فضحك يحيى وضرب بقلنسوته الأرض ، وعدا خلفهن فأخذ منهن خمسة ، فقالت حمنة : يا يحيى لك الخمسة ولاغيرة لى عليك ، وإنما أغار على المأمون لحاجتى إليه ، فقال يحيى : والله يا أمير المؤمنين لقد رأيت الهوى الغالب فى حماليق عينيها ولا تتم لنا النعمة إلا بتزويجك إياها إن رأيت ذلك، فقال المامون : أنا برىء من رسول الله ﷺ ومنتف من جدى العباس إن ذهبت من البستان ولم أتزوجها ، ثم قال : يا يحى أخطب خطبة النكاح ، فخطب يحيى وأمهرها المأمون ألف ألف دينار وأقطعها مائة من منتخبات الضياع ؛ فحمدت حمنة الله سرورا بما ظفرت من تزويج المأمون إياها ؛ وأمرت ليحيى بعشرة آلاف دينار ، ورجع المأمون إلى منزله وزفت إليه فى تلك الليلة فواقعها فحملت بالعباس ابنه انتهى .

[١٣٢] **وحكي** : أن المأمون كان مشغوفا بحب جارية يقال لها : نسيم ، وكانت ذات عقل وأدب وفضل وكمال ، وكان لا يفارقها فى الحضر ولا فى السفر ؛ ثم بعد ذلك مال إلى جارية أخرى أحسن منها

وأعرض عنها ، فاغتمت ولم تجد حيلة فى استعطافه ، وكانت لها جاريه رومية أحسن منها فى العقل والأدب ، وكتمت أمرها عن المأمون . فاتفق أن المأمون حصل له بعض ضعف ففصد[1] فحصل له الشفاء ، فجعل الناس يدخلون إليه بأصناف التحف والهدايا ، فأهدت إليه نسيم الجارية المذكورة هدية ومعها جام بلور[2] وغطته بمنديل ديبقى مكتوب عليه بالذهب هذه الأبيات :

فصدت عرقا تبتغى صحة ... ألبسك الله به العافية

فاشرب بهذا الجام يا سيدى ... مستمتعا بهذه الجارية

واجعل لمن أهداكها زورة ... تحظى بها فى الليلة الثانية

فأعجب المأمون ما رأى من الجام والجارية ، ثم بعث لها يقول : نعم وفى هذه الليلة ثم رضى على نسيم وواصلها بعد ذلك .

[١٣٣] وحكي : أن المأمون مر يوما على زبيدة أم الأمين فرآها تحرك شفتيها بشيء لا يفهمه فقال لها : يا أماه أتدعين عليَّ لكونى قتلت ابنك وسلبته ملكه ،قالت: لا والله يا أمير المؤمنين ، قال : فما الذى قلتيه؟

قالت : يعفينى أمير المؤمنين فألح عليها ، وقال : لابد أن تقوليه قالت له : قلت : قبح الله اللجاجة[3] ، قال : وكيف ذلك ، قالت : لأنى لعبت يوما مع أمير المؤمنين الرشيد بالشطرنج على الحكم والرضا ، فغلبنى

(١) فَصَدَ المريض : شقّ عرقه حتى يسيل الدم .

(٢) جام بلور : كأس من البلور .

(٣) اللَّجَاجَة : التمادى فى العناد إلى الفعل المزجور عنه .

فأمرني أن أتجرد من أثوابي وأطوف القصر عريانة ، فاستعفيته ، وبذلت له أموالا لا تحصى فلم يعف عني ، فتجردت من أثوابي وطفت القصر عريانة، وأنا حقدة عليه ؛ ثم عاودنا اللعب فغلبته ، فأمرته أن يذهب إلى المطبخ فيطأ أقبح جارية وأشوهها خلقة ، فاستعفاني عن ذلك فلم أعفه ، فنزل لي عن خراج مصر والعراق فأبيت ، وقلت : والله لتطأنها فألححت عليه وأخذت بيده وجئت به إلى المطبخ ، فلم أر جارية أقبح ، ولا أقذر ، ولا أشوه خلقة من أمك ؛ مراحل ، فأمرته أن يطأها فوطئها ، فعلقت منه بك فكنت سببا لقتل ولدى وسلبه ملكه ، فولى المأمون وهو يقول : قاتل الله اللجاجة ، أى التى لج بها عليها حتى أخبرته بهذا الخبر انتهى[1] .

[١٣٤] [وقيل] : أتى شاعر المأمون ، فقال : لقد قلت فيك شعرا ، فقال : أنشدنيه فقال :

حياك رب الناس حياكا ... إذ بجمال الوجه رقاكا
بغداد من نورك أشرقت ... وأورق العود بجدواكا

قال : فأطرق المأمون ساعة ، وقال : يا أعرابى ، وأنا قد قلت فيك شعرا وأنشد يقول:

حياك رب الناس حياك ... إن الذى أملت أخطاك
أتيت شخصا قد خلا كيسه ... ولو حوى شيئاً لأعطاك

فقال يا أمير المؤمنين الشعر بالشعر حرام ، فاجعل بينهما شيئاً يستطاب، فضحك المأمون وأمر له بمال انتهى .

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١١٥/١) .

[١٣٥] وروى ابن عامر الفهرى عن أشياخه قال : أمر المـأمون أن يحمل إليه من أهل البصرة عشـرة رجـال كـانوا قـد رمـوا عنـده بالزندقـة ، فحملوا إليه فمر بهم طفيلى[١] فرآهم مجتمعين ، فظن خيرا ومضى معهـم إلى الساحل ، وقال ما اجتمع هؤلاء إلا لوليمـة ، فانسـل ودخـل الـزورق ، وقال : لا شك أنها نزهة ، فلم يكن إلا يسير حتى قيد القوم وقيـد معهـم ، فعلم أنه وقع فيما لا طاقـة لـه ورام الخـلاص فلـم يقـدر ، وسـاروا إلـى أن وصلوا إلى بغداد ، وأدخلوا على المأمون فاسـتدعى بهـم بأسـمائهم واحـدا بعد واحد وجعل يذكره بفعله وبقوله ويضرب عنقه حتى لم يبق إلا الطفيلى وفرغت العشرة .

فقال المأمون للموكل : من هذا ؟ فقال : لا أعلـم يـا أمـير المؤمنيـن غير إننا رأيناه معهم فجئنا بـه، فقـال : يـا أمـير المؤمنيـن امرأتـى طـالق إن كنت أعرف من أحوالهم شيئا ولا أعرف غير لا إله إلا اللـه محمـد رسـول الله ، وإنما رأيتهم مجتمعين فظننت إنها وليمة يدعون إليها ، فلحقت بهم. فضحك المأمون ، وقال : أو قد بلغ من شؤم التطفل أن يحل بصاحبه هـذا المحل ، لقد سلم هذا الجاهل من القتـل ولكـن يـؤدب حتـى لا يعـود إلـى مثلها ، وكان إبراهيم بن المهدى حاضرا ، فقال : يا أمير المؤمنين هبه لى، وأنا أحدثك عن نفسى فيما وقع لى فى التطفل من العجب ، فقـال : وهبتـه لك هات حديثك .

فقال : يا أمير المؤمنين خرجت متنكرا يوما أنظر إلى سكك بغـداد ، فاستهوى بى الطرب والتفرج فانتهى بـى المسير إلـى موضـع شـممت فيـه

(١) طُفَيْلى : الذى يدخل وليمة ولم يُدع إليها ، وهو منسوب إلى رجل اسمه طُفَيْل .

رائحة طعام وأبازير[1] قد فاحت وهفت نفسي إليها ، ووقفت يا أمير المؤمنين لا أقدر على المشي فرفعت بصري وإذا بشباك خلفه كف بمعصم ما رأيت أحسن منه ، فبقيت حائرا ونسيت رائحة الطعام بذاك الكف ، فأخذت في عمل الحيلة إلى الوصول إليها ، فإذا بجانب المكان خياط فسلمت عليه فرد عليَّ السلام ، فقلت : يا سيدى لمن هذه الدار ؟ فقال: لرجل من البزازين ، فقلت : ما اسمه ؟ فقال : فلان ، قلت : هو ممن يشرب الخمر قال : نعم ، وأظن أن عنده اليوم أصحابه تجار مثله ، فبينما نحن في الكلام إذ أقبل رجلان ، فقال لي : هذان ندماؤه ، فقلت له : ما اسمهما وما كنيتهما ؟ فقال لي: فلان الفلاني ، وفلان الفلاني ، فحركت ورائهما رجلي ، فلحقتهما فقلت : جعلت فداءكما استبطأكما فلان أعزه الله ، ولم أزل معهما حتى أتيت البيت فدخلت، ودخلا . فلما رآني صاحب البيت بينهما لم يشك في أني معهما ، فرحب بي وأجلسني في أفضل الأماكن ثم جيء بالمائدة ، ونقلت إليها الألوان .

فقلت في نفسي : هذه الألوان قد منَّ الله عليَّ ببلوغ الغرض منها بقي الكف والمعصم ، ثم جيء بالماء فغسلنا أيدينا ثم تقلنا إلى مجلس المنادمة، فإذا شكل مليح ما رأيت أحسن منه ولا أظرف ، ورأيت صاحب المكان يتلطف بي ويقبل على لظنه أني ضيف لأضيافه ، وهم على الحالة هذه إلى أن شربنا فخرجت علينا جارية كأنها غصن بان في غاية الظرف وحسن الهيئة ، فسلمت من غير خجل ولا احتشام وجلست وأتى بعود فجسته أحسن جس وإذا هي حاذقة في الصناعة وغنت تقول :

---

(١) البِزْر ، جمعه أبْزَار ، وجمع الجمع أبازير : التابل ، وهو ما يطيب به الغذاء .

توهمها فكـرى فـأصبح خدها ... وفيه مكان الوهـم مـن نظرى أثر
وصافحهـا كفــى فــآلم كفهـا ... فمـن ضـم كفى فى أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلبالى فطربت لحسن شعرها وحذقها ، ثم غنت تقول :

أشرت إليها هـل عرفـت مودتـى ... فردت بطرف العين أنى على العهد
فحادت عـن الإظهـار عمدا بسرها ... وحادت عن الإظهار أيضا على عمد

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذاقتها وإصابتها معنى الشعر ، فضحكت لما أصابنى من الطرب الذى لم أملك نفسى معه ، ثم غنت تقول:

أليس عجيبـا أن بيتـا يضمنـا ... و إيــاك لا نلهــو ولا نتكلــم
سوى أعين تبدى سرائر أنفس ... وتقطيع أنفاس على النار تضرم
إشـارة أفــواه وغمز حواجب ... وتكسـير أجفـان وكف يسلم

فزاد حسدى لها يا أمير المؤمنين على حذاقتها ، وإصابتها معنى الشعر ، لأنها لم تخرج عن المعنى ، وقلت : عليك يا جارية شيء ، فرمت العود من يدها ، وقالت : متى كنتم تحضرون الغناء ! فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم كأنهم قد أنكروا علىّ ، فقلت فى نفسى : فاتنى جميع ما أملت وأحببت أن أتلافى قضيتى ، فقلت : أثم عود غير هذا ؟ قالوا : نعم فأحضروا عودا فأصلحت ما أردت إصلاحه ، ثم قلت:

ما للمنـازل لا تجيـب حزينـا ... أصممن أم قـد بالبـلاء بلينـا

فما أتممت شعرى ، حتـى وثبـت الجارية إلى وانكبت على يدى تقبلها، وتقول: المعذرة إليك يا سيدى والله ما علمت مكانك ولا سمعت بهذه الصناعة من أحد ، ثم زادوا إكرامى وطربوا غاية الطرب ، فشربت عدة أقداح ثم غنيتهم أبياتا فرأيت من طربهم شيئاً عظيما ، حتى قلت : إن أرواحهم فارقت أبدانهم فسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا إلى عقولهم فغنيتهم ، وقلت :

هذا محبك مطوى على كمده ... وجدا وأدمعه تجرى على جسده

له يد تسأل الرحمن راحته ... مما به واليد الأخرى على كبده

يا من يرى كلفا فى حبه دنفا ... كانت منيته فى عينه ويده

قال : فجعلت الجارية تصيح وتقول : هذا والله الغناء ، والذى كنا فيه ليس بشيء . وشرب القوم ؛ فلما جاءهم البسط وأخذ المجلس منتهاه، أمر صاحب البيت عبدين له أن يحفظا النديمين إلى منزلهما ، وخلوت معه فقال : والله يا سيدى ذهب ما مضى من عمرى باطلا حيث لم أعرفك قبل يومى هذا فبالله يا مولاى من أنت؟ فجعلت أرد عليه وهو يقول ، ويقسم علىَّ حتى أعلمته من أنا على الحقيقة ، فلما سمع ذلك قام على قدميه وقال: عجبت أن تكون هذه المكارم إلا لمثلك ، وقد أصابنى من الدهر نعم لا أقوم بشكرها ، ثم قال : أترى هذا يقظة أم مناما أقسمت أنى لا أزال هذه الليلة قائما إلى أن تأذن لى فإنى أحقر من أن أجالس الملوك ، فأقسمت عليه بأن يجلس ، ثم أخذ فى الكلام وجعل يعرض على السبب الذى أوجب حضورى عنده بألطف تعريض ، فأخبرته بأمرى على الحقيقة، ولم أخفه شيئاً ثم قلت له : الطعام قد نلت منه بغيتى ، وبقى الأمر الآخر فوثب إلى باب القاعة ، وقال : كل منكن تلبس أفخر ثيابها وتخرج علينا

من المخدع ، ثم استدعى بهن وجعل يقول : يا فلانة وهن يخرجن واحدة بعد واحدة ، وأنا لا أرى صاحبة الكف والمعصم إلى أن أتى أربعون امرأة.

فقال والله ما بقى إلا أختى وها أنا مخرجها إليك، فقلت : افعل ، فقال : حبا وكرامة ، ثم استدعاها فنزلت فرأيت يدها ومعصمها ، فإذا هى التى رأيتها ، قلت : هذه الحاجة ، فأمر غلمانه لوقته أن يأتوا بعشر شهود ثم قام وأخرج عشرين ألف درهم وألفا أخرى . فلما حضروا قال لهم : هذا سيدى إبراهيم بن المهدى يخطب أختى فلانة ، وأشهدكم أنى قد زوجتها له وأمهرتها عنه عشرين ألف درهم ، فقلت : قبلت الزواج ، ثم دفع الألف التى كان أخرجها لهم، فشكروا له ودعوا وانصرفوا ؛ ثم قال : يا سيدى أمهد لك بعض البيوت لتنام مع أهلك ، فأعجبنى ما كان من كرمه واستحييت أن أدخل بها فى داره .

فقلت له : بل أجعلها فى عمارية وأحملها إلى منزلى فوحقك يا أمير المؤمنين ، لقد حمل معها من الفرش والأثاث ما ضاقت به بيوتنا ، فأولدتها هذا الغلام القائم بين يديك يا أمير المؤمنين . فتعجب المأمون من كرم الرجل وقال : لله دره ما أكرمه والله ما سمعت بمثله قط . ثم أطلق الطفيلى ، وأمر بإحضار الرجل واستنطقه ، فأعجبه حسن منطقه وعقله وأدبه فصيره من حملة خواصه ومنادميه ، والله أعلم .

١٠ - فصل

ذكر خلافة إبراهيم المعتصم بن هارون الرشيد[1]

هو ثامن خلفاء بنى العباس ، وكان شديد القوة ما كان فى بنى العباس مثله فى القوة والشجاعة والإقدام .

[١٣٦] قيل إنه أصبح ذات يوم وكان برده شديدا وثلجه عتيدا فلم يقدر أحد على إخراج يده ولا إمساك قوسه ، فأوتر المعتصم فى ذلك اليوم، أربعة آلاف قوس وكان يدعى المثمن .

[١٣٧] وأنشد أبو تمام حبيب بن أوس الطائى[2] يمتدح المعتصم بن هارون الرشيد يقول :

إن جس عودا رأيت الخيل ناقصة   كأنها من سماع هزها نغم
أو حركت يده اليمنى له وترا   على أعاديه غنى البوم والرخم[3]

---

(١) محمد بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور : خليفة عباسى من أعاظم الخلفاء . بويع بالخلافة [٢١٨هـ] يوم وفاة أخيه المأمون ، وبعهد منه ، وكان بطرسوس . وهو فاتح عمورية من بلاد الروم ، وهو بانى مدينة سامراء [٢٢٢هـ] ، وهو أول من أضاف اسمه إلى اسم الله تعالى ، وكان لين العريكة رضى الخلق ، اتسع ملكه . وكان له سبعون ألف مملوك ، مدة خلافته ثمانى سنين وثمانية أشهر . ت[٢٢٧هـ - ٨٤١م]. انظر : ابن الأثير (١٤٨/٦-١٧٩) ، تاريخ بغداد (٣٤٢/٣) .

(٢) أبو تمام حبيب بن أوس الطائى : من أشهر شعراء العصر العباسى ، نشأ فى دمشق وتوفى فى الموصل ، مدح الخلفاء ولاسيما المعتصم . ت[٢٣٠هـ - ٨٤٥م] .

(٣) الرخم : طائر من الطيور الجارحة .

كان يقول بخلق القرآن ، وضرب على ذلك أحمد بن حنبل على أن يقول ذلك فلم يقل رضى الله عنه ، وله معه كلام طويل ، فانظره فى حياة الحيوان[1] .

[١٣٨] ومن لطائف الحكايات ، ما روى عن أحمد بن أبى دؤاد القاضى[2] أنه قال: جئ بتميم بن جميل إلى المعتصم أسيرا ، وكان قد خرج عليه . قال : فما رأيت رجلا عرض عليه الموت ، فلم يكترث[3] به سواه ، ثم دعا بالسيف والنطع . فلما مثل بين يديه نظر إليه ، فأعجبه حسنه ، وقده، ومشيه إلى الموت غير مكترث ، فأطال الفكر فيه ، ثم كلمه لينظر أين عقله ولسانه من جماله ، فقال : يا تميم إن كان لك عذر فأت به ؟ فقال : أما إذا أذن أميرالمؤمنين فى الكلام فإنى أقول الحمد لله الذى أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، يا أمير المؤمنين جبر الله بك صدع الدين ، ولمَّ بك شعث المسلمين ، وأخمد بك نار الباطل ، وأنار بك سبل الحق : إن الذنوب تخرس الألسنة وتصدع القلوب : وأيم الله لقد أعظمت الجريمة ، وانقطعت الحجة وساء الظن إلا فيك وهو أشبه بك وأليق ، ثم أنشد يقول:

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا   يلاحظنى من حيث لا أتلفت

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١١٨/١) .

(٢) أحمد بن أبى دؤاد الإيادى : من قضاة المعتزلة ، ورأس الفتنة بالقول بخلق القرآن . وزير المعتصم ، كان من المعتصم كيحيى بن أكثم من المأمون ، ت[٢٤٠هـ-٨٥٤م].

(٣) يكترث : يبالى به .

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي | وأي امرئ عما قضى الله يفلت
ومن ذا الذي يأتي بعذر وحجة | وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الأوس بن تغلب موقف | يسل على السيف فيه ويصلت
وما جزعي من أن أموت وإنني | لأعلم أن الموت شيء مؤقت
ولكن خلفي صبية قد تركتهم | وأكبادهم من حسرة تتفتت
كأني أراهم حين أنعى إليهم | وقد لطموا حمر الوجوه وصوتوا
فإن عشت عاشوا في سرور ونعمة | أذود الردى عنهم وإن مت موتوا(1)
فكم قائل لا أبعد الله داره | وآخر جذلان يسر ويشمت(2)

قال : فبكى المعتصم ، ثم قال : إن من البيان لسحرا ، كما قال : النبي ﷺ. يا تميم كاد والله أن يسبق السيف العذل ، قد غفرت لك الهفوة ووهبتك للصبية ثم عقد له ولاية على عمله ، وأعطاه خمسين ألف دينار . انتهى من زهر الكمام في قصة يوسف عليه السلام .

[١٣٩] وذكر صاحب تاريخ بغداد عن مخارق المغني(3) قال : تطفلت تطفيلة، قامت على أمير المؤمنين المعتصم بتسعين ألف درهم . قيل له وكيف ذلك ؟ قال: شربت معه ليلة إلى الصبح ، فلما أصبحنا قلت له : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن أخرج إلى الرصافة فأتنسم إلى وقت انتباه أمير المؤمنين، قال : نعم فأمر البوابين أن يتركوني، فخرجت أتمشى في

---

(١) الردى : الهلاك .

(٢) جذلان : فرحان .

(٣) مخارق أبو المهنأ بن يحيى الجزار : إمام عصره في فن الغناء ، ومن أطيب الناس صوتا ، ت[٢٣١هـ=٨٤٥م] .انظر : الطبري (٢١/١١) .

الرصافة، وإذا بجارية كأن الشمس تشرق من جبينها ، فتبعتها ورأيت معها زنبيلا ، فوقفت على فاكهاني ، واشترت سفرجلة بدرهم ، وإنصرفت فتبعتها ، فالتفتت فرأتني ، فقالت : يا ابن الفاعلة إلى أين ؟ قلت : خلفك يا سيدتي ، فقالت : ارجع يابن الزانية لئلا يراك أحدا فيقتلك ، فتأخرت ومشيت ، وتمشت أمامي ثم إلتفتت فرأتني فشتمتني شتما قبيحا ، ثم جاءت إلى دار كبيرة فدخلت فيها، وجلست أنا عند الباب ، وقد ذهب عقلي ونزلت على الشمس وكان يوما حارا ، فلم ألبث أن جاء فتيان كأنهما بدران على حمارين .

فلما وصلا إلى الباب أذن لهما فدخلا ودخلت معهما ، فظنا أن صاحب المنزل قد دعاني وجيء بالطعام فأكلنا وغسلنا أيدينا ، فقال لنا صاحب المنزل : هل لكم في فلانة ؟ فقالوا : إن تفضلت . قال : فاستدعى بتلك الجارية ، فخرجت فإذا هي صاحبتي ووراءها وصيفة تحمل عودها ، فوضعته في حجرها فغنت وشربوا وطربوا وهي تلحظني وتشك في فقالوا : لمن هذا الصوت ؟ فقالت : لسيدي مخارق ، فلم ألبث أن قلت : يا جارية شدي يدك، فشدت أوتارها وخرجت عن إيقاعها الذي تقول عليه ، قال : فاستدعيت بمدورة ، وقضيب ، وغنيت الصوت الذي قالته الجارية فقاموا إلي وقبلوا رأسي ، قال: وكان مخارق من أحسن الناس صوتا وكان يوقع بالقضيب توقيعا عجيبا ؛ قال : ثم غنيت الصوت الثاني والثالث فكادت عقولهم تطير ، فقالوا : بالله من أنت ياسيدي ؟ فقلت : مخارق ، فقالوا : وماسبب مجيئك ؟ قلت : طفيلي - أصلح الله شأنكم - وأخبرتهم بخبري .

فقال صاحب البيت لصديقيه : أما تعلمان أنى أعطيت فى هذا الجارية ثلاثين ألف درهم فامتنعت من بيعها ، قالا : نعم ، قال : هى له فقال صديقاه: علينا عشرون ألف درهم وعليك عشرة آلاف ، قال مخارق: فملكونى الجارية وجلست عندهم إلى العصر وانصرفت بها ، وكلما مررت بالمواضع التى شتمتنى فيها أقول : يا مولاتى أعيدى كلامك فتستحى منى، فأحلف عليها لتعيدنه فتعيده حتى وصلت إلى أمير المؤمنين ، فقيل لى : إنه انتبه فطلبك فى منازل ابناء القواد فلم يجدك وتغيظ غيظا شديدا ، فدخلت عليه ويدى فى يدها ؛ فلما رآنى سبنى وشتمنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين لاتعجل ، وحدثته الحديث ، فضحك وقال : نحن نكافئهم عنك فأحضرهم وأمر لكل واحد منهم بثلاثين ألف درهم ، والله أعلم انتهى.

حكاية غريبة عن محلها

[١٤٠] قال الأصمعى : دعانى بعض العرب الكرام إلى قرى الطعام، فخرجت معه إلى البرية فأتوا بباطية[١] بأذنين ، وعليها السمن غارق ، فجلسنا للأكل ، وإذا بأعرابى ينسف الأرض نسفا حتى جلس من غير نداء، فجعل يأكل والسمن يسيل على كراعه[٢] ، فقلت : لأضحكن الحاضرين عليه فقلت :

كأنك أثلة فى أرض هش ... أتاها وابل من بعد رش[٣]

(١) بَاطِيَة : إناء من الزجاج ، والجمع بَوَاطٍ.

(٢) الكُرَاع : ما دون الركبة من مقدم الساق ، والجمع أكْرُع .

(٣) أثلة : التراب القليل . أرض هش : اللينة الضعيفة التى لا يثبت عليها شىء . وابل : المطر الشديد . رش : تفرقت .

فإلتفت إليَّ بعين مبحلقة ، وقال لى : الكلام أنثى ، والحواب ذكر وأنت :

كــأنك بعــرة فــى أست كبش ‏ ‏ ‏ ‏ مــدلاة وذاك الكبــش يمشــى

فقلت له : هل تعرف شيئاً من الشعر أو ترويه ؟ فقال : كيف لا أقول الشعر وأنا أمه وأبوه ، فقلت له : إن عندى قافية تحتاج إلى غطاء ، فقال : هات ماعندك فغصت فى بحور الأشعار ، فما وجدت قافية أصعب من الواو المجزومة فقلت :

قــوم بنجــد قــد عهدنــاهم ‏ ‏ ‏ ‏ ســقاهم اللـه مــن النــو[1]

قلت أتدرى النو ماذا ؟ فقال :

نــو تــلألا فــى دجــا ليلـة ‏ ‏ ‏ ‏ حالكــة مظلمــة لــــو

فقلت له : لو ماذا ؟ فقال :

لــو ســار فيهــا فــارس لإنثنى ‏ ‏ ‏ ‏ علــى بســاط الأرض منطــو

فقلت له : منطو ماذا ؟ فقال :

منطـوى الكشح هضيـم الحشا ‏ ‏ ‏ ‏ كـالبــاز ينقــض مــن الجـو[2]

فقلت له : الجو ماذا ؟ فقال :

جـو السمــاء والريـح تعلـو به ‏ ‏ ‏ ‏ اشــتم ريــح الأرض فــاعلو

---

(١) النو : النجم .

(٢) الكشح من الجسم : ما بين السرة و وسط الظهر .

فقلت : فعلو ماذا ؟ فقال :

فـاعلوا لمـا عيـل مـن صبره فصـار نحـو القـوم ينعـو

فقلت : ينعو ماذا ؟ فقال :

ينعـو رجـالا للفنـا شرعت كفيـت مـا لاقـوا ومايلقوا

قال : فعلمت أنه لاشيء بعد الفناء ، ولكن أردت أن أثقل عليه فقلت له ويلقوا ماذا ؟ فقال :

إن كنـت مـا تفهـم مـا قلتـه فـأنت عنـدى رجـل بـو

فقلت له : البو ماذا ؟ فقال :

البـو سـلخ قـد حشـى جلده يـا ألـف قرنـان تقـوم عنى أو

فقلت له : أو ماذا ؟ فقال :

أو أضـرب الـرأس بصوانـة تقـول فـى ضربتهـا قـو

فخفت أن أقول له قوا ماذا فيضربنى ويكمل البيت ، فقلت له : أنت ضيفى الليلة ، فقال : لا يأبى الكرامة إلا لئيم ، فقلت : لزوجتى اصنعى لنا دجاجة ، ففعلت فأتيته بها وجئته أنا وزوجتى وابناى وابنتاى ، وقلت : له فرق يا بدوى ، فقال : الرأس للرأس وأعطانى الرأس ، وقال : الولدان جناحان لهما الجناحان ، والبنتان لهما الرجلان ، والمرأة لها العجز ، وأنا زائر لى الزور ، وأكل الدجاجة ونحن ننظر إليه ، وبتنا نتحدث .

فلما أصبحنا قلت لزوجتي : اصنعي لنا خمس دجاجات ، ففعلت وأتيته بالدجاج وقلت له : اقسم يا بدوى فقال :تريد شفعا أو وترا ؟ فقلت: إن الله وتر يحب الوتر ، فقال : كأنك تريد بالفرد ، فقلت : نعم ، فقال : أنت وزوجتك ودجاجة ، وابناك ودجاجة ، وابنتاك ودجاجة ، وأنا ودجاجتان ، فقلت : لا أرضى بهذه القسمة ، فقال : كأنك تريد شفعا ؟ فقلت : نعم ، فقال : أنت وولداك ودجاجة ، وزوجتك وبنتاها ودجاجة ، وأنا وثلاث دجاجات ، والله لاأحول عن هذه القسمة ، قال الأصمعي : فغلبني مرتين : مرة في الشعر ، ومرة في الدجاج ، ثم انصرف انتهى.

١١- فصل

خلافة أمير المؤمنين الواثق بالله تعالى(١)

[١٤١] **قال ابنه محمد -الذى يقال له المهتدى بالله-** : كان أبى الواثق بالله إذا أراد أن يقتل رجلا أحضرنا فى ذلك المجلس ، فبينما نحن عنده ذات يوم إذا أتى بشيخ مقيد ، فقال : إئذنوا لأبى عبد الله يعنى ابن أبى دؤاد ، وأصحابه ، وأدخل الشيخ مقيدا ، فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : لا سلم الله عليك ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين بئسما أدبك المؤدب ، قال الله تعالى ﴿**وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها**﴾ [النساء: ٨٦] وأنت والله ما حييتنى بها ولا بأحسن منها ، فقال: ابن أبى دؤاد يا أمير المؤمنين الرجل متكلم ، فقال الواثق : كلمه فقال الشيخ : ما تقول فى القرآن ؟ فقال الشيخ : لم تسألنى ولى السؤال ، أأسأله ؟ فقال الأمير : سله فقال الشيخ لا بن أبى دؤاد : ماتقول فى القرآن ؟ فقال ابن أبى دؤاد : مخلوق ، فقال الشيخ : هذا شىء علمه النبى ﷺ ، وأبو بكر ، وعمر وعثمان وعلى- رضي الله عنهم أجمعين- والخلفاء الراشدون أم شىء

---

(١) هارون بن محمد بن هارون الرشيد العباسى ، الواثق بالله : من خلفاء الدولة العباسية ولد ببغداد وولى الخلافة بعد وفاة أبيه [٢٢٧هـ] ، فامتحن الناس فى خلق القرآن وسجن جماعة ، وقتل فى ذلك أحمد بن نصر الغزالى بيده [٢٣١هـ] وكان فى كثير من أموره يذهب مذهب المأمون ، وشغل نفسه بمحنة الناس فى الدين فأفسد قلوبهم ومات فى سامراء . قيل بعلة الاستسقاء . قال ابن دحية : كان مسرفا فى حب النساء، وخلافته خمس سنين وكان كريما عارفا بالأنساب ، طروبا يميل إلى السماع . ت[٢٣٢هـ - ٨٤٧م] .انظر : تاريخ ابن الأثير (٧/ ١٠) ، النبراس لابن دحية ص٧٣.

لايعلمونه فقال : شيء لايعلمونه . فقال : سبحان الله ! شيء لايعلمه النبي ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا الصحابة ، ولا الخلفاء الراشدون ؛ وعلمته أنت ! قال : فخجل ، وقال : أقلني . فقال : قد فعلت، والمسألة بحالها ، قال : نعم .

قال : ما تقول في القرآن ؟ فقال : مخلوق ، قال : هذا شيء علمه النبي ﷺ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ رضي الله عنهم والخلفاء الراشدون أم لم يعلموه ؟! قال علموه ، ولم يدعوا الناس إليه . قال : أفلا وسعك ما وسعهم ؟

قال : ثم قام أبي ، فدخل مجلس الخلوة واستلقى على قفاه ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وهو يقول : هذا شيء لم يعلمه النبي ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولاعلي ، ولا الخلفاء الراشدون ، وعلمته أنت سبحانه الله ! انتهى(١) .

[١٤٢] وذكر الحافظ أبو نعيم في حليته(٢) ، قال الحافظ أبو بكر الآجري(٣) : بلغني عن المهتدي -رحمه الله- أنه قال : ما قطع أبي يعني :

---

(١) انظر : تارخ بغداد في ترجمة الواثق (١٥٣/٧) .

(٢) أحمد بن عبد الله بن أحمد ، أبو نعيم : الحافظ ، صاحب حلية الأولياء ، ت[٤٣٠هـ]. انظر : شذرات الذهب (٢٥٤/٣) .

(٣) محمد بن الحسين بن عبد الله ، أبو بكر الآجري : فقيه شافعي محدث . له تصانيف كثيرة ، منها أخبار عمر بن عبد العزيز ، ت[٣٦٠هـ - ٩٧٠م] . انظر : وفيات الأعيان (٤٨٨/١) .

الواثق إلا شيخ جيء به من المصيصة[1] ، فمكث في السجن مدة ، ثم إن أبي ذكره يوما ، فقال : على بالشيخ ؛ فأتي به مقيدا ، فلما وقف بين يديه سلم عليه ؛ فلم يرد عليه السلام ، فقال : يا أمير المؤمنين ما سلكت بي أدب الله ولا أدب رسول الله ﷺ ، قال الله تعالى ﴿وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ﴾[النساء: ٨٦] وأمر النبي ﷺ برد السلام ، فقال: إن وعليك السلام ، ثم قال لابن أبي دؤاد سله ، فقال : يا أمير المؤمنين أنا محبوس مقيد أصلي في الحبس بتيمم منعت الماء فمرْ بقيودي تُحَلُّ ومرْ بماء أتوضأ وأصلي ثم سلني فَأَمَرَ به فَحُلَّتْ قيودُه ، وأمر له بماء فتوضأ وصلى ، ثم قال لابن أبي دؤاد : سله .

فقال الشيخ : المسألة لي فمرْهُ أن يجيبني ؛ فقال : سل ، فأقبل الشيخ على ابن أبي دؤاد ، فقال له : أخبرني عن هذا الأمر الذي تدعو الناس إليه . أشيء دعا إليه النبي ﷺ ؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بعده؟ قال : لا، قال : أفشيء دعا إليه عمر بن الخطاب، بعدهما ؟ قال : لا ، قال: أفشيء دعا إليه عثمان بن عفان ، بعدهم ؟ قال : لا ، قال : أفشيء دعا إليه علي بن أبي طالب ، بعدهم ؟ قال : لا .

قال الشيخ : أفشيء لم يدع إليه الرسول ﷺ ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولاعثمان ، ولا عليٌّ ، تدعو أنت الناس إليه ! ليس يخلو أن تقول: علموه أو جهلوه ، فإن قلت : علموه وسكتوا عنه توسعا ، وسعنا وإياك من السكوت ما وسع القوم ؛ وإن قلت : جهلوه وعلمته أنت ، فيالكع بن

---

(١) المصيصة : مدينة على نهر جيحان .

لكم، شيء يجهله النبى ﷺ ، والخلفاء الراشدون ﷺ وتعلمه أنت ، وأصحابك.

قال المهتدى: فرأيت أبى وثب قائما ، ودخل الحجرة فجعل ثوبه فى فيه وجعل يضحك ، ثم جعل يقول : صدق الشيخ إلى آخر ماتقدم .

[١٤٣] **وقال المهتدى** : مازلت أقول القرآن مخلوق صدرا من خلافة الواثق، حتى أقدم علينا أحمد بن أبى دؤاد شيخا من أهل الشام ، فأدخل الشيخ على الواثق مقيداً و هو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة ، فرأيت الواثق قد استحيا منه ، ورق له ، فمازال يدنيه ويقربه ، حتى قرب منه فسلم عليه الشيخ ، فأحسن السلام ودعا فأبلغ وأوجز ، فقال له الواثق : اجلس ، ثم قال : يا شيخ ناظر ابن أبى دؤاد على ما يناظرك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ابن أبى دؤاد ، يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، فغضب الواثق وأعاد مكان الرقة له ، غضبا وقال : أبو عبد الله بن أبى دؤاد يقل ويصغر ويضعف عن مناظرتك أنت ! قال الشيخ : هون عليك يا أمير المؤمنين مابك ، وأذن لى فى مناظرته ، فقال الواثق : مادعوتك إلا للمناظرة .

فقال الشيخ : يا أحمد يا ابن أبى، دؤاد ، إلام دعوت الناس ودعوتنى إليه ؟ فقال أن تقول القرآن مخلوق، لأن كل شيء دون الله مخلوق، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إنى رأيت أن تحفظ على وعليه ما نقول ، فقال : افعل ، فقال الشيخ : يا أحمد أخبرنى عن مقالتك هذه أواجبة داخلة فى

عقد الدين ، فلايكون الدين كاملا حتى يقال ماقلت ؟ قال : نعم ، فقال الشيخ: أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله عز وجل إلى عباده هل ستر شيئاً مما أمر الله به في دينه ؟ فقال : لا ، قال الشيخ : أفدعا رسول الله ﷺ إلى مقالتك هذه ؟ فسكت ابن أبي دؤاد ، فقال الشيخ : تكلم ، فسكت فإلتفت الشيخ إلى الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين قل : واحدة ، فقال الواثق: واحدة .

فقال الشيخ : ياأحمد أخبرني عن الله عزوجل حين أنزل آخر القرآن على رسول الله ﷺ، فقال ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [المائدة: ٣] أكان الله صادقا في إكماله أم أنت الصادق في نقصانه ، فلا يكون كاملا حتى يقال فيه بمقالتك هذه فيكون كاملا ، فسكت ابن أبي دؤاد. فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجبه . فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين قل : اثنتان، فقال : اثنتان .

فقال الشيخ : يا أحمد أخبرني عن مقالتك هذه أعلمها رسول الله ﷺ أم جهلها ؟ فقال ابن أبي دؤاد : علمها ، فقال : أفدعا الناس إليها؟ فسكت ابن أبي دؤاد ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، قل : ثلاثة ، فقال الواثق: ثلاثة .

فقال الشيخ: يا أحمد أفاتسع لرسول الله ﷺ كما زعمت ولم يطالب أمته بها ؟ قال : نعم ، فقال الشيخ : واتسع لأبي بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ﷺ فقال ابن أبي دؤاد: نعم ، فأعرض الشيخ عنه، وأقبل على الواثق ، فقال : يا أمير المؤمنين قد قدمت أن أحمد يقل ويصغر ويضعف عن المناظرة ، يا أمير

المؤمنين ألم يتسع لك من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ، ولأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى رضي الله عنهم فلا وسع الله على من لم يتسع له منّا ما اتسع لهم من ذلك ؟ فقال الواثق نعم إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ ، ولأبى بكر ، وعمر، وعثمان ، وعلى رضي الله عنهم فلا وسع الله علينا . ثم قال : اقطعوا قيد الشيخ ؛ فلما قطع ضرب الشيخ بيده، فأخذ القيد فوضعه في كمه ، فقال الواثق : لم فعلت هذا ، فقال الشيخ : لأنى نويت أن أقدم إلى من أوصى إذا مت أن يجعله بينى وبين كفنى حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله عزوجل يوم القيامة ، وأقول : يارب سل عبدك هذا لم قيدنى ، وروع أهلى ، وولدى وإخوانى بلاحق واجب علىَّ ؛ وبكى الشيخ ، وبكى الواثق ، وبكينا ثم سأله الواثق أن يجعله فى حل وسعة مما ناله منه.

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين لقد جعلتك فى حل وسعة من أول يوم، إكراما لرسول الله ﷺ إذ أنت رجل من أهله . فقال الواثق : لى إليك حاجة ؟ فقال الشيخ إن كانت ممكنة فعلت . فقال الواثق : تقيم عندنا ينتفع بك فتياننا ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين إن ردك إياى إلى الموضع الذى أخرجنى منه هذا الظالم أنفع لك من مقامى عندك ، فقال : ولم ذلك؟ فقال: لأسير إلى أهلى وولدى فأكف دعاءهم عنك ، فقد خلفتهم على ذلك، فقال الواثق : أفتقبل منّا صلة تستعين بها على دهرك ؟ فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين أنا غنى وذو ثروة ، قال : أفتسألنا حاجة ؟ قال : أوتقضيها؟ قال : نعم ، قال تخلى سبيلى إلى السفر الساعة ، وتأذن لى ،

قال أذنت لك؛ فسلم عليه الشيخ وخرج ، قال صالح : فقال المهتدى بالله: فرجعت عن هذة المقالة من ذلك اليوم ، والله أعلم[1] .

فائدة

[١٤٤] روى الدارقطني وشيخه ، والحاكم ، وابن عدى ، عن عمر : «أن النبى ﷺ كان فى محفل من أصحابه اذ جاء أعرابى من بنى سليم ، قد اصطاد ضبا[2] وجعله فى كمه ليذهب به إلى رحله ، فرأى جماعة محتفين بالنبىﷺ فقال : على من هؤلاء ؟ قالوا : على هذا الذى يزعم أنه نبى ، فأتاه فقال ، ياأحمد ما اشتملت على ذى لهجة أكذب منك، ولولا أن تسمينى العرب عجولا لقتلتك ، فسررت بقتلك الناس أجمعين ، فقال عمر : يارسول الله دعنى أقتله ، فقال رسول الله ﷺ : «أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبيا» ، ثم أقبل الأعرابى على رسول الله فقال : واللات والعزى لا آمنت بك حتى يؤمن بك هذا الضب ، وأخرج الضب من كمه، وطرحه بين يدى رسول الله ﷺ فقال رسول اللهﷺ : «يا ضب فتكلم الضب، بلسان فصيح عربى صريح يفهمه القوم جميعا ، فقال : لبيك وسعديك يارسول رب العالمين ، فقال رسول الله ﷺ : من تعبد ؟ قال الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عذابه . قال : فمن أنا ياضب ؟ قال : أنت رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين قد أفلح من

---

(١) انظر : تاريخ بغداد (١٩٦/٧) ، حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١٢٩/١) .

(٢) الضب : من الحيونات الزحافات التى تعيش فى الجبال .

صدقك وخاب من كذبك فقال الأعرابي : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقا ، والله لقد أتيتك وماعلى وجه الأرض أحد أبغض منى إليك ، والله لأنت الساعة أحب إلى من نفسى ومن ولدى فقد آمن بك شعرى ، وبشرى ، وداخلى ، وخارجى، وسرى ، وعلانيتى .

فقال رسول الله ﷺ : الحمد لله الذى هداك إلى هذا الدين الذى يعلو ولا يعلى عليه ، ولا يقبله الله تعالى إلابصلاة ولايقبل الصلاة إلابقراءة، قال : فعلمنى فعلمه النبى ﷺ الحمد لله ، وقل هو الله أحد ، فقال: يارسول الله ماسمعت فى البسيط ولا فى الرجز أحسن من هذا ، فقال رسول الله ﷺ : إن هذا كلام رب العالمين ، وليس بشعر إذا قرأت قل هو الله أحد ثلاثا أو قال ثلاث مرات فكأنما قرأت القرآن كله فقال الأعرابى : إن إلهنا يقبل اليسير ويعطى الكثير» . انتهى باختصار من حياة الحيوان الكبرى[1] .

[١٤٥] و [قيل] : وقف رجل على الواثق فقال : يا أمير المؤمنين صل رحمك، وارحم أقاربك ، وارحم رجلا من أهلك . فقال الواثق : من أنت فإنى لا أعرفك قبل اليوم ؟ قال : ابن جدك آدم ، فقال : ياغلام اعطه درهما ، فقال : يا أمير المؤمنين وما أصنع بالدرهم ؛ قال أرأيت لو قسمت المال بين إخوتك أولاد جدى أكان ينوبك منه حبة فقال لله درك ما أذكى فهمك فأمر له بعطاء وانصرف مكرما .

(١) انظر حياة الحيوان ، حرف الضاد (١٠٨/٢) .

١٢- فصل

خلافة المتوكل على الله تعالى[١]

[١٤٦] **حكى عنه أنه قال ذات يوم لأبي العيناء :** ما أشد ما مر عليك في ذهاب عينيك ! فقال : فقْدُ رُؤْيتك يا أمير المؤمنين ، فاستحسن منه هذا الجواب ، وأمر له بجائزة نفيسة .

[١٤٧] **ومماحكاه أبو القاسم على بن محمد الذهبي عن أبي عبد الله النحوى قال:** لما حج محمد بن عبد الله بن طاهر رأى في الطواف جارية في نهاية الحسن فسأل عنها فقيل : إنها لرجل من الأدباء ، قد رواها الأشعار ، والأخبار ، والنحو ، والعروض، وقد أحسنت ضرب العود ، وطريق الغناء ؛ فاشتراها بمائة ألف درهم . فلما قدم بها مدينة دار السلام شغف بها شغفا شديدا وأخفى أمرها ومايجده منها تخوفا من أمير المؤمنين المتوكل ، وكان من شدة وجده بها يحتبس عندها أياما لايظهر للناس فيظنون أنه زمن[٢] وأمره معها مستور ففطن به سويد بن أبي العالية[٣]

---

(١) جعفر بن محمد بن هارون الرشيد ، المتوكل على الله : من خلفاء الدولة العباسية ، ولد ببغداد ، وبويع بعد وفاة أخيه الواثق [٢٣٢هـ] وكان جوادا ، محبا للعمران ، من آثاره المتوكلية ببغداد أنفق عليها أموالا كثيرة . ولما استخلف كتب إلى أهل بغداد كتابا قرىء على المنبر بترك الجدل في القرآن ، وأن الذمة بريئة ممن يقول بخلقه أو غير خلق .اغتيل في سامراء ليلا [٢٤٧هـ - ٨٦١م] . انظر : تاريخ بغداد (١٦٥/٧).

(٢) زَمِنَ : أصابته الزَمَانة ، أى شدة العشق .

(٣) محمد بن يلداد بن سويد المروزى :من رجال الدولة العباسية ، ومن كتاب الإنشاء.ت[٢٣٠هـ] .

صاحب البريد ، وكان بينه وبين محمد منافرة ، فلم يجد سوأ يكيده بـه إلا أن كتب إلى المتوكل وهو نازل على أربعة فراسخ من بغداد كتابا نسخته :
«بسم الله الرحمن الرحيم ؛ أما بعد يا أمير المؤمنين فإن محمد بن عبد اللـه اشترى جارية بمائة ألف درهم فهو يصطبح معها ويغتبق زمانه كلـه معهـا ، وقد اشتغل بها عن النظـر فـي أمـور المسـلمين ، وعـن التوقيـع فـي قصـص المظلومين ، ولا يأمن أمير المؤمنين أن تخرب عليه بغداد مع كثرة مـا فيهـا من الغوغاء ، فيتعب أمير المؤمنين في اصطلاحها وقد أنهى المملـوك ذلـك إلى أمـير المؤمنيـن أيـده اللـه وهـو أعلـى رأيـا والسـلام عليـه ورحمـة اللـه وبركاته»

قال : فلما قرأ المتوكل الكتاب رفع رأسه إلـى نرجـس الخـادم وقـال له: امض الساعة إلى محمد بن عبد الله بن طاهر وادخل عليه داره بغتة مـن غير إذن ، وانظر إلى ما يصنع ، ثم خذ منه جاريته فلانة وأت بها مـن غـير تأخير، فمضى نرجس من ساعته . وكان محمد قد اصطبح معها فـي ذلـك اليوم فدخل عليهما نرجس من غير استئذان فلم يشعر محمد إلا وهو واقف عليه ، فتغير وجهه وانتقع لونه وفاضت عيناه وارتعدت فرائصـه ، لعلمـه أن نرجسا ما دخل عليه من غير إذن إلا وقد أضمر لـه السـوء . فقـال لـه : يـا نرجس ما الذى أقدمك قال أمير المؤمنين أمرنـي أن آخـذ جـاريتك هـذه ، قال : يا نرجس هذا اليوم قد حضر شره ، وغاب خيره ، وقد ترى ما نحـن فيه ، وأنا لا أخالف ما أمر به أمير المؤمنين ، ثم أمر للخادم بكرسي فجلس عليه بعد أن امتنع ساعة وقال : إن مثلي لا يجلس مع مثلك ، ثم إن محمدا نظر إلى الجارية وبكى بكاءاً شديدا ، وقال لها غني لأتزود منك ، فأخذت العود وغنت بصوت حزين تقول :

لله من لمعذيين رماهما	بشماتة العذال والحساد
أما الرحيل فحين جد تحمل	مهج النفوس به من الأجساد
من لم يبت والبين يصدع شمله	لم يدر كيف تفتت الأكباد[1]

ثم إنهما أعلنا بالبكاء والنحيب والشهيق ، فرحمهما الخادم ورق لهما حين عاين ما حل بهما ، فقال : أيها الأمير إن رأيت أن أمضى وأدعكما على ما أنتما عليه، وأتعلل عنكما لأمير المؤمنين فعلت ، فقال : يا نرجس من خلفه مثل أبي سويد كيف يمكنه التعلل ؟ ولكن ارفق بنا ، فقالت الجارية: والله يا سيدى لا ملكنى غيرك أبدا ، ولئن دفعتنى إليه لأقتلن نفسى، فقال لها محمد : لوكان غير أمير المؤمنين لكان فى ذلك أوسع حيلة ، ولقد وددت أن يأخذ منى أمير المؤمنين جميع ما أملك ويعزلنى عن عملي ويبقيك عليّ ، ولكن هذا قضاء الله وقدره ، ثم التفت إلى نرجس وقال : لقد شاهدت منى ومن هذه الجارية ما شهد قلبك علينا بالمحبة والمودة والألفة، وليس يخفى عن علمك أن صنائع المعروف تقى مصارع السوء ، ومثلك من يصنع المعروف مع مثلى ، فخذها وامض بها إلى أمير المؤمنين وقل ما شئت مما يليق بمروءتك ، ثم التفت إليها وقبلها وبكى وبكت وبكى نرجس ، ثم أخذها وخرج وهى تبكى، وتخمش خدها ووجهها[2] ثم حملها نرجس على بغلة أمير المؤمنين وسار حتى دخل على المتوكل .

---

(١) البين : البعد .

(٢) تُخمش خدها : أى تلطمه .

فلما رآه قال : ما وراءك يا نرجس قال ورائى يا أمير المؤمنين كل بلية ثم إنه جلس بين يديه وقص عليه حالهما ولم يخف شيئا ، فقال المتوكل : وكل هذا الوجد يجده محمد من هذه الجارية ؟ فقال : يا أمير المؤمنين والذى خفى أكثر مما ظهر وما أظنه يعيش بعدها ، فرق عليه قلب المتوكل وقال : يا نرجس ارجع بها إليه الساعة من وقتك هذا وأدركه قبل أن تزهق روحه وقد أمرت له بمائة ألف درهم ولها مع ذلك مثله ، وجعلت أمر أبى سويد إليه يصنع به ما يشاء ، ثم كتب له توقيعا بذلك ودفعه إلى نرجس فرجع الخادم بالجارية والتوقيع ولم يتمهل حتى دخل عليه فوجده عريانا يتقلب على حصر سامان[1] من شدة الكرب والوجد ، وقد أحدقت به الجوارى يروّحنه بالمراوح .

فقال : أبشر يا محمد إن أمير المؤمنين قد رد جاريتك عليك من غير أن يوقع نظره عليها ، وقد حكمك فى أبى سويد ، ثم ناوله التوقيع بذلك ودخلت الجارية عليه فوثب إليها وعانقها وقبلها ساعة ، ثم خرج فجلس على باب داره وبعث إلى أبى سويد . فلما حضر دفع إليه التوقيع . فلما قرأه قال : أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك ، وأن تهدم منى ركنا أنت شيدته ، وأن تضيع صنيعة اصطنعتها إلى مثلى ، فمثلى من هفا ومثلك من عفا ، ثم قام وقبل البساط .

فقال له محمد : لا أبدل نعمة الله كفرا ، ثم أمر له بخمسين ألف درهم، فقالت الجارية : وأنا أيضا أهب له خمسين ألف درهم مما وهبه لى أمير المؤمنين شكرالله تعالى على ذلك ، ثم أقره على ما كان عليه وأمر أن

---

(١) حصر سامان : نوع من أنواع الحصر ، وسامان : قرية فى خراسان إليها ينسب السامانيون .

يحمل المال بين يديه إلى منزله ، ورجع محمد والجارية إلى ما كانا عليه في أطيب عيش وأحسن حال متظاهرا بذلك غير مستتر ولا خائف ، انتهى.

[١٤٨] و [قيل] :أتى المتوكل بمحمد بن النصيب ووزيره ابن الديرواني ، وكان محمد هذا قد خرج على المتوكل واستوزر ابن الديرواني ، فلما مثل بين يدى المتوكل قال له : ما حملك على ما فعلت يا محمد ؟ قال الشقوة وحسن الظن بعفوك يا أمير المؤمنين ، وأنشد يقول :

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلى ... إمام الهدى والعفو بالحر أجمل
تضاءل ذنبى عند عفوك قلة ... فجد لى بعفو منك فالعفو أفضل

فقال الملك : خلوا سبيله ثم قدم ابن الديروانى فقال : اضربوا عنقه فقال : سبحان الله يا أمير المؤمنين تعفو عن الرأس وتقطع الذنب ، فضحك المتوكل وعفا عنه انتهى .

[١٤٩] وكتب محمد بن عبد الملك الزيات(١) وهو في السجن : - وقد اشتد به الحال- فكتب رقعة إلى المتوكل يستعطفه على نفسه من شدة ما قاسى من الأهوال والعذاب في السجن يقول فيها هذين البيتين :

هى السبيل فمن يوم إلى يوم ... كفرحة النائم الفرحان بالنوم
لا تعجلن رويدا إنها دول ... دنيا تنقل من قوم إلى قوم

قال : فلما قرأها المتوكل رق له وبكى ، وأمر بإطلاقه . فذهبوا إلى السجن فوجدوه ميتا رحمة الله عليه .

---

(١) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة ، أبو جعفر : وزير المعتصم ، والواثق . عزبه المتوكل وسجنه ، ت[٢٣٣هـ] .

١٣- فصل

خلافة أمير المؤمنين المعتضد بالله أحمد(١)

[١٥٠] كان يسمى السفاح الثانى ، لأنه جدد ملك بنى العباس بعد أن أخلقته الأتراك وأذلته . وفى ذلك يقول على بن العباس الرومى(٢) :

كما بأبى العباس أنشئ ملككم　　　كذا بأبى العباس أيضا يجدد

[١٥١] **ولقد اتفق فى أيامه على ما حكى :** أمر فظيع كشفه الله له بهيبته فى نفوس الناس فإنه كان لا يتجرأ أحد منهم أن يكتم ما فى نفسه مخافة صولته ، لأنه كان لشدة حذقه يتخيل لهم أنه يعلم ما فى نفس الإنسان من الضمير ، فاتفق أن أحد وزرائه وأكبر قواده بنى بناء عاليا مشرفا على منازل جيرانه ، فلم يعارضه أحد فيه من جيرانه لمكانته من سلطانه وعزه وكان يجلس كثيرا فى ذلك البناء ، فرأى يوما من الأيام فى دار من دور جيرانه جارية بارعة الجمال فولع بها فسأل عنها فأخبر أنها بنت أحد التجار فأرسل إلى والدها خاطبا . فقال له أبوها :-وكان من أهل اليسار- لست أزوجها إلا من تاجر مثلى ، فإنه إن تزوجها من هو مثلى لم يظلمها وإن ظلمها قدرت على النصفة منه وأنت إن ظلمتها لم أقدر لها

---

(١) أحمد المعتضد بالله بن الموفق ، أبو العباس : بويع له بالخلافة يوم وفاة عمه المعتمد، فاستقل بالأمر . وكان شجاعا ، عادلا ، ذا هيبة ، وذكاء مفرط ، ت[٢٨٩هـ-٩٠٢م] .

(٢) على بن العباس الرومى : شاعر بغداد ، من أعظم شعراء الدولة العباسية ، ت[٢٨٣هـ].

على النصفة منك ، ولا على الحيلة لنصرتها . فلم يزل يرومه في ذلك بكل أمر ، وتوسط إليه بالأكابر والأماثل من الناس وهو مع ذلك يمتنع .

فلما يئس منه أن يجيبه شكا إلى أحد خواصه ، فقال له : ألف مثقال يقوم لك هذا ، فقال : كيف ذلك ؟ والله لو علمت أني أنفق عليها مائتي ألف مثقال أو أكثر وتأتيني لفعلت . قال له : عليك أن تحضر لي ألف دينار ، فأمر بإحضارها فمشى بها ذلك الرجل إلى عشرة رجال كانوا عدولا عند القاضي في شهادتهم وذكر لهم الأمر، وقال : هذا أمر ليس عليكم من الله فيه تبعة فإنه يصدقها كذا وكذا ألفا وأغلى لهم المهر ، وإنكم تحيون نفسا أشرفت على الهلاك ويكون لكم عنده مع هذا من الجاه ما ترغبون وأبوها إنما هو عاضل لها في الزواج ، وإلا فما يمنعه من ذلك وقد خطبها مثل فلان في جلالة قدره ومكانة أمره وقد أعطاه صداقا لا يعطى إلا لبنت ملك ، ثم هو مع هذا يأبى هل هذا إلا عضل بَيِّنٌ !

ولكن لكم ألف مثقال لكل واحد منكم مائة وتشهدون أنه قد زوجها منه ، فإنه إذا علم أبوها بأنكم قد شهدتم عليه رجع إلى هذا إذ ليس فيه إلا الخير والخيرة ، فأخذ الشهود كل واحد منهم مائة وشهدوا أن أباها زوّجها على صداق مبلغه كذا ورفعوا في الصداق إلى غاية ما ترفع إليه صداقات الملوك . فلما علم أبوها بذلك زاد نفارا وإباء ، فمشى الوزير وذلك القائد إلى القاضي وقال : إني تزوجت فلانة بنت فلان على هذا الصداق وهؤلاء شهدوا عليه ، ثم قد ناكرني وأنكر الشهود ، وقد أردت أن أدفع له حق بنته وآخذها ، فأمر القاضي بإحضار الشهود فشهدوا عنده وأحضر مال النقدين بين يدى القاضي والرجل على إنكاره متماد ، فأمر

القاضى بإمضاء الحكم عليه وأن تؤخذ ابنته منه أحب أو كره ، وأمر بحمل المال إليه .

فلما وصلت الجارية عند الوزير لم يزل أبوها يروم الوصول إلى المعتصم وكان المعتصم غليظ الحجاب لا يصل إليه أحد من غير الخاصة ، فقيل للرجل : إنه يحضر كل يوم ساعة من النهار على بنيان له بقصره فإن استطعت أن تكون مع جملة رجال الخدمة تصل إليه وتكلمه بما أردت ؛ ففعل الرجل ذلك وغير شكله ودخل فى جملة رجال الخدمة للبناء . فلما كان ذلك الوقت الذى كانت عادة أمير المؤمنين المعتضد يقف فيه على ذلك البناء خرج ذلك الرجل فترامى على الأرض وجعل يحثوا التراب على رأسه ويستغيث ، فسأله عن شأنه فقص عليه القصة فأرسل المعتضد فى ذلك المقام خلف ذلك القائد وأغلظ عليه فى القول فحملته هيبته له وقلة إقدامه على الكذب عليه أن وصف له الصورة على ما كانت عليه وهو يطمع أن يعذره فى ذلك إذ قد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها وأمر بإحضار الشهود فصنعوا مثل صنيع صاحبهم - وذلك كله رهبة له وإجلالا أن يخاطبوه بكذب مع تخيلهم أنه يصفح لهم عن هذه الزلة ، إذ قد أرادوا إحياء نفس ذلك الوزير ، وأيضا قد دفع له بين يدى القاضى نقدا لا يكون إلا فى صداقات الملوك ، وقد جعل لها من الصداق ما هو فوق قيمة قدرها ؛ فكأنما قد أخذها بحقها وبأكثر من حقها .

فلما تحققت عنده جلية الخبر ؛ أمر أن يصلب كل من شاهد منهم على باب داره وأن يوضع ذلك الوزير فى جلد ثور طرى السلخ ويضرب بالمرازب ، حتى يختلط عظمه ولحمه بدمه ، ثم أمر به لما صنع به ذلك

أن يفرغ بين يدى نمور كانت عنده . فلما لعقت تلك النمور ذلك الدم ، أمر الرجل أبا البنت أن يأخذ ابنته ، ويأخذ كل ما ذكروا لها على ذلك الوزير فى صداقها من عقار ودور ومال ، ثم مات المعتضد وولى ابنه المقتدر ، وكان صبيا صغير السن فعادت الأتراك إلى ما كانت عليه من ذلك ، والله تعالى أعلم .

[١٥٢] **ويقرب من شهامة هذا الملك، ما ذكره فى حياة الحيوان فى ترجمة يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن**(١) **صاحب بلاد المغرب من أنه وقع بينه وبين الأذفونش نصرانى طليطلة مكاتبات قال** : بعث الأذفونش إلى الأمير يعقوب يتوعده ويتهدده ويطلب منه بعض حصون وكتب له رسالة من إنشاء وزيره ابن النجار وهى: "باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، وصلى الله على السيد المسيح روح الله وكلمته الفصيح ؛ أما بعد فإنه لا يخفى على ذى ذهن ثاقب ولا ذى عقل لازب أنك أمير الملة الحنيفية كما أنى أمير الملة النصرانية ، وقد علمت ما عليه رؤساء الأندلس من التخاذل والنكول والتكاسل واهمالهم أمر الرعية وإخلادهم إلى الراحة والأمنية ، وأنا أسوسهم بحكم القهر وإخلاء الديار وسبى الذرارى(٢) ، وأمثل بالرجال وأذيقهم عذاب الهوان وشديد النكال ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم ، إذا أمكنتك القدرة وساعدك من عساكرك وجنودك كل ذى رأى وخبرة وأنتم تزعمون أن الله تعالى قد فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم والآن خفف الله عنكم وعلم أن

---

(١) يعقوب بن عبد المؤمن : ثالث خلفاء الدولة المؤمنية الموحدية بالمغرب والأندلس . له فتحات عظيمة فى الأندلس ت[٥٩٥هـ-١١٩٩م] .

(٢) الذَّرارى : الأطفال و النساء .

فيكم ضعفا رحمة منه ، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا لا تستطيعون دفاعا ولا تملكون امتناعا ، ولقد حكى عنك أنك أخذت فى الاحتفال وأشرفت على ربوة القتال ، وتماطل نفسك سنة بعد أخرى تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فلا ندرى أكان لجبن إبطاؤك أم لتكذيب بما وعد ربك ، ثم قيل لى : إنك لا تجد إلى الجوار سبيلا ولعله لا يسوغ لك التقحم فيه ميلا وها أنا أقول لك ما فيه الراحة وأعتذر عنك ولك أن تفى بالعهود والمواثيق والاستكثار من البرهان وإلا جئت بجملتى إليك : وأقاتلك فى أعز الأماكن عليك ، فإن كانت النصرة لك كانت غنيمة كثيرة جاءت إليك وإن كانت لى كانت يدى العليا عليك ، والله الموفق لا رب غيره ولا خير إلا خيره" .

قال : فمزق يعقوب الكتاب وكتب على قطعة منه : ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع واستشهد ببيت المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفية عنده ولا رسله إلا الخميس العرمرم(١)

ثم أمر بكتائب الاستنفار ، واستدعاء الجيوش من الأمصار ، وضرب السرادقات من يومه بظاهر البلد وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبته(٢) ، فعبر فيه إلى الأندلس ودخل إلى بلاد الإفرنج ، فكسرهم كسرة شنيعة وعاد بغنائمهم ، والله أعلم.

---

(١) المشرَفيَّة : كناية عن السيوف التى تصنع فى المشرفية ، والمشرفية مكان فى اليمن .
الخميس العرمرم : الجيش الكثير ، الشديد البأس .

(٢) زقاق سبته : اسم مضيق جبل طارق قديماً فى المغرب ، يطل على البحر المتوسط.

الباب الرابع

غرائب وعجائب المنقول

١- فصل

ومن غرائب المنقول وعجائبه:

[١٥٣] عن الأمير بدر الدين أبى المحاسن يوسف المهمندار المعروف بمهمندار العرب أنه قال : حكى الأمير محمد شجاع الدين الشيرازى متولى القاهرة فى أيام الكامل سنة ثلاثين وستمائة ، قال : بتنا عند رجل بالصعيد فأكرمنا ، وكان الرجل شديد السمرة وهو شيخ كبير ، فحضر له أولاد بيض الوجوه حسان الأشكال .

فقلنا له : هؤلاء أولادك ؟ قال : نعم ، ثم قال : كأنكم أنكرتم علىَّ بياضهم وسوادى ؟ قلنا : نعم ، فقال : هؤلاء كانت أمهم إفرنجية أخذتها أيام الملك الناصر صلاح الدين وأنا شاب ، فقلنا : وكيف أخذتها ؟ قال : حديثى فيها عجيب وأمرى غريب ، فقلنا : أتحفنا به ، فقال : زرعت كتانا فى هذه البلدة وقلعته ونفضته ، فصرفت عليه خمسمائة دينار ، ثم لم يبلغ الثمن أكثر من ذلك فحملته للقاهرة ، فلم يصل أكثر من ذلك فأشير على بحمله إلى الشام فحملته ، فلم يزد على تلك القيمة شيئاً فوصلت به إلى عكا ، فبعت بعضه لأجل والبعض تركته ، واكتريت حانوتا لأبيع على مهل إلى أن تنقضى المدة ، فبينما أنا أبيع إذ مرت بى امرأة إفرنجية ونساء الإفرنج يمشون فى الأسواق بلا نقاب ، فأتت تشترى منى كتانا فرأيت من جمالها ما أبهرنى فبعتها وسامحتها ، ثم انصرفت وأتت إلىَّ بعد أيام فبعتها وسامحتها أكثر من المرة الأولى فتكررت إلىَّ وعلمت أنى أحبها .

فقلت للعجوز التى كانت معها : إننى قد تلفت بحبها وأريد منك الحيلة ، فقالت لها العجوز ذلك ، فقالت تروح أرواحنا الثلاثة أنا وأنت

زهو فأعادت على الجواب ، فقلت لها : أما أنا فقد سمحت بروحى فى حبها واتفق الحال على أن أدفع لها خمسين دينارا فوزنتها وسلمتها للعجوز، فقالت : نحن الليلة عندك قال : فمضيت وجهزت ما قدرت عليه من مأكول ومشروب ، وشمع وحلوى فجاءت الإفرنجية فأكلنا وشربنا ، وجن الليل ولم يبق غير النوم ، فقلت فى نفسى : أما تستحى من الله وأنت غريب تعصى الله مع نصرانية ؛ اللهم إنى أشهدك أنى قد عففت عنها فى هذه الليلة حياء منك وخوفا من عقابك ، ثم نمت إلى الصبح .

فقامت من السحر وهى غضبانة ، ومضت ومضيت إلى حانوتى فجلست فيه فإذا هى قد عبرت علىَّ هى والعجوز وهى مغضبة وكأنها القمر فهلكت وقلت فى نفسى : ومن هو أنت حتى تترك هذه البارعة فى حسنها ، ثم لحقت العجوز وقلت لها ارجعى فقالت وحق المسيح ما أرجع لك إلا بمائة دينار ،فقلت : نعم بسم الله فمضيت فوزنت مائة دينار.

فلما حضرت الجارية عندى لحقتنى الفكرة الأولى وعففت عنها وتركتها حياء من الله تعالى ، ثم مضت ومضيت إلى موضعى ثم عبرت على بعد ذلك وقالت وحق المسيح ما عدت تفرح بى عندك إلا بخمسمائة دينار أو تموت كمدا ، فارتعت لذلك وعزمت على أنى أصرف ثمن الكتان جميعه . فبينما أنا كذلك والمنادى ينادى : معاشر المسلمين إن الهدنة التى كانت بيننا وبينكم قد انقضت ، وقد أمهلنا من هنا من المسلمين إلى جمعة فانقطعت عنى ، وأخذت فى تحصيل ثمن الكتان الذى لى والمصالحة على ما بقى منه وأخذت معى بضاعة حسنة وخرجت من عكا وفى قلبى من الإفرنجية ما فيه .

فوصلت إلى دمشق وبعت البضاعة بأوفى ثمن بسبب فراغ الهدنة ومَنّ الله عليَّ بكسب وافر وأخذت أتجر فى الجوارى لعل يذهب ما بقلبى من الإفرنجية ، فمضيت ثلاث سنين وجرى للملك الناصر(١) ما جرى من وقعة حطين(٢) ، وأخذ جميع الملوك وفتح بلاد الساحل بإذن الله تعالى فطُلِبَ منى جارية للملك الناصر فأحضرت له جارية حسناء فاشتراها منى بمائة دينار فأوصلوا لى تسعين دينارا وبقيت العشرة دنانير عنده ، فلم يجدوها فى خزانة الملك فى ذلك اليوم لأنه أنفق جميع الأموال .

فلما حضرت الغنيمة جاءوا للملك فشاوروه على ذلك ، فقال : امضوا به إلى الخيمة التى فيها السبى من نساء الإفرنج فخيروه فى واحدة منهن يأخذها بالعشرة دنانير التى بقيت له فأتيت الخيمة فعرفت غريمتى ، فقلت : أعطونى هذه الجارية فأخذتها ومضيت إلى خيمتي وخلوت بها ، وقلت لها : أتعرفينى ؟ قالت : لا ، فقلت لها : أنا صاحبك التاجر الذى جرى لى معك ما جرى وأخذت منى الذهب وقلت ما عدت ترانى عندك إلا بخمسمائة دينار وقد أخذتك ملكا بعشر دنانير،فقالت:مد يدك أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فأسلمت وحسن إسلامها .

---

(١) الملك الناصر هو : صلاح الدين الأيوبى ، يوسف بن أيوب : القائد العظيم قاهر الصليبين ، ومجدد مجد المسلمين . من أصل كردى ، اختاره العاضد للوزارة وقيادة الجيش ، ولقبه بالملك الصالح ، وقد انتصر على الصليبين فى موقعة حطين الشهيرة، ت[٥٨٩هـ = ١١٩٣م] . انظر : وفيات الأعيان(١٣٩/٧) ، الكامل لابن أثير (٣٧/١٢) .

(٢) حطين : قرية فى فلسطين غربى بحيرة طبرية . انتصر صلاح الدين على الصليبيين فيها سنة [٥٨٣هـ = ١١٨٧م] واستعاد للمسلمين بيت المقدس .

فقلت : والله لا وصلت إليها إلا بأمر القاضى .فتوجهت إلى ابن شداد[1] وحكيت له ما جرى ، فتعجب وعقد لى عليها وباتت تلك الليلة عندى فحملت منى. ثم رحل العسكر وأتينا دمشق فبعد مدة يسيرة أرسل الملك يطلب الأسارى والسبايا باتفاق وقع بين الملوك فردوا من كان أسيرا من الرجال والنساء ولم يبق إلا التى عندى فطلبت منى فحضرت وقد تغير لونى فأحضرتها بين يدى الملك الناصر والرسول فقلت : هذه أسلمت وصارت امرأتى .

فقال الملك الناصر بحضرة الرسول : أترجعين إلى بلادك أو إلى زوجك فقد فككنا أسرك وأسر غيرك ؟ فقالت : يا مولانا السلطان أنا قد أسلمت وحملت وها بطنى كما ترونه وليس لى رغبة فى الرجوع إلى بلادى وما رغبتى إلا فى الإسلام وزوجى ، فقال لها الرسول : أيما أحب إليك هذا المسلم أو زوجك الإفرنجى ؟ فأعادت عبارتها الأولى ، فقال الرسول : لمن معه من الإفرنج اسمعوا كلامها ثم قال لى الرسول : خذ زوجتك وتوجه فوليت بها فطلبنى ثانيا وقال : إن أمها أرسلت معى كسوة، وقالت أن ابنتى أسيرة وأشتهى أن توصل لها هذه الكسوة فتسلمت الكسوة، ومضيت إلى الدار ففتحت القماش فإذا هو قماشها بعينه قد صيرته لها أمها ووجدت من داخله الصرتين الذهب الخمسين دينار والمائة دينار كما هى بربطتى لم يتغيرا ، وهؤلاء الأولاد منها وهى التى صنعت لكم هذا الطعام ، والله أعلم .

---

(١) يوسف بهاء الدين ، ابن شداد : القاضى ، المؤرخ . قاضى صلاح الدين وأرخ له فى كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية"

[١٥٤] **ويحكى** : أن بعض الملوك أرسل رجلا من بطانته إلى بعض الجهات ليعرف خبر عاملها ويطالعه بأخبار الرعية . فلما وصل الرجل فطن له العامل فأرسل إليه بمال وتحف ثم قال : عرفت ما جئت له، وأنا أرغب إليك فى كتاب تكتبه إلى الملك تذكر فيه أنى حسن السيرة وسالك طريق العدل ، فإن أنت فعلت ذلك فلك منى ما تشتهى رغبتك إليه من الخير والعطاء ، وإن أبيت ذلك أمرت الشرطيين أن ينهوا إلى من أمرك فى الملأ ما يوجب قتلك إما حدا و إما سياسة ، فاقتلك بمحضر من قاضى البلد ووجوه الناس ، فتذهب كأمس الماضى .

فلما لم يجد الرجل بدا من موافقته ولم يكن ليخون مرسله كتب بحضرته كتابا إلى الملك : " أما بعد ؛ أعز الله الملك وأكرمه فإنى قدمت إلى مدينة كذا وكذا فوجدت العامل فلانا آخذا بالحزم عاملا بالعزم ، قد ساوى بين رعيته وعدل بينهم فى أقضيته وأرضى بعضهم ، بعضا وجعل طاعته عليهم فرضا ، وأنزلهم منه منزلة الأولاد وأذهب ما بينهم من الأحقاد، وأراحهم من السعى فى الدنيا ، وفرغهم للعمل فى الآخر أغنى القاصد وأرضى الوارد، فجميع أهل عمله داعون للملك يودون النظر إلى وجهه الكريم والسلام" .

فلما وصل الكتاب منه إلى الملك فكر فيه وقال لوزيره : إن فلانا لم يكن عندى بمتهم، فإن كتابه هذا يدل على ظلم العامل فالتمس لى رجلا يصلح لعمله فإنى قد عزلته ، فقال الوزير : أصلح الله الملك وكيف ذلك ؟ قال : لأن قوله : "آخذا بالحزم عاملا بالعزم" ؛ أى أنه خائف منى لما اعتمده فى الولاية . وأما قوله : "ساوى بين رعيته وعدل بينهم فى أقضيته"؛

فمعناه أنه لـم يخص أحـدا بظلمه بـل الجميع سـواء . وقولـه : "وأرضى بعضهم بعضا" ؛ أى ذهبت أحقادهم لأن الشدائد تذهب الأحقـاد . وقولـه: "أنزلهم منه منزلـة الأولاد" معنـاه ؛ أخـذ أموالهـم ورأى أنهـا لـه أخـذا مـن قولهﷺ : «أنت ومـالك لأبيـك»[1] . وقولـه : "وأراحهـم مـن السـعى فـى الدنيا" معناه أنه أخذ أموالهم ولم يترك لهم ما يسعون به ولا ما به يتجرون. وقوله : "فرغهم للعمل فى الأخرى" معناه ؛ أنهم لزموا المسـاجد والعبـادة لفقرهم . وقوله : "أغنى القاصد وأرضى الوارد" ؛ فإنـه يعنـى نفسـه أى أنـه أعطاه مالا ليكتب إلى بذلك . وأما قوله : "فجميع أهـل عملـه داعـون لنـا" معناه ؛ أن يبصرنا الله بأمرهم ونطلـع علـى مـا هـم فيـه . وقولـه : "يـودون النظر لوجهنا" ؛ أى يشكون إلينا ما لقوه منه ويستغيثون بنا . ثم إن الملـك طلب العامل وأحضره إلى بابه وأنصف الناس منه ورد عليهم ما كان العـامل ظلمهم فيه واقتص منه فيما وجب عليه فيه القصاص وقابله على فعله ، والله أعلم .

---

(١) الحديث : صححه الألبانى فى الجامع الصحيح برقم٠(١٤٨٦) .

٢- فصل

القصيدة الزينبية

[١٥٥] وهذه القصيدة الزينبية :

صرمت حبالك بعد وصلك زينب ... والدهر فيه تصرم وتقلب(١)
نشرت ذوائبها التى تزهو بها ... سودا ورأسك كالثغامة أشيب(٢)
واستنفرت لما رأتك وطالما ... كانت تحن إلى لقاك وترغب
وكذاك وصل الغانيات فإنه ... آل ببلقعة وبرق خلب(٣)
فدع الصبا فلقد عداك زمانه ... وازهد فعمرك مر منه الأطيب
ذهب الشباب فما له من عودة ... وأتى المشيب فأين منه المهرب
دع عنك ما قد كان فى زمن الصبا ... واذكر ذنوبك وابكها يا مذنب
واذكر مناقشة الحساب فإنه ... لابد يحصى ما جنيت ويكتب
لم ينسه الملكان حين نسيته ... بل أثبتاه وأنت لاه تلعب
والروح فيك وديعة أودعتها ... ستردها بالرغم منك وتسلب
وغرور دنياك التى تسعى لها ... دار حقيقتها متاع يذهب
والليل فاعلم والنهار كلاهما ... أنفاسنا فيها تعد وتحسب
وجميع ما خلفته وجمعته ... حقا يقينا بعد موتك ينهب

---

(١) صرمت حبالك : قطعت ودك .

(٢) الذؤابة : ضفيرة الشعر . أثغم الرأس : أي ابيض تشبها بالثغام ، وهو شجر أبيض الزهر . أشيب : المبيض الرأس .

(٣) البلقع : الأرض القفر ، والمرأة البلقعة : الخالية من كل خير . برق خلب : برق ليس وراءه مطر ، يعنى ليس وراءها خير .

تبا لدار لا يدوم نعيمها ومشيدها عما قليل يخرب
فاسمع هديت نصيحة أولاكها بر نصوح للأنام مجرب
صحب الزمان وأهله مستبصرا ورأى الأمور بما تؤب وتعقب
لا تأمن الدهر الخئون فإنه مازال قدما للرجال يؤدب
وعواقب الأيام فى لذاتها غصص يذل لها الأعز الأنجب
فعليك تقوى الله فالزمها تفز إن التقى هو البهى الأهيب
واعمل بطاعته تنل منه الرضا إن المطيع له لديه مقرب
واقنع ففى بعض القناعة راحة واليأس عما فات فهو المطلب
فإذا طمعت كسيت ثوب مذلة فلقد كسى ثوب المذلة أشعب(١)
وتَوَقَّ من غدر النساء خيانة فجميعهن مكايد لك تنصب
لا تأمن الأنثى حياتك إنها كالأفعوان يراع منه الأنيب
لا تأمن الأنثى زمانك كله يوما ولو حلفت يمينا تكذب
تغرى بلين حديثها وكلامها وإذا سطت فهى الصقيل الأشطب(٢)
وابدأ عدوك بالتحية ولتكن منه زمانك خائفا تترقب
واحذره إن لاقيته متبسما فالليث يبدو نابه إذ يغضب
إن العدو وإن تقادم عهده فالحقد باق فى الصدور مغيب
وإذا الصديق رأيته متملقا فهو العدو وحقه يتجنب(٣)
لا خير فى ود امرئ متملق حلو اللسان وقلبه يتلهب
يلقاك يحلف أنه بك واثق وإذا توارى عنك فهو العقرب

---

(١) أشْعَب : رجل من المدينة ، ضرب به المثل فى الطمع .

(٢) الصقيل الأشطب : السيف الحاد القاطع .

(٣) تملق الرجل للرجل : تودد إليه وتذلل له وأبدى له بلسانه من الإكرام والود ما ليس فى قلبه .

يعطيك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب
وصل الكرام وإن جفوك بهفوة فالصفح عنهم بالتجاوز أصوب
واختر قرينك واصطفيه تفاخرا إن القرين إلى المقارن ينسب
إن الغنى من الرجال مكرم وتراه يرجى ماالديه ويرهب
ويبش بالترحيب عند قدومه ويقام عند سلامه ويقرب
والفقر شين للرجال فإنه حقا يهون به الشريف الأنسب
واخفض جناحك للأقارب كلهم بتذلل واسمح لهم إن أذنبوا
وذر الكذوب فلا يكن لك صاحبا إن الكذوب يشين حرا يصحب
وزن الكلام إذ نطقت ولا تكن ثرثارة في كل ناد تخطب
واحفظ لسانك واحترز من لفظه فالمرء يسلم باللسان ويعطب
والسر فاكتمه ولا تنطق به إن الزجاجة كسرها لا يشعب(١)
وكذاك سر المرء إن لم يطوه نشرته ألسنة تزيد وتكذب
لا تحرصن فالحرص ليس بزائد في الرزق بل يشقى الحريص ويتعب
ويظل ملهوفا يروم تحيلا والرزق ليس بحيلة يستجلب
كم عاجز في الناس يأتي رزقه رغدا ويحرم كيس ويخيب(٢)
وارع الأمانة والخيانة فاجتنب واعدل ولا تظلم يطيب المكسب
وإذا أصابك نكبة فاصبر لها من ذا رأيت مسلما لا ينكب
وإذا رميت من الزمان بريبة أو نالك الأمر الأشق الأصعب
فاضرع لربك إنه أدنى لمن يدعوه من حبل الوريد وأقرب
كن ما استطعت عن الأنام بمعزل إن الكثير من الورى لا يصحب

(١) شَعَبَ الشيء : جمعه .

(٢) الكيس : العاقل الفطن .

واحـذر مصاحبة اللئيم فإنه — يعدى كما يعدى السليم الأجرب
واحذر من المظلوم سهما صائبا — واعلم بأن دعاءه لا يحجب
وإذا رأيت الرزق عز ببلدة — وخشيت فيها أن يضيق المذهب
فارحل فأرض الله واسعة الفضا — طولا وعرضا شرقها والمغرب
ولقد نصحتك إن قبلت نصيحتى — فالنصح أغلى ما يباع ويوهب

انتهى من حياة الحيوان(1) .

[١٥٦] وما أحسن قول صالح بن عبد القدوس(2) :

المرء يجمع والزمان يفرق — ويظل يرقع والخطوب تمزق(3)
ولأن يعادى عاقلا خيرا له — من أن يكون له صديق أحمق
فاربأ بنفسك أن تصادق أحمقا — إن الصديق على الصديق مصدق(4)
وزن الكلام إذا نطقت فإنما — يبدى عقول ذوى العقول المنطق
ومن الرجال إذا استوت أحلامهم — من يستشار إذا استشير فيطرق
حتى يجيل بكل واد قلبه — فيرى ويعرف ما يقول وينطق
لا ألفينك ثاويا فى غربة — إن الغريب بكل سهم يرشق(5)

---

(١) انظر حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/٥٠) .
(٢) انظر : العقد الفريد (٢/٤٣٦) . وصالح بن عبد القدوس : صاحب الفلسفة قتله المهدى على الزندقة . كان يعظ ويقص بالبصرة ، وحديثه يسير ، وليس بالثقة . انظر: حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/٤٩) ، تاريخ بغداد (٩/٣٠٣) .
(٣) الخطوب : الحوادث الكبيرة .
(٤) اربأ بنفسك : أى احفظها واعلو بها .
(٥) الثاوى : الإقامة فى المكان .

مــا النــاس إلا عــاملان فعــامل قـد مـات مـن عطـش وآخـر يغـرق
والنـاس فـى طلـب المعــاش وإنمـا بـالجد يـرزق منهـم مـن يـرزق
لـو يرزقـون النـاس حسـب عقولهـم ألفيـت أكـثر مـن تـرى يتصـدق
لكنــه فضـــل المليـــك عليهـــم هـــذا عليــه موســـع ومضيـــق
وإذا الجنـــازة والعـــروس تلاقيـــا ورأيـــت دمـــع نوائـــح يـــترقرق
سـكت الـذى تبـع العـروس مبهتـا ورأيـت مـن تبـع الجنـازة ينطـق
وإذا امـــرؤ لســـعته أفعـــى مـــرة تركتـه حيـن يجـر حبـل يفـــرق
بقـــى الذيـــن إذا يقولـــوا يكذبـــوا ومضـــى الذيـــن إذا يقولوا يصدقوا

[١٥٧] وذكر ابن الجوزى فى الأذكياء[١] وغيره : أن عمـران بـن حطان كان أحد الخوارج وهو القائل يمدح عبد الرحمن بن ملجم المرادى لعنهما الله تعالى على قتل الإمام علىّ بن أبى طالب ﷺ وكرم وجهه :

يـا ضربـة مـن تقـى مـــا أراد بهـــا إلا ليبلـغ مـن ذى العـرش رضوانـــا
إنـــى لأذكـــره يومـــا فأحســـبه أوفـى البريـة عنـد اللـه ميزانـــا
أكـــرم بقوم بطون الأرض أقبرهم لـــم يخلطـــوا دينهـــم بغيا وعدوانا

فبلغت القاضى أبا الطيب الطبرى[٢] رحمه الله تعـالى هـذه الأبيـات ، فقال مجيبا له :

إنـــى لأبـــرأ ممـــا أنـــت قائلـــه عـن ابـن ملجـم الملعـون بهتانـــا
إنـــى لأذكـــره يومـــا فألعنـــه دينـا وألعـن عمـــران بـــن حطانـــا
عليـك ثـــم عليـه الدهـــر متصـــلا لعـــائن اللـــه إســـراراً وإعلانـــا

---

(١) انظر : كتاب الأذكياء ص ٢٤٦ .
(٢) طاهر بن عبد الله بن طاهر ، أبو الطيب الطبرى : قاضى ، من أعيان الشافعية من مصنفاته "شرح مختصر المزنى" ت[٤٥٠هـ -١٠٥٨م] انظر : طبقات الشافعية: (١٧٦/٣) .

فأنتمو من كلاب النار جاء لنا   نص الشريعة برهانا وتبيانا

أشار أبو الطيب رحمه الله تعالى إلى قوله ﷺ «الخوارج كلاب النار»(١) انتهى من حياة الحيوان(٢) .

[١٥٨] ومنه ما روى عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « جاءوا برجل إلى النبى ﷺ فشهدوا عليه أنه سرق جملا لهم فأمر به النبى ﷺ أن يقطع فولى الرجل وهو يقول : اللهم صلى على محمد حتى لا يبقى من صلاتك شيء وبارك على محمد حتى لا يبقى من بركاتك شيء وسلم على محمد حتى لا يبقى من سلامك شيء، فتكلم الجمل وقال : يا محمد إنه برىء من سرقتى ، فقال النبى ﷺ من يأتينى بالرجل فابتدره سبعون من أهل بدر فجاءوا به إلى النبى ﷺ فقال : يا هذا ما قلت آنفا ؟ فأخبره بما قال فقال النبى ﷺ لذلك نظرت الملائكة يخترقون سكك المدينة حتى كادوا يحولون بينى وبينك ، ثم قال النبى ﷺ لَتَرِدُنَّ على الصراط ووجهك أضوأ من القمر ليلة البدر» انتهى .

[١٥٩] وهذه القصيدة يقال إنها لأمير المؤمنين الراضى بالله(٣)

زيادة المرء فى دنياه نقصان   وربحه غير محض الخير خسران
وكل وجدان حظ لاثبات له   فإن معناه فى التحقيق فقدان

---

(١) الحديث : رواه ابن ماجه ، المقدمة (١٢) ، صحيح الجامع رقم (٣٣٤٧) .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/٥٧) .

(٣) الراضى : الخليفة العباسى ، محمد بن جعفر بن المعتضد بالله أحمد ت[٣٢٩هـ] .
والقصيدة بتمامها فى كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميرى ، حرف الثاء (١/٢٥٠) .

ياعامرا الخراب الدهر مجتهدا بالله هل لخراب الدهر عمران
وياحريصا على الأموال يجمعها أنسيت أن سرور المال أحزان
راع الفؤاد عن الدنيا وزخرفها فصفوها كدور الوصل هجران
وأوع سمعك أمثالا أفصلها كما يفصل ياقوت ومرجان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان
وكن على الدهر معوانا لذى أمل يرجو نداك فإن الحر معوان
من جاد بالمال مال الناس قاطبة وإليه والمال للإنسان فتان
من كان للخير مناعا فليس له عند الخليقة أخدان وإخوان[1]
لا تخدشن بمطل وجه عارفة فالبر يخدشه مطل وليان
يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتطلب الربح مما فيه خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
من يتق الله يحمد فى عواقبه ويكفه شر من عزوا ومن هانوا
حسب الفتى عقله خلا يعاشره إذا تحاماه إخوان وخلان
لا تستشر غير شخص حازم فطن قد استوت منه إسرار وإعلان
فللتدابير فرسان إذا ركضوا فيها أبروا كما للحرب فرسان
وللأمور مواقيت مقدرة وكل أمر له حد وميزان
من رافق الرفق فى كل الحوادث لم يندب عليه ولم يذممه إنسان
ولا تكن عجلا فى الأمر تطلبه فليس يحمد قبل النضج بحران
وذو القناعة راض فى معيشته وصاحب الحرص إن أثرى فغضبان
كفى من العيش ما قد سد من رمق ففيه للحر إن حققت غنيان
هما رضيعا لبان حكمة وتقى وساكنا وطن مال وطغيان

---

(١) أخدان : الأحباب والأصحاب .

من مد طرفا بفرط الجهل نحو هوى   أغضى من الحق يوما وهو خزيان
من استشار صروف الدهر قام له   على حقيقة طبع الدهر برهان
من عاشر الناس لاقى منهمو نصبا   لأن طبعهم بغى وعدوان
ومن يفتش على الإخوان مجتهدا   فجل إخوان هذا الدهر خوان
من يزرع الشر يحصد فى عواقبه   ندامة ولحصد الزرع إبان
من استنام إلى الأشرار نام وفى   قميصه منهمو صل وثعبان(١)
من سالم الناس يسلم من غوائلهم   وعاش وهو قرير العين جذلان(٢)
من كان للعقل سلطان عليه غدا   وما على نفسه للحرص سلطان
وان ساء مسىء فليكن لك فى   عروض زلته صفح وغفران
إذا نبا بكريم موطن فله   وراءه فى بسيط الأرض أوطان
لاتحسبن سرورا دائما أبدا   من سره زمن ساءته أزمان
يا ظالما فرحا بالعز ساعده   إن كنت فى سنة فالدهر يقظان
يا أيها العالم المرضى سيرته   أبشر فأنت بغير الماء ريان
ويا أخا الجهل لو أصبحت في لجج   فأنت ما بينها لا شك ظمآن(٣)
دع التكاسل في الخيرات تطلبها   فليس يسعد بالخيرات كسلان
صن حر وجهك لاتهتك غلالته   فكل حر لحر الوجه صوان
لاتحسب الناس طبعا واحدا فلهم   غرائز لست تحصيها وألوان
ما كل ماء كصداء لوارده   نعم ولا كل نبت فهو سعدان
من استعان بغير الله في طلب   فإن ناصره عجز وخذلان

---

(١) الصل : نوع خبيث من الحيات .

(٢) غوائل الناس : شرهم ، وجذلان : فرحان مسرور .

(٣) اللجة : ماء كثير .

واشدد يديك بحبل الله معتصما فإنه الركن إن خانتك أركان
لا ظل للمرء يغنى عن تقى ورضا وان أظلته أوراق وأفنان(١)
سحبان من غير مال بأقل حصر وبأقل فى ثراء المال سحبان
والناس إخوان من والته دولته وهم عليه إذا عادته أعوان
يا رافلا فى الشباب الرحب منتشيا من كأسه هل أصاب الرشد نشوان(٢)
لاتغترر بشباب ناعم خضل فكم تقدم قبل الشيب شبان(٣)
ويأخا الشيب لو ناصحت نفسك لم يكن لمثلك فى الإسراف إمعان
هب الشيبة تبدى عذر صاحبها ما بال شيبك يستهويه شيطان
كل الذنوب فإن الله يغفرها إن شيع المرء إخلاص وإيمان
وكل كسر فإن الله يجبره وما لكسر قناة الدين جبران
أحسن إذا كان إمكان ومقدرة فلا يدوم على الإنسان إمكان
فالروض يزدان بالأنوار فاغمه والحر بالعدل والإحسان يزدان(٤)
خذها سرائر أمثال مهذبة فيها لمن يبتغى التبيان تبيان
ما ضر حسانها والطبع صائغها إن لم يصغها قريع الشعر حسان

[١٦٠] وذيل عليها بعضهم فقال :

وكن لسنة خير الخلق متبعا فإنها لنجاة العبد عنوان
فهو الذى شملت للخلق أنعمه وعمهم منه فى الدارين إحسان

---

(١) الفنّن : الغصن المستقيم من الشجر ، وجمعها أفنان .
(٢) المنتشى : الذى بدأ سكره .
(٣) خضل : ندى ذو نضارة .
(٤) الأنْوار : الزهر الأبيض ، وفاغمه :ذات روائح طيبة .

جبينـه قمـــر قـــد زانـــه خفـــر وثغــره درر غـــر ومرجـــان(١)
والبـدر يخجـل مـن أنـوار طلعتـــه والشمس من حسنه الوضاح تزدان
ومذ أتى أبصرت عمى القلوب بـه سبل الهـدى ووعـت للحـق آذان
بـه توسـلنا فـى محـو زلتنـا لربنـا إنـه ذو الجـود منـان
يـا رب صـل عليـه مـا همـى مطر فـأينعت منـه أوراق وأغصـان
وابعـث إليـه سـلام زاكيا عطرا والآل والصحـب لا تفنيـه أزمـان

[١٦١] **وعن حماد الراوية قال** : كنت محبا للوليد بن عبد الملك. فلما ولى أخوه يزيد الخلافة هربت إلى الكوفة ، فبينما أنا فى المسجد الأعظم إذا أتانى رسول محمد بن يوسف الثقفى ، وقال : أجب الأمير فدخلت عليه فقال : ورد كتاب أمير المؤمنين على بحملك إليه وبالباب نجيبان فاركب أحدهما ودفع إلى كيسا فيه ألف دينار ، وقال : هذه نفقة لمنزلك فدخلت دمشق فى اليوم الثامن ، واستأذن لى الرسول .

فدخلت عليه فاذا هو جالس فى دار مبلطة بالرخام الأحمر وفيها سرادق خز أحمر فى وسط قبة حمراء من خز وفرشها وكل مافيها أحمر وعلى رأسه جاريتان عليهما ثياب حمر بيد واحدة منهما إبريق وفى إحدى يدى الأخرى نبيذ أحمر وفى اليد الأخرى نبيذ أبيض . فلما واجهته سلمت عليه بالخلافة فرد على السلام وقال ادن يا حماد أتدرى فيم بعثت إليك ؟ قلت : لا يا أمير المؤمنين قال : فى بيت شعر ذهب عنى أوله ، قلت : من أى عروض أوقافية ؟ قال : لا أدرى إلا أنه بيت فيه إبريق .

---

(١) الخفر : شدة الحياء ، وذا غَرّ : ذا حسن .

فقلت فى نفسى : إن لم تغن الرواية يوما فالآن ؛ ففكرت ساعة ثم قلت : نعم يا أمير المؤمنين لعله قول تبع اليمانى أو عدى بن زيد العبادى :

بكر العاذلون فى وضح الصبح يقولون لى أما تستفيق
ويلومون فيك يا ابن عبيد الله والقلب عنكم مرهوق
لست أدرى إذا كثر العذل فيها أعدو يلومنى أو صديق
ودعوا بالصبوح يوما فجاءت قينة فى يمينها إبريق

فصاح يزيد وقال : هو والله الشعر بعينه ، وشرب وقال : يا جارية اسقيه فسقتنى كأسا أذهبت ثلث عقلى ، ثم استعاد الشعر وشرب وقال : اسقيه فسقتنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين ذهب ثلثا عقلى ، فقال : سل حاجتك قبل أن يذهب الثلث الآخر ؟ فقلت : إحدى هاتين الجاريتين فقال: هما لك بمالهما وما عليهما ومائة ألف تحسن بها سيرك ، ثم ناولتنى الجارية كأسا فشربتها وانصرفت ونهضت وقد ذهب عقلى فعدل بى إلى دار الضيافة ، فانتبهت آخر الليل وإذا بشمع يوقد والجاريتان يرصان الأمتعة والبغال تحمل مالهما من أثاث وغيره ، وأصبحت وقبضت المال وانصرفت وأنا أيسر أهل الكوفة ، انتهى .

[١٦٢] و[قيل] : لما وقف الشيخ تقى الدين بن حجة[1] -رحمه الله- على هذه الحكاية قال : انظر أيها المتأدب إلى نفاق سوق الأدب فى ذلك الأرب ، وبشهادة الله إن البيت الذى طلب حماد الراوية بسببه من العراق إلى دمشق وأجيز عليه بالجاريتين والمائة ألف تأنف نفسى أن أنظمه فى سلك قصيدة من قصائدى وهو هذا البيت :

---

(١) تقى الدين بن حجة : صاحب كتاب ثمرات الأوراق . تقدمت ترجمته .

ودعوا بالصبوح يوماً فجاءت قينة في يمينها إبريق

وكنت أريد أن أكون في ذلك العصر ويسمع يزيد بن عبد الملك من نظمي في هذا الباب قولي :

في ليلة رقم البدر المنير لها طارا له بعصى الجوزاء نقرات
وبان لي من لماها حين تبسم لي فوق اللثا واللمى در وعقيات[1]
والراح دبت على فهمي فصورها مسكاً يضوع له في الكأس نفحات
كانت علامات تحقيقي فقال فمي هي المنازل لي فيها علامات
منذ أنشأتنا سجعنا في محاسنها مغردين وللإنشاء سجعات
هذا وأفواه كاساتي قد ابتسمت لما حبتها ثغور لؤلؤيات
ومن يقل حركات الدهر ما سكنت فللحباب على التسكين جزمات

[١٦٣] وألطف من ذلك ما حكاه محمد بن يزيد المبرد قال : كان أبو عثمان المازني[2] جاء إليه يهودي وسأله أن يقرئه كتاب سيبويه[3] وبذل له مائة دينار فامتنع أبو عثمان من ذلك ، فقلت له : سبحان الله ترد مائة دينار مع فاقتك وحاجتك إلى درهم واحد فقال : نعم ياأبا العباس اعلم أن كتاب سيبويه يشتمل على ثلاثمائة آية من كتاب الله ولا أرى أنْ أُمَكِّن منها كافراً فسكت ولم يتكلم .

---

(١) اللمى : سمرة في باطن الشفة تستحسن .

(٢) المازني ، أبو عثمان بكر بن محمد بن حبيب : من أئمة العربية ، تعلم عليه المبرد . من تأليفه "التصريف" ت[٢٤٨هـ=٨٦٣م] .

(٣) سيبويه ، هو : أبو بشر عمرو بن عثمان ؛ من أئمة علم النحو ، تعلم على الخليل بن أحمد. إمام مذهب البصريين ، وكتابه في النحو هو "الكتاب" ، ت[١٧٩هـ=٧٩٦] .

قال المبرد : فما مضت إلا أيام حتى جلس الواثق يوماً للشرب وحضر ندماؤه فغنت جارية فى المجلس هذا الشعر :

أظلوم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم

فنصبت رجلاً ، فلحنها[1] بعض الحاضرين من الندماء ، وقال : الصواب الرفع لأنه خبر إن ، فقالت الجارية : ما حفظته من معلمى إلا هكذا ؛ ثم وقع النزاع بين الجماعة فمن قائل الصواب معه ومن قائل الصواب معها .

فقال الواثق : من بالعراق من أهل العربية ممن يرجع إليه ؟ فقالوا : بالبصرة أبو عثمان المازنى وهو اليوم واحد عصره فى هذا العلم . فقال الواثق : اكتبوا إلى والينا بالبصرة يسيره إلينا معظماً مبجلاً فما كان إلا أيام حتى وصل الكتاب إلى البصرة فأمر الوالى أبا عثمان بالتوجه وسيره على بغال البريد .

فلما وصل دخل على الواثق فرفع مجلسه وزاد فى إكرامه وعرض عليه البيت فقال : الصواب مع الجاريةِ ولا يجوز فى رجل غير النصب ؛ لأن مصاب مصدر بمعنى الإصابة ورجلاً منصوباً به ؛ والمعنى إن إصابتكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم فظلم خبر إن ولا يتم الكلام إلا به ؛ ففهم الواثق كلام أبى عثمان وعلم أن الحق ما قالته وأعجب به وانقطع الرجل الذى أنكر على الجارية ، ثم أمر الواثق لأبى عثمان المازنى بألف دينار ، وأتحفه بتحف وهدايا كثيرة لأهله ، ووهبت له الجارية جملة أخرى ، ثم سيره إلى بلده مكرماً .

---

(١) لحنها : خَطّأها .

فلما وصل جاء المبرد ، فقال له أبو عثمان : كيف رأيت يأبا العباس تركت لله مائة فعوضنى ألفاً . فقال المبرد : من ترك شيئا لله عوضه الله خيراً منه ، انتهى .

[١٦٤] وعن أنس(١) رضي الله عنه **قال** : قال رسول الله ﷺ «سألت الله الاسم الأعظم فجاءنى جبريل به مختوماً ، وهو "اللهم إنى أسألك بالاسم المخزون المكنون الطهر الطاهر المطهر المقدس المبارك الحى القيوم" قالت عائشة : بأبى وأمى علمنيه فقال : ياعائشة نهينا عن تعليمه النساء والصبيان والسفهاء» انتهى .

فائدة

[١٦٥] [وقيل] : كان أبو محمد عبد الله بن يحيى الصنيعى من أصحاب الشافعى وكان إماما صالحاً عالماً من أهل اليمن من أقران صاحب البيان من تصنيفه : "احترازات المهذب" ، و"التعريف فى الفقه" روى : أن ناساً ضربوه بالسيوف فلم تقطع سيوفهم فيه فسئل عن ذلك ؟ فقال : كنت أقرأ **﴿ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم﴾** [البقرة: ٢٥٥] **﴿فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين﴾** [يوسف: ٦٤] **﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾** [الرعد: ١١] **﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾** [الحجر: ٩] **﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾** [الحجر: ١٧]

---

(١) أنس بن مالك : خدم النبى عشر سنين ، شهد بدرا ، وله ألف ومئتا حديث وستة وثمنون حديثا . وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة [٩٠هـ] .انظر : الإستعاب (١٥١/١) .

﴿وحفظا من كل شيطان مارد﴾ [الصافات: ٧] ﴿وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم﴾ [فصلت: ١٢] ﴿إن كل نفس لما عليها حافظ﴾ [الطارق: ٤] ﴿إن بطش ربك لشديد﴾ [البروج: ١٢] إلى آخر السورة وينبغي أن يزاد فيها ﴿إن ربي على كل شيء حفيظ﴾ [هود: ٥٧] ثم قال : كنت خرجت يوماً مع جماعة فرأيت ذئباً يلاعب شاة عجفاء[1] ولا يضرها بشيء . فلما دنونا منه نفر منها الذئب فوجدنا في عنق الشاة كتاباً مربوطاً فيه هذه الآيات المتقدمة ، انتهى .

فائدة

[١٦٦] **قال معاذ بن جبل**[2] : «احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى عين الشمس فخرج سريعاً فثوب بالصلاة فصلى ، وتجوز في صلاته ؛ فلما سلم دعا بصوته فقال لنا : على مصافكم كما أنتم ثم انفتل إلينا فقال : أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة إلا أني قمت من الليل فتوضأت وصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت ، فإذا أنا بربي تعالى في أحسن صورة فقال : يامحمد فقلت : لبيك يا رب قال : فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : ربي لا أدري ، قال تعالى : في الكفارات والدرجات -وفي رواية قلت : في الكفارات والدرجات- قال : فما هن ؟ قلت : مشي الأقدام إلى الجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء على المكروهات . قال : ثم فيم ؟ قلت : إطعام الطعام ولين الكلام ، والصلاة

---

(١) عجفاء : ضعيفة هزيلة .

(٢) معاذ بن جبل: صحابي جليل من السابقين ، توفي بطاعون عمواس [١٨هـ=٦٣٩م] .

بالليل والناس نيام . قال : سل ؟ قلت : اللهم إنى أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لى وترحمنى ، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضنى إليك غير مفتون ، أسألك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يقربنى إلى حبك ، فقال رسول الله ﷺ : إنها حق فادرسوها ثم تعلموها»[1] . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، انتهى من حياة الحيوان فى حرف النون .

[١٦٧] **وقال** : ذكر لرسول الله ﷺ الشرك فقال : «هو أخفى فيكم من دبيب النمل ، وسأدلك على شىء إذا فعلته أذهب الله عنك صغار الشرك ، وكباره تقول : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم إنك انت علام الغيوب تقولها ثلاث مرات»[2]. انتهى.

فائدة

[١٦٨] إذا علقت عين الهدهد على صاحب النسيان ، ذكر ما نسيه . ودمه إذا قطر فى البياض فى العين أذهبه .

[١٦٩] وروى أحمد والبزار ورجال أحمد ثقات من حديث أبى هريرة : « أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يشرب قائما ، فقال له : أيسرك أن يشرب معك الهر؟ فقال : لا ، قال فقد شرب معك الشيطان»[3].

---

(١) انظر الجامع الصحيح رقم (٥٩) .

(٢) انظر : الجامع الصحيح رقم (٣٤٣٢) .

(٣) انظر صحيح الجامع رقم (٦٨٨٧) .

[١٧٠] وفى تاريخ ابن النجار فى ترجمة محمد بن عمر الحنبلى :

عن أنس بن مالك قال : كنت جالسا عند عائشة رضى الله عنها أبشرها بالبراءة ، فقالت : والله لقد هجرنى القريب والبعيد حتى هجرتنى الهرة وما عرض على طعام ولا شراب ، فكنت أرقد وأنا جائعة فرأيت فى منامى فتى فقال : مالك حزينة ؟ فقلت : مما ذكر الناس ، فقال : ادعى بهذه يفرج الله عنك ، فقلت : وما هى ؟ قال : قولى دعاء الفرج "يا سابغ النعم ، ويا دافع النقم ، ويا فارج الغمم ، ويا كاشف الظلم ، ويا أعدل من حكم ، ويا حسيب من ظلم ، ويا ولى من ظلم ، ويا أوّل بلا بداية ، ويا آخر بلا نهاية، ويا من له اسم بلا كنية ؛ اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا" قالت: فانتبهت وأنا ريانة شبعانة وقد أنزل الله براءتى وجاءنى الفرج انتهى من حياة الحيوان.

[١٧١] وهذا الدعاء روى الطبرانى بإسناد صحيح قطعة منه عن أنس : « أن النبى ﷺ مر بأعرابى وهو يدعو فى صلاته يقول : يا من لا تراه العيون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ، يعلم مثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، ولا توارى منه سماء سماء ولا أرض أرضا ولا بحر إلا ويعلم ما فى قعره ولا جبل إلا يعلم ما فى وعره ؛ اجعل اللهم خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم لقائك ، فوكل النبى ﷺ بالأعرابى رجلا فقال : إذا صلى فائتنى به . فلما صلى أتاه به وقد أهْدى للنبى ﷺ ذهب من بعض المعادن . فلما أتى الأعرابى وهب له

الذهب وقال : ممن أنت أيها الأعرابى ؟ قال : من بنى عامر بن صعصعة . فقال صلى الله عليه وسلم : هل تدرى لم وهبت لك هذا الذهب ؟ قال : للرحم التى بيننا وبينك يا رسول الله : قال صلى الله عليه وسلم : إن للرحم حقا ؛ ولكن وهبت لك الذهب لحسن ثنائك على الله عز وجل» . انتهى من حرف الطاء[1] .

[١٧٢] وفى كتاب ثمار القلوب للثعالبى فى الباب الثالث عشر منه : أن الملك بهرام جور لم يكن فى العجم أرمى منه . ومن غريب ما اتفق له أنه خرج يوما يتصيد على جمل وقد أردف جارية يعشقها فعرضت له ظباء ، فقال للجارية : فى أى موضع تريدين أن أضع هذا السهم من هذه الظباء ؟ قالت : أريد أن تشتبه ذكرانها بإناثها وإناثها بذكرانها ، فرمى ظبيا ذكرا بنشابة ذات شعبتين ، فاقتلع قرنيه ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما فى موضع القرنين ، ثم سألته أن يجمع ظلف[2] الظبى وأذنه بنشابة[3] واحدة ، فرمى أصل أذن الظبى ببندقة ؛ فلما أهوى بيده إلى أذنه ليحك رماه بنشابة فوصل إذنه بظلفة ، ثم أهوى إلى الجارية مع هواه بها فرمى بها إلى الأرض وأوطأها الجمل بسبب ما اشترطت عليه ، وقال : ما أردت إلا إظهار عجزى . فلم تلبث إلا يسيرا وماتت انتهى[4] .

---

(١) انظر حياة الحيوان ، حرف الطاء (١٣١/٢) .

(٢) ظِلْف : بمنزلة الحافر للفرس .

(٣) نُشّابة ، مفرد نشاشيب : السهام .

(٤) انظر حياة الحيوان ، حرف الظاء (١٤٣/٢) .

حكاية فى القطا(1)

[١٧٣] **يقال** : نزل عمر بن مامة على قوم من مراد فطرقوهم ليلا ؛ فأثاروا القطا من أماكنها فرأتها امرأة يقال لها : حذام فلما رأت القطا طار ليلا نبهت زوجها مع رجال من قومها فقالت لهم : ولو ترك القطا ليلا لناما. فلم يلتفتوا إلى قولها وأخلدوا إلى مضاجعهم فقام رجل منهم وقال :

إذا قالت حذام فصدقوها ... فإن القول ما قالت حذام

فنفر القوم والتجئوا إلى واد قريب منهم واعتصموا به حتى أصبحوا وامتنعوا من عدوهم فضُرب به المثل ، انتهى بتقديم وتأخير(2) .

[١٧٤] **وعن أبى جعفر الخالدى قال** : ودعت أبا الحسن الصغير المدنى فقلت له : زوّدنى شيئاً فقال : إذا ضاع منك شيء وأردت أن يجمع الله بينك وبين ذلك الشيء أو ذلك الإنسان فقل : "يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد، اجمع بينى وبين كذا وكذا" فإن الله يجمع بينك وبين ذلك الشيء أو ذلك الإنسان.انتهى من حرف الألف.

[١٧٥] **وهذه أبيات** :

لصيد اللحم فى البحر ... وصيد الأسد فى البر
وقضم الثلج فى القر ... ونقل الصخر فى الحر(3)

---

(1) القَطَا ، مفردة قَطَاة : طائر فى حجم الحمامة ، يضرب بها المثل فى الاهتداء ، فيقال: أهدى من القطا . قيل : سُميت بذلك لثقل مشيها .

(2) انظر : العقد الفريد (٨٣/٣) ، حياة الحيوان ، حرف القاف (٣٤٧/٢) .

(3) القر : شدة البرد .

وإقـــدام علـــى المـــوت وتحويـــل إلـــى القـــبر
لأشـــهى مـــن طـــلاب العـــر ف ممـــن عـــاش فـــى الفقـــر

قوله : للخم بضم اللام وإسكان الخاء المعجمـة ضـرب مـن السـمك ضخم يقال له لكوسج وهو القـرش نتهـى مـن حياة الحيـوان فـى حـرف اللام.

[١٧٦] **وذكر بعض أهل التواريخ** : أن ملكا من الملوك خرج يدور فى ملكه فوصل إلى قرية عظيمة فدخلها منفردا فأخذه العطش فوقف ببـاب دار من دور القرية وطلب ماء فخرجت إليه امرأة جميلة بكـوز مـاء وناولتـه إياه . فلما نظر لها افتتن بها فراودها عـن نفسـها وكـانت المـرأة عارفـة بـه فعلمت أنها لا تقدر على الامتناع منه فدخلت وأخرجـت لـه كتابـا وقـالت له: انظر فى هذا الكتاب حتى أصلح من أمرى ما تحب وأعود فأخذ الملك الكتاب ونظر فيه وإذا فيه الزجر عن الزنـا ومـا أعـد الله تعـالى لفاعلـه مـن العذاب الأليم ؛ فاقشعر جلده ونوى التوبة وصاح بالمرأة وأعطاهـا الكتـاب ومر ذاهبا ، وكان زوج المرأة غائبا .

فلما حضر أخبرته الخبر فتحير فى نفسـه وخـاف أن يكـون قـد وقـع غرض الملك فيه . فلم يتجاسر على وطئهـا بعـد ذلـك ومكـث علـى ذلـك مدة. فأعلمت المرأة أقاربها بحالها مع زوجهـا فرفعـوه إلـى الملـك . فلمـا مثل بين يدى الملك قـال أقـارب المـرأة : عـز الله مولانـا الملـك إن هـذا الرجل قد استأجر منا أرضا للزراعة فزرعها مدة ، ثم عطلها فلا هو يزرعها، ولا هـو يتركهـا لنؤجرهـا لمـن هـو يزرعهـا ، وقـد حصـل الضـرر لـلأرض ونخاف فسادها بسبب التعطيل ، لأن الأرض إذا لم تزرع فسدت .

فقال الملك لزوج المرأة : ما يمنعك من زرع أرضك ؟ فقال : أعز الله مولانا الملك إنه قد بلغنى أن الأسد قد دخل أرضى وقد هبته ولم أقدر على الدنو منها لعلمى أنه لا طاقة إلى بالأسد ، ففهم الملك القصة فقال : يا هذا إن أرضك طيبة صالحة للزراعة فازرعها بارك الله لك فيها ، فإن الأسد لن يعود إليها ثم أمر له ولزوجته بصلة حسنة وصرفه ، انتهى من حرف الألف(١) .

فائدة

[١٧٧] الفرزدق اسمه همام بن غالب ، والفرزدق لقب غلب عليه ، والفرزدق قطع العجين الواحدة فرزدقة ولقب به لغلظه وقصره ، انتهى .

فائدة عظيمة

[١٧٨] قال الأطباء : إذا أردت أن تعرف المرأة عقيم أم لا فمرها أن تتحمل بثومة فى قطنة وتمكث سبع ساعات فإن فاح من فمها رائحة الثوم فعالجها بالأدوية ، فإنها تحمل بإذن الله تعالى وإلا فلا وهى مجربة والله أعلم .

فائدة

[١٧٩] قال شيخ الإسلام محيى الدين النووى(٢) فى أذكاره فى باب أذكار المسافر عند إرادته الخروج من بيته : يستحب عند إرادة

---

(١) انظر: حياة الحيوان ، حرف الهمزة (١/١٥) .

(٢) يحيى بن شرف بن حسن النووى ، أبو زكريا : علامة بالفقه إمام فى الحديث له التصانيف الكثيرة المشهورة [٦٧٦هـ] .انظر : طبقات الشافعية للسبكى (٥/١٦٥) .

الخروج أن يصلى ركعتين لحديث المطعم بن المقداد الصحابى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما خلف أحد عند أهله أفضل من ركعتين يركعهما عندهم حين يريد السفر»[1]. رواه الطبراني .

[١٨٠] **وقال في تتمة أخرى :** قال الشيخ قطب الدين القسطلاني : مما حفظت من والدتى أم محمد آمنة وكانت وفاتها فى صفر سنة ست وخمسين وستمائة "اللهم بتلألؤ نور بهاء حجب عرشك ، مِنْ أعدائى احتجبت ؛ وبسطوة الجبروت ممن يكيدنى استترت ؛ وبطول حول حجب عرشك ، مِنْ أعدائى احتميت ؛ وبشديد قوتك ، مِنْ كل سلطان تحصنت ؛ وبديموم قيوم دوام أبديتك من كل شيطان استعذت ؛ وبمكنون السر من سر سرك من كل هم وغم تخلصت يا حامل العرش عن حملة العرش يا شديد البطش يا حابس الطير والوحش احبس عنى من ظلمنى واغلب من غلبنى كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ان الله قوى عزيز" انتهى .

[١٨١] **وقال الشيخ قطب الدين :** ومما حفظته من دعاء والدى من الأدعية التى تنفع فى الحجب عن الأعداء "اللهم بسر الذات وبذات السر ، هو أنت أنت هو لا إله إلا أنت احتجبت بنور الله وبنور عرش الله وبكل اسم الله من عدوى وعدو الله بألف ألف لاحول ولا قوة إلا بالله ، ختمت على نفسى ودينى وأهلى ومالى وولدى وجميع ما أعطانى ربى بخاتم الله القدوس المنيع ، الذى ختم به أقطار السموات والأرض حسبنا الله ونعم الوكيل حسبنا الله ونعم الوكيل حسبنا الله ونعم الوكيل" .

---

(١) الحديث : انظر : ضعيف الجامع (٥٠٥٩) .

[١٨٢] وقال الكسائى(١) : دخلت على الرشيد ذات يوم وهو فى إيوانه وبين يديه مال كثير قد أمر بتفرقته على خدمه الخاصة ، وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتأمله وكان كثيرا ما يحدثنى ، فقال : هل علمت أول من سن هذه الكتابة فى الذهب والفضة ؟ قلت : هو يا سيدى عبد الملك /بن مروان ، قال : فما كان السبب فى ذلك؟ قلت : لا أعلم غير أنه أول من أحدث هذه الكتابة . قال : سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان أكثر من بمصر نصرانيا على دين ملك الروم ، وكانت تطرز بالرومية وكان طرازها أبا وابنا وزوجة وبنتا ؛ فلم يزل كذلك صدر الإسلام كله يمضى على ما كان عليه إلى أن مَلَكَ عبد الملك فتنبه له وكان فطنا فبينما هو ذات يوم جالس إذ مر به قرطاس فنظر إلى طرازه فأمر أن يترجم بالعربية ففعل ذلك فأنكره ، وقال : ما أغلظ هذا فى دين الإسلام أن يكون طراز القراطيس هكذا وهى تعمل فى الأوانى والثياب وهما يعملان بمصر ، وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد ، فأمر بالكتابة إلى عبد العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز الذى يعمل على الثياب والقراطيس والستور وغير ذلك ، وأن تعمل صناع القراطيس سورة التوحيد وشهد الله أنه لا إله إلا هو ، وهذا طراز القراطيس خاصة إلى هذا الوقت ولم ينقص ولم يزد ولم يتغير ، وكتب إلى عمال الآفاق جميعا بإبطال ما فى أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ، ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهى شىء منه بالضرب الوجيع والحبس الطويل بعد ما أثبت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد .

---

(١) الكسائى ، أبو الحسن : من علماء القراءات أحد القراء السبع . تعلم على الخليل بن أحمد . أدب الأمين والمأمون ولدى الرشيد . ت[١٨٩هـ] .

وحمل إلى بلاد الروم منها وانتشر خبرها ووصل إلـى ملكهـم فـترجم له ذلك الطراز ، فـأنكره وعظـم عليـه واستشـاط غيظـا ، فكتـب إلـى عبـد الملك إنى أعمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولـم تزل تطرز بطراز الروم إلى أن أبطلته ، فإن كان من تقدمك من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت وإن كنت قد أصبت فقد أخطئوا فاختر من هـاتين الخلتيـن أيهمـا شئت وأحببت ، وقد بعثت إليك بهدية تليق بمحلك وأحببت أن ترد طـراز تلك القراطيس إلى مـا كـان عليـه ، وجميـع مـا كـان يطـرز أولا لأشـكرك عليها، وتأمر بقبض الهدية وكانت عظيمة القدر ؛ فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول وأعلمه أنه لا جواب له ورد الهدية فانصرف بها إلى صاحبه .

فلما وافاه أضعف الهدية ورد الرسـول إلـى عبـد الملـك وقـال : إنـى ظننت أنك استقللت الهدية فلـم تقبلهـا ولـم تجبنـى إلـى كتـابى فـأضعفت الهدية ، وأنا أرغب إليك مثل ما رغبت فيه أولا من رد الطراز إلى مـا كـان عليه ، فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية فكتب إليه ملك الـروم كتابا يقتضى أجوبة . كتبه ويقول : إنـك قـد استخففت بجوابى وهديتـى ولـم تسعفنى بحاجتى فتوهمت أنك استقللت الهدية فأضعفتها فجريت على سبيلك الأول ، وقد أضعفتها لـك ثالثـا وأنـا أحلـف بالمسيح لتـأمرن بـرد الطراز إلى ما كان عليه أو لأمرن بنقش الدراهم والدنانير ، فإنك تعلم أنه لا ينقش شيء منها إلا ما ينقش فى بلادى ولـم أر الدراهم والدنانير نقشت فى بلاد الإسلام فننقش عليها شتم نبيك ، فإذا قرأته ارفض جبينك عرقا فـأحب أن تقبل هديتى وترد الطراز إلى مـا كـان عليـه أول الأمـر ، وكـانت هديـة بررتنى بها ويبقى الأمر بينى وبينك .

فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه وعظم وضاقت به الأرض وقال أحسبنى أشأم مولود ولد فى الإسلام لأنى جنيت على رسول الله ﷺ من شتم هذا الكافر ما يبقى إلى أبد الدهور ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب إذا كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم، فجمع أهل الإسلام واستشارهم فلم يجد عندهم رأيا يعمل به فقال له روح بن زنباع[1] : إنك لتعلم المخرج من هذا الأمر ولكنك تتعمد تركه . فقال : ويحك بم ؟ قال : عليك بالباقر[2] من آل بيت النبى ﷺ قال : صدقت ويمكنه يا روح الرأى فيه ؟ قال : نعم فكتب إلى عامله بالمدينة أن أرسل محمد بن على بن الحسين مكرما ومتعه بمائة ألف درهم لجهازه وثلثمائة درهم لنفقته وأرح عليه فى جهازه وجهاز من يخرج معه من أصحابه وحبس الرسول قبله إلى موافاة محمد بن على .

فلما وافاه أخبره الخبر فقال : محمد رضي الله عنه لا يعظم هذا عليك فإنه ليس بشىء من جهتين إحداهما : أن الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد به صاحب الروم فى رسول الله ﷺ . والثانية : تدعو فى هذا الوقت بصناع يضربون سككا للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ إحداهما: فى وجه الدرهم والدينار . والأخرى : فى الوجه الثانى وتجعل فى مدار الدرهم أو الدينار ذكر البلد

---

(١) روح بن زنباع بن روح بن سلامة : أمير فلسطين ، وسيد اليمانية فى الشام وقائدها . قيل : له صحبة . كان عبد الملك بن مروان يقول : جمع روح طاعة أهل الشام ، ودهاء أهل العراق ، وفقه أهل الحجاز . ت[٨٤هـ] . انظر : الإصابة رقم (٢٧٠٧) .

(٢) محمد بن على زين العابدين بن الحسين ، الباقر : الإمام الخامس عند الشيعة ، عرف بالعبادة والورع والعلم ، تُوفى بالمدينة [١١٤هـ=٧٣٢م] .

الذى يضرب فيه والسنة التى تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير وتعمد إلى وزن ثلاثين درهما عددا من الثلاثة أصناف التى العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون أوزانها جميعا أحدا وعشرين مثقالا فيجزئها من الثلاثين فتصير العدة من الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجاة من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان ، فتضرب الدراهم على وزن عشرة والدنانير على وزن سبعة مثاقيل ، وكانت الدراهم فى ذلك الوقت إنما هى الكسروية التى يقال لها اليوم البغلية لأن رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب ﷺ بسكة كسروية[1] فى الإسلام مكتوب عليها سورة الملك وتحت الكرسى مكتوب بالفارسية (نوش خور) أى كل هنيئا وكان وزن الدراهم منها قبل الإسلام مثقالا والدراهم التى كان وزن العشرة منها وزن ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هى السامرية الخفاف والثقال ونقشها نقش فارس ففعل ذلك عبد الملك وأمره محمد بن علىّ بن الحسين ﷺ أن يكتب السكة فى جميع بلدان الإسلام وأن يتقدم إلى الناس فى التعامل بها ، وأن يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرهما ، وأن تبطل وترد إلى مواضعَ العمل حتى تعاد إلى السكة الإسلامية ففعل عبد الملك ذلك ورد رسول ملك الروم إليه بذلك ويقول : إن الله عز وجل مانعك مما قد أردت أن تفعله وقد تقدمت إلى عمالى فى أقطار البلاد بكذا وكذا وبإبطال السكك والطراز الرومية فقيل لملك الروم : افعل ما كنت تهددت به ملك العرب ، فقال إنما أردت أن أغيظه بما كتبت إليه لأننى كنت قادرا عليه بالمال وغيره برسوم الرسوم فأما الآن فلا أفعل لأن ذلك لا

---

(١) كسروية : نسبة إلى كسرى ملك فارس .

يتعامل به أهل الإسلام ، وامتنع من الذى قال وثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين ﷺ إلى اليوم . ثم رمى يعنى الرشيد بالدرهم إلى بعض الخدم انتهى من حياة الحيوان(١) .

[١٨٣] **وقال نصر الله بن مجلى ، وكان من الثقات وأهل السنة :** رأيت عليّ بن أبي طالب ﷺ في المنام فقلت : يا أمير المؤمنين تفتحون مكة وتقولون من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ثم يتم على ولدك الحسين ما تم . فقال: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا ؟ قلت : لا ، قال : اسمعها منه ثم انتبهت فبادرت إلى دار حيص بيص فذكرت له الرؤيا، فشهق وبكى وحلف بالله أنها لم تخرج من فيه أو خطه لأحد وما نظمها إلا في ليلته ثم أنشدني :

ملكنا فكان العفو منا سجية — فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمو قتل الأسارى وطالما — غدونا عن الأسرى نعف ونصفح

واسم حيص بيص سعيد بن محمد أبو الفوارس التميمي الشاعر المعروف ويعرف بابن الصيفي ، ولقب بحيص بيص لأنه رأى الناس يوما في حركة مزعجة وأمر شديد فقال : ما للناس في حيص بيص . فبقي هذا اللقب عليه

[١٨٤]**ومن محاسن شعره :**

يا طالب الرزق في الآفاق مجتهدا — اقصر عناك فإن الرزق مقسوم
الرزق يأتي إلى من ليس يطلبه — وطالب الرزق يسعى وهو محروم

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهمزة (٩٥/١) .

[١٨٥] وله أيضا :

يا طالب الطب من داء أصيب به — إن الطبيب الذى أبلاك بالداء
هو الطبيب الذى يرجى لعافية — لا من يذيب لك الترياق فى الماء

[١٨٦] وله أيضا:

أله عما استأثر الله به — أيها القلب ودع عنك الحرق
فقضاء الله لا يدفعه — حول محتال إذا الأمر سبق

[١٨٧] وله أيضا :

أنفق ولا تخش إقلالا فقد قسمت — على العباد من الرحمن أرزاق
لا ينفع البخل من دنيا مولية — ولا يضر مع الإقبال إنفاق

ومما جاء فى الذكاء والفهم

[١٨٨] ما حكى : عن المأمون أنه غضب على عبد الله بن طاهر وشاور أصحابه فى الإيقاع ، به وكان قد حضره فى ذلك المجلس صديق له فكتب إليه كتابا فيه «بسم الله الرحمن الرحيم ، يا موسى» فلما فضه ووجد ذلك تعجب وجعل يطيل النظر إليه ولا يفهم معناه وكانت له جارية واقفة على رأسه فقالت له : يا سيدى إنى أفهم معنى هذا فقال : وما هو ؟ قالت : إنه أراد قوله تعالى ﴿**يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك**﴾ [القصص: ٢٠] وكان قد عزم على الحضور إلى المأمون فثنى العزم عن ذلك واعتذر للمأمون فى عدم الحضور فكان سبب سلامته .

[١٨٩] **وأحسن من ذلك ، ما ذكره ابن خلكان قال** : إن بعض الملوك غضب على بعض عماله فأمر وزيره أن يكتب له كتابا يشخصه به

وكان للوزير بالعامل عناية فكتب إليه كتابا وكتب في آخره إن شاء الله تعالى وجعل في صدر النون شدة فعجب العامل كيف وقعت هذه الحركة من الوزير إذ من عادة الكتاب أن لا يشكلوا كتبهم ، ففكر في ذلك فظهر له أنه أراد ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ [القصص: ٢٠] فكشط الشدة وجعل مكانها ألفا وختم الكتاب وأعاده .

فلما وقف عليه الوزير سر بذلك وفهم أنه أراد ﴿إنا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها﴾ [المائدة: ٢٤] انتهى.

[١٩٠] **وفي تاريخ بغداد ، ووفيات الأعيان** : أن أبا حنيفة[١] رضي الله عنه كان له جار إسكافي يعمل نهاره ، فإذا رجع إلى منزله ليلا تعشى ثم شرب فإذا دب الشراب فيه غنى وقال :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولا يزال يشرب ويردد هذا البيت ، حتى يأخذه النوم وأبو حنيفة يسمع صوته كل ليلة وكان أبو حنيفة يصلي الليل كله ففقد أبو حنيفة صوته ، فسأل عنه فقيل: أخذه العسس[٢] منذ ليال فصلى أبو حنيفة الفجر من غده ثم ركب بغلته وأتى إلى دار الأمير فاستأذن عليه فقال : ائذنوا له وأقبلوا به راكبا ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ففعل به ذلك فوسع له الأمير من مجلسه وقال له : ما حاجتك ؟ قال : أشفع في جاري .

---

(١) أبو حنيفة ، النعمان بن ثابت بن زوطي الكوفي : إمام المذهب الحنفي ،وأحد الأئمة الأربعة . قال الشافعي : إن الناس عيال على أبي حنيفة في الفقه ت[١٥٠هـ] .انظر : الجواهر المضيئة (٣٦/١) .

(٢) العَسَس ، جمع العاس : الذين يطوفون بالليل يحرسون الناس ويكشفون أهل الريبة .

فقال الأمير : أطلقوه وكل من أخذ فـي تلـك الليلـة فخلوهـم أيضـاً ، وذهبوا وركب أبو حنيفة بغلته وخرج والإسكافي يمشي وراءه فقال له أبـو حنيفة : يا فتى هل أضعناك ؟ فقال : بل حفظت ورعيت فجزاك الله خـيرا عن حرمة الجوار ، ثم تاب الرجل ولم يعد إلى ما كان يفعل .

[١٩١] **وقال الشافعي**[١] : قلت لمالك[٢] هل رأيت أبا حنيفة ؟ قال نعم رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته .

فائدة

[١٩٢] إذا عسر على المرأة ولادتها فليكتب لها «بسم الله الرحمـن الرحيم ، لا إله إلا الله الحليم الكريـم ، سبحان الله رب العـرش العظيـم ، الحمد لله رب العالمين» ﴿**كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**﴾ [الأحقاف: ٣٥].

---

(١) محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع المطلبي ، أبو عبد الله الشافعي : الإمام العلـم ، حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، والموطأ وهو ابن عشر سنين . قـال أحمـد بـن حنبل: ستة أدعو لهم سحرا أحدهم الشافعي ت[٢٠٤هـ] . انظر : طبقـات الشـافعية لابن هداية ص ١١ .

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي ، أبو عبد الله : إمام دار الهجرة ، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة ، وإليه ينسب المالكية . أجمعت طوائف العلم على إمامته ، ت[١٧٩] . انظر : وفيـات الأعيـان (٢٨٤/٣) ، حليـة الأوليـاء (٣١٦/٦).

فائدة أخرى للصداع

[١٩٣] **ذكر في حياة الحيوان** : أن مسلمة بن عبد الملك(١) لما حاصر عمورية حصل له صداع فلم يركب في الحرب فقال أهل عمورية للمسلمين : ما لأميركم لم يركب ؟ فقالوا : عرض له صداع فأخرجوا لنا برنسا وقالوا ألبسوه له يزل عنه ما يجد فلبسه فشفى ففتشوا فيه فلم يجدوا فيه غير بطاقة مكتوب فيها هذه الآيات : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**ذلك تخفيف من ربكم ورحمة**﴾ [البقرة: ١٧٨] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا**﴾ [النساء: ٢٨] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا**﴾ [الأنفال: ٦٦] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**كهيعص**﴾ [مريم: ١] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**حم عسق**﴾ [الشورى: ١،٢] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**وإذا سألك عبادى عنى فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان**﴾ [البقرة: ١٨٦] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا**﴾ [الفرقان: ٤٥] بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم**﴾ [الأنعام: ١٣] فقال المسلمون : من أين لكم هذا ؟ هذا إنما أنزل على نبينا محمد ﷺ قالوا : وجدنا هذا محفوظا في حجر كنيستنا قبل أن يبعث نبيكم بسبعمائة عام انتهى .

---

(١) مسلمة بن عبد الملك بن مروان بن الحكم : من أمراء بنى أمية ، يلقب بالجرادة الصفراء ، له فتوحات مشهورة ، غزا الترك والسند [١٠٩هـ] ، ت[١٢٠هـ-٧٣٨م] . انظر : دول الإسلام (٦٢/١) .

[١٩٤] قال الحافظ ابن عساكر : ويكتب للصداع أيضا بسم الله الرحمن الرحيم ﴿كهيعص ذكر رحمة ربك عبده زكريا إذ نادى ربه نداء خفيا﴾ [مريم: ١،٢،٣] ﴿ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا﴾ [الفرقان: ٤٥] ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] ﴿حم عسق﴾ [الشورى: ١،٢] كم لله من نعمة على عبد شاكر وغير شاكر ، كم لله من نعمة فى قلب خاشع وغير خاشع، وكم لله من نعمة فى كل عرق ساكن وغير ساكن ، اذهب أيها الصداع بعز عز الله بنور وجه الله﴿وله ما سكن فى الليل والنهار وهو السميع العليم﴾[الأنعام: ١٣] ولاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين فإنه نافع .

[١٩٥] وعن أبى الدرداء[١] قال : «صلى بنا رسول الله ﷺ فمر بنا كلب فما بلغت رجله يده حتى مات . فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : من الداعى على هذا الكلب؟ فقال رجل من القوم : أنا يا رسول الله قال : فما قلت ؟ قال قلت : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان المنان بديع السموات والأرض ذو الجلال والإكرام اكفنا هذا الكلب بما شئت . فقال ﷺ لقد دعا الله بالاسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب وإذا سئل به أعطى»[٢] . وهذا الحديث فى السنن الأربعة ومسند أحمد وكتابى الحاكم وابن حبان قيل وكانت صلاة العصر يوم الجمعة وأن الرجل الداعى سعد بن أبى وقاص انتهى من حياة الحيوان[٣] .

---

(١) عويمر بن عامر بن مالك بن زيد الأنصارى ، أبو الدرداء : من كبار الصحابة وقضاتهم وزهادهم ، ت[٣١هـ] .انظر : الإصابة (٤٥/٢) .

(٢) الحديث : رواه الترمذى ، كتاب الدعوات (٦٣) . ابن ماجه ، الدعاء (٩) .

(٣) انظر : حياة الحيوان ، حرف الكاف (٣٨٣/٢) .

فائدة منه أيضا

[١٩٦] تكتب هؤلاء الكلمات وتجعل فى أنبوبة وتدفن فى الزرع والكرم فإنه لا يؤذيه الجراد بإذن الله تعالى وهى :«بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم اللهم أهلك صغارهم واقتل كبارهم وأفسد بيضهم، وخذ بأفواههم عن معايشنا وأرزاقنا إنك سميع الدعاء إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه واستجب منا يا أرحم الراحمين» . وهو عجيب مجرب.

فائدة

[١٩٧] **قال القرافى**(١) : اتفق الناس على تكفير إبليس بقضيته مع آدم عليه الصلاة والسلام ، وليس الكفر فيها لامتناعه من السجود وإلا لكان كل من أمر بالسجود وامتنع منه كافرا ، وليس كفره بكونه حسد آدم عليه الصلاة والسلام على منزلته من الله تعالى وإلا لكان كل حاسد كافرا ، وليس كفره بعصيانه وفسوقه وإلا لكان كل عاص وفاسق كافرا وقد أشكل ذلك على جماعة من الفقهاء ، وينبغى أنه إنما كفر بنسبة الحق جل جلاله إلى الجور والتصرف الذى ليس بمرضى ؛ ويظهر ذلك من فحوى قوله ﴿**أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**﴾ [ص: ٧٦] ومراده أن إلزام العظيم الجليل بالسجود للحقير من الجور والظلم وهذا وجه كفره لعنه الله

---

(١) أحمد بن إدريس ، القرافى أبو العباس : من علماء المالكية الكبار ، من أهم كتبه : الفروق ، ت[٦٨٤هـ-١٢٥٨م]. انظر : شجرة النور الزكية (٣٩٦/١) .

تعالى وقد أجمع المسلمون على أن من نسب الله تعالى لذلك فهو كافر انتهى من حياة الحيوان ومنه قول الشاعر :

خليليَّ إن قالت بثينة ماله | أتانا بلا وعد فقولا لها لها
أتى وهو مشغول بعظم الذى به | ومن بات طول الليل يرعى السها سها
بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى | إذا برزت لم يبق يوما بها بها
لها مقلة كحلا وخد مورد | كأن أباها الظبى أوأمها مها
دهتنى بود قاتل وهو متلفى | وكم قتلت بالمزج من ودها دها

هى من مزج النغف بنون وغين معجمتين مفتوحتين ثم فاء ؛ دود يكون فى أنف الإبل والغنم الواحدة نغفة ، انتهى عن الأصمعى .

وقال أبو عبيدة : هو الدود الأبيض يكون فى النوى وما سوى ذلك الدود ليس بنغف(١) .

[١٩٨] **وروى** : مسلم عن النواس بن سمعان فى حديثه الذى رواه فى الدجال : «ويبعث الله يأجوج ومأجوج فيرسل عليهم النغف فى رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة»(٢) ومعنى قوله فرسى قتلى ، وقيل للواحدة فريس من فرس الذئب الشاة وافترسها .

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف النون (٤٩٤/٢) .

(٢) الحديث : رواه مسلم ، كتاب الفتن (١١٠) .

حكاية الهامة(1)

[١٩٩] **روى أبو نعيم في الحلية**(2) : عن ابن مسعود قال : كنت عند كعب الأحبار(3) وهو عند عمر بن الخطاب فقال كعب الأحبار : يا أمير المؤمنين ألا أخبرك بأغرب شيء رأيته في كتب الأنبياء أن هامة جاءت إلى سليمان بن داود عليهما السلام فقالت : السلام عليك يا نبي الله ، فقال: وعليك السلام يا هامة أخبريني كيف لا تأكلين من الزرع ؟ قالت : يا نبي الله إن آدم أخرج من الجنة بسببه . قال: فكيف لا تشربين الماء ؟ قالت : لأنه غرق فيه قوم نوح ؛ فمن أجل ذلك لا أشربه. فقال لها : كيف تركت العمران وسكنت الخراب ؟ قالت : لأن الخراب ميراث الله تعالى ؛ فأنا أسكن ميراث الله ، قال الله تعالى ﴿**وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين**﴾ [القصص: ٥٨] فالدنيا ميراث الله كلها .

قال سليمان : فما تقولين إذا جلست فوق خربة ؟ قالت أقول : أين الذين كانوا يتنعمون فيها . قال سليمان : فما صياحك في الدور إذا مررت عليها؟ قالت : أقول ويل لبني آدم كيف ينامون وأمامهم الشدائد . قال

---

(1) الهامة ، بتخفيف الميم : طير الليل .

(2) انظر : حلية الأولياء (٥/٣٦٩) .

(3) كعب بن ماتع بن ذى هجن ، أبو إسحاق : تابعي كان في الجاهلية من علماء اليهود في اليمن ، وأسلم زمن أبي بكر وقدم المدينة زمن عمر ؛ فأخذ عنه الصحابة من أخبار الأمم الغابرة ، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة ت[٣٢هـ] .

سليمان عليه السلام : فمالك لا تخرجين بالنهار ؟ قالت : من كثرة ظلم بنى آدم لأنفسهم . قال: فأخبريني ما تقولين في صياحك ؟ قالت : أقول تزودوا يا غافلون وتهيئوا لسفركم سبحان خالق النور . فقال سليمان : ليس في الطيور طيرا أنصح لابن آدم ولا أشفق عليه من الهامة ومافي قلوب الجهال أبغض منها .

والهامة بتخفيف الميم على المشهور طير الماء انتهى من حياة الحيوان[1] .

[٢٠٠] **وفي كتاب فردوس الحكم قال** : آية من كتاب الله تعالى من قرأها يأمن الهوام **﴿إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم﴾** [هود: ٥٦]

[٢٠١] **وفي كتاب العرائس لأبي الفرج بن الجوزي** : إن بعض طلبة العلم خرج من بلاده فرفقه شخص في الطريق ، فلما كان قريبا من المدينة التي قصدها قال له ذلك الشخص : قد صار لي عليك حق وذمة وأنا رجل من الجان ولي إليك حاجة قال : وما هي ؟ قال إذا أتيت مكان كذا وكذا فإنك تجد فيه دجاجات بينهن ديك أبيض فاسأل عن صاحبه واشتره منه واذبحه فهذه حاجتي إليك . قال : فقلت له يا أخي وأنا أيضا أسألك حاجة ؟ قال : وما هي ؟ قلت : وإذا كان للإنسان مارد لا تعمل فيه العزائم وألح بالآدمي منا ما دواؤه ؟ قال : يؤخذ له وتر قدر شبر من

(١) انظر حياة الحيوان ، حرف الهاء (٥١١/٢) .

جلد اليحمور ويشد به إبهام المصاب من يده شدا وثيقا ، ثم يؤخذ لـه من دهن السذاب[1] البرى ويقطر فى أنفه الأيمن أربعـا وفـى الأيسر ثلاثـا فـإن الماسك به يموت ولا يعود إلى أحد بعده .

قال : فلما دخلت المدينة أتيـت إلـى ذلـك المكـان فوجـدت الديـك لعجوز فسألتها بيعه فأبت ، فاشتريته منهـا بأضعـاف ثمنـه . فلمـا اشتريته وملكته تمثل لى من بعيد وقال بالإشارة : إذبحه فذبحته فخـرج علـيّ عنـد ذلك رجال ونساء فجعلوا يضربوننى ويقولـون : يـا سـاحر فقلـت : لسـت بساحر فقالوا : إنك منذ ذبحت الديك أصيبت شابة عندنا بجنى ، وإنه منذ مسكها لم يفارقها فطلبت منهم وترا قدر شبر من جلـد يحمـور وشـيئا مـن دهن السذاب البرى فأتوا بهما فشددت إبهـامى يـدى الشـابة شـدا وثيقـا ؛ فلما فعلت بها ذلك صاح قائلا وأنا علمتك علـى نفسـى ، ثـم قطـرت مـن الدهن فى أنفها الأيمن أربعا وفى الأيسر ثلاثا فخر من وقته ميتا وشفى اللـه تلك الشابة ولـم يعاودها بعدها شيطان . فائدة :اليحمور حمار الوحش[2] .

فائدة

[٢٠٢] دم اليربوع يؤخذ ويطلى به الشعر الذى ينبت فى الجفن بعد أن ينتف يذهب بإذن الله تعالى[3] .

---

(١) دهن السَّذَاب : نبات قوى الرائحة ، أزهاره صغـيرة . يـزرع فـى أوروبـا وآسـيا ، لـه بعض الفوائد الطبية لكن استعماله خطير للغاية .

(٢) انظر : حياة الحيوان ، حرف الياء (٥٥٧/٢) .

(٣) اليَرْبُوع : نوع من القوارض يشبه الفأر ، قصير اليدين طويل الرجلين وله ذنب طويل . انظر : حياة الحيوان ، حرف الياء (٥٥٩/٢) .

فائدة

[٢٠٣] عين الهدهد إذ علقت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه ، وريشه إذا حمله إنسان وخاصم غلب خصمه وقضيت حوائجه وظفر بما يريد ، ولحمه إذا أكل مطبوخا نفع من القولنج ، ودمه إذا قطر في البياض العارض في العين أذهبه ، وإذا بخر بمخه برج حمام لم يقربه شيء يؤذيه والله أعلم(١) .

[٢٠٤] **وحكى القاضي شهاب الدين بن فضل الله في كتابه مسالك الأنصار في ممالك الأمصار في ترجمة الحاكم بأمر الله أبي علي منصور(٢) قال:** بينما هو في موكبه قبلي بركة الجيش إذا مر برجل على بستان له وحوله عبيده فاستسقاه ماء فسقاه ، ثم قل : يا أمير المؤمنين قد أطمعتني في السؤال فإن رأى أمير المؤمنين أن يكرمني بنزوله لأحظى بتمام السعد فأجابه لذلك ونزل بجيشه فأخرج الرجل مائة بساط ومائة نطع ومائة وسادة ومائة طبق فاكهة ومائة جام حلوى ومائة زبدية سكرية ؛ فبهت الحاكم وقال : أيها الرجل خبرك عجيب هل علمت بنا فأعددت هذا؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين ، وإنما أنا تاجر من رعيتك لي مائة محظية ؛ فلما أكرمتني بالنزول عندي أخذت من كل واحدة شيئاً من فرشها وزائد أكلها وشربها؛ فإن لكل واحدة في كل يوم طبق طعام وطبق فاكهة وجام حلوى وزبدية شراب، فسجد أمير المؤمنين شكرا لله تعالى وقال : الحمد

---

(١) انظر : حياة الحيوان ، حرف الهاء (٥١٩/٢) .

(٢) الحاكم بأمر الله ، أبي علي منصور :الخليفة الفاطمي . خلف أباه العزيز [٣٨٦هـ] اشتهر بالظلم والاستبداد . اغتيل واختفى أثره [٤١١هـ] .

لله الذى جعل فى رعايانا من يسع حاله هذا ، ثم أمر له بما فى بيت المال من الدراهم المضروبة فى تلك السنة فكانت ثلاثة آلاف ألف وسبعمائة ألف ، ولم يركب حتى أحضرها وأعطاها للرجل وقال له استعن بهذا على حالك ومروأتك ، ثم ركب وانصرف .

[٢٠٥] **وحكى أبو إسحاق إبراهيم الموصلى قال** : دعانى يحيى بن خالد فدخلت عليه فوجدت الفضل وجعفرا ولديه جالسين بين يديه فقال لى: يا أبا إسحاق أصبحت اليوم مهموما فأردت الصبوح لأتسلى فغن لى صوتا لعلى أرتاح له فغنيته :

إذا نزلوا بطحاء مكة أشرقت ... بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فما خلقت إلا لجود أكفهم ... وما خلقوا إلا لأعواد منبر

فسر وارتاح وأمر لى بمائة ألف ، وأمر لى كل واحد من ولديه بمائة ألف ؛ فحمل المال جميعه بين يدى فأخذته وانصرفت .

[٢٠٦] **وحكى عن مخارق قال** : أصبحت السماء مغيمة وأصبح الرشيد مع حريمه، فأمرنا بالانصراف وأذن لنا أن نقيم فى منازلنا ثلاثة أيام فمضى الجلساء أجمعون إلى منازلهم . فقلت : لا والله لأذهبن إلى أستاذى إبراهيم الموصلى فأعرف خبره ثم أعود، وأمرت من عندى أن يهيئوا لى مجلسا إلى وقت رجوعى ، فجئت إلى دار إبراهيم وقلت للبواب : أخبر أستاذك فأخبره.

فقال : ادخل فدخلت فإذا هو جالس فى رواق وبين يديه قدر تغرغر، وأباريق تزهر ، وستارة منصوبة والجوارى خلفها فقلت: ما بال الستارة لا

أسمع من ورائها صوتا ؟ فقال : اقعد ويحك أصبحت على ما تـرى فأتـانى خبر ضيعة يبعت بجوارى وقد كنت طلبتها زمانا وتمنيتها فلم أملكهـا وقـد أعطى فيها الآن مائة ألف فقلت : وما يمنعك منها وقد أعطاك الله أضعـاف هذا المال، قال : صدقت ولكن نفسى غير طيبة بإخراج هذا المال ، وقال: خذ هذا القضيب ونقر بقضيب فى يده على المدورة وألقى علىّ :

نام الخليـون مـن وهـم ومـن سقم وبت مـن كثرة الأحـزان لـم أنـم
يا طالب الجود والمعروف مجتهدا اعمد ليحيى حليف الجود والكـرم

قال : فأخذته وأحكمته ، ثـم قـال : امـض السـاعة إلـى بـاب الوزيـر يحيى بن خالد وادخل عليه وحدثه بما رأيت ، واذكـر الضيعـة وعرفـه أنـى صنعت له هذا الصوت فأعجبنى ولم أجد من يستحقه إلا جاريتـه دنـانير ، وأننى ألقيته عليك لتلقيه عليها وائتنى بما يكون من الخبر .

قـال : فجئـت إلـى البـاب واستأذنت وأعلمتـه فـأمر بنصـب السـتارة وألقيت الصوت على الجارية مرارا حتى أحكمته فقال لى : تقيـم عندنـا أو تنصرف ؟ قلت : أنصرف أطال الله بقاء مولانـا الوزيـر ، فقـال : يـا غـلام احمل معه عشرة آلاف واحمل إلى إبراهيم مائة ألف ، فحملت مالى وأتيت إلى منزلى فنثرت علـى مـن عنـدى مـن الجـوارى دراهـم مـن تلـك البـدرة وأكلت وشربت بقية يومى .

فلما أصبحت قلت : والله لأذهبن إلى أستاذى ولأعرفن خـبره فـأتيت ودخلت فوجدته على مثل ما كان عليه بالأمس ، فقلت له : مـا الخـبر ألـم يأتك المال ؟ قال : نعم غير أنه لمـا دخـل مـنزلى بخلـت نفسـى بإخراجـه وألقى على صوتا آخر أتيت به الفضل بن يحيى ، وحدثته بما كان من أبيـه

بالأمس فأمر أن يحمل معى عشرون ألفا ولإبراهيم مائتا ألف وفعلت مثل ما فعلت بالأمس ، وغدوت إليه لما أصبحت فوجدته على مثل حاله بمثل عذره وألقى عليّ صوتا غيره أتيت به جعفر بن يحيى وأخبرته بما كان من أبيه وأخيه فأمر أن يحمل معى ثلاثون ألفا وإلى إبراهيم ثلثمائة ألف فحملته معى إليه فبكى إبراهيم وقال : وصلت إليَّ ستمائة ألف وأنا جالس فى مجلسى لم أبرح منه فعلى مثل هؤلاء يبكى فرحم الله أرواحهم أجمعين .

[٢٠٧] **وقال إسحاق** : غدوت يوما وأنا منحصر من ملازمة أمير المؤمنين، فعرضت نفسى على أن أطوف فى الصحراء وأتفرج وقلت لغلمانى : إذا جاء رسول الخليفة أو غيره فلا تعرفوه مكانى ، فطفت وعدت وقد حمى النهار فوقفت فى فضاء أستريح . فلم ألبث أن جاء خادم يقود حمارا فارها وعليه جارية راكبة عليها فاخر الثياب ، ورأيت لها قواما حسنا وظرفا فائقا فحدثت نفسى أنها مغنية ، ثم أدخلت الدار التى أنا واقف عليها ثم لم ألبث أن جاء شابان جميلان واستأذنا فأذن لهما فدخلا ودخلت معهما فظنا أن صاحب الدار دعانى وظن صاحب البيت أننى معهما وجلسنا؛ فأتى بالطعام فأكلنا وبالشراب فوضع ودخلت الجارية وفى يدها عود فغنت وشربنا . فسألهما صاحب المنزل عنى فأخبراه أنهما لا يعرفانى فقالوا : هذا طفيلى لكنه ظريف فأجملوا عشرتى فشربنا ودار الكأس فغنت الجارية تقول :

ذكرتك إذ مرت بنا أم شادن   أمام المطايا وهى بالشرب تسمح
من المولغات الرمل أبدى ثغرها   شعاع الضحى من وجهها يتوضح

فأدته أداء حسنا ثم غنت صوتا من القديم والحديث تقول

قــل لمــن صــد لاهيــا ونــأى عنــى جانبــا
قــد بلغــت الــذى أرد ت وإن كنــت لاعبــا

فاستعدته منها لأصححه عليها فأقبل عليَّ أحد الرجلين يعنفنى ويقول: ما رأينا طفيليا أصفق وجها منك لم ترض بالتطفل حتى اقترحت ، وهذا غاية المثل طفيلى ويقترح . فأطرقت وجعل صاحبه يكفه وهو لا يلتفت ؛ ثم قاموا إلى الصلاة وتأخرت بعدهم قليلا وأخذت عود الجارية وشددت طبقته وأصلحته إصلاحا حسنا محكما وعدت إلى موضعى وعادوا ، وأخذ ذلك الرجل فى عربدته علىّ وأنا صامت، وأخذت الجارية العود وجسته فأنكرت حاله وقالت : من جس عودى ؟ قالوا : ما جسه أحد قالت : بلى والله لقد جسه حاذق متقدم وشد طبقته وأصلحه إصلاح متمكن من الصناعة قلت لها : أنا قالت : بالله خذ واضرب فأخذته وضربت ضربا عجيبا فيه نقرات محركة فما بقى منهم أحد إلا وثب وجلس بين يدى .

وقال صاحب المجلس : أقسم بالله أن لك فى هذه الصناعة أصواتا غريبة فبالله عليك ألا عرفت بنفسك ؟ فقلت : أنا إسحاق الموصلى ووالله إنى لأتيه على الخليفة إذا طلبت ، وأنتم ترون صاحبكم هذا يسمعنى ما أكره لكونى تأدبت معكم ودخلت عندكم ووالله لا نطقت بحرف ولا جلست حتى تخرجوا هذا الممقوت فقال له صاحبه : من مثل هذا خفت عليك ، وأخذوا بيده وسحبوه وأخرجوه وعادوا فبادرت وغنيت الأصوات التى غنتها الجارية من صنعتى فقال لى الرجل : هل لك فى خصلة ؟ قلت : ما هى؟ قال : تقيم عندنا أسبوعا والمكافأة الجارية والجهاز لك . قلت : نعم أفعل وأقمت عنده أسبوعا لا يعرف أحد أين أنا والمأمون يطلبنى فى كل حين وكل موضع ولم يقع أحد على خبرى .

فلما انقضت الأيام تسلمت الجارية والجهاز والخادم وجئت بذلك إلى منزلى وركبت من وقتى إلى المأمون . فلما رآنى قال : يا أبا إسحاق ويحك أين كنت فأخبرته الخبر ، فقال : علىّ بالرجل الساعة فدللتهم على موضعه فأحضره وسأله المأمون فأخبره بالقصة ، فقال : أنت ذو مروءة وسبيلك أن تعان عليها ، وأمر له بمائة ألف ؛ وقال له : لا تعاشر ذلك النذل المعربد ، انتهى.

[٢٠٨] **ومن كلام الأحوص فى حضرة يزيد** : غنته جارية بين يديه:

إذا رمت عنها سلوة قال شافع — من الحب ميعاد السلو المقابر

ستبقى لها فى مضمر القلب والحشا — سريرة ود يوم تبلى السرائر

فطرب يزيد وقال : لمن الشعر ؟ قالت لا أدرى ، قال ابعثوا إلى الزهرى[1] وكان قد ذهب من الليل شطره فأتى به . فلما صعد إليه قال : لا بأس عليك لن ندعوك إلا لخير ، فجلس وسأله عن قائل هذا الشعر فقال : الأحوص قال ما فعل به ؟ قال : قد طال حبسه فأمر بتخلية سبيله ، وأن يدفع له أربعمائة دينار ، ثم قدم عليه بعد ذلك فأجازه وأحسن إليه إحسانا جزيلا وكانت المغنية جارية يزيد بن عبد الملك ، انتهى.

[٢٠٩] **وحكى مسرور الخادم** : أن الرشيد قصد الركوب فى غير عادته فقلت له : أين تريد يا أمير المؤمنين فى هذا الوقت ؟ قال : إلى منزل

---

(١) إبراهيم بن سعد بن عبد الرحمن ، أبو إسحاق الزهرى : من علماء الحديث الثقات ، كان يبيح الغناء ويضرب العود ويغنى عليه . روى له البخارى ومسلم ، ولى القضاء ببغداد وتوفى بها .

إبراهيم الموصلى. قال: فمضى حتى انتهى إلى منزل إبراهيم الموصلى فخرج وتلقاه وقبل حافر حماره وقال : يا أمير المؤمنين فى مثل هذه الساعة تظهر ؟ قال : نعم شوق طرق بى إليك ، ثم نزل وجلس فى طرف الإيوان وأجلس إبراهيم فقال له إبراهيم : يا سيدى استنبطنا شيئاً تأكله قبل الشراب ، قال : نعم فجاء بمطعوم كأنما كان معدا له فأصاب منه يسرا . ثم دعا بشراب حمل معه فقال له الموصلى : يا سيدى أغنيك أم تغنيك إماؤك ؟ قال: بل الجوارى فخرجت جوارى إبراهيم فأخذن صدر الإيوان وجانبيه ، فقال إبراهيم: أيضربن كلهن أم واحدة واحدة ؟ فقال بل يضربن اثنتان اثنتان وواحدة واحدة تغنى. قال : فضربت اثنتان وغنت واحدة منهن فقالت :

إذا دعا باسمها داع يحدثنى ... كادت لها مهجتى من حرها تقع
لو أن لى صبرها أو عندها جزعى ... لكنت أعقل ما آتى وما أدع
لا أحمل اللوم فيها والغرام بها ... ما كلف الله نفسا غير ما تسع

ثم غنت أخرى فقالت :

طرقتك زائرة فحى خيالها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالها
هل يطمسون من السماء نجومها ... بأكفهم أو يطمسون هلالها
شهدت من الأنفال آخر آية ... فأردتمو بمحالكم إبطالها

ثم غنت أخرى فقالت :

شطت سعاد وأضحى البين قد أبدى ... وأورثتك سقاما تصدع الكبدا
فما احتيالك إذ جد الرحيل بهم ... وخلفوك غداة البين منفردا

لا أستطيع لهم صبرا ولا جلدا   ولا تزال أحاديثي بهم جددا

قال : فقام حتى وصل صدر الإيوان وأخذ بجانبيه والرشيد يسمع ولا ينصت لشيء من غنائهن إلى أن غنته صبية من صدر الإيوان من حاشية الصفة هذين البيتين لأبي نواس :

يا موري الزند قد أعيت قوادحه   اقبس بما شئت من قلبي بمقباس
ما أقبح الناس في عيني وأسمجهم   إذا نظرت فلم أنظرك في الناس

فطرب الرشيد لغنائها واستعاد الصوت مرارا وشرب أرطالا وسأل الجارية عن صانعه فأمسكت فاستدناها فتقاعست فأمر بها فأقبلت بين يديه فأخبرته بشيء أسرته إليه فدعا بحماره فركبه ثم إلتفت إلى إبراهيم الموصلي وقال له : ما ضرك أن تكون خليفة فكادت روحه تخرج حتى دعاه بعد ذلك وأدناه .

قال : وكان الذي أخبرته به سرا أن الصنعة في الصوت لأخته علية بنت المهدي(١) وكانت الجارية لها فوجهتها إلى إبراهيم الموصلي يطارحها

[٢١٠] ومن قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء   وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سراء
من كف ذات حرفي زي ذي ذكر   لها محبان لواط وزناء

---

(١) علية بنت المهدي : أخت هارون الرشيد ، أحسن النساء وأظرفهن وأعقلهن . تقول الشعر ، ت[٢١٠هـ] .انظر : أعلام النساء (٣/٣٣٤) .

قـامت بإبريقهـا والليـل معتكـر فلاح من وجهها في البيت لآلاء
فأرسلت من فـم الإبريـق صافيـة كأنمـا أخذهـا للعقـل إخفـاء
رقـت علـى المـاء حتـى لا يلائمهـا لطافـة وخفـى مـن شـكلها المـاء
فلـو مزجـت بهـا نـورا لمازجهـا حتـى تولـد أنـوار وأضـواء
دارت علـى فئـة ذل الزمـان لهـم فمـا يصيبهمـو إلا بمـا شـاءوا
فقـل لمـن يدعى في العلم توسعة حفظت شيئاً وغـابت عنـك أشياء

[٢١١] وقال الشاعر:

كعصفورة في كـف طفـل يهينهـا تذوق مرار الموت والطفل يلعب
فـلا الطفل ذو عقل يـرق لحالهـا ولا الطير مطلوق الجنـاح فيهرب

[٢١٢] وروى البيهقى في الشعب عن مالك بن دينار[1] قال : مثل قراء هذا الزمان مثل رجل نصب فخا فجاء عصفور فدنا إلى الفخ ، وقـال : مالك متغيبا في التراب ؟ فقال : للتواضع . فقال : فمم انحنيت ؟ قـال من طـول العبـادة . قـال : فمـا هـذه الحبـة التـى فـى فيـك ؟ قـال : أعددتهـا للصائمين. فلما تناول الحبة أمسـك الفـخ عنقـه فقـال العصفـور : إن كـان العباد يخنقون خنقك فلا خير في هذه العبادة اليوم، انتهى .

[٢١٣] قال الشافعي ﷺ : أربعة أشياء تزيـد فـى الجمـاع : أكـل العصافير، وأكل الأطريفل وأكل الفستق ، وأكـل الجرجير . وأربعـة أشياء تزيد في العقل : ترك الفضول من الكلام ، والسواك ، ومجالسة الصـالحين، والعمل بالعلم. وأربعة تقوى البدن : أكـل اللحـم ، وشـم الطيـب ، وكـثرة

---

(١) مالك بن دينار البصرى ، أبو يحيى : من تلامذة الحسن البصرى ، من كبـار زهـاد البصرة ، روى عن أنس بن مالك . [١٣١هـ] .

الغسل من غير جماع ، ولبس الكتان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع، وكثرة الهم ، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة أكل الحموضة ، انتهى من حرف العين[1] .

[٢١٤] و[قيل] : دخل ابن الخياط المكى[2] على المهدى ومدحه فأمر له بخمسين ألف درهماً فسأله أن يأذن له فى تقبيل يده فأذن له فقبلها وخرج فما انتهى إلى الباب حتى فرقها جميعا فعوتب فى ذلك فأنشد يقول:

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ... ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوى الغنى ... أفدت وأعدانى فأتلف ما عندى

فغنى بهما المهدى فأمر له بخمسين ألف ديناراً انتهى .

[٢١٥] ولبعضهم تغزلا فى مليح :

أقول لمقلتيه حين ناما ... وسحر النوم فى الأجفان سارى
تبارك من توفاكم بليل ... ويعلم ما جرحتم بالنهار

---

(١) انظر حياة الحيوان ، حرف العين (١٦٦/٢) .

(٢) يوسف بن عبد الله بن سلم ، ابن الخياط : شاعر من أهل المدينة ، له أخبار وفيه ظرف . جلده مالك بن أنس حدا فى شرب الخمر ، ت[٢٣٠هـ = ٨٤٥م] .

٣ - فصل

الإمام أحمد ومناقبه رضى الله تعالى عنه(١)

[٢١٦] مات سنة مائتين وإحدى وأربعين وحرر من حضر فى جنازته فكانوا ثمانمائة ألف ، ومن النساء ستين ألفا وأسلم يوم موته ﷺ عشرون ألفا من اليهود والنصارى والمجوس انتهى .

[٢١٧] **وقال الإمام النووى فى تهذيب الأسماء واللغات** : إن المتوكل أمر أن يقاس الموضع الذى وقف الناس فيه للصلاة على الإمام أحمد فبلغ مقام ألفى ألف وخمسمائة ، وقد حزن عليه رضى الله تعالى عنه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس.

[٢١٨] **وقال محمد بن خزيمة** : لما بلغنى موت الإمام أحمد بن حنبل ﷺ اغتممت غما شديدا ، فرأيته فى المنام وهو يتبختر فى مشيته فقلت : يا أبا عبد الله ما هذه المشية ؟ فقال مشية الخدام فى دار السلام . فقلت ما فعل الله بك ؟ قال: غفر لى وتوجنى وألبسنى نعلين من ذهب ، وقال : يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامى غير مخلوق . ثم قال الله تعالى: يا أحمد ادعنى بتلك الدعوات التى بلغتك عن سفيان التى كنت تدعو بهن

---

(١) أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبد الله الشيبانى : إمام أهل السنة ، وأحد الأئمة الأربعة . نشأ منكبا على طلب العلم وسافر فى سبيله أسفارا كثيرة . قال الشافعى : أحمد إمام فى ثمان خصال : إمام فى الحديث ، إمام فى الفقه ، إمام فى اللغة ، إمام فى القرآن ، إمام فى الفقر ، إمام فى الزهد ، إمام فى الورع ، إمام فى اللغة. ت[٢٤١هـ=٨٨٥م] .انظر : طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى (٤/١) ، البداية والنهاية(٣٢٥/١٠) .

فى دار الدنيا فقلت : يا رب أسألك بقدرتك على كل شىء أن لا تسألنى عن شىء واغفر لى كل شىء ، فقال جل وعلا : يا أحمد هذه الجنة فادخل فيها .

[٢١٩] وأنشد بعضهم في تاريخ موت الأئمة الأربعة ومولدهم : الإمام أبي حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام الشافعى ، والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم أجمعين

تاريخ نعمان يكن سيف سطا	ومالك فى قطع جوف ضبطا
والشافعى صين ببرند	وأحمد بسبق أمر جعد
فخذ علي ترتيب نظم الشعر	ميلادهم فموتهم فالعمر

[٢٢٠]وكذا فى تاريخ الأئمة الخمسة المحدثين : الإمام الترمذى[١] ، وأبو داود[٢]، والإمام مسلم[٣] ، والنسائى[٤] ، والإمام البخارى[٥] ، وقد جمع ذلك بعضهم فى بيت واحد فقال :

---

(١) محمد بن عيسى بن سورة ، أبو عيسى الترمذى : من أئمة الحديث وحفاظه ، تتلمذ للبخارى وشاركه فى بعض شيوخه ، له الجامع الكبير . ت[٢٧٩هـ] .

(٢) سليمان بن الأشعث ، أبو داود السجستانى : من أئمة الحديث ، جال كثيرا فى طلب العلم ، واستقر فى البصرة ، له كتاب "السنن" من الكتب الستة . ت[٢٧٥هـ] .

(٣) مسلم بن الحجاج بن مسلم ، أبو الحسن : إمام الحديث ، صاحب الجامع الصحيح المعروف ؛ بصحيح مسلم الحافظ ت[٢٦١هـ] .

(٤) أحمد بن على ، النسائى : الحافظ ، الإمام ، صاحب السنن الكبرى . له اليد الطولى فى علم الرجال . ت[٣٠٣هـ] .

(٥) محمد بن إسماعيل ، أبو عبد الله البخارى : إمام علم الحديث ، صاحب أصح كتاب بعد كتاب الله . كان كثير الترحال طلبا لحديث رسول الله . ت[٢٥٦هـ] .

إذا رمت الحديث فلذ بخمس تكن مثل المشافه في الحياة
تعطر درعه مارس نسج بنور للمحدث للوفاة

بيان ذلك أن التاء إشارة للترمذى ، والدال إشارة لأبى داود ، والميم إشارة للإمام مسلم ، والنون للنسائى ، والباء للبخارى والله أعلم .

[٢٢١] ويحكى أنه : أتى برجل مدنى سكران إلى بعض الولاة فأمر بإقامة الحد عليه وكان الرجل طويلا والجلاد قصيرا فلم يتمكن من ضربه فقال الجلاد : للمدنى تقاصر لينالك الضرب . فقال : ويلك إلى أكل الفالوذج[١] تدعونى والله لوددت أن أكون أطول من عوج بن عنق وأنت أقصر من يأجوج ومأجوج فاستظرفه الأمير وخلى سبيله ، انتهى من حلبة الكميت .

[٢٢٢] ومن قول ابن المعتز[٢] :

وجاءنى فى قميص الليل مستترا يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
ولاح ضوء صباح كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر
وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

[٢٢٣] ولبعضهم عفا الله عنه :

جرى دمعى من الحال الذى بى كجرى الماء فى أول أنبوب

---

(١) الفالوذج : من أنواع الحلوى .

(٢) عبد الله بن محمد المعتز بالله بن المتوكل بن المعتصم : الشاعر المبدع ، خليفة يوم وليلة . كان يقصد فصحاء العرب ويأخذ عنهم ت[٢٩٦هـ=٩٠٩م] . انظر : وفيات الأعيان (٢٨٥/١) .

ومــع هـــذا فـــلا أقطــع رجائى ... لأن اللـــه ألطــف مــن أبـــى بـى

[٢٢٤] ومن كلام الشافعي رضي الله عنه:

لم يدر طعم الفقر من هو فى غنى ... ومصحح الأعضاء ليس كمبتلى
كـم فاقـة مسـتورة بمـــروأة ... وضـرورة قـد غطيـت بتحمـــل
وتبسـم مـن تحتـه قلـب شـجى ... قـد صادفتـه غمـة لا تنجلـى
والنـاس جمعـا عنـد كـل كفـؤه ... والهـم مفـترق ومـا أحـد خلـى
لو سـود الهـم الملابس لـم تجد ... بيض الثياب على امرئ فى محفـل
وإذا أراد المـــرء يجلـــو همـــه ... عـــن نفسـه مـن نفسـه لا ينجلى

[٢٢٥] ومن كلام العارف بالله تعالى الشيخ عبد الرحيم البرعى رحمه الله تعالى فى أرض اليمن :

ريـاض نجـــد بكـــم جنـــان ... فضيـــة نورهـــا حســـان
وتـــرب واديكمـــو بنجـــد ... مســـك وحصباؤهـــا جمـــان
والـروض مـــن شـعبكم عبـير ... والزهـــر ورد وزعفـــران
والجـار فـــى ربعكـــم عزيـــز ... والحـــر فـــى أرضكـــم يصـــان
فكـــم ســفكتم دمـــى ودمعـــى ... أمـــا علـــى القـــاتل الضمـــان
ورمـت أخفـــى الهـــوى ودمعـــى ... مـــن شــدة الوجـــد ترجمـــان
يـــالائمون اقصـــروا ملامـــى ... رفقـــا بمـــن قلبـــه مـــلان
لا تذكـــروا الظـــاعنين عنـــدى ... فلـــى وللظـــاعنين شـــان
قـــالوا هواهـــم عليـــك حتـــم ... فقلــت عهــد الهـــوى يصـــان
قـــالوا فكـــم تكتـــم النصـــابى ... قلـــت المعنـــى بهـــم معـــان
قـــالوا فقـــد فـــارقوك ربعـــا ... قلت هـــم النـــاس حيـــث كـــانوا

قالوا فدعهم فقلت كلا ... لعل دهرا قسا يلان

ليت الصبا الحاجرى ينبى ... عن جيرة البان يوم بانوا

هل عهدهم عهدهم بنجد ... باق أم استؤمنوا فخانوا

يا محسنا بالزمان ظنا ... هل تدر ما يفعل الزمان

لا تتبع النفس فى هواها ... إن اتباع الهوى هوان

واخجلتى من عتاب ربى ... إن قيل أسرفت يا فلان

إلى متى أنت فى الملاهى ... تسير مرخى لك العنان

لو خوفتك الجحيم بطشى ... لشوقت قلبك الجنان

عندى لك الصفح وهو برى ... وعندك السيف والسنان

ما تستحى كاتبا كريما ... يحصى به الفعل واللسان

وتستحى شيبة تراها ... فى النار مسحوبة تهان

أنت شجاع على المعاصى ... وأنت عن طاعتى جبان

لم ينهك الشيب عن حدودى ... ولا رسولى ولا القران

ترضى بأن تنقضى الليالى ... وما انقضى حربك العوان

أى أوان تتوب فيه ... هل بعد قطع الرجا أوان

آثرت غيرى على لكن ... كما يدين الفتى يدان

يا سيدى هذه عيوبى ... وأنت فى الخطب مستعان

يا من له فى العصاة شان ... البر والعطف والحنان

يا من ملا بره النواحى ... لم يخل من بره مكان

عفوا فإنى رهين ذنب ... حاشاك أن يغلق الرهان

فاغفر لعبد الرحيم والطف ... بخائف ما له أمان

وسامح الكل من ذنوب ... غدا بها يشهد البنان

وصل يا ذا العلا وسلم ... على من أخلاقه حسان

وهذه قصيدة الإمام الولى العارف بالله تعالى أبى محمد بن أبى عمران اليشكرى نفعنا الله به

[٢٢٦] قال العلامة بدر الدين بن فرحون[1] : -أحد أصحاب ناظمها- إن بعض الصالحين رأى النبى ﷺ فى المنام قال البدر: وأشك هل كان هو الشيخ أو غيره ، وأنشد هذه القصيدة ؛ فلما بلغ آخرها قال النبى ﷺ : رضيناها رضيناها وهى هذه :

دار الحبيب أحق أن تهواها ... ونحن من طرب إلى ذكراها
وعلى الجفون إذا هممت بزروة ... يا ابن الكرام عليك أن تغشاها
فلانت أنت إذا حللت بطيبة ... وظللت ترتع فى ظلال رباها
مغنى الجمال من الخواطر والتى ... سلبت قلوب العاشقين حلاها
لا تحسب المسك الذكى كتربها ... هيهات أين المسك من رياها
طابت فإن تبغى لطيب يا فتى ... فادم على الساعات لثم ثراها
وابشر ففى الخبر الصحيح تقررا ... إن الإله بطيبة سماها
واختصها بالطيبين لطيبها ... واختارها ودعا إلى سكناها
لا كالمدينة منزل وكفى بها ... شرفا حلول محمد بفناها
خصت بهجرة خير من وطىء الثرى ... وأجلهم قدرا وأعظم جاها
كل البلاد إذا ذكرن كأحرف ... فى اسم المدينة لا خلا معناها
حاشا مسمى القدس فهى قريبة ... منها ومكة إنها إياها
لا فرق إلا أن ثم لطيفة ... مهما بدت يجلو الظلام سناها

---

(١) إبراهيم بن على بن محمد بن فرحون : فقيه مالكى ، ومؤرخ ، من أهم تصانيفه الديباج المذهب . انظر : نيل الإبتهاج ص ٣٠ .

جزم الجميع بأن خير الأرض ما قد حاز ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت كالنفس حين زكت زكى مأواها
وبهذه ظهرت مزية طيبة فغدت وكل الفضل فى معناها
حتى لقد خصت بهجرة حبه الله شرقها به وحباها
ما بين قبر للنبى ومنبر حيا الإله رسوله وسقاها
هذى محاسنها فهل من عاشق كلف شجى ناحل بنواها
إنى لأرهب من توقع بينها فيظل قلبى موجعا أوّاها
ولقلما أبصرت حال مودع إلارثت نفسى له وشجاها
فلكم أراكم قافلين جماعة فى أثر أخرى طالبين سواها
قسما لقد أكسى فؤادى بينكم جزعا وفجر مقلتى مياها
إن كان يزعجكم طلاب فضيلة فالخير أجمعه لدى مثواها
أو خفتمو ضرا بها فتأملوا بركات بقعتها فما أزكاها
أف لمن يبغى الكثير لشهوة ورفاهة لم يدر ما عقباها
فالعيش ما يكفى وليس هو الذى يطغى النفوس إلى خسيس مناها
يا رب أسأل منك فضل قناعة يسيرها وتحصنا بحماها
ورضاك عنى دائما ولزومها حتى توافى مهجتى أخراها
فأنا الذى أعطيت نفسى سؤلها فقبلت دعواها فيا بشراها
بجوار أوفى العالمين بذمة وأعز من بالقرب منه يباهى
من جاء بالآيات والنور الذى داوى القلوب من العمى فشفاها
أولى الأنام بخطة الشرف التى تدعى الوسيلة خير من يعطاها
إنسان عين الكون سر وجوده يس أكسير المحامد طاها
حسبى فلست أفى ببعض صفاته لو أن لى عدد الورى أفواها
كثرت محاسنه فأعجز حصرها فغدت وما نلقى لها أشباها

إنى اهتديت من الكتاب بآية … فعلمت أن علاه ليس يضاهى
ورأيت فضل العالمين محددا … وفضائل المختار لا تتناهى
كيف السبيل إلى تقصى مدح من … قال الإله له وحسبك جاها
إن الذين يبايعونك إنما … هم من يقال يبايعون الله
هذا الفخار فهل سمعت بمثله … واها لنشأتها الكريمة واها
صلوا عليه وسلموا فبذلكم … تهدى النفوس لرشدها وغناها
صلى عليه الله غير مقيد … وعليه من بركاته أنماها
وعلى الأكابر آله سرج الهدى … أكرم بعترته ومن والاها
وكذا السلام عليه ثم عليهم … وعلى صحابته التى زكاها
أعنى الكرام أولى النهى أصحابه … فئة التقى ومن اهتدى بهداها
والحمد لله الكريم وهذه … نجزت وظنى أنه يرضاها

وهذا آخرها والحمد لله وحده

[٢٢٧] ولبعضهم شعر :

لله فى ملكه خاتم … تجرى المقادير على نقشه
لا تنبشن الشر تبلى به … واحذر على نفسك من نبشه
مصارع الدهر لها سطوة … تنزل السلطان عن عرشه
إذا طغى الكبش بلحم الكلا … أدرج رأس الكبش فى كرشه
إذا بغى المرء على جنسه … لابد أن ينكب فى فرشه

[٢٢٨] **قوله ﷺ : «أنت ومالك لأبيك»** ذكر العلامة الشمس العلقمى فى حاشيته على الجامع الصغيرة عن جابر قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله إن أبى أخذ مالى فقال النبى ﷺ للرجل اذهب فأتنى بأبيك فنزل جبريل على النبى ﷺ فقال : إن الله عز وجل

يقرئك السلام ويقول لك : إذا جاء الشيخ فاسأله عن شيء قاله في نفسه ما سمعته أذناه . فلما جاء الشيخ قال له النبي ﷺ : ما بال ابنك يشكوك أتريد أن تأخذ ماله ؟ فقال : يا رسول الله هل أنفقه إلا على إحدى عماته أو خالاته أو على نفسي . فقال عليه الصلاة والسلام : أيها الشيخ دعنا من هذا أخبرني عن شيء قلته في نفسك ما سمعته أذناك فقال الشيخ : والله يا رسول الله ما يزال الله عز وجل يزيدنا بك يقينا ، لقد قلت في نفسي شيئا ما سمعته أذناى فقال له قل فأنا أسمع فقال :

عذيتك مولودا وعلتك يافعا ... تعل بما أسدى إليك وتنهل
إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبت ... لسقمك إلا ساهرا أتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى ... طرقت به دونى وعيناى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنها ... لتعلم أن الموت شىء مسجل
فلما بلغت السن والغاية التى ... لها مدة قد كنت فيك أؤمل
جعلت جزائى غلظة وفظاظة ... كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتى ... فعلت كما الجار المجاور يفعل

قال : فحينئذ أخذ رسول الله ﷺ بجلباب ابنه وقال له : أنت ومالك لأبيك، انتهى .

[٢٢٩] **وحكى الأصمعي قال** : خرجت في طلب الأعاجيب من الأحاديث فلاحت لي بلدة بيضاء كأنها الغمامة فدخلتها فإذا هي خراب وليس فيها ديار ولا أنيس ، فبينما أنا أدور في نواحيها إذ سمعت كلاما فطار قلبي فأنصت فإذا به كلام موحش فسللت سيفي ودخلت ذلك المكان فإذا أنا برجل جالس وبين يديه صنم وفي يديه قضيب وهو يبكي وينكت به الأرض ويقول :

أما و مسيح الله لو كنت عاشقا | لمت كما ماتت وما ضمنى لحدى
وكم أتسلى بالحديث وبالمنى | وبالعبرات السائلات على خدى
وإنى وإن لم يأتنى الموت سرعة | لأمسى على جهد وأضحى على جهد

قال : فلما سمعت ذلك منه هجمت عليه ، فلم يشعر بى إلا أن قلت له السلام عليك فرفع رأسه وقال : وعليك السلام من أين أنت ومن جاء بك إلى هذا المكان؟ فقلت : الله جاء بى قال : صدقت وهو الذى أفردنى فى هذا المكان ، فقلت له : ما بالك تشير إلى هذا الصنم الذى بين يديك؟ فقال لى : إن حديثى عجيب وأمرى غريب فقلت له : حدثنى به ولا تخف منه شيئا فقال لى : اعلم إننا كنا قوما من بنى تميم وكنا على دين المسيح، وكان دعاؤنا مستجابا وكانت هذه الصنمة ابنة عمى، وكنت أنا وإياها . فلما كبرت حجبها عمى عنى فكنت أحبها سرا ؛ فبينما أنا ذات ليلة وأنا عندها إذ سمعت عمى يدق الباب فادخلتنى سردابا وقامت هى ففتحت الباب ودخل عمى فقال لها : أين عبد المسيح ؟ فقالت : إنى لم أره ، فقال لها : إنى سمعت كلامه عندك . فقالت :لم تسمع شيئا وإنما خيل لك فقال لها : والله إن لم تصدقينى وإلا دعوت عليك إن كنت كاذبة فيمسخك الله حجرا فقالت له : إذا كنت كاذبة، فرفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم يا رب الأولين والآخرين إن كنت تعلم أن ابنتى هذه كاذبة فى قولها فامسخها حجرا فمسخها الله حجرا ولى أربعون سنة فى هذا المكان وأنا اتقوت من نبات الأرض وأشرب من هذه الأنهار وأتسلى بالنظر إلى هذه الصنمة إلى أن يحكم الله لى بالموت ثم بكى وأنشد يقول :

وحق الذى أبكى وأضحك والذى | أمات وأحيا والذى خلق الخلقا
لئن قلت إن الحب قد يقتل الفتى | وإن الفتى بعد التفرق لا يبقى

لقد قلت حقا واسأل العبرة التي تسيل وسيل الدمع مني لا يرقا

قال الأصمعي : ثم قام ذلك الشاب وتوارى عني بجدار من تلك الجدر ونزع المسوح التي كانت عليه ولم يبق عليه إلا ما يوارى سوأته ، فتأملته فإذا عيناه تدور في أم رأسه فقلت في نفسي : هذا أراد أن يطلعني على نحول جسده ، ثم أقبل على وهو عريان وقال لي : يا فتى إنني قائل ثلاثة أبيات وكان مني ما كان فإذا أنا مت فكفني أنا وإياها في هذه الجبة وادفنا في هذه الجون وضمنا بالتراب ، واكتب على قبرنا هذه الأبيات :

من لم يكن يحسب أن الهوى يقتل فلينظر إلى مضجعي
لم يبق لي حول ولاقوة الإخيال الشمس في موضعي
أشكو الى الرحمن جهد البلا إشارة بالطرف والأصبع

قال الأصمعي : هذا وأنا أنظر إليه وأسمع شعره وأتعجب منه ومن أمر الصنمة، وإذا به وقع على الأرض مستلقيا على قفاه وشهق شهقة فارقت روحه جسده . قال الأصمعي : فكفنتهما ودفنتهما في ذلك الجون ، وكتبت على قبرهما تلك الأبيات وتركتهما وانصرفت وأنا متعجب غاية العجب ، انتهى .

[٢٣٠] و [قيل] : لما عزم أحمد بن طولون(١) على بناء الجامع المعروف به في مصر القاهرة أنفق عليه مائة ألف دينار ، ورتب فيه للعلماء، والقراء ، وأرباب الشعائر، والبيوت في كل شهر عشرة آلاف دينار

---

(١) أحمد بن طولون : مؤسس الدولة الطولونية في مصر والشام مستقلة عن الدولة العباسية [٢٥٤هـ:٢٩٢هـ] .

وللصدقة فى كل يوم مائة دينار ، وكان مشتملا على خصال حميدة منها : أن فقيرا كان بجواره وله امرأة وبنت وكانا يغزلان الصوف للسوق لتجهيز البنت ، وكانت البنت لم تفارق البيت وما نظرت إلى السوق قط ولا خرجت فسألت أمها وأباها أن تخرج معهما إلى السوق فواعداها بذلك . فلما قصدا بيع الغزل خرجت معهما إلى السوق فمروا بباب الأمير المسمى بالفيل وتمادى الأب والأم وتركاها ولم يشعرا بوقوفها ، فبقيت البنت حائرة لا تدرى أين تذهب وكانت ذات جمال عظيم فخرج الأمير المسمى بالفيل . فلما رآها افتتن بها فمسكها ودخل بها ، ثم أمر الجوارى أن يغسلنها وينظفنها ويلبسنها أحسن الملبوس ويطيبنها بأنواع الطيب ويحلينها له ففعلن ذلك فدخل عليها وأزال بكارتها . هذا ووالداها قد حزنا عليها ولم يزالا يطوفان عليها جميع الأماكن ، فلم يقعا لها على خبر فلم يزالا يبكيان . فلما جن الليل وإذا بشخص يطرق الباب فخرج أبوها وفتح الباب فقال الرجل لأبيها : إن الأمير المسمى بالفيل أخذ ابنتك وأزال بكارتها ، فلما سمع ذلك كاد يجن وكان لأحمد بن طولون مؤذن وكان قد عاهده على أنه إذا حدثت فاحشة من الفواحش يؤذن فى غير الوقت ليحضره ويستفهم منه الواقعة ، وكان المؤذن بينه وبين أبى البنت صداقة ، فجاء إليه وأخبره بخبره فصعد وأذن فسمعه أحمد بن طولون فأرسل خلفه فأخبره بالقضية فاستدعى بأبوى البنت وخبأهما فى خزانة وكان وقت مجىء الفيل للخدمة . فلما دخل على عادته قال له : نهنيك بالعروس الجديدة فقال له : ومن أين لى عروس جديدة ؟ قال : أتنكر منى وهذا أبو الجارية وأمها وأخرجهما إليه . فلما رآهما نكس رأسه خجلا من الأمراء الحاضرين فقال له أحمد بن طولون : ارفع رأسك ثم قال لأبيها : تزوج ابنتك مملوكى هذا

على صداق قدره ألف دينار مقدمة وخمسمائة دينار مؤجلة ؟ فقال : نعم فأمر بإحضار الشهود وعقد العقد بينهما ووضعوا خطوطهم ، ثم بعد انصراف الشهود أمر السياف بضرب عنق الفيل فرماه بين يديه وقطع رأسه وقال أحمد بن طولون لأبي الجارية : ابنتك ورثت زوجها وقد مكنتها مما بقى من تركته فامضوا مع السلامة فانصرفوا شاكرين لإنعامه داعين له على أفعاله . فانظر إلى هذا العدل العظيم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم

[٢٣١] ومما نقل عن بعضهم :

توق رعاك الله تسعا من البشر	فصحبتهم تفضى إلى البؤس والضرر
وهم أحول مع أعرج ثم أحدب	كذا كسوج يتلو نشاطا مع الكدر
وإياك والأنف الطويل وأصفرا	فإنهما بيت الخيانة والخطر
كذا غائر الصدغين خارج جبهة	كذا أزرق العينين فالحذر الحذر
توقاهمو تحيا سليما من الردى	وباعدهمو ياذا الفراسة والنظر

[٢٣٢] مناظرة بين إبليس اللعين وبين الملائكة المقربين :

بعد الأمر بالسجود والامتناع منه لمحض العناد والجحود قال لما نقل عنه فيما ذكر أنه قال للملائكة : أى البارى تعالى إلهى وإله الخلق قادر عالم إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون إلا أن يتوجه على مساق حكمه أسئلة فقالت الملائكة : ما هى ؟ قال سبع . الأول: قد علم قبل خلقى ما يصدر عنى ويحصل منى فلم خلقنى وما الحكمة فى خلقه إياى . الثانى : أنه خلقنى على مقتضى مشيئته وإرادته فلم كلفنى بمعرفته وإطاعته بعد أن لا ينتفع

بطاعة ولا بتضرر بمعصية فإنه الغني القادر على الإطلاق . الثالث: إنه خلقني وكلفني فالتزمت تكليفه وأطعته فلم أمرني بالسجود لأدم وأنا خير منه لأني من نار السموم وهو أعلى منزلة من الطين . الرابع : أنه خلقني وأمرني بالسجود فالتزمت تكاليفه فلم قضى على بالشقاء وحكم على بالبقاء . الخامس : قد أمرني بالسجود لأدم وهو مخلوق مثلي خرج من الجنة كما خرجت فاستنكفت أن أسجد لمن هو مثلي . السادس : ليس في أزقة السماء وجها نخل الأولى فيه ركعات وسجدات يشهد بها . السابعة : كيف يأمرني بالسجود لبشر خلقه وأنا أفضل منه لأنه خلقني من نار السموم وهي أنفع وأشرف من الطين لكثرة نفعها . أهـ .

ذلك بحروفه والله أعلم فسبحان من حكم بالشقاء على من يشاء من عبادة والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم والحمد لله رب العالمين .

كمل الكتاب تكاملت جمل السرور لصاحبه وعفى الإله بفضله وجوده عن كاتبه .

تمت

الفهارس العامة

إعداد

خالد شبل

١- فهرس الآيات

٢- فهرس أطراف الحديث

حرف الهاء

حرف "لا"

٣- فهرس الأماكن والمدن

٤ – فهرس القبائل والجماعات

الموضوع	الصفحة



[illegible] nization of the [illegible]

